قصص القرآن الكريم

علي محمد علي دخيل





قصص القرآن الكريم

دار المرتضى

طباعة، نشر، توزيع
لبنان - بيروت

ص.ب: ١٥٥ / ٢٥ الغبيري
تلفاكس: ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢
E-mail: mortada14@hotmail.com

DAR AL-MORTADA

Printing - Publishing - Distributing
Lebanon - Beirut

P.O.Box: 155/25 Ghobeiry
TeleFax: 009611840392
E-mail: mortada14@hotmail.com

Printed in Lebanon

الطبعة الأولى
١٤٢٤ هجرية
٢٠٠٣ ميلادية



قصص القرآن الكريم

علي محمد علي دخيل

دار المرتضى
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

أحسن القصص

وصف الله سبحانه وتعالى كتابه الكريم بأنّه أحسن القصص ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

ويقول سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢].

فهو أحسن القصص لأنه كلام الله تبارك وتعالى، وهو أحسن القصص لأنه قصّ علينا قصص أحسن الخلق وأفضلهم وهم الأنبياء عليهم السلام، وهو أحسن القصص لأنّ قصصه هدّافة، مليئة بالعبر والدروس الكفيلة لتغيير واقعنا السيِّئ لو أخذناها للعمل والتطبيق.

وهو أحسن القصص؛ لأن قصصه تتكرر في القرآن الكريم المرّة تلو الأخرى، ونكرّر قراءتها كل يوم، ومع ذلك نجد لها حلاوة وعذوبة لا توجد في غيرها من كلام المخلوقين.

ونسأل الله جلّ جلاله أن يهدينا للتي هي أقوم ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

ويوفقنا لأن نستلهم منها المواعظ والعبر التي تؤدّي بنا إلى طريق الجنة إن شاء الله.

قصص القرآن الكريم وأهدافها

القرآن الكريم هو معجزة نبيّنا محمد ﷺ الخالدة، والكتاب الذي تحدّى به الدنيا بأسرها ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] وهو الدستور الذي أراده الله جلّ جلاله للبشرية جمعاء ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وهو مع هذا وذاك مملوء بقصص مرّ عليها آلاف السنين.

إنّ الغاية من ذكرها أن يأخذها المسلمون للاعتبار، فالسعيد من اعتبر بغيره فنجا، فهو حينما يذكر لنا ما نزل بالأمم السالفة من عذاب الدنيا وأنّ مصيرهم في الآخرة إلى النار، يريد منّا أن نتجنب أعمالهم فنسعد في الحياة الدنيا، ثم نسعد السعادة الأبدية في الآخرة.

وأنت حفظك الله وسددك حينما تقرأ قصة من هذه القصص التي بين يديك حاول أن لا تخرج منها إلّا ومعك ما تنتفع به.

وكان الله في عون العبد ما دام العبد سالكاً الطريق الذي رسمه له القرآن الكريم، والرسول الأعظم ﷺ.

قصة آدم عليه السلام

خلق حوّاء

تردد الألسن أشياء ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، وربّما تكون تسرّبت لبعض الكتب من الملاحدة ومن الإسرائيليات التي دُسّتْ في بعض كتب الحديث والتاريخ.

ومن هذه الطّامّات: أنّ الله سبحانه وتعالى خلق حوّاء من ضلع آدم الأيسر قال زرارة: سئل أبو عبدالله عليه السلام عن خلق حوّاء وقيل له: إن أناساً عندنا يقولون: إنّ الله عزّ وجلّ خلق حواء من ضلع آدم الأيسر قال: سبحان الله وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، أيقول من يقول هذا إنّ الله تبارك وتعالى لم يكن له من القدرة ما يخلق لآدم زوجة من غير ضلعه، وجعل لمتكلّم من أهل التّشنيع سبيلًا إلى الكلام يقول: إنّ آدم كان ينكح بعضه بعضاً، إذا كانت من ضلعه، ما لهؤلاء، حكم الله بيننا وبينهم، ثم قال: إن الله تبارك وتعالى لما خلق آدم من الطين، وأمر الملائكة فسجدوا له، ألقى عليه السبات، ثم ابتدع له خلقاً ثم جعلها في موضع النقرة التي بين وركيه، وذلك لكي تكون المرأة تبعاً للرجل، فأقبلت تتحرّك فانتبه لتحرّكها، فلما انتبه نوديت: أن تنحّي عنه، فلما نظر إليها نظر إلى خلق حسن تشبه صورته غير أنّها أنثى، فكلّمها فكلمته بلغته، فقال لها: من أنت؟ .

فقالت: خلق خلقني الله كما ترى.

فقال آدم عند ذلك: يا رب ما هذا الخلق الحسن الذي قد آنسني قربه والنظر إليه؟.

فقال الله: هذه أمتي حوّاء، أفتحب أن تكون معك فتؤنسك وتحدّثك، وتأتمر لأمرك؟.

قال: نعم يا رب، ولك بذلك الحمد والشكر ما بقيت، فقال الله تبارك وتعالى: «فاخطبها إليّ فإنّها أمتي، وقد تصلح أيضاً للشهوة» وألقى الله عليه الشهوة وقد علّمه قبل ذلك المعرفة فقال: يا رب فإنّي أخطبها اليك، فما رضاك لذلك؟.

قال: رضاي أن تعلّمها معالم ديني.

فقال: ذلك لك يا رب إن شئت ذلك.

قال: قد شئت ذلك، وقد زوجتكها فضمّها إليك[١].

فتلقى آدم من ربّه كلماتٍ فتاب عليه

وصف ربنا جلّ جلاله نفسه باللطيف، والرحيم، والغفور، والودود، والرؤوف، والكريم، الحنان، إلى غير ذلك من الأسماء التي تدل على كرمه وعطفه.

فمن كرمه وعطفه علّم عباده الدعاء، ووعدهم عليه الإجابة ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

إضافة إلى هذا فقد لقّن عباده الإجابة عما يسألهم به، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الإنفطار: ٦].

قال أمين الإسلام عليه الرحمة: وإنّما قال سبحانه الكريم دون سائر أسمائه وصفاته، لأنّه كأنّه لقنه الإجابة حتّى يقول: غرّني كرم الكريم[٢].

ومن هذا الباب علّم آدم عليه السلام أن يسأله بكلمات ليتوب عليه ﴿فَتَلَقَّىٰ

---

(١) علل الشرائع: ١٨.

(٢) مجمع البيان ٩-١٠/٤٤٩.

ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] قال ابن عباس سألت النبي ﷺ عن الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه.

قال: سأله بحقّ محمد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين إلّا تُبتَ عليّ، فتاب الله عليه[١].

وهذه الكلمات جعلها الله سبحانه وتعالى السبب الأكبر لنجاة المسلمين من أهوال الدنيا والآخرة، فهو يجيب كل من تقدّم إليه متوسّلاً ومستشفعاً بهؤلاء الخمسة عليهم السلام.

وهنا يرد سؤال: من أين علم آدم عليه السلام بأسماء هؤلاء الخمسة صلوات الله وسلامه عليهم، ومنزلتهم الكريمة عند الله سبحانه وتعالى حتّى توسّل إليه بهم. نعم، فبعدما سأل الله سبحانه وتعالى بهم سأله سبحانه عن علمه بهم.

فقال: يا رب لمّا خلقتني نظرت إلى أسمائهم مكتوبة على العرش فعلمت أن لهم شأناً عظيماً عندك.

فأخبره سبحانه وتعالى بأنهم صلوات الله عليهم من ذريته، وأنهم أفضل الخلق وليس آدم عليه السلام وحده كان له علم بهم وبسموّ منزلتهم، بل جميع الأنبياء كانوا يعلمون ذلك، ويتوسّلون إلى الله جلّ جلاله بهم فيما يهمهم، ذكر أهل الآثار أن موسى عليه السلام لما اجتمع بالخضر عليه السلام تذاكرا ما يجري على الحسين عليه السلام فطال بكاؤهما.

وإلى هذا يشير الشاعر المفلق الشيخ صالح الكوّاز في رائعته:

بكاك آدم قدماً يوم توبته   وكنت نوراً بساق العرش قد سطعا

---

(١) معاني الأخبار ١٢٥.

بدء النسل

مرّ عليك في فصل (حوّاء) ما تردده الألسن من الافتراء على نبيّ الله دم عليه السلام، والمصيبة في هذا الفصل أعظم بكثير.

إنّ هؤلاء السذّج ومن ورائهم المدسوس في بعض الكتب يقولون إنّ آدم عليه السلام كان يزوّج أولاده من بناته، تلد حوّاء في كلّ مرّة ولداً وبنتاً، فكان يزوّج بعضهم من بعض.

إنّ هذا اللون من الكلام يقشعر له البدن، وهو تطاولٌ على نبيّ الله صلوات الله عليه، بل هو تطاول على الشرائع ونظام السماء، فيستحيل أن يجيز سبحانه وتعالى هذا النكاح في زمن من الأزمان، فالشرائع كلها متحدة في الخطوط العامة، في الواجبات والمحرمات، ألا تسمع القرآن الكريم يقول ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣] وأزيدك علماً أن بعض المفسرين يرى أن شهر رمضان هو الشهر الذي فرض الله جلّ جلاله صيامه على الأمم المتقدمة ولكن علماء السوء ومُحرّفي الشرائع رأوا أنّه ربما صادف مجيئه في وقت الصيف، ورغبة منهم في كسب المجتمع نقلوا الصوم إلى أيام ثابتة يكون الجوّ فيها معتدلًا.

وكذلك بقية الفرائض، فالاختلاف بيننا وبين من تقدّمنا من الأمم في مقاديرها وتفصيلاتها، أمّا أصلها فثابت في جميع الأديان.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «واعلموا أنّه لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم، ولن يسخط عليكم بشيء رضيه عمن كان قبلكم»(١) بل أكثر من هذا إنّها شريعة واحدة منذ آدم عليه السلام وحتّى محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) نهج البلاغة: ٢٦٦.

وهذا القرآن الكريم يصرّح ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران ١٩] والمعنى أنّه سبحانه وتعالى ما بعث نبياً من أنبيائه إلّا بالإسلام، والدليل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾ [الشورى: ١٣] ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨] إلى آيات كثيرة أخرى.

فهذه دعوى كاذبة على آدم عليه السلام، وجاءت الرواية عن الصادقين صلوات الله عليهم عن زواج أبناء آدم: سئل أبو عبدالله عليه السلام عن بدء النسل من آدم كيف كان، وعن بدء النسل من ذريّة آدم، فإن أناساً عندنا يقولون: إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى آدم أن يزوّج بناته ببنيه، وأنّ هذا الخلق كلّه أصله من الإخوة والأخوات؟.

فقال أبو عبدالله عليه السلام: «تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، من قال هذ بأن الله عزّ وجلّ خلق صفوة خلقه وأحبائه ورسله والمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات من حرام، ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من حلال، وقد أخذ ميثاقهم على الحلال الطهر الطاهر الطيّب. فوالله لقد بيّنت أنّ بعض البهائم تنكّرت له أخته، فلما نزى عليها ونزل كشف له عنها، فلما علم أنّها أخته أخرج عزموله ثم قبض عليه بأسنانه حتّى قطعه فخرّ ميّتاً، وآخر تنكرت له أمه، ففعل هذا بعينه، فكيف الإنسان في أنسيته وفضله

وعلمه، غير أنّ جيلًا من هذا الخلق الذين ترون رغبوا عن علم أهل بيوتات أنبيائهم، وأخذوا من حيث لم يؤمروا بأخذه فصاروا إلى ما قد ترون من الضلال والجهل بالعلم كيف كانت الأشياء الماضية من بدء أن خلق الله ما خلق وما هو كائن أبداً».

ثم قال: «ويح هؤلاء، أين هم عما لم يختلف فيه فقهاء أهل الحجاز، ولا فقهاء أهل العراق: أنّ الله عزّ وجلّ أمر القلم فجرى على اللوح المحفوظ بما هو كائن إلى يوم القيامة من قبل خلق آدم بألفي عام، وأنَّ كتب الله كلها فيما جرى فيه القلم، في كلّها تحريم الأخوات على الاخوة مع ما حرّم، وها نحن قد نرى منها هذه الكتب الأربعة المشهورة في هذا العالم: التوراة والانجيل والزبور والفرقان، أنزلها الله عن اللوح المحفوظ على رسله صلوات الله عليهم أجمعين، منها التوراة على موسى عليه السلام والزبور على داود عليه السلام، والانجيل على عيسى عليه السلام القرآن على محمد صلى الله عليه وآله وعلى النبيين عليهم السلام، وليس فيها تحليل شيء من ذلك، حقّاً أقول: ما أراد من يقول هذا وشبهه إلّا تقوية حجج المجوس، فما لهم قاتلهم الله».

ثم قال عليه السلام بعد كلام: «فوهب الله له شيثاً وحده، وليس معه ثان، واسم شيث (هبة الله) وهو أوّل من أوصى إليه من الآدميين في الأرض، ثم ولد له من بعد شيث (يافث) ليس معه ثان، فلما أدركا وأراد الله عزّ وجلّ أن يبلغ بالنّسل ما ترون، وأن يكون ما جرى به القلم من تحريم ما حرّم الله عزّ وجلّ من الأخوات على الاخوة، أنزل من بعد العصر في يوم الخميس حوراء من الجنّة اسمها (نزلة) فأمر الله عزّ وجلّ آدم أن يزوّجها من (شيث) فزوّجها منه، ثم أنزل من بعد العصر من الغد حوراء من الجنّة، اسمها (منزلة) فأمر الله تعالى آدم أن يزوّجها من (يافث) فزوّجها منه، فولد

لشيث غلام، وولدت ليافث جارية، فأمر الله عزّ وجلّ آدم حين أدركا أن يزوّج بنت (يافث) من ابن (شيث) ففعل، فولد الصفوة من النبيين والمرسلين من نسلهما، ومعاذ الله أن يكون ذلك على ما قالوا من الاخوة والأخوات»(١).

في القرآن الكريم: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨].

وهذا مشهد الآلام والحسرات والأحزان، فقد أخرجوا من الجنّة، وأنزلوا إلى دار العناء والتعب، والأعظم من هذا وقع المخالفة على النفس والشعور بالبعد عن ساحة الرحمة والقرب، وأنت لا تستطيع أن تعرف مدى التأثر الذي حصل لأبينا آدم عليه السلام إلّا بعد أن تعلم أنّه لكثرة بكائه صار في خدّيه مجريان للدموع، ولكن التدارك والندم والتوسّل جعله يعود إلى أسمى درجات المقرّبين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] وهذا تعليم للبشر، فهو معرّض لأن يكبو، وتأخذه التيارات المعاكسة لتعاليم السماء، ولكن لا عذر له أبداً في الاستمرار في المنزلق، بل المطلوب منه الخروج سريعاً والدخول في باب التوبة الذي فتحه الله جلّ جلاله لجميع عباده، وربّما يكون هذا الدخول وصولًا إلى أعلى علّيين، ومجاورة الأنبياء والصديقين.

جاء في سيرة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: أنّه مرّ ببعض شوارع بغداد وإذا بجارية ترمي فضلات مائدة، عليها ملامح الخمرة، فسألها: لمن هذه الدار؟.

فقالت: لمولاي بشر.

فقال عليه السلام: مولاك حرّ أم عبد؟.

---

(١) علل الشرائع: ٢٠.

فغضبت الجارية غضباً شديداً، وقالت: بل هو حرّ.

فقال عليه السلام: صدقت، لو كان عبداً لاتّقى مولاه.

دخلت الجارية البيت والغضب باد عليها، فسألها بشر عن السبب فحكت له القصة، وفهم مغزى كلام الإمام عليه السلام، بل عرف أنّ الشخص الذي كلمها هو الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وسألها عن الطريق الذي سلكه فأخبرته، فراح يعدو خلفه حتّى أدركه، فسلّم عليه، وتاب على يديه، ثم رجع إلى البيت، وأخرج رفقاء السوء، وطهّر الأواني، ثم أقبل على الله تعالى بالعبادة، والانقطاع إليه عزّ شأنه وأصبح في عداد المقدّسين وصار إذا لمس شيئاً ارتفعت قيمته عشرة أضعاف، لحسن اعتقاد الناس فيه، وأنّهم يجدون شفاء في طعام مَسَّتهُ يدا بشر، وفي التاريخ من هذا الشيء الكثير.

☼

١ - ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [طه: ١١٦].

إنَّ الركوع والسجود لا يكون إلّا لله وحده، وسجود الملائكة لآدم كان طاعة لله جلّ جلاله، وكذلك سجود يعقوب وأولاده ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠].

إنّ السجود كان لله تعالى شكراً له، كما يفعله الصالحون عند تجدد النعم، والهاء في قوله (له) عائدة إلى الله تعالى، أي سجدوا لله تعالى على هذه النعم[1].

---

(١) سأل يحيى بن أكثم ـ قاضي القضاة في عصر المأمون ـ الإمام علي الهادي عليه السلام العاشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام عن سجود الملائكة فقال عليه السلام: إن سجود الملائكة لآدم عليه السلام لم يكن لآدم، وإنما كان ذلك طاعة لله، ومحبّة منهم لآدم عليه السلام. تحف العقول ١١٥.

٢ - ﴿إنّ هذا عدوّ لك ولزوجك﴾.

لقد حذّره جلّ جلاله منه، وأعلمه بعداوته وكيده، كما حذّرنا نحن أولاده منه تمام الحذر ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

٣ - ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾.

لقد حذّره جلّ جلاله من أن يعمل ما يستحق به الخروج من الجنة فيُبتَلى بالسعي والعمل والكد من أجل الحصول على لقمة العيش.

يقول سعيد بن جبير: وأنزل على آدم ثوراً أحمر، فكان يحرث عليه ويرشح العرق عن جبينه، وذلك هو الشقاء.

وتنبّه أعزّك الله ورعاك أنّ أباك آدم عليه السلام وإن عانى جهد العمل ومشاق الدنيا تسعة قرون، ولكنه قد ضمن له مستقبلًا زاهراً ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢] ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٣٣] ولكن الحذر ثم الحذر أن تزل وتنحرف في هذه الدنيا فتلقى الشقاء الأبدي ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

٤ - ﴿إنّ لك ألّا تجوع فيها ولا تعرى﴾.

وهما أهم متطلبات الحياة ومن أجلهما السعي والكد، وتحمل المشاق، بل وتحمُّل المآثم ـ من بعضهم - علماً أنّ الإنسان مع اهتمامه الكثير بهما قد لا يبلغ حاجته منهما، فالكثير من الناس لا يحصل على الطعام الجيد، واللباس الذي يطمح إليه، بينما هما بعض ما أعدّ الله جلّ جلاله لأوليائه، ولم يرضَ لهم بالأدنى، بل قال جلّ جلاله ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]

٥ - ﴿فوسوس إليه الشيطان﴾.

الوسوسة: حديث النفس. والوسواس: الشيطان، ومعنى الآية: ألقى إلى قلبه بصوت خفي.

واعلم أنّ آدم عليه السلام ترك الأولى، وأنّ النهي كان نهي تنزيه لا تحريم، وأنّه كان مندوباً إلى ترك التناول من الشجرة، فهو من قبيل أن يقال لك: لا تترك صلاة الليل، ففي تركها خسران الثواب دون العقاب.

فقد كان معه صلوات الله عليه بعض الحق في ذلك، لأن الخبيث أقسم لهما بالله العظيم أنّه من الناصحين، ولم يخطر بباله أنّ أحداً يقسم بالله كاذباً ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] ومع هذا فقد لاقى ما لاقى من المحن والرزايا، لقد بكى حتّى صار في خديه مثل الأنهار لمجرى الدموع، كما كلّف بالكسب والعمل الذي مرّ عليك بعضه، وأعظم من هذا بلاءً ما رآه من قتل أحد أبنائه للآخر، وما أدري على أيّهما هو أشد جزعاً، على المظلوم القتيل، أو الظالم القاتل، فإن أشد شيء على المصلحين أن يروا أقرب الناس إليهم بعيداً عن طريق الحق والصواب.

وأنت أعزّك الله ورعاك احذر كل الحذر هذا العدو العظيم ووساوسه، لأنّك متى استجبت له خسرت الجنّة، ونعيمها، وما أعدّ الله سبحانه فيها لعباده الصالحين.

٦ - **﴿فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما﴾**.

لقد وقع المحذور، فعند تناول أوّل لقمة منها تهافت لباسهما عنهما، فأبصر كل واحد منهما سوءة (عورة) صاحبه، فاستحيا **﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾**.

أخذا يجعلان ورقةً على ورقة ليسترا سوآتهما، ثم كان الخروج من الجنة، والهبوط إلى الأرض، كل واحد منها في جانب منها، زيادة في المحنة والبلاء.

٧ - ﴿فمن اتبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى﴾.

الهدى: الرشاد والمراد بالهدى من الآية الكريمة القرآن ودين الإسلام.

يقول ابن عباس: ضمن الله تعالى لمن اتبع القرآن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وقرأ الآية[1].

إنّ سلوك الطريق الذي أمر الله جلّ جلاله بسلوكه فيه نجاة من مآسي الدنيا وصعوباتها، وبه يحصل على النعيم الجسيم في الآخرة.

☼

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨].

اقتضت حكمته جلّ جلاله أن يعمر الأرض بالخلائق، فخلق أوّلًا أباهم آدم عليه السلام بالكيفية التي ذكرتها الآية الكريمة، وأسجد له الملائكة تكرمة له وإشعاراً بأنّ البشر إذا أطاع الله جلّ جلاله تكون منزلته أرفع من الملائكة، لأنّ الملائكة لهم عقل من دون شهوة، بينما البشر يحويهما معاً، وكذلك إذا عصى تسفل منزلته عن الحيوان، لأنّ الحيوان لا يملك عقلًا، وبهذا جاءت الأحاديث.

وأهم شيء في موضوع أبينا آدم عليه السلام هو مناصبة إبليس له العداء والبغضاء حين خلقه الله تعالى، فقد أبى أن يسجد له مع الملائكة، خلافاً لما أمره به سبحانه وتعالى، والمشكلة العظمى أنّه جعل شغله الشاغل إغواء ذريّة هذا النبي العظيم.

نعود للآيات:

المراد بالبشر: هو آدم عليه السلام، سمّي بشراً لأنّه ظاهر الجلد، لا

---

(١) مجمع البحرين ١/ ٤٧٢.

يواريه شعر ولا صوف ﴿**من صلصال من حمأ مسنون**﴾ الصلصال: الطين اليابس الذي لم يطبخ، والحمأ: الطين الأسود المتغيّر. والمسنون: المصوّر ﴿**فإذا سوّيته**﴾ باتمام خلقته ﴿**ونفخت فيه من روحي**﴾ النفخ: اجراء الريح في الشيء، ولما أجرى الله سبحانه الروح في آدم على هذه الصفة كان قد نفخ الروح فيه، وإنما أضاف روح آدم إلى نفسه تكرمة له وتشريفاً ﴿**فقعوا له ساجدين**﴾ اسجدوا له ﴿**فسجد الملائكة كلهم أجمعون**﴾ فسجدوا كلهم في حالة واحدة ﴿**إلّا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين**﴾ امتنع، فلم يسجد معهم ﴿**قال يا ابليس ما لك ألّا تكون مع الساجدين**﴾ لم لا تكون مع الساجدين فتسجد كما سجدوا ﴿**قال لم أكن لأسجد**﴾ ما كنت لأسجد ﴿**لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون**﴾ لأنّي أشرف أصلًا منه، ولم يعلم أنّ التفاضل بالدين والأعمال، لا بالأصل ﴿**قال فاخرج منها**﴾ من الجنة ﴿**فإنّك رجيم**﴾ مشؤوم مطرود ملعون ﴿**وأنّ عليك اللعنة**﴾ وهي الابعاد من رحمة الله ﴿**إلى يوم الدين**﴾ إلى يوم الجزاء، وهو يوم القيامة.

ثم بيّن سبحانه ما سأله إبليس عند أياسه من الآخرة، فقال عزّ اسمه: ﴿**قال ربّ فانظرني**﴾ فامهلني وأخّرني ﴿**إلى يوم يبعثون**﴾ يحشرون للجزاء ﴿**قال فإنّك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم**﴾ الذي قدّر الله أجله فيه، وهو معلوم لله سبحانه غير معلوم لابليس، فأبهم ولم يبيّن ﴿**قال ربّ بما أغويتني**﴾ بما خيّبتني من رحمتك ﴿**لأزينن لهم في الأرض**﴾ لأزينن الباطل لهم ﴿**ولأغوينهم أجمعين**﴾ لأضلنّهم جميعاً، ثم استثنى من جملتهم فقال ﴿**إلّا عبادك منهم المخلصين**﴾ وهم الذين أخلصوا عبادتهم لله، وامتنعوا من عبادة الشيطان، وانتهوا عما نهاهم الله عنه ﴿**قال**﴾ الله جلّ جلاله ﴿**هذا صراط عليّ مستقيم**﴾ إنّه على وجه التهديد له، كما تقول

لغيرك: افعل ما شئت وطريقك عليّ، أي لا تفوتني **﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾** هذا إخبار منه تعالى بأنّ عباده الذين يطيعونه، ويتبعون أوامره لا سلطان للشيطان عليهم، ولا قدرة له أن يكرههم على المعصية، ويحملهم عليها، ولكن من يتبعه فإنما يتبعه باختياره[١].

ثم استثنى من جملة العباد من يتبع إبليس على اغوائه، وينقاد له، ويقبل منه، فقال: **﴿إلّا من اتبعك من الغاوين﴾** لأنّه إذا قبل منه صار له عليه سلطان، بعدوله عن الهدى إلى ما يدعوه إليه من اتباع الهوى **﴿وإنّ جهنّم لموعدهم أجمعين﴾** موعد إبليس ومن تبعه **﴿لها سبعة أبواب﴾** روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إنّ جهنّم لها سبعة أبواب أطباق، بعضها فوق بعض ووضع إحدى يديه على الأخرى - فقال: هكذا، وإنّ الله وضع الجنات على العرض، ووضع النيران بعضها فوق بعض، فأسفلها جهنم، وفوقها لظى وفوقها الحطمة، وفوقها شقى، وفوقها الجحيم، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية **﴿لكلّ باب منهم﴾** من الغاوين **﴿جزء مقسوم﴾** نصيب مفروض.

(١) فهو لا يتمكّن من اغوائهم في صغيرة ولا كبيرة، اعتصموا بالله تعالى منه فعصمهم، ولبسوا ثياب التقى فحجبتهم عنه، وتدرعوا بالورع عن محارم الله جلّ جلاله فرجع عنهم خائباً خاسراً، فهم وإن بدا منهم ما ينافي رضا الله تعالى بادروا بالتوبة والاستغفار، فيغفر لهم التوّاب الرحيم.



﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: ٥٦].

١ - معلمو البشر

إنَّ الأنبياء عليهم السلام هم معلمو البشر لأمور الدين والدنيا، فإدريس عليه السلام - وهو جد أعلى لنوح عليه السلام - واسمه (اخنوخ) وسمي ادريس لكثرة دراسته للكتب، فقد كان أوّل من خطّ بالقلم، وأوّل من حاك الثياب وارتداها، وكان الإنسان قبله يرتدي الجلود... وكان كذلك أوّل من عرف الطب، ونظر في النجوم، وحساب السنين والأيام[1].

ويقول ابن الأثير: وهو أوّل من نظر في علم النجوم والحساب، وحكماء اليونان يسمونه (هرمس الحكيم) وهو عظيم عندهم[2].

ويقول أبو ذر رضوان الله عليه: ما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طائراً إلّا ولنا به علم.

وقال الكسائي: إنّ يوسف هو أوّل من أظهر علم الهندسة ولم يكن الناس يعرفون ذلك، وهو أوّل من قاس النيل بمصر، ووضع له مقياساً محكماً، وهو الذي حفر الخليج المنتهي بالفيوم، ومن العجيب أنّ الخليج لا ينقطع جريانه على الدوام ولو انقطع ماء النيل عنه[3].

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٥٤٢.
(٢) الكامل في التاريخ ١/ ٥٠.
(٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ١١٦.

وهو عليه السلام أوّل من خزن القمح بسنبله، وأوّل من أظهر القراطيس، أي الورق البلدي[١].

وقال أبو لهيعة في أخبار مصر: إنّ يوسف عليه السلام هو الذي بنى مدينة الفيوم ودبّرها بالوحي عن جبرائيل، وكانت أرضها مغايض الماء، فدبّرها حتى أخرج منها الماء، وجعل بها عشرة قناطر، وعمل عليها أبواباً من الحديد، وبنى لها من جهة الشمال إلى جهة الجنوب حائطاً طوله مائتا ذراع بذراع العمل، وأحكمه ليردّ الماء إذا زاد النيل اثني عشر، وكان على خليج المنتهي عدة طواحين تدور بالماء.

وقال العزيزي: وكان انتهاء العمل منها في سبعين يوماً، فتعجّب الملك من ذلك، وركب هو ووزراؤه ورأوا ما صنعه يوسف فتعجبّوا من ذلك.

وقالوا: هذه الطواحين كانت تعمل في ألف يوم، فسميت من ذلك اليوم الفيوم، وكانت محكمة على ثلثمائة، وستين قرية، وهي على مسيرة يوم من مصر[٢].

ومن هذا ما ذكره أهل السير والتراجم من أنّ جابر بن حيان - تلميذ الإمام الصادق عليه السلام - ألف ثلاثة آلاف وتسعمائة رسالة[٣] وكلها علمية، في صناعة الكيمياء وغيرها من العلوم.

٢ - ﴿إنّه كان صدّيقاً نبيّاً﴾.

والأنبياء صلوات الله عليهم من سنخ خاص، لا يشبهون البشر في فضائلهم وأخلاقهم، فهم فوق ما يتصوّر الإنسان من الكمال.

---

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ١١٦.
(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ١١٦.
(٣) الفهرست لابن النديم: ٥١٤.

يقول حسّان بن ثابت في الرسول الأعظم ﷺ :

وأحسن منك لم تر قط عيني وأحسن منك لم تلد النساء
خلقت مبرءاً من كل عيب كأنّك قد خلقت كما تشاء

ويقول آخر:

بلغ العلى بكماله كشف الدجى بجماله
حسنت جميع خصاله صلّوا عليه وآله

وما يقال في الرسول الأعظم ﷺ يقال في جميع الأنبياء عليهم السلام ويصف جلّ جلاله عبده ادريس عليه السلام بـ (انّه كان صدّيقاً نبيّا) والصديق الذي عادته الصدق.

٣ - **﴿ورفعناه مكاناً عليّا﴾**.

كان المنتظر بالبشرية أن تقابل دعوة الأنبياء عليهم السلام بالترحيب والاستجابة والقبول، لا سيما وهم معلمون مرشدون لهم ومن دون مقابل، لا يريدون من أجرٍ على تبليغ الرسالة كما في آيةٍ أخرى **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلّا على الله﴾**.

ولكن الذي حصل هو العكس مما كان متوقّعاً، فقد جنّد الطغاة الرعاع لحربهم، فقوبلوا صلوات الله وسلامه عليهم بكل عنف وشدّة، وقد قتل الكثير منهم، وتشاء العناية الإلهية أن ينجو بعضهم من أيدي الطغاة، فالنار التي أجّجت للخليل عليه السلام كانت تكفي للقضاء على أمة، ولكن الإشاءة الإلهية **﴿يا نار كوني برداً وسلاما﴾** كذلك اقتضت حكمته جلّ جلاله أن يرفع عبده ادريس إلى السماء الرابعة كما رفع عيسى عليه السلام، فهما حيّان يعيشان في السماء.



نوح عليه السلام

أولو العزم

اعلم رعاك الله أنّ ربّك جلّ جلاله جعل أوّل خلقه نبياً حجّة على الناس ﴿**فلله الحجّة البالغة**﴾.

ثم تابع بارسال الأنبياء عليهم السلام حتى بلغوا مائة وأربعة وعشرين ألفاً منهم خمسة هم أولو العزم، وهم أفضل الأنبياء عليهم السلام.

وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم، والرواية التالية تكشف عن دورهم بالنسبة للأنبياء عليهم السلام كافة.

قال الإمام الرضا عليه السلام: إنّما سمي أولو العزم أولي العزم لأنهم كانوا أصحاب العزائم والشرائع، وذلك أنّ كلّ نبيّ كان بعد نوح عليه السلام كان على شريعته ومنهاجه، وتابعاً لكتابه، إلى زمن إبراهيم عليه السلام وكلّ نبيٍّ كان في أيّام إبراهيم وبعده كان على شريعة إبراهيم ومنهاجه، وتابعاً لكتابه، إلى زمن موسى عليه السلام، وكلّ نبيّ كان في زمن موسى عليه السلام وبعده كان على شريعة موسى ومنهاجه، وتابعاً لكتابه، إلى أيّام عيسى عليه السلام، وكلّ نبيّ في أيّام عيسى عليه السلام وبعده كان على منهاج عيسى وشريعته، وتابعاً لكتابه، إلى زمن نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله، فهؤلاء الخمسة هم أولوا العزم، وهم أفضل الأنبياء والرسل عليهم السلام، وشريعة محمد لا تنسخ إلى يوم القيامة، ولا نبيّ

بعده إلى يوم القيامة، فمن ادّعى بعد نبيّنا أو أتى بعد القرآن بكتاب فدمه مباح لكل من سمع ذلك منه(١).

دعاء الاستئصال

لقد أمهل الله جلّ جلاله قوم نوح عليه السلام مدّة طويلة لم يمهلها لأمّة قط، والعجيب أنّه لم يستجب منهم لنداء السماء طيلة هذه الفترة إلّا نفر قليل، لا يتجاوزون المائة شخص، لايزدادون واحداً؛ وكان إصرارهم على الكفر بشكل غريب، حتّى كان كل واحد منهم يثبّت الآخرين ويشجّعهم على الكفر والطغيان ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

وبعد الاعراض عن الدعوة إلى التوحيد طيلة قرون متطاولة استوجبوا من نبيّهم أن يدعو عليهم دعاء الاستئصال، ولكن الله سبحانه وتعالى حليم بعباده، ولا يعاجلهم بالعذاب.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: لما أظهر الله نبوّة نوح اشتدّت البلوى، ووثبوا إلى نوح بالضرب المبرح، حتّى مكث في بعض الأوقات مغشياً عليه ثلاثة أيام، يجري الدم من أذنه، ثم أفاق، وذلك بعد ثلثمائة سنة من مبعثه، وهو في خلال ذلك يدعوهم ليلًا ونهاراً فيهربون، ويدعوهم سرّاً فلا يجيبون، ويدعوهم علانية فيولّون، فهمّ بعد ثلاثمائة سنة بالدعاء عليهم، وجلس بعد صلاة الفجر للدعاء، فهبط إليه وفد من السماء السابعة، وهم ثلاثة أملاك، فسلّموا عليه، ثم قالوا له: يا نبيّ الله حاجتنا أن تؤخّر الدعاء على قومك، فإنّها أوّل سطوة لله عزّ وجلّ في الأرض.

قال: قد أخّرت الدعاء عليهم ثلاثمائة سنة أخرى، وعاد إليهم فصنع

---

(١) علل الشرايع: ١٢٣.

ما كان يصنع، ويفعلون ما كانوا يفعلون، حتّى إذا انقضت ثلثمائة سنة أخرى، ويئس من إيمانهم، جلس في وقت ضحى النهار للدعاء، فهبط إليه وفد من السماء السادسة، فسلّموا عليه، وسألوه مثل ما سأل الوفد الأوّل، فأجابهم بمثل ما أجاب أولئك، حتى إذا انقضت ثلاثمائة سنة، تتمة تسعمائة سنة، صلّى ودعا، فهبط جبرائيل عليه السلام فقال: إنَّ الله تبارك وتعالى قد أجاب دعوتك، وطلب منه أن يأمر قومه بأكل الثمر وغرس النوى حتى يثمر، فلما أثمر أمره الله سبحانه وتعالى أن يأمرهم أن يأكلوا من ثمره ويغرسوا نواه، ولمّا أثمر أمره الله جلّ جلاله بالأكل منه وغرس النوى، حتّى إذا أثمر أوحى إليه: قد أجيبت دعوتك فاصنع الفلك، فكان بين اجابة الدعاء والطوفان خمسون عاماً[1].

أنذر سبحانه وتعالى قوم نوح عليه السلام انذاراً محسوساً يدركه كلُّ فرد منهم، فقد حبس عنهم المطر حتّى هلكت مواشيهم، وتلفت زروعهم، كما أعقم أصلاب رجالهم، وأرحام نسائهم، فلا يولد لهم مولود، ووعدهم نوح عليه السلام أن يرفع سبحانه وتعالى عنهم البلاء إذا تابوا وأنابوا ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٢].

استمرّ عليهم هذا البلاء أربعين سنة.

روى الشيخ الصدوق عليه الرحمة عن أبي الصلت الهروي قال: سُئل الإمام الرضا عليه السلام: لأيّ علة أغرق الله عزّ وجلّ الدنيا في زمن نوح عليه السلام وفيها الأطفال، ومن لا ذنب له؟!.

فقال عليه السلام: ما كان فيهم أطفال، لأنّ الله عزّ وجلّ أعقم أصلاب

---

(١) قصص الأنبياء للجزائري: ٩٢ باختصار.

قوم نوح وأرحام نسائهم أربعين عاماً، فانقطع نسلهم، فغرقوا ولا طفل فيهم، ما كان الله ليهلك بعذابه من لا ذنب له، وأمّا الباقون من قوم نوح فأغرقوا لتكذيبهم لنبيِّ الله نوح عليه السلام [١].

وبعد هذه الفترة الطويلة، والانذارات السماوية، كانت الواقعة العظمى التي لا تشبهها واقعة، لقد اكتسحت البشرية بأسرها عدا أهل السفينة حيث أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه نوح عليه السلام بصنع السفينة ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

وحتّى صنع الفلك ـ وهي كما في التفسير: طولها ألف ومئتا ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات: طبقة للناس، وطبقة للأنعام والدواب، وطبقة للهوام والوحش[٢] - استغرق زمناً ليس بالقليل، فكانت هذه الفترة مدعاة لهم للإيمان، والرجوع إلى طريق الحقّ والصواب، ولكنّهم كانوا على النقيض من ذلك ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

كانت العلامة في مجيء الواقعة أن يفور التنّور ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

والرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إنّ نوحاً عليه السلام لما فرغ من السفينة وكان ميعاده فيما بينه وبين ربّه في إهلاك قومه أن يفور التنّور، ففار التنور في بيت امرأة، فقالت: إنّ التنور قد فار، فقام إليه فختمه، فقام الماء، وأدخل من أراد أن يدخل، وأخرج من أراد أن يخرج، ثم جاء إلى

(١) علل الشرايع: ٣٤.

(٢) مجمع البيان ٩-١٠: ١٦٠.

خاتمه فنزعه، يقول الله عزّ وجل: **﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قدر وحملناه على ذات ألواحٍ ودسر﴾**[١].

ولبث نوح عليه السلام في السفينة سبعة أيام ولياليها[٢] ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢] ثم استوت على الجودي[٣] ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] ونزل نوح عليه السلام ومن معه.

قال الإمام الرضا عليه السلام: لما هبط نوح إلى الأرض، كان نوح وولده ومن تبعه ثمانين نفساً، نزل قرية فسمّاها قرية الثمانين لأنهم كانوا ثمانين[٤].

الخصال السيئة

إنَّ من رأفة الله سبحانه وتعالى بعباده أن أنطق إبليس عليه اللعنة عن مساوىء بعض الأعمال وحذّر بني آدم منها. كان عدو الله يلتقي بالأنبياء عليهم السلام، فكانوا يسألونه عن بعض مصائده والفخاخ التي نصبها للناس، وربّما تبرّع بالنصائح، وكل هذا من لطف الله جلّ جلاله بعباده ليحذروا عدوّهم اللدود. يقصّ علينا عبدالله بن العباس رضوان الله عليه ما جرى بين نبي الله نوح عليه السلام وإبليس عليه اللعنة:

---

(١) البرهان في تفسير القرآن ٢/٢١٨.

(٢) البرهان في تفسير القرآن ٢/٢١٨.

(٣) الجودي: جبل بالموصل، شمال العراق.

(٤) البرهان في تفسير القرآن ٢/٢١٩. ولا تزال قرية من أعمال الموصل تسمى قرية الثمانين آهلةً بالسكان.

قال ابليس: فإياك و الكبر، وإيّاك والحرص، وإيّاك والحسد، فإن الكبر هو الذي حملني على أن تركت السجود لآدم فأكفرني وجعلني شيطاناً رجيماً. وإيّاك والحرص، فإنّ آدم أبيح له الجنّة، ونهي عن شجرة واحدة، فحمله الحرص على أن أكل منها، وإيّاك والحسد، فإنّ ابن آدم حسد أخاه فقتله.

فقال نوح صلوات الله عليه: متى تكون أقدر على ابن آدم؟

قال: عند الغضب[1].

فينبغي لك يا أخي أن تحذر هذه الخصال السيئة لتسعد السعادة الأبدية عند مليك مقتدر.

☼

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ. . .﴾ [يونس: ٧١].

يتعجّب البشر من الحيوانات حين يراها تأكل وتشرب والجزّار يذبح بعضها، وبعد ساعة يأتي عليها كلها، علماً أنّها لا تعقل، ولا تجد المهرب، والمفروض أن يكون العجب من البشر نفسه، فهو يشاهد آثار الأمم المعذّبة وهو يسلك سبيلهم، ويقتفي آثارهم، وهو إن نجا مما عذّبت به الأمم فهو لن ينجو من النار، وليس بينه وبينها إلّا الموت:

والموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

إنّ القرآن الكريم كرّر قصص الأنبياء عليهم السلام، وما نزل بأممهم لأجل الاعتبار والانزجار.

---

(١) قصص الأنبياء للجزائري: ٨٢.

نعود للآيات القرآنية الكريمة: ﴿**واتل عليهم نبأ نوح**﴾ خبره ﴿**إذ قال لقومه**﴾ الذين بُعث إليهم ﴿**إن كان كبر عليكم مقامي**﴾ شقّ وعظم عليكم إقامتي بين أظهركم ﴿**وتذكيري**﴾ وعظي وتنبيهي إيّاكم ﴿**بآيات الله**﴾ بحججه وبيّناته على صحة التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وبطلان ما تدينون به ﴿**فعلى الله توكّلت**﴾ إلى الله فوضت أمري، وبه وثقت أن يكفيني أمركم ﴿**فاجمعوا أمركم وشركاءكم**﴾ اعزموا على أمركم، وادعوا شركاءكم فبيّن أنّه صلوات الله وسلامه عليه لا يرتدع عن دعائهم، وعيب آلهتهم، مستعيناً بالله عليهم، واثقاً به سبحانه فإنه يعصمه منهم ﴿**ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة**﴾ غممت - الشيء: سترته والمراد: ليكن أمركم ظاهراً مكشوفاً، ولا يكون مغطّى مبهماً مستوراً ﴿**ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون**﴾ انهضوا إليّ فاقتلوني إن وجدتم إليه سبيلا، ولا تؤخروني ولا تمهلوني.

وهذا من معجزاته عليه السلام، لأنه كان وحيداً مع نفر يسير، وقد أخبر بأنهم لا يقدرون على قتله، وعلى أن ينزلوا به السّوء، لأنّ الله سبحانه ناصره وحافظه منهم ﴿**فإن تولّيتم**﴾ ولم تقبلوه، ولم تنظروا فيه ﴿**فما سألتكم من أجر**﴾ لا أطلب منكم أجراً على ما أؤدّيه إليكم من الله فيثقل ذلك عليكم ﴿**إن أجري إلّا على الله**﴾ في تبيلغ الرسالة ﴿**وأمرت أن أكون من المسلمين**﴾ أمرني الله بأن أكون من المستسلمين لأمر الله بطاعته، ثقة بأنّها خير ما يكتسبه العباد ﴿**فكذّبوه**﴾ نسبوه إلى الكذب فيما ذكره من أنه نبي الله، وأنّ الله سبحانه بعثه إليهم ليدعوهم إلى طاعته ﴿**فنجيناه ومن معه في الفلك**﴾ في السفينة ﴿**وجعلناهم خلائف**﴾ جعلنا الذين نجوا مع نوح خلفاء لمن هلك بالغرق ﴿**وأغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا**﴾ أهلكنا باقي أهل الأرض أجمع لتكذيبهم لنوح عليه السلام ﴿**فانظر**﴾ أيّها السامع ﴿**كيف كان عاقبة المنذرين**﴾ المخوّفين بالله وعذابه، والمصير الذي انتهوا إليه.

☼

﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

فالسفينة ومن فيها من المؤمنين آية وحجّة على صدق المرسلين، وأنهم رسل ربّ العالمين، يجب على الناس طاعتهم وامتثال أوامرهم، والأخذ بتعاليمهم، واعلم أنّ السفينة كانت موجودة في عهد الإسلام الأول؛ يقول قتادة: وكانت السفينة باقية حتى رآها أوائل هذه الأمة(١).

وفي عصرنا الحاضر عثر علماء الاتحاد السوفياتي على ألواح من السفينة، ترجموا ما عليها من كتابات تشد المجتمع بمحمد وأهل بيته عليهم السلام، أودعت في المتحف(٢).

ودع عنك آية السفينة، فما أكثر معالم التوحيد التي نصبها الله جلّ جلاله لعباده، تلزم الخلق جميعهم الإيمان به وبرسله، ومن أعظم هذه المعالم القرآن الكريم الذي يتحدّى العالم بأسره منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة على أن يأتوا بسورة واحدة من مثله: فعجزوا عن ذلك.

☼

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ [التحريم: ١٠].

قد يتهاون بعضنا البعض في أداء الواجبات، وربما يقفز إلى المحرّمات، متكلًا على شفاعة الأولياء، وهذا غاية الجهل، والقرآن الكريم يصرّح **﴿لا يشفعون إلّا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾**.

والمراد: أنّ هؤلاء الشفعاء من الأنبياء والأوصياء والصالحين لا يتقدّمون للشفاعة لأحد غير مرضي عند ربّ العالمين، فهناك قانون وضعه جلّ جلاله للبشرية، لا يسمح لأحد - مهما عظم شأنه - أن يتخطّاه ويتجاوزه

---

(١) مجمع البيان ٩-١٠ سورة القمر.

(٢) انظر كتاب (علي والأنبياء للحكيم السيد محمود سيلاكوتي).

والقرآن الكريم جمع بين دفتيه ما تحتاجه البشرية من تشريع ومواعظ وأمثال وقصص تشير إلى بعض المفارقات والعجائب، ليأخذ البشر العبرة والموعظة.

فهو يتحدّث في هذه الآية عن امرأتين كانتا زوجتين لنبيين عظيمين، ولكن لكفرهما برسالة السماء، قد شملها عذاب الدنيا والآخرة ولم ينتفعا من قربهما من المرسلين.

ويتحدّث أيضاً عن امرأة أخرى كان زوجها أعتى رجل على وجه الأرض، وأبعدهم عن نظام السماء، ولكن إيمانها بالله ورسله جعلها في مصاف الأولياء المقرّبين.

نعود للآيات: قوله تعالى: **﴿ضرب الله مثلًا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين﴾** أي نبيين من أنبيائنا **﴿فخانتها﴾** كانت خيانتهما أنهما كانتا كافرتين، ولا تتجاوز ذلك لأنّه لا يليق بمقام النبوّة، والله سبحانه وتعالى نزّه أنبياءه وأولياءه أن يبتلوا به **﴿فلم يغنينا عنهما من الله شيئاً﴾** لم يغن نوح ولوط مع نبوّتهما عن امرأتيهما شيئاً، ولم يدفعا عنهما عذاب الدنيا ولا عذاب الآخرة **﴿وقيل﴾** ويقال لهما يوم القيامة **﴿ادخلا النار مع الداخلين﴾** اسوة بمن يدخل النار من العصاة.

وتبدأ قصة آسية بنت مزاحم، امرأة فرعون التي آمنت بنبيِّ الله موسى عليه السلام، حينما رأت المعجزات، من العصا، والظهور على السحرة، وعلم فرعون بإيمانها فنهاها فأبت، فأمر بطرحها بالشمس، وأن تشد يديها ورجليها بأربعة أوتاد، وأن تُلقى عليها صخرة عظيمة، لم تعبأ بهذا كله، واتجهت إلى الله سبحانه قائلة **﴿قالت ربّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة﴾** استجاب الله دعاءها، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، فشاهدت وهي في العذاب ما أعدّ الله سبحانه وتعالى لها في جنات

الخلد من نعيم، ثم أمر سبحانه الملائكة أن تضلل لها من حرارة الشمس ﴿ونجّني من فرعون وعمله﴾ تريد هي دينه ﴿ونجّني من القوم الظالمين﴾ من الأمة التي التفت حول فرعون وتابعته.

ويقول مقاتل بن سليمان وهو ممن لم يكن يسير على خُطى أهل البيت عليهم السلام يقول سبحانه وتعالى لعائشة وحفصة: لا تكونا بمنزلة امرأة نوح وامرأة لوط في المعصية وكونا بمنزلة امرأة فرعون ومريم.

وصايا الصدّيق

إنّ العمر الذي تجاوز آلاف الأعوام وجلّه في النبوة والدعوة إلى الله جلّ جلاله قد تمخّض عن وصية مهمة أوصى بها أعزّ أحبائه، والقدوة من أبنائه وأنت أعزّك الله وسلّمك لو دأبت على هذه الوصيّة الخفيفة على اللسان، والثقيلة في الميزان لملأت صحفاً كثيرة بالحسنات، تكون زاداً لك في يوم فقرك وفاقتك.

روى الثعلبي أنّ نوحاً عليه السلام لمّا حضرته الوفاة دعا ساماً وهو بكره فقال: يا بني أوصيك باثنتين وأنهاك عن اثنتين، فأمّا اللذان أنهاك عنهما فالاشراك بالله، والكبر، فإنّه لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبّة من الشرك والكبر، وأمّا اللذان أوصيك بهما فإني رأيتهما يكثران الولوج إلى الله تعالى، قول لا إله إلّا الله، وسبحان الله، فإنّ قول لا إله إلا الله لو جمعت السماوات السبع والأرضون السبع لخرقتها حتّى تبلغ إلى ربّها، ولو جعلت لا إله إلّا الله في كفّة ميزان لرجحت بالسماوات السبع والأرضين السبع وما فيها، وأوصيك بسبحان الله فإنّها صلاة الخلق وبها يرزقون[1].

---

(١) عرائس المجالس قصة نوح.

هود عليه السلام

١ - ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١] في هذه السورة المباركة عرض ممتع لقصة قوم هود عليه السلام، يبدأ بالبعثة وينتهي بالدمار.

سمّاه أخاهم على طريقة العرب في الكلام، فهم يقولون: جاء أخو تميم، يريدون أنّه تميمي.

إنّ الله جلّ جلاله جعل رسله وأنبياءه من الأمم التي بعثوا إليها، لأنّ ذلك ادعى لإيمانهم واستجابتهم.

والأحقاف: رمال مستطيلة بناحية شجر، وكانت عاد بين جبال مشرفة على البحر بالشجر من بلاد اليمن.

وكانت بلاد عاد أخصب بلاد العرب، وأكثرها ريفاً وأنهاراً وجناناً[1].

٢ - ﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾.

والله جلّ جلاله تابع في إرسال رسله للناس من قبل هود ومن بعده، ويكفي أن تعلم أنّ الله سبحانه خلق آدم عليه السلام، وجعله نبياً قبل أن يخلق بشراً، اتماماً للحجّة ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

٣ - ﴿ألّا تعبدوا إلّا الله﴾.

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٢/ ٥٦٤.

وهذا مطلب الرسل الأوّل والأخير، ما أيسره من طلب، وما أعظم نفعه في الدنيا والآخرة، وما أكثر المعرضين عنه قديماً وحديثاً.

٤ - ﴿إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾.

لقد خوّفهم صلوات الله عليه بما لا مزيد عليه، ولبث فيهم عمراً ليس بالقليل، يحذّرهم غضب الجبّار، وهم يزدادون في كل يوم كفراً وعناداً، وبُعداً عن طريق الاستقامة.

٥ - ﴿قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا﴾.

إنّما جئت لتصرفنا عن أصنامنا.

انظر كيف شدّهم الشيطان إلى أصنامهم كما فعل قوم نوح عليه السلام، من قبلهم ألا تسمعهم يقولون: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

وهكذا كان تعلُّق العرب بالأصنام، فقد جعلوها فوق الكعبة المعظّمة.

٦ - ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾.

وهذا الغاية في العناد، والجرأة على الله سبحانه وتعالى، فقد طلبوا من هود عليه السلام إنزال العذاب عليهم، ويجيبهم صلوات الله وسلامه عليه **﴿قال إنما العلم عند الله﴾** فمهمة الأنبياء عليهم السلام هي الانذار والتخويف من وقوع العذاب، أما وقت نزوله بالمكذبين فهو مما اختصّ بعلمه جلّ جلاله، فهم لا يعلمون ذلك إلّا إذا أعلمهم به سبحانه وتعالى **﴿وأبلّغكم ما أرسلت به﴾** من دعوتكم إلى الاستقامة والسداد.

٧ - ﴿ولكنّي أراكم قوماً تجهلون﴾.

والجهل هو السبب الأوّل والأخير للضلال، وهو الذي أردى الأمم

والشعوب ونكبهم في الدنيا قبل الآخرة، وكذلك هو اليوم العامل الرَّئيسي الذي يهوي بالناس إلى دركات الجحيم.

٨ - ﴿فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم﴾.

العارض: سحاب يعرض في ناحية من السماء ثم يطبّق السماء لقد استبشروا كثيراً بذلك لأنّهم كانوا يعانون الجفاف، فقالوا وهم في نشوة الفرح: **﴿هذا عارضٌ ممطرنا﴾**.

٩ - ﴿بل هو ما استعجلتم به﴾.

أجابهم عليه السلام: ليس الأمر كما توهمتم، بل هو العذاب الذي طلبتم تعجيله فقد وافاكم.

ثم أخذ يصفه لهم **﴿ريح فيها عذاب أليم﴾** يقضي عليكم.

وهذا المشهد العظيم من الاكتساح الذي أنذروا به، والذي قد بدت بوادره كان بامكانهم أن ينجوا منه بالرجوع والانابة كما حصل لقوم يونس عليه السلام **﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾** [الأنعام: ٤٣].

١٠ - ﴿تدمّر كل شيء بأمر ربّها﴾.

إنّ الريح التي أهلكتهم لم يسبق للبشرية أن رأت مثلها أبداً **﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾** [الحاقّة: ٧].

جاء في وصفها: إنّها لتمر من عاد، بالظعن ما بين السماء والأرض حتّى ترى الظعينة كأنّها جرادة.

وكان هود عليه السلام قد جمع المؤمنين في حظيرة جالسين فيها مسرورين فرحين، لم يصبهم منها أذى.

١١ - ﴿فأصبحوا لا يُرى إلّا مساكنهم﴾.

لقد هلكوا جميعاً، وبقيت آثار ديارهم شاخصة لكي يعتبر بها من يأتي من بعدهم، فلا يتجاوزوا تعاليم السماء.

١٢ - ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾.

وهذا تهديد لجميع الأمم والشعوب، ولكل فرد من أفراد المجتمع.

والمراد: أنّ الدمار والعذاب الذي نزل بقوم هود عليه السلام يصيبهم أيضاً إذا خالفوا وتنكّبوا طريق الرشاد، ألا تسمع ما جاء في قصة قوم لوط عليه السلام ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٣].

والمعنى: وما تلك الحجارة من الظالمين من أمّتك يا محمد ببعيد.

١٣ - ﴿ولقد مكّناهم فيما إن مكّناكم﴾.

الآية الكريمة تشير إلى أنّ الله جلّ جلاله أعطاهم من الامكانيات الهائلة، والقدرات العظيمة، أكثر مما أعطى غيرهم من الأمم المعاصرة للرسالة الإسلامية، لقد وهبهم بسطة في الجسم، وطولًا في الأعمار، وزيادة في الأموال، ومع تلك النعم فقد أصرّوا على الكفر حتى نزل بهم العذاب.

١٤ - ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾.

الآية الكريمة تشير إلى أنّ الله جلّ جلاله وهبهم من العقول والمعارف، ما يستدلون به على الحق، وصدق النبيّ المرسل، والمراد: أنّ الحجّة قد لزمتهم ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم﴾ لأنّهم لم ينتفعوا بها، لانصرافهم عن النظر والتدبّر، وامعانهم في الكفر والضلال:

١٥ - ﴿إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾.

الجحود: هو الانكار مع العلم. والمراد: أنّ جحودهم وكفرهم غطّى على عقولهم فلم يدعهم يتبيّنوا الطريق مع وضوحه.

١٦ - **﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾**.

حاق بهم: نزل بهم. والمعنى: نزل بهم ما كانوا يسخرون به من التهديد والوعيد الذي طالما سمعوه من نبيّهم.



صالح عليه السلام

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف ٧٣].

ومن عجائب الدنيا أن يعمل الإنسان صنماً من حجارة أو حديد أو نحاس أو تمر ـ كما كانت تفعله بنو تميم وفي فصل الشتاء كانوا يأكلونه - ثم يتوجّه له بالعبادة والدعاء والتّوسل، يصلّي له، ويذبح له، ويتقرّب إليه بكل ما يتقرّب مخلوق لخالقه، والعجيب أنّ الإسفاف وصل حتى إلى الشعراء والنابهين.

إنّ العقل لا يكاد يصدّق هذا اللون من الإسفاف، وهذا الانحطاط الذي منيت به البشريّة، ولعل الإستغراب من ذلك يزول إذا علمت بأن في عصر العلم والحضارة ملايين من الهنود يقدسون البقر، متبركين بأقذارها، لم ينتفعوا بما أودع الخلّاق في هذا الحيوان من المنافع ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

وليس من تعليل لهذا الانحطاط البشري قديماً في عبادة الأصنام، وجديداً ـ كما تشاهده ـ في تقديس البقر إلّا القوى الشيطانيّة، ألا تسمعه يقول للجليل جلّ جلاله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣].

ويحكي سبحانه وتعالى قوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

وأعجب من هذا وذاك شرب الخمر، فالأديان السماوية كلّها مجمعة على تحريمه، والطب قديماً وحديثاً يعدّد الأمراض الكثيرة المتولّدة من شربه، وأنه يؤدّي بشاربه إلى مرض القلب، وتشمّع الكبد، والانهيار العصبي وإلخ.. أضف إلى ذلك سوء الطعم، وذهاب المال والعقل، ومع ذلك فالبشر عكوف على شربه بما فيهم بعض المسلمين، وكلمة الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: «شارب الخمر كعابد الوثن»[1] لأنّ كلا منهما ضيّع أعظم مواهب الله تعالى عنده وهو العقل، وأخذ يتخبّط في الجهل والانحطاط.

إنّ أعظم مشكلة واجهت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي عبادة الأصنام، ألا تسمع إبراهيم عليه السلام يقول في دعائه: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ويقول الياس عليه السلام لقومه موبّخاً ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [الصافّات: ١٢٥] ولقد عانى نبيّ الله صالح عليه السلام من عبادة قومه للأصنام أعظم العناء وأطوله، فقد لبث فيهم يدعوهم إلى عبادة الله تعالى أكثر من مائة عام وهم لا يزدادون إلّا بعداً عن الحق.

ورغم أنّ جلّ الأمم التي عُذّبت كان السبب في عذابهم هو عبادتهم للأصنام، فقد استمرّ العرب وغيرهم من الأمم على عبادة الأصنام حتّى جاء

---

(١) مجمع البيان ٥-٦/ ٢٣٩

الإسلام وللعرب ثلاثمائة وستون صنماً على ظهر الكعبة المعظمة، مضافاً إلى أصنامهم التي في غيرها، وبعد فتح مكة المكرمة أمر رسول الله ﷺ علياً عليه السلام بتكسيرها ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

المعجز الأكبر

ومن لطف الله سبحانه وتعالى بالبشر أن أرسل إليهم الأنبياء عليهم السلام، وأعطاهم المعاجز ليتبيّن الصادق من الكاذب، فتقوم الحجّة على الناس، ومن غرائب الدنيا أن تسأل الأمّة نبيّها معجزاً، ويأتي به النبي، ومع ذلك لا تؤمن، وحتّى المجتمع العربي، فقد سألوا نبيّنا محمداً ﷺ أن يأمر القمر ـ في ليلة البدر ـ أن ينشق إلى قسمين، يذهب نصفه يميناً ونصفه شمالاً، فأشار إليه ﷺ فانشق، ثم طلبوا منه أن يشير إليه فيلتئم، ففعل، ومع ذلك لم يزدادوا إلّا عتوّاً.

وقوم صالح عليه السلام طلبوا من نبيّهم معجزاً خارقاً، وهو أن يخرج لهم من الجبل ناقة حمراء شقراء وبراء عشراء، بين جنبيها ميل.

قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: إنّ رسول الله ﷺ سأل جبرائيل عليه السلام: كيف كان مهلك قوم صالح؟.

فقال: يا محمد إنّ صالحاً بُعث إلى قومه وهو ابن ست عشرة سنة، فلبث فيهم حتّى بلغ عشرين ومائة سنة لا يجيبونه إلى خير، وكان لهم سبعون صنماً يعبدونها من دون الله عزّ وجلّ، فلما رأى ذلك منهم قال: يا قوم بُعثت إليكم وأنا ابن ست عشرة سنة، وقد بلغت عشرين ومائة سنة، وأنا أعرض عليكم أمرين: إن شئتم فاسألوني حتى أسأل إلهي فيجيبكم فيما سألتموه الساعة، وإن شئتم سألت آلهتكم، فإن أجابتني بالذي أسألها خرجت عنكم. فقد سئمتكم وسئمتموني.

قالوا: قد أنصفت يا صالح فاستعدُّوا ليوم يخرجون فيه، فخرجوا بأصنامهم إلى ظهرهم[١]، ثم قرّبوا طعامهم وشَرابهم، فأكلوا وشربوا، فلما أن فرغوا دعوه فقالوا: يا صالح سل، فقال لكبيرهم: ما اسم هذا؟.

فقال صالح: يا فلان أجب، فلم يجبه.

فقال صالح: ماله لا يجيب؟.

قالوا: ادع غيره، فدعاها كلها بأسمائها فلم تجبه.

فقالوا: تنحّ عنّا ودعنا وآلهتنا ساعة؛ ثم نحوا بسطهم وفرشهم، ونحّوا ثيابهم وتمرّغوا على التراب، وطرحوا التراب على رؤوسهم وقالوا لأصنامهم: لئن لم تجبن صالحاً اليوم لتفضحن، ثم دعوه فقالوا: يا صالح ادعها، فدعاها فلم تجبه.

فقال لهم: يا قوم قد ذهب صدر النهار، ولا أرى آلهتكم تجيبني، فاسألوني حتّى أدعو إلهي فيجيبكم الساعة.

فانتدب له منهم سبعون رجلًا من كبرائهم، والمنظور إليهم منهم، فقالوا: يا صالح نحن نسألك فإن أجابك ربّك اتبعناك وأجبناك، ويبايعك جميع أهل قريتنا.

فقال لهم صالح عليه السلام: سلوني ما شئتم.

فقالوا: تقدّم بنا إلى هذا الجبل ـ وكان الجبل قريباً منهم ـ فانطلق معهم صالح، فلما انتهوا إلى الجبل قالوا: يا صالح ادع لنا ربّك يخرج لنا من هذا الجبل الساعة ناقة حمراء شقراء وبراء عشراء، بين جنبيها ميل.

فقال صالح: لقد سألتموني شيئاً عظيماً عليّ، ويهون على ربّي جلّ وعزّ، فسأل الله تعالى ذلك فانصدع الجبل صدعاً كادت تطير منه عقولهم

(١) المراد بالظهر الفضاء الذي خارج المدينة.

لمّا سمعوا ذلك، ثم اضطرب ذلك الجبل اضطراباً كالمرأة إذا أخذها المخاض، ثم لم يفجئهم إلا ورأسها قد طلع عليهم من ذلك الصدع، فلما استتمت رقبتها حتّى اجترّت، ثم خرج سائر جسدها، ثم استوت قائمة على الأرض، فلما رأوا ذلك قالوا: يا صالح ما أسرع ما أجابك ربّك، ادع لنا ربّك يخرج لنا فصيلها.

فسأل الله عزّ وجلّ ذلك فرمت به، فدبّ حولها، فقال لهم: يا قوم أبقي شيء؟.

قالوا: لا، انطلق بنا إلى قومنا نخبرهم بما رأينا ويؤمنون بك فرجعوا، فلم يبلغ السبعون إليهم حتّى ارتدّ منهم أربعة وستون رجلًا، وقالوا: سحر وكذب، فانتهوا إلى الجميع فقال الستة: حقّ، وقال الجميع: كذب وسحر، فانصرفوا على ذلك، ثم ارتاب من الستّة واحد، فكان فيمن عقرها[1].

☼

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

القرآن الكريم تحدّث عن قوم صالح عليه السلام في عدة سور، وفي سورة هود عرض واف، فبعد أن يحكي ما أصاب المكذّبين من الهلاك يذكر نجاة المؤمنين من العذاب، لقد خرج نبيّ الله صالح بالمؤمنين وهم أربعة آلاف أسكنهم في حضرموت، فتمتعوا بحياة الدنيا وما أعدّ لهم جلّ جلاله من نعيم الآخرة أعظم بكثير.

---

(١) الكافي ٨/ ١٨٦.

فالمشاهَد أنّ النجاة في الدنيا دائماً للمؤمنين، كما أنّ العذاب ـ في الدنيا أيضاً - للكافرين، فقد عذّبت الأمم الكافرة بأنواع العذاب وتحقق وعيد الأنبياء لهم، ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ولا شكّ بأن ما أخبروا به صلوات الله عليهم مما ينال المؤمنين من نعيم وجنان، ويصيب الكافرين من العذاب والهوان حاصل لهم في الآخرة.

احذر يا أخي ـ حفظك الله وسدّدك ـ المعاصي، فإنّك لا تدري متى تؤخذ بها، وتصيبك معرّتها، وقد قصّ القرآن الكريم قصص الأمم الذين أخذهم سبحانه وتعالى بمعاصيهم لتعتبر بذلك، فالسعيد من اتُعظ بغيره، والشقي من اتعظ به، وأنت لو سلمت من الأخذ بمعصيتك فإنّك لا تسلم من بعض تبعاتها. يقول الإمام الصادق عليه السلام للمفضّل بن عمر رضوان الله عليه: إيّاك والذنوب، وحذّرها شيعتنا، فوالله ما هي إلى أحد أسرع منها إليكم، إنّ أحدكم لتصيبه المعرّة من السلطان وما ذاك إلّا بذنوبه، وإنّه ليصيبه السقم وما ذاك إلّا بذنوبه، وإنّه ليحبس عنه الرزق وما هو إلّا بذنوبه، وإنّه ليشدّد عليه عند الموت وما هو إلّا بذنوبه[1].

ولو قدّر أنّك سلمت من ذلك كله فلا تسلم من نار سجّرها جبّارها لغضبه، فالحذر الحذر، وإيّاك أن تتعرّض لسخط ربّك جلّ جلاله، وليكن نصب عينيك ما حلّ بالأمم السالفة من العذاب، وفي طليعتهم قوم صالح عليه السلام.

---

(١) علل الشرائع ٢٩٧

ويحدّثنا الإمام الصادق عليه السلام عما حلّ بهم من العذاب:

قال: ثم أوحى الله تبارك وتعالى إليه: أن يا صالح قل لهم: إنّ الله قد جعل لهذه الناقة شرب يوم، ولكم شرب يوم. وكانت الناقة إذا كان يوم شربها شربت الماء ذلك اليوم فيحلبونها، فلا يبقى صغير ولا كبير إلّا شرب من لبنها يومهم ذلك، فإذا كان الليل وأصبحوا غدوا إلى مائهم، فشربوا منه ذلك اليوم، ولم تشرب الناقة ذلك اليوم، فمكثوا بذلك ما شاء الله، ثم أنّهم عتوا على الله، ومشى بعضهم إلى بعض وقالوا: اعقروا هذه الناقة واستريحوا منها، لا نرضى أن يكون لنا شرب يوم ولها شرب يوم، ثم قالوا: من الذي يلي قتلها ونجعل له جعلًا ما أحب، فجاءهم رجل أحمر أشقر أزرق، ولد زنا، لا يُعرف له أب، يقال له قدار، شقيّ من الأشقياء، مشؤوم عليهم، فجعلوا له جعلًا فلما توجّهت الناقة إلى الماء الذي كانت ترد، وتركها حتّى شربت الماء وأقبلت راجعة، فقعد لها في طريقها فضربها بالسيف ضربة فلم تعمل شيئاً، فضربها ضربة أخرى فقتلها، وخرّت إلى الأرض على جنبها، وهرب فصيلها حتّى صعد إلى الجبل، فرغا ثلاث مرات إلى السماء وهرب، فلم يبق أحد منهم إلّا شاركه في ضربته، واقتسموا لحمها فيما بينهم، فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلّا أكل منها؛ فلما رأى ذلك صالح أقبل إليهم فقال: يا قوم ما دعاكم إلى ما صنعتم؟ أعصيتم أمر ربّكم؟!.

فأوحى الله تبارك وتعالى إلى صالح عليه السلام: إنّ قومك قد طغوا وبغوا، وقتلوا ناقة بعثتها إليهم حجّة عليهم، ولم يكن عليهم فيها ضرر، وكان لهم منها أعظم المنفعة، فقل لهم: إنّي مرسل عليكم عذابي إلى ثلاثة أيّام، فإن هم تابوا ورجعوا قبلت توبتهم، وصددت عنهم، وإن هم لم يتوبوا ولم يرجعوا بعثت عليهم عذابي في اليوم الثالث.

فأتاهم صالح عليه السلام فقال لهم: يا قوم إنّي رسول ربّكم إليكم، وهو يقول لكم: إن أنتم تبتم ورجعتم واستغفرتم غفرت لكم، وتبت عليكم.

فلمّا قال لهم ذلك كانوا أعتى ما كانوا وأخبث، وقالوا: يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين.

قال: يا قوم إنّكم تصبحون غداً ووجوهكم مصفرّة، واليوم الثاني وجوهكم محمرّة، واليوم الثالث وجوهكم مسودّة؛ فلما كان أول يوم أصبحوا ووجوههم مصفرّة، فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: قد جاءكم ما قال لكم صالح.

فقال العتاة منهم: لا نسمع قول صالح، ولا نقبل قوله وإن كان عظيماً، فلما كان اليوم الثاني أصبحت وجوههم محمرّة، فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا: يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح، فقال العتاة منهم: لو أهلكنا جميعاً ما سمعنا قول صالح، ولا تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها، ولم يتوبوا ولم يرجعوا، فلما كان اليوم الثالث أصبحوا ووجوهم مسودّة، فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح فقال العتاة منهم: لا نسمع قول صالح، ولا نقبل قوله وإن كان عظيماً.

فلما كان نصف الليل أتاهم جبرائيل عليه السلام فصرخ فيهم صرخة، خرقت تلك الصرخة أسماعهم، وفلقت قلوبهم، وصدعت أكبادهم وقد كانوا في تلك الثلاثة الأيام قد تحنّطوا وتكفّنوا، وعلموا أنّ العذاب نازل بهم فماتوا أجمعين في طرفة عين، صغيرهم وكبيرهم، فلم يبق لهم ناعقة، ولا راغية ولا شيء إلّا أهلكه الله، فأصبحوا في ديارهم ومضاجعهم موتى أجمعين، ثم أرسل الله عليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقتهم أجمعين، وكانت هذه قصتهم[١].

---

(١) الكافي: ٨/ ١٨٩.

إبراهيم عليه السلام

خصال الشرف

إنَّ إبراهيم عليه السلام أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعد نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله، وهو أيضاً أبو الأنبياء عليهم السلام، فالأنبياء الذين جاؤا من بعده من ذريّته، وعلى شريعته، وهو خليل الرحمن جلّ جلاله، وسيمر عليك في هذه الصفحات اليسير من سيرته الغرّاء، نبدؤه بذكر بعض خصاله وسجاياه الحميدة التي امتاز بها عن غيره. فقد سئل عليه السلام: بم اتخذك الله خليلًا؟.

قال: بثلاث: ما خيّرت بين شيئين إلّا اخترت الَّذي لله على غيره، ولا اهتممت بما تكفّل لي به، ولا تغدّيت ولا تعشّيت إلّا مع ضيف[1]

ويقول الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: اتخذ الله عزّ وجلّ إبراهيم خليلًا لأنّه لم يردّ أحداً، ولم يسأل أحداً غير الله عزّ وجلّ[2].

وأنت أعزّك الله حاول أن تتخلّق ببعض هذه الأخلاق لتصل بها إلى شاطىء السلامة، فالحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: من كانت فيه خلّة من خلال الخير غفر الله له ما سواها[3].

---

(١) المستطرف: ١/ ١٦٥.

(٢) علل الشرايع: ٣٤.

(٣) ربيع الأبرار ١/ ٨٠٤

حنيفاً مسلماً

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] بُعث خليل الرحمن عليه السلام والبشرية بأسرها تعبد الأوثان.

قال عليه السلام: لقد كانت الدنيا وما كان فيها إلّا واحداً يعبد الله، ولو كان غيره لأضافه إليه حيث يقول: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النّحل: ١٢٠] فصبر بذلك ما شاء الله، إنّ الله تبارك وتعالى آنسه بإسماعيل وإسحاق فصاروا ثلاثة. فهو عليه السلام داعية في أرضه، ومشيّد دينه، وباني بيته العتيق، وقد سنَّ للبشرية نظماً لا تنسخ أكّدها الأنبياء الذين جاءوا من بعده، والشرائع التي أعقبت شريعته، وقد اقترن اسمه عليه السلام بالحنيفيّة حتّى أن القرآن الكريم وصفه بها: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وعن علي بن إبراهيم: ثم أنزل عليه الحنيفيّة، وهي الطهارة، وهي عشرة أشياء، خمسة في الرأس، وخمسة في البدن، فأمّا التي في الرأس: فأخذ الشارب، وإعفاء اللحى، وطمّ الشعر، والسواك، والخلال.

وأمّا التي في البدن: فحلق الشعر من البدن، والختان، وقلم

الأظفار، والغسل من الجنابة، والطهور بالماء، وهي الحنيفيّة الطاهرة التي جاء بها إبراهيم، فلم تنسخ ولن تنسخ إلى يوم القيامة(١).

☼

﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

فلو أنّ أهل الدنيا جميعاً اجتمعوا على قتلك والله سبحانه وتعالى يريد لك النجاة لما تمكّنوا أن يصلوا إليك بمكروه أبداً، وأنت سلّمك الله تسمع دائماً عن نجاة بعض الناس من أيدي الظالمين رغم ترصّدهم وسعيهم في هلاكهم، وربّما أمسكوهم وأفلتوا منهم.

وإن نسيت فلا تنس اجتماع قريش على باب رسول الله ﷺ يريدون قتله، ومبيت علي أمير المؤمنين عليه السلام على فراشه فادياً له بنفسه، وخروجه ﷺ من بينهم ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] وحدث لإبراهيم عليه السلام أعظم من كيد قريش، فقد أراد طاغية زمانه (نمرود) أن ينكّل به أعظم تنكيل، فأمر أهل مملكته بتهيئة حطب لم يُجمع لأحد قبله ولا بعده فحبسوه في بيت وجمعوا له حطباً، حتى أن كانت المرأة لتمرض فتقول: لئن عافاني الله لأجمعنّ حطباً إلى إبراهيم(٢).

ولما أُجّجت فيه النار سقطت طيور السماء التي كانت تمر بالقرب منه من شدّة وهج النار ولهبها.

---

(١) تفسير القمي ١/ ٨٦.

(٢) تاريخ الطبري: ١/ ١٦٩.

وحصلت للطاغية وزبانيته مشكلة، تتمثّل بأنه وهي كيف السبيل إلى رمي إبراهيم عليه السلام في النار؟ ومن يتمكّن من الدنو منها؟ ولكن الشياطين يوحي بعضهم إلى بعض، فقد علّمهم إبليس صناعة المنجنيق وما كانوا يعرفونه من قبل وأصعدوه فيه، وهنا تتجلّى عظمة الخليل عليه السلام، فقد جاء جبرائيل عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام وهو يوثّق ويُقمّط ليلقى في النار، قال: يا إبراهيم ألك حاجة؟.

قال: أمّا إليك فلا[١].

ثم قذفوه إليها، فهل تدري ما حدث؟.

﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾.

صارت تلك النار العظيمة التي لم يحدث لها مثيل في الدنيا لإبراهيم عليه السلام روضة غنّاء، وجبرائيل عليه السلام جالس معه يحدّثه، ورواية السيد البحراني رحمه الله: فاضطربت أسنان إبراهيم عليه السلام من البرد[٢].

وحتّى الطّاغية نفسه أخذه العجب، فقد نظر إلى مجلسه فقال: من اتخذ إلهاً فليتخذ مثل إله إبراهيم[٣].

الداعي الأكبر

إنه لا يمكن الاحاطة بأبعاد شخصية خليل الله ونبيّه إبراهيم عليه السلام، فهو في القمة من كل فضيلة، والدوحة الباسقة لمعالي الأمور.

إنّ آلاف السنين التي بيننا وبينه حجبت عنا الكثير من معالمه النيّرة،

---

(١) تاريخ الطبري ١/ ١٧٠.
(٢) البرهان في تفسير القرآن ٣/ ٦٣.
(٣) البرهان في تفسير القرآن ٣/ ٦٣.

وسننه الحميدة، ومع ذلك فقد وصل إلينا من ذلك ما إن أخذنا به سعدنا وسُعد بنا.

نعود، فنورد بعض ما جاء في سيرته ودعوته إلى الله جلّ جلاله.

١ - واستجاب لإبراهيم عليه السلام رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله به على خوف من نمرود وجنوده[١].

٢ - يتحدث الشيخ القمي عن حياته في الشام حيث أورد ما نصّه: فكان يمر به الناس فيدعوهم إلى الإسلام، وقد كان شاع خبره في الدنيا أنّ الملك ألقاه في النار فلم يحترق[٢].

٣ - وكان إبراهيم كل من يمر به يضيّفه[٣].

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

للدعوة إلى الله تعالى مراحل متعدّدة، فالمرحلة الأولى هي مرحلة اليد، أي الجهاد، وحمل السلاح في سبيل اعلاء كلمة الله تعالى، ورد عادية الكافرين، وهي أفضل المراحل.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من خرج في سبيل الله مجاهداً فله بكل خطوة سبعمائة ألف حسنة، ويُمحى عنه سبعمائة ألف سيئة، ويرفع له سبعمائة ألف درجة، وكان بضمان الله بأي حتف مات كان شهيداً، وإذا رجع مغفوراً له، مستجاباً دعاؤه[٤].

وتلي مرحلة اليد مرحلة اللسان، وهي التي طالما استعملها المصلحون في توعية الناس وارشادهم وتوجيههم نحو طريق الخير والسداد. وبعد هاتين المرحلتين، أي عند عدم التمكن من الاتيان بهما

---

(١) تاريخ الطبري ١/ ١٧١.
(٢) تفسير القمي ١/ ٣٦٢
(٣) تفسير القمي ١/ ٣٦٢.
(٤) وسائل الشيعة ١١/ ١٢

تكون مرحلة القلب، أي تألم المسلم مما يراه من أعمال الظالمين، ولا سبيل له إلى تغييرها. وإلى هذا التقسيم يشير أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: أيّها المؤمنون إنّه من رأى عدواناً يُعمل به، ومنكراً يُدعى إليه، فأنكره بقلبه فقد سلم وبرىء، ومن أنكره بلسانه فقد أجر، وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الظالمين هي السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى، وقام على الطريق، ونوّر في قلبه اليقين[١].

وهناك مرحلة أخرى هي مرحلة الاعتزال والبعد عن الظالمين، وهي تنبىء عن المقاطعة لهم، والسخط على أعمالهم، وهي مما دعا إليها الإسلام

قال أمير المؤمنين عليه السلام: أمرنا رسول الله عليه السلام أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرة[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩] قال: أما أنهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم، ولا يجلسون مجالسهم، ولكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا في وجوههم، وأنسوا بهم[٣].

سجّل القرآن الكريم هذه الفضيلة لإبراهيم عليه السلام **﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾** فقد ترك العراق ونمروده، وجاء إلى الشام يدعو إلى الله تعالى، وأفاض عليه جلّ جلاله في الشام النعم ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٩-٥٠].

---

(١) روضة الواعظين ٢/ ٣٦٥.
(٢) وسائل الشيعة: ١١/ ٤١٣.
(٣) البرهان في تفسير القرآن ١/ ٤٩٤

واعلم رعاك الله أنّ هذه المرحلة تجب أحياناً على المسلم، خصوصاً إذا علم أنّه لا يستطيع أن يعيش محافظاً على دينه في بلده، وأنّه لا بد له من مداهنة الظالمين والسير في ركابهم، ألا تسمع القرآن الكريم يذم الذين يسايرون الظالمين ولا ينكرون عليهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

لقد هاجر جمع من أصحاب رسول الله ﷺ في بدء الدعوة الإسلامية إلى الحبشة هرباً بدينهم، كما هاجروا بعدها إلى المدينة، وهذا هو الطريق الوحيد للاحتفاظ بالدين، والخلاص من الظالمين. وجاء عطاء السماء لهم ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

في الذكر الحكيم:

١ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ونمرود[١] هو أحد من ملك الدنيا شرقاً وغرباً، ودانت له العباد بالطاعة، فكان شكره للمنعم أن نازعه الربوبيّة، فكان أوّل من سنّ ذلك؛ ويجب أن تعلم بأنّ هذا الطاغية أخذه الله جلّ جلاله بأضعف خلقه، بعد أن جعله يعاني ذلّا وهواناً، فقد دخلت بعوضة في أنفه تعسّر على الأطباء

(١) في بعض المصادر نمروذ.

إخراجها، فكانت تؤلمه كثيراً، وكان الدواء الوحيد أن يُضرب بالحذاء على رأسه ليسكن الألم قليلًا، مكث دهراً على هذا ثم ارتحل إلى النار.

وأنت قد تستغرب أن يدّعي عبد ضعيف الربوبية، ويتابعه الناس على ذلك، ولكنك حينما تقرأ بعض سير هؤلاء الطغاة تجد أنّهم كانوا يتمتعون ببهلوانية، وهيمنة على النفوس؛ انظر إلى فرعون كيف يتكلم مع شعبه، فتارة يطلب من وزيره أن يبني له صرحاً ليطلع إلى موسى، وأخرى مبالغته في ذم موسى عليه السلام ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] وتأمّل كيف يستثيرهم للعدوان ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥].

وكان لنمرود شكل آخر من المغالطة، فقد سأل إبراهيم عليه السلام: من ربّك الذي تدعو إليه؟ فأجابه **﴿قال إبراهيم ربّي الذي يحيي ويميت﴾** ذكر عليه السلام هذين الأمرين لأنّهما خارجان عن قوّة البشر ومقدرته، ولكن الطاغية أجابه: **﴿قال أنا أحيي وأميت﴾** قال: أنا أحيي بالتخلية من الحبس من وجب عليه القتل، وأميت بالقتل من شئت ممن هو حيّ، انظر كيف لفّ ودار، فقد اعتمد في المعارضة على العبارة فقط دون المعنى، عادلًا عن وجه الحجّة بفعل الحياة للميّت، أو الموت للحي، على سبيل الاختراع الذي ينفرد به تعالى، ولا يقدر عليه سواه.

٢ - **﴿قال إبراهيم فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾** أراد عليه السلام أن يفهم ذلك المجتمع الغبي بخداع نمرود، وأنه عاجز، ولو كان قادراً ـ كما يقول ـ على الاحياء والإماتة لتمكّن أن يأتي بالشمس من المغرب، ولم يعسر عليه ذلك.

٣ - **﴿فبهت الذي كفر﴾**.

لقد فشل في هذا الحوار فشلًا ذريعاً، ولم يخف على الناس، وتحيّر

بما وضح من ظهور الحجّة، وكان المفروض أن يستيقظ المغفلون الذين هيمن عليهم نمرود زمناً طويلًا، ويسلكوا طريق النجاة، ولكن المشكلة هي مرض النفوس الذي هو أعظم أثراً، وأشد خطراً من الطواغيت، ألا تسمعه جلّ جلاله يقول عن قوم فرعون ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢]

☼

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ٨٣].

وبعد أن انتهت الآيات التي حكت قصة نوح عليه السلام انتقلت إلى إبراهيم عليه السلام، ومعنى الآية: إن إبراهيم عليه السلام كان على منهاج نوح عليه السلام وسنّته كما أنّ الأنبياء الذين جاءوا من بعد إبراهيم عليه السلام كانوا على نهجه في الحنيفيّة والإسلام، والواقع أن الأنبياء صلوات الله عليهم بعثوا جميعاً بالإسلام، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] فالألف واللام التي في الدين يسمّيها النحاة أداة حصر، والمعنى: لا دين عند الله سبحانه وتعالى غير دين الإسلام.

استمع إلى كلمات الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى حاكياً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقول يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وقول سليمان عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢].

وقول الحواريين لعيسى عليه السلام: **﴿آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون﴾** وغير هذا كثير في القرآن الكريم.

٢ - **﴿إذ جاء ربّه بقلب سليم﴾**.

من الشرك والشكّ؛ وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: هو القلب إذا سلم من حب الدنيا، ويؤيّده قول النبي صلى الله عليه وآله: حب الدنيا رأس كل خطيئة.

وموضوع سلامة القلب أهم ما يفتقر إليه البشر اليوم، فهو أعظم معين لمعالي الأمور، وسدّ مانع عن المعاصي، وحاجز مهم عن التعرّض للآخرين بسوء؛ بسلامة القلب يسود الاخاء بين المجتمع، وتنعدم دوافع الشر والاعتداء.

٣ - **﴿إذا قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون﴾**.

وهنا تتبيّن عظمة الخليل عليه السلام، فالشعب والحكومة قد تطابقوا على عبادة الأصنام، وحتّى أقرب الناس منه صلوات الله عليه، ومع هذا كله تراه لم يفزع لهذا الاجماع، بل بادرهم جميعاً بالانكار عليهم، وتهجين ما كانوا يعبدون، لم يعبأ بكثرتهم، ولم يخش صولتهم، بل تابع الانكار عليهم **﴿أألفكا آلهة دون الله تريدون﴾** الافك: هو أشنع الكذب وأفظعه، والمراد: أتريدون عبادة إله غير ربّ العالمين؟.

٤ - **﴿فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون﴾**.

فلما رآهم لم يستجيبوا لنداء الحق، سلك معهم طريقاً آخر، فقد جاء إلى أصنامهم وخاطبها ليريهم أنّ من لا يفهم الكلام، ولا يقدر على الجواب لا يستحق العبادة، ثم أقبل عليها بالضرب.

٥ - **﴿فأقبلوا إليه يزفّون﴾**.

لقد علموا ما فعله بأصنامهم فأسرعوا إليه وبدأوا معه التحقيق **﴿أأنت فعلت هذا يا إبراهيم﴾** ويجيبهم **﴿أتعبدون ما تنحتون﴾**.

وهذا غاية العجب، أن يعمل الإنسان صنماً من حجارة ونحوها، ثم يدّعي أنّه ربّه الذي خلقه، يعبده ويتوسّل إليه في قضاء مهماته، إنّه مظهر عظيم من مظاهر الاسفاف وانحطاط العقل البشري، والنزول إلى مستوى متدنٍ في الفكر.

٦ - **﴿قالوا ابنوا له بنياناً﴾**.

ولما عجزوا عن الجواب لجأوا إلى منطق القوّة لقد بنوا له حائطاً من حجارة، ارتفاعه ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً، وملؤوه ناراً ثم ألقوه فيها **﴿فألقوه في الجحيم﴾**.

٧ - **﴿فأرادوا به كيداً﴾**.

حيلة وتدبيراً في هلاكه واحراقه بالنار.

إنّه لم يحدث في تاريخ البشرية الطويل مثل هذا التدبير الخطير، والتخطيط الدقيق، واجماع الشعب والحكومة على قتل رجل أعزل.

كان المفروض أن لا يبقى له صلوات الله عليه أي أثر، ولكن شاء الله سبحانه وتعالى له النجاة ولا رادّ لاشاءته.

ومضافاً إلى نجاته صلوات الله وسلامه عليه من نارهم فقد أهلك الله أعداءه، فقطب أهل الكفر نمرود أرسل عليه بعوضة، دخلت أنفه، وعجز الأطباء من اخراجها، كما أهلك الآخرين، بدليل قوله **﴿فجعلناهم الأسفلين﴾**.

٨ - **﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾**.

ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة في حياة الخليل عليه السلام، أرسى فيها معالم التوحيد وأشاد فيها صروح الإيمان، ودعائم الإسلام، ومنار الرشاد.

والمراد من الآية الكريمة: إنّي تارك ديار الكفر، ومنتقل إلى الأرض المقدّسة التي أمرني ربي بالذهاب إليها.

٩ - **﴿ربّ هب لي من الصالحين﴾**.

إذا تأملت دعاء إبراهيم انكشف لك جانب من عظمة الخليل عليه السلام، وأنت أعزّك الله يجب أن تتعلم وتأخذ من هذا الدعاء درساً، فهو يشتهي الولد، ولكنه طلب أن يكون الولد صالحاً، لأنّه لو لم يكن صالحاً كان عدم وجوده أفضل بكثير من وجوده.

استجاب الله دعاءه **﴿فبشرناه بغلام حليم﴾** الحليم: الذي لا يعجل في الأمر قبل وقته مع القدرة عليه.

والمراد: أنه مضافاً إلى إيمانه وصلاحه اتصافه بصفات الكمال ومزايا الشرف، تمهيداً للمقام الرفيع الذي أعدّه الله جلّ جلاله له.

١٠ - **﴿فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أنّي أذبحك﴾** وهذا من أعظم الابتلاء، ولا يقوى عليه أحد إلّا الأنبياء والأوصياء عليهم السلام.

نحن في الوقت الذي نقرأ الآية الكريمة لا نحيط بأبعاد الموضوع، بينما هو أمر في غاية الصعوبة، ويستحيل أن يقدر عليه من هو دون هذه المرتبة.

تأمّل حال إبراهيم عليه السلام، فهو شيخ كبير، ولم ير الولد إلّا بعد إياس وشيخوخة، ثم جاء الولد كأحسن ما يكون من الولدان، هدياً وإيماناً وجمالًا، فهب أنه أمر بذلك ويصبر على هذا الامتحان العسير، ولكن ما حال الولد إذا قاده أبوه للذبح؟ أو بالأحرى ما حال أمّه وهي ترى وحيدها وأملها بعد أن بلغ ثلاث عشرة سنة مذبوحاً مخضّباً بدمائه؟.

عندما تتأمل هذا وغيره تدرك عظمة الخليل عليه السلام، أو بالأحرى أن تتعلم منه ـ ولو قليلًا ـ درساً في امتثال أوامر مولاك الحكيم، علماً أنّه لم يكلّفك بذبح ولدك، بل كلّفك قليلًا يسيراً يعود نفعه عليك فبخلت به.

١١ - ﴿قال يا أبت افعل ما تؤمر﴾.

ربّما وأنت تقرأ الآية الكريمة يزداد بك العجب، فهب أنّ إبراهيم عليه السلام ـ وهو أبو المرسلين وعظيمهم ـ امتثل أمراً إلهيّاً عسيراً، فطالما وطّن الرسل أنفسهم على المشاق، وتحمّلوا العناء الكثير، ولكنّ الأمر الأعجب هو استجابة غلام في مقتبل العمر لهذا الامتحان الصعب.

لقد كان بامكانه التفلّت من ذلك بعدّة طرق، وربّما كان بعضها مسموحاً، وهو أن يطلب من أبيه مراجعة المولى جلّ جلاله في اعفائه من ذلك، لكنّه صلوات الله عليه لم يقبل إلّا بالأفضل وإن كان عسيراً وشاقاً، وهذا وغيره ما يؤيّد أنّ الأنبياء عليهم السلام من سنخ خاص، لا يشابههم أحد من الخلق، ملئوا إيماناً وتقوى وفضيلة.

لقد طلب إسماعيل من أبيه عليه السلام أنه يمتثل ما أمر به، ووعده بالصبر **﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾**.

١٢ - ﴿فلما أسلما وتلّه للجبين﴾.

أخذه عليه السلام للذبح، وجاءت ساعة الصفر، وإسماعيل يقول لأبيه: يا أبت أقلبني على وجهي حتى لا ترى وجهي فترقّ عليّ، يا أبت حد الشفرة، يا أبت أوثقني كتافاً.

وإبراهيم عليه السلام يقول له: نعم العون أنت يا ولدي على طاعة الله؛ ومعنى قوله **﴿فلما أسلما﴾** استسلما وامتثلا ما أمرا به **﴿وتلّه للجبين﴾** وضع جبينه على الأرض كي لا يرى وجهه ـ كما طلب ولده منه ذلك ـ خشية من أن تأخذه رقّة الآباء؛ لقد وضع السكين على رقبته ولكنّها لم تعمل، بل

انقلبت في يده، وصار جانب الذبح الأعلى، والغليظ الذي لا يذبح على رقبته. واستغرب عليه السلام ذلك، فأعادها ولكنها انقلبت ثانية.

١٣ - **﴿وناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا﴾**.

لقد اكتفى جلّ جلاله من عبديه بالامتثال والتصميم، دون التنفيذ، فقد نزل جبرائيل عليه السلام في اللحظة الأخيرة، وبلّغه بأنّ الله سبحانه وتعالى قد أعفاهما من ذلك، مع أنه ادخر لهما الثواب العظيم الذي أشارت إليه الآية الكريمة **﴿إنّا كذلك نجزي المحسنين﴾**.

ومعنى الآية: إنّا كما جزيناه بالعفو عن ذبح ابنه نجزي من سلك طريقهما في الاحسان بالاستسلام والانقياد لأمر الله تعالى، فقد أجزل لهما العطاء في الدنيا مع ما أعدّ لهما في الآخرة من المقامات المحمودة، والمنازل الرفيعة.

١٤ - **﴿إنّ هذا لهو البلاء المبين﴾**.

لقد ثمّن الله جلّ جلاله موقف عبديه، وشكر لهما امتثالهما واستجابتهما لهذا الأمر الشاق، والاختبار الشديد.

١٥ - **﴿وفديناه بذبحٍ عظيم﴾**.

فحينما نزل جبرائيل عليه السلام بالأمر الإلهي بايقاف الذبح، كان معه كبش أمره أن يذبحه فداء عن ابنه.

والفداء: جعل الشيء مكان الشيء لدفع الضرر عنه.

وإنّما سمّاه عظيماً لأنّه كان مقبولاً، ولأنه كان فداء عبد عظيم.

١٦ - **﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾**.

لم تنته مواهب الله جلّ جلاله لعبده إبراهيم عليه السلام عند هذا الحد، بل انّ الله سبحانه وتعالى أفاض عليه النعم، وغمره بالكرامات، فمن ذلك **﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾**.

ومعناه: أبقينا عليه ذكراً جميلاً، وأثنينا عليه في أمّة محمد ﷺ، ويكفي في هذا التثمين إنّ الله جلّ جلاله ذكره في القرآن الكريم بغاية الاكبار والاجلال في تسع وستين آية، كما ذكر إسماعيل عليه السلام بمنتهى التبجيل والاعظام في اثنتي عشرة آية.

١٧ - ﴿كذلك نجزي المحسنين﴾.

والله جلّ جلاله من صفاته العدل، فلا فرق عنده بين عبد وآخر إلّا بالتقوى، فهو لا يجزل العطاء لعبد، ويحرم آخرين.

لقد أكد سبحانه وتعالى في هذه الآية بأنّه كما جزى إبراهيم عليه السلام وعوّضه عن مواقفه النبيلة، وشكر له مساعيه الكريمة كذلك هو يجزي جميع المحسنين والعاملين بطاعته، الممتثلين لأوامره؛ وتكفي الجنة عطاءاً ونعيماً ومقرّاً دائماً للمحسنين.

١٨ - ﴿وبشّرناه باسحاق نبيّاً من الصالحين﴾.

إنَّ إبراهيم عليه السلام وإن رزق ولداً كريماً نبيّاً إلّا أنه بقي في نفسه شيء، أو بالأحرى في نفسه زوجته الأولى، وابنة خالته سارة، وهي أوّل من آمن به، وتحمّلت من أجل ذلك المشاق، فقد هاجرت معه تاركة وطنها وذويها، لقد شكر الله جلّ جلاله مواقفها المحمودة، فوهب لها ولداً نبيّاً بعد أن تخطّت سن الانجاب بخمسين عاماً لتسر بذلك، ويكون اعجازاً جديداً للنبوّة.

☼

﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩].

المقصود بها الكتب المنزلة عليهما من السماء، وفيها تعاليم الله جلّ جلاله لعباده. إنّ القرون السالفة أضاعت هذه الآثار السماويّة، كما أنّها

تعرّضت لجبّارين أمعنوا في اتلافها، ومجرمين زوّروا بعض الحقائق التي فيها، وبقي منها بقيّة جاء الحديث عنها عن طريق الصادقين صلوات الله وسلامه عليهم.

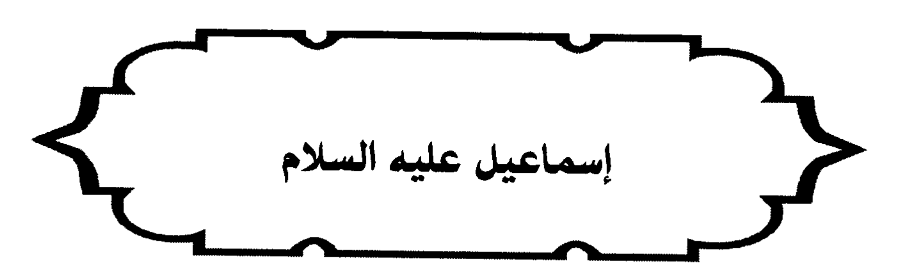
فعن أبي ذر رضوان الله عليه قال: قلت: يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب؟ قال: مائة كتاب وأربعة كتب؛ أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى ادريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشرين صحيفة، وأنزل التوراة والانجيل والزبور والفرقان.

قلت: يا رسول الله فما كانت صحف إبراهيم؟.

قال: كانت أمثال كلها، وكان فيها: أيّها الملك المغرور إنّي لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض، ولكنّي بعثتك لتردّ عنّي دعوة المظلوم، فإنّي لا أردّها وإن كانت من كافر؛ وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربّه عزّ وجلّ وساعة يحاسب نفسه، وساعة يتفكّر فيما صنع الله عزّ وجلّ إليه، وساعة يخلو فيها بحظ نفسه من الحلال، فإنّ هذه الساعة عون لتلك الساعات، واستجمام للقلوب، وتوزيع لها؛ وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلًا على شأنه، حافظاً للسانه، فإنّ من حسب كلامه من عمله قلّ كلامه إلّا فيما يعنيه؛ وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث: مرمّة لمعاش، أو تزوّد لمعاد، أو تلذذ في غير محرّم[1].



(١) الخصال: ٥٢٥.



إسماعيل عليه السلام

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

الأم الزاكية

فضّل الله جلّ جلاله الأنبياء والأوصياء عليهم السلام بفضائل كثيرة، منها: طهارة الآباء، وعفاف الأمهات، بل إن آباءهم وأمهاتهم كانوا مثلًا أعلى في النبل والفضيلة، وقد مرّ عليك بعض ذلك؛ وفي هذه الصفحات قصّة وقعت لهاجر أم إسماعيل عليه السلام يتجلّى لك أنّها كانت على جانب عظيم من الإيمان بالله تعالى، والتصديق بنبيّه صلوات الله وسلامه عليه، والامتثال لأوامر الله تعالى، فقد ذكر المفسّرون وأهل السير والآثار أنّ إبراهيم عليه السلام لما جاء بهاجر وإسماعيل إلى مكة المكرمة وهي يومئذٍ أرض جرداء مقفرة، لا ماء فيها ولا نبات، وكانت خالية من البشر، بل وحتى من الطير وغيره.

ورواية الطبري: فجاء بها إبراهيم ومعها إسماعيل حتى انتهى بهما إلى موضع البيت فوضعها ثم رجع، فاتبعته فقالت: إلى أي شيء تكلنا، إلى طعام، إلى شراب تكلنا؟.

فجعل لا يرد عليها شيئاً.

فقالت: الله أمرك بهذا؟.

قال: نعم.

قالت: إذاً لا يضيّعنا، فرجعت ومضى، حتى إذا استوى على ثنيّة كداء أقبل على الوادي وقال: (**ربّنا إنّي أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم**)(١).

☼

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠].

وهذه قصّة مليئة بالعبر والمواعظ، جديرة بأن يدرسها المسلم ويتأمّل ما جاء فيها من كنوز المعارف.

تبدأ القصة بسيرة إبراهيم عليه السلام مع قومه، وتكسيره لأصنامهم، ونجاته من نار عظيمة قذفوه فيها.

ثم تتحدث الآيات عن رحلة له ﴿**إنّي ذاهب إلى ربي**﴾ أي إلى حيث أمرني ربّي، يريد أرض الشام.

امتدّ بنبيّ الله العمر إلى حدود المائة عام ولم يرزق الولد، وسمعت زوجته (سارة) دعوته ﴿**ربّ هب لي من الصالحين**﴾ أي ولداً صالحاً، فوهبته جاريتها (هاجر) مؤمّلة أن يستجيب الله جلّ جلاله دعاءه، وفعلا تحقق الأمل ﴿**فبشرناه بغلام حليم**﴾.

والحليم: الذي لا يعاجل بالعقوبة، وفسّر الشيخ الطريحي الحلم: بالعقل والتؤدة، وضبط النفس عن هيجان الغضب.

وبعد أن جاء الولد (إسماعيل) تغيّر موقف (سارة) تماماً، وصارت تطلب من إبراهيم عليه السلام أن يبعدها وابنها عنها

---

(١) تاريخ الطبري: ١/١٧٩.

والله سبحانه وتعالى يشكر لسارة إيمانها بالله وبرسوله، وما عانته في هجرتها من مشاق، كما أنّ هناك مصالح خفيّة، كبناء الكعبة المعظمة، وانشاء أجيال من المؤمنين عندها، لهذا وغيره أمره سبحانه وتعالى أن يخرج بـ (هاجر) وابنها، وأرسل إليه جبرائيل عليه السلام يدلّه على المكان الذي يسكنهم فيه.

خرج عليه السلام بهما، ويمر على رياض زاهية، وأنهار جارية، ويسأل جبرائيل: هل وصلنا؟ ويجيبه بالنفي، وبعد أن تجاوز ذلك وصل إلى أرض صحراء، لا نبت فيها ولا شجر، ولا ماء ولا بشر، قال جبرائيل: هذا هو المكان؛ ترك عليه السلام وحيده وزوجته هناك واتجه راجعاً، وسألته الحرّة: إلى من تكلنا.

قال: إلى الله.

فقالت: حسبي الله ونعم الوكيل.

وبعد وقت قصير نفد الماء، وبلغ العطش بالطفل مبلغاً عظيماً، وكانت تنظر في البيداء يمنة ويسرة لعلّها تجد ماءً، وتراءى لها السراب جهة الصفا ماءً فقصدته ولكن لم تجد شيئاً، ثم تراءى لها جهة المروة فقصدته، ولكن لم تجد شيئاً، وهكذا بقيت تسعى بين الصفا والمروة، وحانت منها التفاتة إلى وليدها الذي تركته بين الموت والحياة، وإذا بعين ماء قد نبعت عنده، فهو يشرب، ويلعب.

كانت هذه البداية انطلاقة لخير عميم، لقد شاهدت (جرهم) الطيور غادية ورائحة، خلافاً للعادة، فعلموا أنّ سرّاً هناك، فبحثوا وإذا بالمرأة والطفل والماء يفيض من حولهم، فسألوها عن شأنها، فقالت: أنا زوجة خليل الرحمن، وهذا ابنه، واستأذنوها في السكن بجوارها، قالت: حتى أسأل نبيّ الله ـ وكان عليه السلام يزورهم بين الآونة والأُخرى ـ فسألته فأذن

بذلك، فسكنوا، وأهدوا لإسماعيل عليه السلام بعض أغنامهم فصار عنده قطيع صغير منها.

وبعد أن نشأ الطفل أمر الله جلّ جلاله نبيّه إبراهيم عليه السلام ببناء الكعبة المعظمة ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

هذا ما أجمع عليه أهل السير والتاريخ.

وتمضي الآيات القرآنية الشريفة إلى ذكر أمر عظيم لا يقوى عليه والد ولا ولد، ولكنّها النبوّة وصبرها **﴿فلما بلغ معه السعي﴾** بلغ إلى أن يتصرّف ويمشي معه، ويعينه على أموره ـ وكان ابن ثلاث عشرة سنة ـ **﴿قال يا بنيّ إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ماذا ترى﴾**.

قال له: إنّي أبصرت في المنام رؤيا تأويلها الأمر بذبحك، فانظر أيّ شيء ترى من الرأي؟.

ومن الآية الكريمة يتبيّن أنّ الله جلّ جلاله أوحى إليه أن يمتثل ما يراه في المنام ويعمل به.

ويجيب إسماعيل عليه السلام أباه: **﴿قال يا أبت افعل ما تؤمر﴾** نفّذ ما أمرت به **﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾** ستصادفني بمشيئة الله وحسن توفيقه ممن يصبر على الشدائد في جنب الله، ويسلّم لأمره **﴿فلما أسلما﴾** استسلما لأمر الله سبحانه وتعالى، ورضيا به، وأطاعاه **﴿وتلّه للجبين﴾** وضع جبينه على الأرض لئلا يرى وجهه، فتلحقه رقّة الآباء **﴿وناديناه ان يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا﴾** فعلت ما أمرت به من الرؤيا **﴿إنّا كذلك نجزي المحسنين﴾** كما جزيناه بالعفو عن ذبح ابنه نجزي بالاحسان من سلك طريقهما في الاستسلام، والانقياد لأمر الله تعالى **﴿إنّ هذا لهو**

البلاء المبين﴾ إنّ هذا لهو الامتحان الظاهر، والاختبار الشديد **﴿وفديناه بذبح عظيم﴾**.

الفداء: جعل الشيء مكان الشيء لدفع الضرر عنه، فبعد أن وضع عليه السلام السكين على رقبة ابنه انقلبت في يده، صار جانب الذبح الأعلى، والغليظ الذي لا يذبح على رقبته، واستغرب عليه السلام ذلك، فأعادها، ولكنها انقلبت ثانية، وعندها نزل جبرائيل عليه السلام ومعه كبش أمره بذبحه بدلًا من ابنه **﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾** أبقينا له ذكر جميلًا، فمن ذلك: أنّ جميع أهل الأديان يتولونه صلوات الله وسلامه عليه، ويجلّونه غاية الاجلال.

زمزم

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩]

سقاية الحاج ولك أن تقول: كرامة الصابرين.

إنّها بضع ساعات عاناها الوليد الصغير وأمّه من العطش، أعقبها خلود مدى الحياة.

إنّ اسم (زمزم) قرن بإسماعيل وهاجر عليهما السلام، بل هي موهبة الله جلّ جلاله لهما.

إنّ الصبر على الطاعة، وامتثال أوامر الله جلّ جلاله يعقبه الثناء في الدنيا والنعيم في الآخرة ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

أعلام الهداة

تحدّثت كتب السير والآثار عن محاولة شيطانيّة، مع آل إبراهيم عليهم السلام، وذلك عند امتثالهم أمر الله جلّ جلاله بالذبح.

قالوا: لما رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أن يذبح ابنه، قال الشيطان: والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم وإلّا لم أفتن أحداً منهم أبداً؛ فمثل لهم الشيطان رجلًا، فأتى أمّ الغلام فقال لها: أتدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟.

قالت: ذهب به ليحتطب من هذا الشعب.

فقال: لا والله، ما ذهب به إلّا ليذبحه.

قالت: كلا، هو أرحم به منّي، وأشد حبّاً له من ذلك.

فقال لها: إنّه يزعم أنّ الله أمره بذلك.

فقالت له: إن كان أمره بذلك فقد أحسن في امتثال طاعة ربّه، وفي استسلامه لأمر الله تعالى.

فخرج الشيطان من عندها هارباً حتّى أدرك الابن وهو يمشي على أثر أبيه.

فقال له: يا غلام هل تدري أين يذهب بك أبوك؟.

قال: نحتطب لأهلنا من هذا الشعب.

قال: لا والله، ما يريد إلّا ذبحك.

قال: ولِمَ؟.

قال: يزعم أنّ الله أمره بذلك.

قال له: فليفعل ما أمره الله به، سمعاً وطاعة لأمر الله تعالى؛ فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم فقال له: أين تريد أيّها الشيخ؟.

قال: أريد هذا الشعب لحاجة لي.

فقال: والله إنّي لأرى الشيطان قد جاءك في منامك يأمرك بذبح ابنك هذا.

فعرفه إبراهيم، فقال: إليك عنّي يا ملعون، فوالله لأمضين لأمر ربّي، فرجع إبليس لعنه الله بغيظه، لم يصب من إبراهيم وأهله شيئاً مما أراد، وقد امتنعوا منه بعون الله وتأييده[١].

وأنت حفظك الله وسلّمك من الشيطان، تأمّل جيّداً عدوّك الأكبر، وكيف يحاول أن يمكر بأطهر بيت على وجه الأرض آنذاك، ولم يردعه عنهم علمه بقربهم من المولى جلّ شأنه، ومنزلتهم السامية عنده، فقد جاءهم بكل ثقله ومقدوراته.

إذا تأملت ذلك يتضح لك أنّه أقدر على أن يأتيك ويخدعك، ويحيدك عن الصراط المستقيم، فتحصّن منه بحصن منيع، ألا وهو الاعتصام بالله جلّ جلاله، والتمسك بكتابه، فإنّهما سبيلا النجاة من المهاوي والهلكات، وتأمّل وانظر إلى آل إبراهيم عليهم السلام لما امتثلوا أوامر الله جلّ جلاله، حصلوا على المنازل الرفيعة في الدنيا وهي النبوّة ـ وأكرم بها منزلة ـ وحتّى أعفاهم عما أمرهم به من مشاق، وما أعدّ لهم في الآخرة من نعيم لا يحيط بكنهه الفكر.

وهو جلّ جلاله يحميك في الدنيا من الهلكات، ويعطيك في الآخرة الدرجات الرفيعة عندما تمثل أمره، وتتبع تعاليمه.

الذبيح

إنَّ المسلم ينظر إلى الأنبياء عليهم السلام كلّهم نظرة اكبار واجلال لا يفرّق بينهم، بهذا أدبّنا القرآن الكريم ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

---

(١) مجمع البحرين: ٦/ ٤٩.

(٢) عرائس المجالس: ٩٤.

وفي الوقت نفسه لا يجحد فضيلة لنبيّ ولا ينسبها لغيره، فدينه يأبى عليه أن يقول: إبراهيم كليم الله، وموسى كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى.

هذه سيرة المسلم، ولكن بعضهم ينظر إلى الأنبياء نظرة فيها بعض الازدراء، وحتّى توراتهم فيها ما فيها مما يتنافى وقدسية الأنبياء عليهم السلام، كالذي جاء عن لوط عليه السلام، جلّ أنبياء الله ورسله عن ذلك.

ومن هذا التزوير والتلبيس أن نسبوا فضيلة الذبح لإسحاق عليه السلام، بغياً منهم وعناداً، في حين أن الذبح كان بمكة المكرمة، ولم ير اسحاق عليه السلام مكة، بل انّ مسألة الذبح كانت قبل ولادته؛ ومعنا كتاب الله جلّ جلاله، فهو بعد أن ذكر قصة الذبح بتمامها قال: ﴿**وبشّرناه باسحاق نبيّاً من الصالحين**﴾.

قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح اسحاق أم إسماعيل؟.

فقال: يا أصمعي أين ذهب عنك عقلك؟! ومتى كان اسحاق بمكة، وإنّما كان بمكّة إسماعيل، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والمنحر بمكّة لا شكّ فيه(١).



(١) مجمع البيان: ٧ - ٨/ ٣٢٣.



لوط عليه السلام

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

تمهيد

إن نبي الله لوطاً عليه السلام ابن خالة إبراهيم عليه السلام، وأخو زوجته سارة، وهو أوّل من آمن بالله ورسوله، وهاجر معه ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وإبراهيم عليه السلام هو الذي أرسله إلى المدن التي أهلكت بالعذاب، يدعوهم إلى طاعة الله تعالى، وفعلًا استجابوا لنداء السماء، ولكن الشيطان جاءهم من الطريق ـ الملتوي، فكانت النهاية المخزية، وخسران الدنيا والآخرة ألا ذلك هو الخسران المبين.

البخل

جاء الإسلام داعياً إلى مكارم الأخلاق، وترك مساويها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النّحل: ٩٠].

يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

وكان صلى الله عليه وآله يثمّن الأخلاق الكريمة وإن كانت لدى كافر؛ فقد روي

أنّ أسارى جيء بهم إلى رسول الله ﷺ، فأمر أمير المؤمنين عليه السلام بضرب أعناقهم، ثم أمره بافراد واحد منهم وأن لا يقتله.

فقال الرجل: لِمَ أفردتني من أصحابي والجناية واحدة؟!.

فقال: إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إليّ أنّك سخيّ قومك، وأن لا أقتلك، فقال الرجل: فإني أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسوله[1].

ويقول ﷺ لعدي بن حاتم: إنّ الله دفع عن أبيك العذاب الشديد لسخاء نفسه[2].

وكما أنّ السخاء من أفضل الصفات وأعلاها مرتبة، فإنّ البخل من أسوأ الصفات وأرذلها، فهو يدعو إلى العقوق، وقطع الرحم، والشح على العيال، بل وحتى على النفس، وحبس الحقوق المفروضة من قبل الله جلّ جلاله على العباد، إلى غير ذلك من مساوىء الأخلاق.

سأل أبو بصير الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام: كان رسول الله ﷺ يتعوّذ من البخل؟.

قال: نعم يا أبا محمد، في كل صباح ومساء، ونحن نتعوّذ بالله من البخل، إنّ الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] وسأخبرك عن عاقبة البخل.

إنّ قوم لوط كانوا أهل قرية أشحّاء على الطعام، فأعقبهم البخل داءً لا دواء له في فروجهم.

فقلت: وما أعقبهم؟.

قال: إنّ قرية لوط كانت على طريق السيّارة إلى الشام ومصر،

---

(١) الاختصاص: ٢٤٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٤٦.

فكانت السيّارة تنزل بهم فيضيّفونهم، فلما كثر ذلك عليهم ضاقوا بذلك ذرعاً، بخلًا ولؤماً، ودعاهم البخل إلى أن كان إذا نزل بهم الضيف أتوهم في أدبارهم، من غير شهوة بهم إلى ذلك بالضيف حتّى ينكل النازل عنهم، فشاع أمرهم في القرية، وحذرهم النازلة، فأورثهم البخل داءً لا يستطيعون رفعه، من غير شهوة لهم إلى ذلك، حتى صاروا يطلبونه من الرجال في البلاد، ويعطونهم عليه الجعل.

ثم قال عليه السلام: فأي داء أدوى من البخل، ولا أضرّ عاقبة، ولا أفحش عند الله عزّ وجلّ.

قال أبو بصير: فقلت له: جعلت فداك فهل كان أهل قرية لوط كلهم هكذا؟ فقال: نعم، إلّا أهل بيت من المسلمين، ثم قال: أما تسمع لقوله تعالى: ﴿**فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدناه فيها غير بيت من المسلمين**﴾.

ثم قال عليه السلام: إنّ لوطاً لبث في قومه ثلاثين سنة يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ ويحذّرهم عذابه، وكانوا لا يتنظّفون من الغائط، ولا يتطهّرون من الجنابة[1].

الاستقامة

القرآن الكريم يُشيد بمن سلك طريق الاستقامة عبر الحياة، ولازمها حتّى الممات، دون أن يأخذ يميناً أو شمالًا ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ

(١) تفسير البرهان: ٤/ ٢٣٣.

تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣] ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [الشورى: ١٥] واعلم رعاك الله أن ليس المقصود من هذه الآيات الأنبياء عليهم السلام، فهم معصومون من كل ذنب، منزّهون من كلّ قبيح، وإنّما المراد استقامة الناس، فالقرآن الكريم ـ كما يقول المفسّرون نزل بإياك أعني واسمعي يا جارة.

والمسلم معرّض للسقوط في المنزلق، لنفس امارة تدعوه للسوء، وشيطان مريد يترصّده، ولكن المطلوب منه أن يخرج سريعاً، ويغسل ما علق به من أوساخ بماء التوبة، ليعود في صفوف أهل الاستقامة، وقد يسبقهم، لأنّ التائب من الذنب كمن لا ذنب له ـ الحديث، وربّك سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

والحديث عن قوم لوط عليه السلام واستقامتهم أوّلًا، ثم كبوتهم ثانياً، بلا عودة إلى توبة واستغفار.

روى ثقة الإسلام الكليني طاب ثراه عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: كان قوم لوط من أفضل قوم خلقهم الله، فطلبهم إبليس الطلب الشديد، وكان من فضلهم وخيرتهم أنّهم إذا خرجوا إلى العمل خرجوا بأجمعهم، وتبقى النساء خلفهم، فلم يزل إبليس يعتادهم، فكانوا إذا رجعوا خرّب إبليس ما يعملون، فقال بعضهم لبعض: تعالوا نرصد هذا الذي يخرّب متاعنا، فرصدوه فإذا هو غلام أحسن ما يكون من الغلمان، فقالوا له: أنت الذي تخرّب متاعنا مرّة بعد مرّة؟ فاجتمع رأيهم على أن يقتلوه، فبيّتوه عند رجل، فلمّا كان الليل صاح، فقال له: مالك؟ فقال: كان أبي ينوّمني على بطنه، فقال له: قم فنم على بطني، فلم يزل يدلك

الرجل حتّى علمه أنّه يفعل بنفسه، ثم انسلّ ففرّ منهم، وأصبحوا، فجعل الرجل يخبر بما فعل بالغلام، ويعجبهم منه، وهم لا يعرفونه، فوضعوا أيديهم فيه حتى اكتفى الرجال بالرجال بعضهم ببعض، ثم جعلوا يرصدون مارّة الطريق فيفعلون بهم، حتّى تنكّب مدينتهم الناس، ثم تركوا نساءهم وأقبلوا على الغلمان[1].

الإصرار

إنّ أصحاب يونس عليه السلام لما رأوا امارات العذاب ندموا وتابوا، فتاب الله عليهم، ورفع عنهم العذاب، بينما نجد قوم صالح عليه السلام وقد أعلمهم نبيّهم بنزول العذاب بهم بعد ثلاثة أيام، وأنهم يصبحون ووجوهم مصفرة وفي اليوم الثاني محمرة، وفي الثالث مسودة، وفعلًا أصبحوا كذلك فزادهم ذلك طغياناً وكفراً، حتى كان بعضهم يمشي إلى بعض يطلب منه عدم الاستجابة لداعي السماء.

وقوم لوط عليه السلام كانوا على هذا الغرار من الكفر والعناد، والاصرار على المعصية، فهم بعدما هجموا على بيت لوط، وأشار إليهم جبرائيل عليه السلام بيده فرجعوا عمياناً يلتمسون الجدار بأيديهم ومع هذا كله كانوا يقولون: لئن أصبحنا لا نستبقي أحداً من آل لوط[2].

بينما كان المفروض أن يكون ذلك ردعاً وندماً وتوبة، وتوسّلا بنبيّهم في أن يسأل الله سبحانه وتعالى في كشف ما نزل بهم.

وأنت يا أخي حفظك الله وسدّدك ينبغي أن تلتفت إلى نفسك دائماً وتحاسبها، وتتوب من كل ذنب صغيراً كان أو كبيراً، ولا تبقى مصرّاً على ذنب، فالموت يأتي بغتة، فاسبقه بالتوبة.

---

(١) الكافي: ٥/ ٥٤٥.
(٢) البرهان: ٤/ ٢٣

هلاك قوم لوط

قال الإمام الصادق عليه السلام : إنّ الله تعالى بعث أربعة أملاك في اهلاك قوم لوط: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وكروبيل، عليهم السلام ، فمرّوا بإبراهيم عليه السلام وهم معتّمون، فسلّموا عليه فلم يعرفهم، ورأى هيئة حسنة، فقال: لا يخدم هؤلاء إلّا أنا بنفسي ـ وكان صاحب أضياف ـ فشوى لهم عجلًا سميناً حتّى أنضجه، ثمّ قرّبه إليهم، فلما وضعه بين أيديهم رأى أيديهم لا تصل إليه، نكرهم، وأوجس منهم خيفة، فلما رأى ذلك جبرائيل عليه السلام حسر العمامة عن وجهه وعن رأسه، فعرفه إبراهيم عليه السلام ، فقال: أنت هو؟.

فقال: نعم، ومرّت (سارة) فبشّروها باسحاق، ومن وراء اسحاق يعقوب، فقالت: ما قال الله عزّ وجلّ، فأجابوها بما في الكتاب العزيز.

فقال إبراهيم عليه السلام : في ماذا جئتم؟.

قالوا: في إهلاك قوم لوط.

فقال لهم: إن كان فيها مائة من المؤمنين تهلكونهم؟.

فقال جبرائيل: لا.

قال: فإن كانوا خمسين؟.

قال: لا.

قال: فإن كانوا ثلاثين؟.

قال: لا.

قال: فإن كانوا عشرين؟.

قال: لا.

قال: فإن كانوا عشرة؟

قال: لا.

قال: فإن كانوا خمسة؟.

قال: لا.

قال: فإن كانوا واحداً؟.

قال: لا.

قال: إنّ فيها لوطاً.

قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجينّه وأهله إلّا امرأته كانت من الغابرين؛ ثم مضوا وأتوا لوطاً وهو في زراعة له قرب المدينة، فسلّموا عليه وهم معتمّون، فلما رآهم رأى هيئة حسنة، عليهم عمائم بيض، وثياب بيض، فقال لهم: المنزل.

فقالوا: نعم.

فتقدّمهم ومشوا خلفه، فندم على عرضه عليهم المنزل، وقال: أي شيء صنعت آتي بهم قومي وأنا أعرفهم، فالتفت إليهم فقال: إنكم تأتون شرار خلق الله.

وقد قال جبرائيل عليه السلام: لا نعجل عليهم حتى يشهد ثلاث شهادات، فقال جبرائيل عليه السلام: هذه واحدة، ثم مشى ساعة ثمّ التفت إليهم فقال: إنّكم تأتون شرار خلق الله.

فقال جبرائيل عليه السلام: هذه اثنتان، ثم مضى فلما بلغ باب المدينة التفت إليهم فقال: إنّكم تأتون شرار خلق الله.

فقال جبرائيل عليه السلام: هذه ثالثة، ثم دخل ودخلوا معه، فلما رأتهم امرأته رأت هيئة حسنة، فصعدت فوق السطح وصفّقت فلم يسمعوا، فدخّنت، فلّما رأوا الدخان أقبلوا يهرعون إلى الباب، فنزلت إليهم فقالت:

عنده قوم ما رأيت قط أحسن منهم هيئة، فجاؤوا إلى الباب ليدخلوها، فلما رآهم لوط قام إليهم فقال: يا قوم اتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد. هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم، فدعاهم إلى الحلال.

فقالوا: قد علمت ما لنا في بناتك من حقٍّ وإنّك لتعلم ما نريد.

فقال: لو أنّ لي بكم قوّة أو آوي إلى ركن شديد.

فقال جبرائيل عليه السلام: لو يعلم أيّ قوّة له؛ فكاثروه حتّى دخلوا البيت، فصاح بهم جبرائيل: يا لوط دعهم يدخلون، فلما دخلوا أهوى جبرائيل بأصبعه نحوهم فذهبت أعينهم وهو قوله: ﴿**فطمسنا أعينهم**﴾ ثم نادى جبرائيل فقال: ﴿**إنّا رسل ربّك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل**﴾.

وقال جبرائيل: إنّا بعثنا في اهلاكهم.

فقال: يا جبرائيل عجّل عليهم.

فقال: ﴿**إنّ موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب**﴾.

فأمره فتحمّل ومن معه إلّا امرأته، ثم اقتلعها جبرائيل بجناحيه من سبع أرضين ثم رفعها، حتى سمع أهل سماء الدنيا نباح كلابها، وصياح الديكة، ثم قلبها، وأمطر عليها وعلى من حول المدينة حجارة من سجيل[١].

ومن حديث لجبرائيل عليه السلام مع النبيّ صلى الله عليه وآله في إهلاك قوم لوط عليه السلام قال: نوديت من تلقاء العرش لما طلع الفجر: يا جبرائيل حقّ القول من الله بحتم عذاب قوم لوط، فاهبط إلى قرية قوم لوط وما حوت فاقلعها من تحت سبع أرضين، ثم اعرج بها إلى السماء فأوقفها حتّى يأتيك أمر

(١) الكافي: ٨/ ٢٣٠.

الجبّار في قلبها، ودع منها آية بيّنة من منزل قوم لوط عبرة للسيارة؛ فهبطت على أهل القرية الظالمين، فضربت بجناحي الأيمن على ما حوى عليه شرقيّها، وضربت بجناحي الأيسر على ما حوى عليه غربيّها، فاقتلعتها يا محمد من تحت سبع أرضين، إلّا منزل لوط آية للسيارة، ثم عرجت بها في خوافي جناحيّ حتى أوقفتها حيث تسمع أهل السماء وقاء ديوكها، ونباح كلابها، فلما طلعت الشمس نوديت من تلقاء العرش: يا جبرائيل أقلب القرية على القوم، فقلبتها عليهم حتّى صار أسفلها أعلاها، وأمطر الله عليهم حجارة من سجيل مسوّمة عند ربّك، وما هي يا محمد من الظالمين من أمّتك ببعيد.

فقال رسول الله ﷺ: أرأيتك حين قلبتها في أي موضع من الأرضين وقعت القرية وأهلها؟.

فقال: يا محمد وقعت فيما بين بحر الشام إلى مصر، فصارت تلولًا في البحر[١].

ومن حديث لجبرائيل عليه السلام مع النبيّ ﷺ: فإنّي بعثت إلى مدائن لوط، وهي أربع مدائن، في كل مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذراري، فحملتهم من الأرض السفلى حتّى سمع أهل السماوات أصوات الدجاج، ونباح الكلاب، ثم هويت بهم فقلبتهن[٢].

عقوبة اللواط

حارب الإسلام هذه الجريمة بشدّة حتّى قال الإمام الصادق عليه السلام: حرمة الدبر أعظم من حرمة الفرج، وإنّ الله تعالى أهلك أمة بحرمة الدبر، ولم يهلك أحداً بحرمة الفرج.

---

(١) البرهان: ٤/ ٢٣٤.
(٢) مجمع البيان: ٥/ ٤٤٦.

وجعل عقوبة الفاعل والمفعول به إحدى أمور خمسة: القتل، الرجم، الرمي من مكان مرتفع، أن يوضعا تحت بناء ويهدم عليهما، الاحراق بالنار، والظاهر أن الاحراق لم يرد في الشريعة الإسلامية إلا في هذه الجريمة.

والقرآن الكريم ذكر قصّة قوم لوط في إحدى عشرة سورة بتفصيل، كما تعرّض لها في مواضع أخرى، استهجاناً لها، وتقبيحاً لفعلها، وتحذيراً للمسلمين منها.

نذكر بعض ما ورد عن الصادقين صلوات الله عليهم فيها:

١ - قال رسول الله ﷺ: من جامع غلاماً جاء يوم القيامة جنباً، لا ينقّيه ماء الدنيا، وغضب الله عليه، ولعنه، وأعدّ له جهنم وساءت مصيراً.

ثم قال عليه السلام: إنّ الذكر يركب الذكر فيهتز العرش لذلك، وإنّ الرجل ليؤتى في حقبة قحبه الله على جسر جهنم حتّى يفرغ الله من حساب الخلائق، ثم يؤمر به إلى جهنم فيعذّب بطبقاتها طبقة طبقة إلى أسفلها، ولا يخرج منها[١].

٢ - وقال أمير المؤمنين عليه السلام: هو ذنب لم يعص الله به إلّا أمّة من الأمم، فصنع بها ما ذكره في كتابه من رجمهم بالحجارة[٢].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: اللواط ما دون الدبر، والدبر هو الكفر[٣].

٣ - ومن حديث الملك مع النبيّ ﷺ: وأمّا التل الأسود الذي رأيت عليه قوماً مخبّلين، تنفخ النار في أدبارهم فتخرج من أفواههم

(١) فروع الكافي: ٢/ ٧٠.
(٢) جواهر الكلام: ٦/ ٥١٣.
(٣) عقاب الأعمال: ٢٦٦.

ومناخرهم وأعينهم وآذانهم، فأولئك يعملون عمل قوم لوط، الفاعل والمفعول به، فهم يعذّبون حتى يصيروا إلى النار[١].

٤ - وقال الإمام الصادق عليه السلام: ما من عبد يخرج من الدنيا يستحل عمل قوم لوط إلّا رماه الله بحجر من تلك الأحجار ليكون فيه منيّته، ولكن الخلائق لا يرونه[٢].

٥ - وعن ميمون اللبان قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام، فقرأ عليه آيات من سورة هود، فلما بلغ ﴿**وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسوّمة عند ربّك وما هي من الظالمين ببعيد**﴾ فقال عليه السلام: من مات مصرّاً على اللواط لم يمت حتّى يرميه الله بحجر من تلك الأحجار، تكون فيه منيّته ولا يراه أحد.

في العرض القرآني المجيد

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

اتضح لك مما مرّ تخبّط أمّة في الضلال، وعدم استجابتهم لتعاليم السماء، وما نزل بهم من البلاء العظيم، علماً أنّ ما أعدّ الله جلّ جلاله لهم من العذاب أعظم من ذلك بكثير، ويأتي الآن العرض القرآني المجيد، فالقرآن الكريم ذكر لوطاً عليه السلام في سبع وعشرين آية، وفصّل الحديث عن أمّته في احدى عشرة سورة.

واعلم رعاك الله وسدّدك أنّ الشيطان يجيد طرق الغواية والضلال، ويعرف من أين تؤكل الكتف، فيأتي كلا بما يروق له، ويأنس به، فإن كان

---

(١) تاريخ الشام: ١٧/٦.
(٢) قصص الأنبياء: ١٥٨.

العبد حبّه وولعه بالمال جاء عن طريقه، وشجّعه على الربا وغيره من المحرّمات، وإن كانت رغبته بالجنس حبّذ له الزنا، والشذوذ الجنسي، والأعظم من هذا أنّه يتدرّج مع الشخص، فقد يأتيه في أمر صغير لكنّه يؤدّي به أخيراً إلى أعظم الكبائر، كما حصل ذلك لقوم لوط عليه السلام فقد حبّذ لهم الخبيث البخل الذي أدّى بهم إلى ما أدّى من ذهاب دنياهم وآخرتهم، لهذا وغيره فينبغي للمسلم أن يتفقّد نفسه دائماً، لأنّ الأمور الصغيرة نواة للأمور العظام، كما عليه أن يبالغ في الحذر من عدوّه اللدود الذي يحاول بكل السبل هلاكه، وأن يستعين بالله جلّ جلاله عليه.

نعود للآية الكريمة: ﴿**ولوطاً إذا قال لقومه أتأتون الفاحشة**﴾ السيئة العظيمة القبح، وهي اتيان الرجال في أدبارهم ﴿**ما سبقكم بها من أحد من العالمين**﴾ ما نزا ذكر على ذكر قبل قوم لوط؛ ثم بيّن تلك الفاحشة ﴿**إنّكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء**﴾ تأتون الرجال في أدبارهم اشتهاءً منكم، وتتركون اتيان النساء اللاتي أباحها الله لكم ﴿**بل أنتم قوم مسرفون**﴾ متجاوزون الحدّ في الظلم والفساد، ومستوفون جميع المعائب ﴿**وما كان جواب قومه**﴾ لم يجيبوا عمّا قال ﴿**إلّا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم**﴾ قابلوا النصح والوعظ بالسفاهة، فقالوا: أخرجوا لوطاً ومن آمن به من بلدتكم ﴿**إنّهم أناس يتطهّرون**﴾ يتنزهون عن أفعالكم وطرائقكم ﴿**فأنجيناه**﴾ فخلّصنا لوطاً من الهلاك ﴿**وأهله**﴾ المختصين به ﴿**إلّا امرأته كانت من الغابرين**﴾ من الباقين في عذاب الله ﴿**وأمطرنا عليهم مطراً**﴾ أرسلنا عليهم الحجارة كالمطر، كما قال في آية أخرى ﴿**وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل**﴾ ﴿**فانظر كيف كان عاقبة المجرمين**﴾ تفكّر وانظر بعين العقل كيف كان مآل المقترفين للسيئات، و المنقطعين إليها، وعاقبة فعلهم من عذاب الدنيا بالاستئصال، ثم الخلود في النار.

☼

﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

يقول أهل التفسير في هذه الآية الكريمة: وما تلك الحجارة من الظالمين العاملين عمل قوم لوط من أمّتك ببعيد.

ونكتفي في المقام برواية واحدة ذكرها أهل الآثار:

رفع إلى عمر أنّ عبداً قتل مولاه، فأمر بقتله، فدعاه علي عليه السلام فقال له: قتلت مولاك؟.

قال: نعم.

قال: ولِمَ؟.

قال: غلبني على نفسي، وأتاني في ذاتي

فقال عليه السلام لأولياء المقتول: أدفنتم صاحبكم؟.

قالوا: نعم.

قال: ومتى دفنتموه؟.

قالوا: الساعة.

فقال عليه السلام لعمر: أحبس الغلام، ولا تحدث فيه حدثاً حتّى تمر عليك ثلاثة أيام، ثم قال لأولياء المقتول: إذا مضت ثلاثة أيام أحضرونا.

فلما مضت ثلاثة أيام حضروا، فأخذ علي بيد عمر وخرجوا حتى وقفوا على قبر الرجل، فقال علي عليه السلام لأوليائه: هذا قبر صاحبكم؟.

قالوا: نعم.

قال: احفروا حتى انتهوا إلى اللحد، فقال: اخرجوا ميّتكم؛ فنظروا إلى أكفانه في اللحد فلم يجدوه، فأخبروه بذلك.

فقال عليه السلام: الله أكبر، ما كذبت ولا كُذِّبْت، سمعت

رسول الله ﷺ يقول: من يعمل من أمتي عمل قوم لوط، ثم يموت على ذلك فهو يؤجّل إلى أن يوضع في لحده، فإذا وضع فيه لم يمكث أكثر من ثلاث حتّى تقذفه الأرض إلى جملة قوم لوط المهلكين، فيحشر معهم[1]

☼

١ - ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤].

في هذه السورة المباركة استعراض الأمم التي مسّها العذاب، ونالها جزاء ما كسبت من الآثام والمعاصي؛ فبعد عرض مفصّل عن قوم صالح عليه السلام جاء حديث قوم لوط عليه السلام؛ والمراد بالفاحشة: الخصلة القبيحة، الشنيعة القبح، وهي اتيان الذكران في أدبارهم **﴿وأنتم تبصرون﴾** تعلمون أنها فاحشة.

والبشرية لم تعرف هذه الخصلة القبيحة قبل قوم لوط، وإنّما بدأها الشيطان بهم، وكم له من مبتكرات سيئة وخصال رديئة لقّنها لأقوام آخرين.

والمشكلة أنّ الخبيث يجيد الخدعة، ويعرف من أين تؤكل الكتف، والطرق التي يأتي بها كل فريق، فالطريق الذي يخدع به الرجل غير الطريق الذي يخدع به المرأة، والطريق الذي يأتي به الغني غير الطريق الذي يأتي به الفقير، وهكذا، علماً ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

١ - ﴿أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾

---

(١) لئالىء الأخبار: ٥٨٩.

اللاتي خلقهن الله لكم **﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾** تفعلون أفعال الجهال قال ابن عباس: تجهلون القيامة وعاقبة العصيان.

وقد تعني الآية الكريمة: تجهلون الأمراض التي تتولّد عند الطرفين من هذه الخصلة القبيحة؛ إنّ مشكلة (الأيدز) المتولّدة من اللواط تشغل فكر العالم الأوروبي بأسره، والعلماء منذ الستينيات يبحثون عن علاج فلم يصلوا حتى هذه الساعة.

ويحدثنا الدكتور صادق عبد الرضا علي عن بعض هذه الأمراض:

١ - سلس الغائط وعدم السيطرة على عملية التغوط بصورة طبيعية.

٢ - التهاب المستقيم والقولون الحاد المزمن.

٣ - الاصابة بمرض السيلان.

٤ - الاصابة بمرض السفلس.

٥ - الاصابة بمرض الأيدز.

٦ - الاصابة بالأمراض الفطرية.

٧ - الاصابة بالتشققات الشرجية والبواسير.

٨ - الاصابة بالحمى الراسخة.

٩ - الاصابة بالدويبات الشعرية.

١٠ - الاصابة بالقرحة الرخوة.

١١ - الاصابة بالورم الحبيبي الليمفاوي المغبني الزهري.

١٢ - الاصابة بالمرض الحبيبي الأربي.

١٣ - الاصابة بالبرود الجنسي والعنّة.

١٤ - الاصابة بالديدان المعوية المختلفة.

١٥ - الاصابة بطفيلي الجيارديا.

١٦ - الاصابة بالتهاب الكبد الحاد والمزمن.

١٧ - الاصابة بالأمراض الجلدية المختلفة.

١٨ - الاصابة بالأمراض العضوية الأخرى... كالتهاب المعدة الحاد والمزمن أو الاصابة بمرض السل، أو الربو القصيبي، كما أنّ الاصابة بأمراض السكّر وضغط الدم والسرطان في تلك الشريحة الشاذة[١].

فهم والعياذ بالله باؤوا بالخسران المبين دنيا وآخرة، وهكذا جميع المتجاوزين خط الشريعة، والنهج الذي أمروا بالسير عليه.



(١) القرآن والطب الحديث: ٣١٧.

النبي يعقوب عليه السلام

الشكوى

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

العبد مأمور باظهار النعم التي أنعم بها الله سبحانه وتعالى عليه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] وأيضاً هو مأمور بعدم اظهار البلاء والمكروه الذي يعانيه، وكتمانه عن الناس، وعدم الشكوى منه إلّا إلى الله سبحانه وتعالى.

يقول الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام لولده الإمام الصادق عليه السلام: يا بني من كتم بلاءً ابتلى به من الناس، وشكا إلى الله عزّ وجلّ، كان حقّاً على الله أن يعافيه من ذلك.

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «كتمان المصيبة من كنوز البر»[١].

ومضافاً إلى الأجر الذي يحصل عليه في الكتمان ففي الشكوى مضار دنيويّة كثيرة، منها: إنّ الذي تشكو إليه يستاء لحديثك، هو لا يخلو من كونه محبّاً أو مبغضاً، فالمحب يتألم لذلك ويدخله حزن، وكان الأجدر بك أن لا تفعل ذلك مع محبّك، والمبغض يشمت ويفرح وأنت لا تريد له ذلك، وأكثر من هذا، فبالشكوى يسقط مقام الإنسان في المجتمع، وتهبط

(١) مشكاة الأنوار: ٢٧٨.

معنوياته، فأنت ـ مثلًا ـ لو أكثرت الشكوى من الفقر لا تجد من يقرضك أو يشاركك أو يتعامل معك، ولعلّ النهي الوارد في الأخبار عن ترك الشكوى لهذا اللحاظ، فالله سبحانه وتعالى يريد العزّة لعباده ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وجاءت الرواية في سيرة يعقوب عليه السلام عن جابر قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ما الصبر الجميل؟.

قال: ذلك صبر ليس فيه شكوى إلى أحد من الناس؛ إنّ إبراهيم بعث يعقوب إلى راهب من الرهبان، عابد من العبّاد في حاجة، فلما رآه الراهب حسبه إبراهيم، فوثب إليه فاعتنقه ثم قال: مرحباً بخليل الرحمن فقال له يعقوب: إنّي لست بخليل الرحمن، ولكنّي يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم.

فقال الراهب: فما الذي بلغ منك ما أرى من الكبر؟.

قال: الهم والحزن والسقم.

قال: فما جاز عتبة الباب حتّى أوحى الله إليه: يا يعقوب شكوتني إلى العباد؟!.

فخرّ ساجداً عند عتبة الباب يقول: ربّي لا أعود فأوحى الله إليه: إنّي قد غفرت لك فلا تعد إلى مثلها.

فما شكا شيئاً مما أصابه من نوائب الدنيا، إلّا أنّه قال يوماً **﴿إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله واعلم من الله ما لا تعلمون﴾**[1].

---

(١) تفسير البرهان: ٢/ ٢٦٢.

الصدقة

حثّ الإسلام كثيراً على الصدقة، وكونها تدفع البلاء عن المتصدّق، وتقيه العوارض والسوء، وتطيل في العمر.

قال رسول الله ﷺ: باكروا بالصدقة، فمن باكر بها لم يتخطّاه البلاء[1].

وعن معاذ بن مسلم قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام فذكروا الوجع، فقال: داووا مرضاكم بالصدقة، وما على أحدكم أن يتصدّق بقوت يومه، إنّ ملك الموت يرفع إليه الصك بقبض روح العبد، فيتصدّق، فيقال له: ردّ عليه الصك[2].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: إنّ البلاء لا يتخطّى الصدقة[3].

وقال رسول الله ﷺ: الصدقة تردّ القضاء الذي قد أبرم ابراماً[4].

وقال رسول الله ﷺ: الصدقة تسدّ سبعين باباً من الشر[5].

وقال الإمام الباقر عليه السلام: إنّ الصدقة لتدفع سبعين علّة من بلايا الدنيا مع ميتة السوء، إنّ صاحبها لا يموت ميتة سوء أبداً[6].

---

(١) عيون أخبار الرضا ٢/ ٦١. والمعنى: لا يصله البلاء، لأنّ الصدقة تدفع البلاء وقد أبرم إبراماً.
(٢) ثواب الأعمال: ١٣٩.
(٣) أمالي الشيخ المفيد: ٤١.
(٤) من لا يحضره الفقيه ٤/ ٢٦٦.
(٥) بحار الأنوار ٩٦/ ١٣٢.
(٦) بحار الأنوار ٩٦/ ١٣٥.

وقال رسول الله ﷺ: الصدقة تدفع الداء والدبيلة[١] والغرق والحرق والهدم والجنون؛ فعدّ رسول الله ﷺ سبعين باباً من الشر[٢].

وعن الثمالي، قال: صليت مع علي بن الحسين عليه السلام الفجر بالمدينة يوم الجمعة، فلما من فرغ من صلاته وسبحته[٣] نهض إلى منزله وأنا معه، فدعا مولاة له تسمى سكينة فقال لها: لا يعبر على بابي سائل إلّا أطعمتموه، فإنّ اليوم يوم الجمعة.

قلت: ليس كل من سأل مستحقّاً.

فقال: يا ثابت أخاف أن يكون بعض من يسألنا مستحقّاً فلا نطعمه، ونردّه، فينزل بنا أهل البيت ما نزل بيعقوب وآله، أطعموهم أطعموهم؛ إنّ يعقوب كان يذبح كل يوم كبشاً فيتصدّق منه، ويأكل هو وعياله منه، وإنّ سائلًا مؤمناً صوّاماً مستحقّاً، له عند الله منزلة، وكان مجتازاً غريباً، اعترّ على باب يعقوب عشيّة جمعة، عند أوان افطاره، يهتف على بابه: أطعموا السائل المجتاز الغريب الجائع من فضل طعامكم، يهتف بذلك على بابه مراراً وهم يسمعونه وقد جهلوا حقّه، ولم يصدّقوا قوله، فلما يئس أن يطعموه وغشيه الليل، استرجع واستعبر، وشكا جوعه إلى الله عزّ وجلّ، وبات طاوياً، وأصبح صائماً جائعاً، صابراً حامداً لله، وبات آل يعقوب شباعاً بطاناً، وأصبحوا وعندهم فضلة من طعامهم؛ فأوحى الله عزّ وجلّ إلى يعقوب في صبيحة تلك الليلة: لقد أذللت يا يعقوب عبدي ذلّة استجررت بها غضبي، واستوجبت بها أدبي، ونزول عقوبتي وبلواي عليك وعلى ولدك، يا يعقوب إنّ أحب أنبيائي إليّ، وأكرمهم عليّ، من رحم

---

(١) داء يكون في الجوف ويسبب الهلاك.

(٢) النوادر: ٤٩١.

(٣) سبحته: تعقيبه، والمراد بذلك الأدعية التي يُدعى بها بعد الصلاة.

مساكين عبادي، وقرّبهم إليه، وأطعمهم، وكان لهم مأوى وملجأ، يا يعقوب أما رحمت عبدي المجتهد في عبادتي، القانع باليسير من ظاهر الدنيا، عشاء أمس، لمّا اعتر ببابك عند أوان إفطاره، وهتف بكم: اطعموا السائل الغريب المجتاز القانع، فلم تطعموه شيئاً، فاسترجع واستعبر، وشكا ما به إليّ، وبات طاوياً حامداً لي، وأصبح لي صائماً، وأنت يا يعقوب وولدك شباع، وأصبحت عندكم فضلة من طعامكم؛ أوما علمت يا يعقوب أنّ العقوبة والبلوى إلى أوليائي أسرع منها إلى أعدائي، وذلك حسن النظر منّي لأوليائي، واستدراج منّي لأعدائي، أما وعزّتي لأنزل عليك بلواي، ولأجعلنك وولدك عرضا لمصابي، ولآذينّك يا يعقوب فاستعدّوا لبلواي، وارضوا بقضائي، واصبروا للمصائب.

قال ثابت: فقلت لعلي بن الحسين عليه السلام: جعلت فداك متى رأى يوسف الرؤيا؟.

فقال: في تلك الليلة التي بات فيها يعقوب وآل يعقوب شباعاً، وبات ذميال طاوياً جائعاً[1].

☼

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

يصوّر القرآن الكريم ما بلغ بيعقوب عليه السلام من الحزن على ولده **﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾** مملوء من الهم والحزن، ممسك للغيظ لا يشكوه، وأيضاً فقد احدودب ظهره، ونحن نرى انّ حزن يعقوب عليه السلام قد بلغ أقصاه بل تجاوز الحد، فقد شاهدنا من أصيب بولده،

(١) علل الشرائع: ٦٢.

بل وبجميع أولاده، ولا يكون منه بعض هذا الحزن، فكيف بنبيٍّ الله؟! نعم، ليست المشكلة ـ فيما أحسب ـ هو فقد يوسف عليه السلام وإن عظم، بل إنّ المصيبة العظمى كانت في بقية أولاده، فقد كان يأمل فيهم الوراثة لمقام النبوّة الرفيع، لقد ولدهم ثلاثة أنبياء عظام، ومع ذلك يصدر منهم مثل هذا العمل القبيح، ألا تسمعه يقول لهم ردّاً على كذبهم من ادعائهم أنّ الذئب أكله:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

إنّ أشد الأمور على المصلحين هو ردّة المجتمع، وانتكاسته الدينيّة، فهم لا يبالون بجميع المصائب التي تعترضهم إذا سلم لمجتمعهم دينه وعقيدته. لقد بلغ نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله الغاية في الحلم والعفو، والخلق الرفيع حتّى مدحه الجليل جلّ جلاله بذلك ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، [القلم: ٤] ولكنه صلوات الله وسلامه عليه كان يغضب لربّه عزّ وجلّ، ولا يغضب لنفسه[1].

والمراد: أنه صلوات الله عليه كان لا يعبأ بما يصيبه شخصيّاً من مكاره الدنيا وبلائها، لكنّه كان يغضب إذا رأى بعض حرمات الله جلّ جلاله تنتهك، أو رأى بعض ما يخالف الشريعة الغراء. فمصيبة يعقوب عليه السلام كانت في بقيّة أولاده أشد وأعظم أثراً في نفسه من مصيبته في يوسف عليه السلام.

وأيضاً كانت مصيبة يوسف عليه السلام في اخوته أعظم ما جرى عليه من نكبات، فهو في أوّل لقاء له مع اخوته إذ عرفهم وهم له منكرون، فسألهم عن أنفسهم، فقالوا: نحن أولاد يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم.

(١) كحل البصر في سيرة سيد البشر ٩٣.

قال: ولدكم إذاً ثلاثة أنبياء، وما أنتم بحلماء، ولا فيكم وقار ولا خشوع، فلعلّكم جواسيس لبعض الملوك جئتم إلى بلادي؟ فقالوا: أيّها الملك لسنا بجواسيس، ولا أصحاب حرب ولو تعلم بأبينا إذاً لكرمنا عليك، فإنّه نبيّ الله وابن أنبيائه، وإنّه لمحزون.

قال لهم يوسف: فما حزنه وهو نبيُّ الله وابن أنبيائه والجنّة مأواه، وهو ينظر إليكم في مثل عددكم وقوتكم، فلعلّ حزنه إنّما من قبل سفهكم وجهلكم[١].

احرص يا أخي على أن لا تحزن نبيّك ﷺ بأعمالك السيئة، فقد ورد أنّ أعمال العباد تعرض عليه ﷺ في كل اثنين وخميس، فهو يفرح إذا رأى أعمالاً حسنة ويحزن إذا رآها سيئة.

مكارم الأخلاق

والرسل صلوات الله وسلامه عليهم علّموا الناس ـ في ما علّموهم ـ مكارم الأخلاق، ومحاسن الصفات، علّموهم بأعمالهم قبل أن يعلّموهم بأقوالهم.

إنّك لا تبحث عن فضيلة إلّا وتجدهم السبّاقين إليها، والضاربين فيها الرقم الأعلى؛ وموضوع الضيافة، واطعام الطعام مما حثّ عليه الإسلام وأمر به القرآن الكريم ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الدهر: ٨] والجميع يعلم ما كان عليه إبراهيم عليه السلام من الضيافة، فقد كان صلوات الله عليه لا يتغدّى ولا يتعشى إلّا مع ضيف، وهذا حفيده يعقوب عليه السلام كان ينادي مناديه كل غداة من منزله على فرسخ: ألا من أراد الغداء فليأت إلى يعقوب، وإذا أمسى نادى: من أراد العشاء فليأت إلى يعقوب[٢].

---

(١) قصص الأنبياء: ٢٠٠. (٢) الجواهر السنيّة: ٢٦.

وأنت تكاد تقطع من إرساله لأولاده للمرّة الثانية إلى مصر لجلب الطعام، قبل أن يريحوا أبدانهم ودوابهم أنّه صلوات الله عليه كان يوزّع ما يصله من طعام على المحتاجين تخفيفاً للازمة الخانقة التي عاناها الناس في تلك السنين المجدبة.

الانقطاع إلى الله تعالى

وأنت يا أخي لو عرفت فقيراً يدور في البلد مستجدياً، ويمرّ بك فيمن يمرّ به من خلق الله فأنت لا توليه اهتمامك، وقد لا تعطيه، أو تعطيه اليسير، لأنك تعتبره مستكفياً بغيرك، أمّا لو علمت بفقير يكتم فقره، ولا يعلم به أحد غيرك فيمكن أن لا تدّخر دونه شيئاً مما عندك.

والله سبحانه وتعالى يريد منا الانقطاع إليه، والتوجّه بحوائجنا وطلبها منه، وأن لا يكون لنا مطمع عند غيره.

واعلم أنّ الانقطاع إلى الله تعالى، والاستغناء عن الناس يكسبنا عزّاً واحتراماً، والحكمة: استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره.

فينبغي لنا أن يكون خوفنا منه تعالى فقط، وأملنا به وحده، ورجاؤنا منحصراً به جلّ شأنه، ولا رجاء لنا في غيره، إذا حصل لنا هذا فنكون قد أهّلنا أنفسنا لاستجابة الدعاء، ولقضاء كل حاجة منه تعالى.

ومن دواعي العجب في قصة يوسف عليه السلام ان أباه عليه السلام لم يعلم به طيلة المدة، مع قرب المسافة، وحتّى بعد أن أصبح أمير البلاد، وعاتبه أبوه بعد اجتماعهما على ذلك فقال: ما أعقّك، عندك هذه المقدرة العظيمة ولم تكتب إليّ عن حالك، على بعد ثماني مراحل؟!.

قال: إنّما نهاني عن ذلك جبرائيل عليه السلام.

قال: لِمَ لَمْ تسأله عن سبب ذلك؟.

قال: أنت أبسط إليه منّي فاسأله.

ولما نزل جبرائيل سأله يعقوب عليه السلام عن السبب فقال جبرائيل: إنّ الله تعالى أمرني بذلك لِقولك: **﴿إنّي أخاف أن يأكله الذئب﴾** فهلّا خفته وأمّلت فيه[1].

الدعاء

الدعاء من أحب الأعمال إلى الله عزّ وجلّ في الأرض كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام وهو الذي يدفع البلاء النازل وما لم ينزل، كما يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام وهو الذي يردّ القضاء بعدما أبرم ابراماً، كما يقول الإمام الصادق عليه السلام.

لهذا وغيره أَكْثَرَ الأئمة عليهم السلام من الأدعية، وهي بالمستوى الرفيع من البلاغة والبيان الرائع، مضافاً لما حوته من آداب يجب أن يتحلّى بها الداعي، واللهجة التي يخاطب بها العبد مولاه.

وحسبنا الصحيفة السجّادية للإمام زين العابدين عليه السلام، فهي من نفائس الدنيا، فقد ضمّت من المعارف والأخلاق والآداب والتعاليم ما لا يوجد إلّا في حديث سيد المرسلين صلى الله عليه وآله، وعترته الطاهرين.

نذكر في هذه الصفحات بعض ما ورد عن الصادقين عليهم السلام من أدعية نبيّ الله يعقوب عليه السلام عند المحنة.

١ - من دعاء له عليه السلام: **«يا حسن الصحبة، يا كريم المعونة، يا خيراً كلّه ائتني بروْحٍ وفرج من عندك»**.

---

(١) عرائس المجالس ١٤٠ (بتصرّف).

فهبط عليه جبرائيل فقال له: ألا أعلمك بدعوات يردّ الله بها عليك بصرك وابنك؟.

فقال: بلى.

فقال: قل: (**يا من لا يعلم أحد كيف هو، وحيث هو، وقدرته إلاّ هو، يا من سدّ الهواء بالسماء، وكبس الأرض على الماء، واختار لنفسه أحسن الأسماء ائتني بروح منك، وفرج من عندك**). فما انفجر عمود الصبح حتّى أتي بالقميص، فطرح على وجهه، فردّ الله عليه بصره، وردّ عليه ولده[1].

٢ - هبط جبرائيل على يعقوب فقال: يا يعقوب ألا أعلمك دعاءً يرد الله عليك به بصرك، ويرد عليك ابنيك؟.

قال: بلى.

قال: قل ما قاله أبوك آدم فتاب الله عليه، وما قاله نوح فاستوت به سفينته على الجودي ونجا من الغرق، وما قاله أبوك خليل الرحمن حين ألقي في النار فجعلها الله عليه برداً وسلاماً.

قال: وما ذاك يا جبرائيل؟.

فقال: قل: يا رب أسألك بحقّ محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين أن تأتيني بيوسف وأبنائي جميعاً، وتردّ عليّ عيني.

فما استتم يعقوب عليه السلام هذا الدعاء حتّى جاء البشير فألقى قميص يوسف عليه فارتدّ بصيراً، فقال لهم: ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون[2].

---

(١) البرهان في تفسير القرآن ٢/ ٢٦٧. (٢) أمالي الصدوق: ٢٠٨.

٣ - ومن دعاء له عليه السلام لمّا ردّ الله جلّ جلاله عليه يوسف عليه السلام: **(بسم الله الرحمن الرحيم، يا من خلق الخلق بغير مثال، ويا من بسط الأرض بغير أعوان، ويا من يرزق الخلق بغير مشير، ويا من يخرّب الدنيا بغير استيمار)**(١).

٤ - ومن دعاء له عليه السلام علّمه به الملك: **(يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً ولا يحصيه غيره، يا كثير الخير، يا قديم الاحسان، يا دائم المعروف، يا معروفاً بالمعروف، يا من هو بالخير موصوف، اكفنا شرّ ما يعمل الظالمون)**(٢).

وبعد الكبوة

والبشر ـ وإن علت رتبته ـ معرّض لأن يكبو ويبتعد عن مسار الحق والاستقامة، وينحرف بعيداً عن طريق الهدى والصلاح، ولكن المفروض به أن يعود سريعاً ويدخل باب التوبة الذي فتحه الله جلّ جلاله لعباده.

وهؤلاء أولاد يعقوب عليه السلام، وقد حصل منهم ما حصل، ولكنّهم رجعوا إلى الله تعالى تائبين مستغفرين، ورواية الثعلبي: إنّ الله تعالى لمّا جمع ليعقوب عليه السلام شمله، خلا ولده نجيّا، فقال بعضهم لبعض: أليس قد علمتم ما فعلتم بالشيخ يعقوب وبيوسف؟.

قالوا: بلى.

قالوا: فإنّ عفوا عنكم فكيف بربّكم؛ فاستقام أمرهم على أن يأتوا الشيخ، فأتوه وجلسوا بين يديه، ويوسف إلى جنب أبيه قاعد، فقالوا: يا أبانا أتيناك على أمر لم نأتك بمثله قط، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله قط، والأنبياء أرحم البريّة.

---

(١) مهج الدعوات: ٣٠٨.

(٢) مصباح الكفعمي: ١/٥٤٨.

فقال: ما بكم بنيّ؟.

فقالوا: ألست تعلم ما كان منّا إليك وإلى أخينا يوسف؟.

قال: بلى قد علمت.

قالوا: ألستما قد عفوتما عنّا؟.

قالا: بلى.

قالوا: إنّ عفوكما لا يغني عنّا شيئاً إذا كان الله تعالى لم يعف عنّا.

قال: فما تريدون يا بنيّ.

قالوا: نريد أن تدعو الله لنا، فإذا جاءك الوحي من عند الله سله هل عفا الله عنّا، فإن أجابك بأنّه عفا عنّا جميعاً قرّت أعيننا، واطمأنت قلوبنا، وإلا فلا قرّت لنا عين في الدنيا أبداً.

فقام الشيخ فاستقبل القبلة، وقام يوسف خلفه، وقاموا كلهم خلفهما أذلّة خاشعين، فدعا يعقوب، وأمّن يوسف عليه السلام فلم يجب فيهما قريباً من عشرين سنة، ثم نزل جبرائيل عليه السلام على يعقوب فقال: إن الله تعالى بعثني إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك، وأنّه قد عفا عمّا صنعوا[1].

الوصيّة

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

هذا درس مهم يعلّمنا به القرآن الكريم، أعني تربية الأولاد وتعاهدهم بالوصايا والتعاليم النافعة، وأخذهم بالالتزام بالآداب

---

(١) عرائس المجالس: ١٤١.

الإسلامية؛ فالوالد كما هو مسؤول عن تهيئة الطعام واللباس لأولاده كذلك هو مسؤول عن توجيههم الوجهة الصحيحة، وتعليمهم الأمور الدينية، ودعوتهم إلى سلوك طريق الاستقامة وأنت إذا نظرت إلى وصايا الأئمة عليهم السلام لأولادهم تعرف أهمية ذلك، وأزيدك علماً فقد يكون الولد إماماً ـ كما حصل للإمام الحسين عليه السلام فهو أسمى من أن يكبو أو يتجنّب طريق الرشاد، لكنّهم صلوات الله وسلامه عليهم يعلّمونا مسؤولية الآباء تجاه أبنائهم، ووجوب ذلك عليهم.

وهذا يعقوب عليه السلام وهو في ساعة الموت وهي شديدة مذهلة لا تسمح لمن يعانيها أن يفكّر في غيرها، لكنّ نبيّ الله لا تفوته الفرصة في أن يوصي بنيه بالتوحيد، وأن يكونوا عند حسن ظنّه بهم.

لقد صدقوا مع أبيهم، فماتوا جميعاً رحمهم الله على التوحيد، وقد مرّ عليك أنّ الله جلّ جلاله غفر لهم ما سلف منهم مع أخيهم؛ وقد كرّمهم الله جل جلاله فأخرج من أصلابهم الأنبياء، واعلم أنّ كليم الله موسى بن عمران عليه السلام هو حفيد أحدهم.



يوسف عليه السلام

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧].

إنَّ قصّة يوسف عليه السلام أكبر قصّة في القرآن الكريم وأجمعها للعبر، وهي مدعاة لشبابنا أن يتزيّنوا بالعفاف، ويكرموا أنفسهم من أن يدنّسوها بالرذيلة، ويأخذوا من الصدّيق عليه السلام درساً عملياً ليسعدوا في الدارين؛ فقد وصل سلام الله عليه إلى أعلى درجة في الدنيا ـ الحكم ـ، وإلى أرفع منازل الجنان في الآخرة.

وليس هذا هو الجانب الوحيد فيها، فنحن نتعلّم منها دروساً أخرى، فقد كان المتوقَّع بيوسف عليه السلام أن يلاقي حتفه ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩].

أو يقضي نحبه في البئر كما توقّع اخوته ذلك، ولكنّ الله جلّ جلاله أراد له الحياة وإذا أراد شيئاً كان ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

فقد نجّاه سبحانه وتعالى من القتل، وأخرجه من البئر، وأجلسه على أريكة الحكم ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

فيجب علينا الوثوق بهذا العظيم، وتوجيه حوائجنا إليه فهو يكفينا أمر الدنيا والآخرة. تأمّل يا أخي جوابه عليه السلام لجبرائيل وهو في البئر حينما قال له: أفتحب أن تخرج؟ قال: ذاك إلى إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

وكلّما ازددت تعلّقاً بإله إبراهيم عليه السلام، وعملاً بشريعته، وامتثالاً لأوامره، كنت أقرب إلى أن يستجيب لك إذا دعوته، ويعطيك إذا سألته ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

☼

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

هذه بداية القصة: استمع يعقوب عليه السلام إلى ولده العزيز يقصّ عليه رؤياه، وعلم نبيُّ الله أبعاد هذه الرؤيا فابتدره ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥] أمره أن لا يقصّها على اخوته، لأنهم إذا علموا تأويلها أضمروا له الحقد والعداء.

الشيطان

في قصة يوسف عليه السلام تتجلّى بوضوح قوّة الشيطان، وإنّ الشخص مهما عظم شأناً وبيتاً وتربية فإنّ الشيطان يحاول أن ينفذ إليه، ويحرّك عنده نقطة الضعف.

إنّ اخوة يوسف عليه السلام كانوا بمكان عظيم من الرفعة والجلالة، فقد ولدهم ثلاثة أنبياء عظام، وعاشوا في بيت النبوّة والإيمان، ولم يكن لهم أدنى مبرر لتنفيذ جريمتهم النكراء؛ ومن الجدير بالذكر أنّ أباهم عليه السلام مع ما هو فيه من فضل النبوة وتقاها فإنه يستحيل أن يفضّل بعض أولاده على الآخرين في مأكل وملبس إلّا أنّه كان يحب يوسف عليه السلام لعلمه بأنه أقرب منهم إلى الله جلّ جلاله، وكان يشم منه أريج النبوّة ونفحاتها.

ومن المعلوم أنّ يعقوب عليه السلام كان فقيراً، وهذا ما يزيد في عظم الجريمة، لأنه لو كان من أهل الثراء والأموال، وما يشاهدونه من ميله

ليوسف عليه السلام، فيمكن أن يترجّح عندهم أن ينحله بعض ذلك، ويفوّت عليهم ارثاً متوقّعاً، ولكن كل ما في الأمر ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩] تخلص لكم محبّته.

والغريب في الأمر أن يتواطأ الأخوة العشرة كلهم على المعصية، والاساءة العظيمة إلى نبيّ العصر.

وأنت أعزّك الله ورعاك احذر هذا العدو العظيم كلّ الحذر، وراقب نفسك دائماً خشية أن يجد فيك مجالًا للنفوذ.

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٩].

لقد علموا بالرؤيا، واستوعبوا تأويلها، فجاشت نفوسهم بالحقد والعداء، ونسوا ما درّبوا عليه من خلق ودين.

لقد اجتمعوا يتداولون في القضاء على أخيهم الصغير، علماً منهم أن عملهم يوجب مقت الله جلّ جلاله، ويُدخل على نبيّ الله أعظم الحزن، ولكن بلغ بهم الحقد إلى حدّ لا يبصرون طريق الرشد والصلاح وأخيراً استقرّ رأيهم ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠].

الحسد

وهو أن تتمنّى زوال النعمة من الآخرين، وقد يتطوّر بك الأمر فتسعى في زوالها.

والحسد من أخبث الصفات وأرذلها، وفي الحديث: إنّه أول ذنب عصي الله جلّ جلاله به، فإبليس حسد آدم عليه السلام على ما آتاه الله سبحانه

وتعالى من النبوة، وسجود الملائكة، فأخذ يسعى في كيده، وقابيل حسد هابيل على مواهب الله تعالى فقتله؛ وكانت في يوسف عليه السلام مؤهلات كثيرة للحسد، فجماله وحده كان كافياً لاغراء اخوته به، وحسدهم له، ومكانته عند أبيه، وتفاقم ذلك منهم عندما سمعوا رؤياه ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

حتّى أنهم عند تنفيذهم الجريمة قالوا له: ادع الشمس والقمر والكواكب لتخلصك. لقد شدد الإسلام في النهي عن الحسد؛ نذكر بعض ما جاء من أحاديث الصادقين عليهم السلام قال أمير المؤمنين عليه السلام: ولا تحاسدوا، فإنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب[١].

وينبغي للمسلم حينما يرى بعض نعم الله تعالى ومواهبه من مال أو جمال أو جاه أو علم أو ملك، أو أي شيء آخر عند أحد من الخلق أن يدعو له بالعافية، وتمام النعمة، ويطلب من الله تعالى أن يهب له مثلها، وهذا يسمى بـ (الغبطة).

فأنت تخرج إلى السوق وأنت بحاجة ماسّة لدرهم واحد، فتشاهد من يملك الملايين، فتدعو له بالخير، وتطلب من الله تعالى أن يرزقك، فأنت حينئذٍ قد تخلّصت من الحسد، ويشملك حديث الإمام الصادق عليه السلام: ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب إلّا وكّل الله به ملكاً يقول له: ولك مثل ما دعوت لأخيك[٢].

وينبغي لك أيضاً حينما تشاهد الغني أن تتذكر المتاعب التي يسببها المال في الآخرة، فمتاعب الدنيا: الكد، والنصب، والتفكير، والتعرّض للعداوة من السلطان وغيره، فكم من غنيٍّ قتل لأجل ماله، وكم من ثريٍّ

---

(١) نهج البلاغة ١١٣.
(٢) مشكاة الأنوار: ٣٣٠

حبس لأجل ماله، وتتذكّر المتاعب التي تحمّلها في جمعه، وأعظم من هذا كله المتاعب التي تنتظره في الآخرة، فهو على الحافة، وقريب من النار، لأنّ الله سبحانه وتعالى فرض على أصحاب الأموال حقوقاً يعطوها للفقراء، فإن امتنعوا عن ذلك فالنار مصيرهم.

إذا تذكّرت هذا ونحوه تكون قد عالجت الحسد علاجاً جذرياً، وحاسبت نفسك حساباً منطقياً، فإن انقادت لك نفسك وإلّا تذكّرها بالحديث الشريف: قال الإمام الصادق عليه السلام: الحاسد يضرّ بنفسه قبل أن يضرّ بالمحسود، كإبليس، أورث بحسده لنفسه اللعنة، ولآدم عليه السلام الاجتباء والهدى[1].

ولعلّ الحسد في قصة يوسف عليه السلام هو بيت القصيد، فعليك أن تعتبر بذلك واعلم رعاك الله أنّ الحديث الشريف: أطرد الخبيث فإنه لا يعود، ومعناه: أنّ الشيطان يحاول غوايتك في لعب القمار ـ مثلًا ـ ولو بدرهم واحد وعند استجابتك له تكون قد وقعت في فخّه، ويعسر عليك الخروج منه، أمّا إذا نهرته من أوّل مرة، ولم تستجب لندائه واغوائه، فيذهب عنك إلى غير رجعة.

وموضوعنا الحسد، فأنت إذا شاهدت صاحب نعمة، وتذكّرت نعمه تعالى لا تحصى عليك، ونهيه لك عن الحسد، ودعوت الله سبحانه بالزيادة لذلك العبد، ثم دعوت لنفسك، فقد نجوت من هذا الداء القبيح، ولم يعد إليك الخبيث.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١].

بدأوا بتنفيذ المخطط الاجرامي، اجتمعوا بأبيهم يطلبون منه أن يسمح لهم بأخذ يوسف **﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون﴾**.

(١) مصباح الشريعة: ٣٣.

وأبدى عليه السلام بعض التحفظات من طلبهم، وخشي بعض المحاذير فأجابهم: ﴿**إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون**﴾.

هذا أقصى ما كان يخشاه على عزيزه يوسف، ولم يدر في خلده أنهم يضمرون قتله، بل كان يأمل بهم الخير والصلاح، لقد أجابوه على محذوره: ﴿**قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون**﴾.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢].

وبعد أن خرجوا بأخيهم، وابتعدوا عن أهلهم أخذوا يضربونه أشد الضرب، وهو يبكي ويستغيث بهم، ويجيبونه: ادع الشمس والقمر لتنجيك منّا.

ساروا به على مثل هذه الحال حتّى وصلوا إلى بئر ألقوه فيها.

☼

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧].

عادوا ليلًا إلى أبيهم يبكون على أخيهم الذي أكله الذئب عندما خلّفوه ليحرس أمتعتهم، ويجيبهم عليه السلام ﴿**بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً**﴾.

أي زينت لكم أنفسكم أمراً عملتموه؛ وهذا أعظم ما في القصة، بل هو أخطر شيء يواجهه الإنسان، ويميل به عن طريق الاستقامة، ولعمري ما سفك الدماء، ونهب الأموال، وانتهاك الأعراض إلّا من تسويل النفس، ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿**إنّ النفس لأمارة بالسوء**﴾.

والمعنى: أنها تميل نحو الرذيلة؛ ويقول علماء الأخلاق: إنّ صفات

الكمال، والتخلّق بالأخلاق العالية بالنسبة للإنسان كالصعود على السلم، فهو يشق عليه، بينما الرذائل والمعاصي ـ بالنسبة للإنسان ـ كالنزول فهو يسهل عليه، فالحذر ثمّ الحذر أن تسوّل لك نفسك أمراً فيه معصية العظيم الجبّار، فتخسر جنّة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

إنّهم حينما ألقوا أخاهم في البئر خلعوا قميصه، ثم ذبحوا سخلًا ولطّخوا القميص بالدم، ونسوا أن يمزّقوا القميص ليبعدوا عن أنفسهم التهمة؛ فلما أخرجوه لأبيهم قال عليه السلام: ما أحلم هذا الذئب، أكل ولدي ولم يمزّق قميصه.

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩].

إنّهم ألقوه في بئر لم تكن على طريق المارة، ولكن الله جلّ جلاله ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

لقد مرّت قافلة احتاجت إلى الماء، فأرسلوا من يأتيهم به، وما أن أدلى دلوه حتّى تعلّق به يوسف عليه السلام، وخرج من البئر، وفرح الرجل بذلك، ورجع إلى أصحابه يخبرهم أنّ هذا الولد لجماعة نزلوا عند البئر يريدون بيعه.

﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠].

وهنا تبدأ مرحلة جديدة من حياة الصدّيق فهو يعيش في بلد غير بلده، وفي بيت غير بيته، وبين أهل غير أهله.

لقد ذهبت القافلة بيوسف إلى مصر وباعوه بأبخس الأثمان، لأنهم لاحظوا عليه شمائل الأحرار، وصفات النجابة والكمال، فخشوا أن تلحقهم تبعة من ابقائه في أيديهم، فباعوه إلى عزيز مصر بعشرين درهماً.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١].

أخذه العزيز إلى بيته وأوصى زوجته برعايته، وأن تهيىء له موضعاً كريماً في البيت.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١].

إنّ في قصة يوسف عليه السلام الكثير من العبر والتعاليم الرفيعة التي يجب على كل فرد من الأمة الإسلامية الأخذ بها؛ فهو في عنفوان شبابه، وقد وهبه الله جمالًا لم يهبه لأحد من خلقه، حتى قيل: إنّ الجمال قسم نصفين، نصف ليوسف عليه السلام، ونصف لسائر الخلق، وهو يعيش في بيت الملك، وزليخا ـ زوجة الملك ـ كانت تتمتع بجمال رائع، وزوجها كان عنيناً[1] وقد شغفت بيوسف عليه السلام شغفاً عظيماً، وهو يتحصّن منها بالعفاف ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣].

قال ابن عباس: مكث يوسف في منزل الملك وزليخا ثلاث سنين، ثم أحبّته فراودته، فبلغنا والله أعلم أنّها مكثت سبع سنين على قدميها وهو مطرق إلى الأرض، لا يرفع طرفه إليها مخافة من ربّه، فقالت يوماً: ارفع طرفك وانظر إليّ.

قال: أخشى العمى على بصري.

---

(١) العنّين: الذي لا يقدر على إتيان النساء.

قالت: ما أحسن عينيك.

قال: هما أوّل ساقط على خديّ في قبري.

قالت: ما أحسن طيب ريحك.

قال: لو شممتِ رائحتي بعد ثلاث من موتي لهربت منّي.

قالت: لمَ لا تقترب؟.

قال: أرجو بذلك القرب من ربّي.

قالت: فراشي الحرير، قم واقض حاجتي.

قال: أخشى أن يذهب من الجنة نصيبي.

قالت: أسلّمك إلى المعذبين.

قال: يكفيني ربّي[1].

يصوّر لنا القرآن الكريم مشهد المراودة ﴿**وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب**﴾.

وكان جواب الصدّيق عليه السلام: ﴿**معاذ الله إنه ربّي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون**﴾ فهو عفاف، ووعظ، وتذكير بنعم الله سبحانه وتعالى، وإنّ عاقبة الظالمين البوار والهلاك في الدنيا والآخرة.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥].

وبعد اصراره على التمسك بالعفاف مهما كلّفه الأمر، واصرارها على الفاحشة مهما كانت العواقب، ترجّح لديه الهرب من الغرفة، ولكنّها أسرعت تعدو خلفه، وفعلًا أمسكت بثوبه تسحبه وهو يمانعها حتّى انشق

---

(١) قصص الأنبياء: ٢٠٣.

الثوب ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥].

في هذه اللحظة من الخصام والتجاذب وإذا بالعزيز يدخل البيت، ورأى بعينيه الأمر، ولكنها بادرته قبل أن يتكلّم: **﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾**؟.

ولم يجد الصدّيق بدّاً من الدفاع عن نفسه **﴿قال هي راودتني عن نفسي﴾**.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦].

وقبل أن يتكلّم العزيز، ويحقّق في الأمر، وإذا بطفل في المهد عمره ثلاثة أشهر، هو ابن أخت زليخا ينطق ـ عن طريق الاعجاز ـ دفاعاً عن الصدّيق، فيقول: **﴿إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾**.

لقد أدهشهم جميعاً ما سمعوه؛ ونظر العزيز إلى يوسف **﴿فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال إنّه من كيدكنّ إنّ كيدكن عظيم﴾**.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

وهنا أيقن العزيز بنزاهة الصدّيق وتقدّم إليه بالطلب **﴿يوسف أعرض عن هذا﴾** لا تذكره على سبيل طلب البراءة.

ثم التفت إلى زوجته موبّخاً **﴿واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾**.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠].

ورغم أنّ الصديق لم يتكلّم بالأمر ترفعاً وأدباً، إلّا أنّ الخبر تسرّب عن طريق الخدم أو غيرهم، ووصل إلى مسامع ربّات القصور، ونساء القادة والأمراء، فأخذن في ذمّها، والازدراء بعملها.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف: ٣١] بلغها ما خاضت النسوة في أمرها، فرأت أن تدعوهنّ إلى بيتها، وتريهنّ يوسف ليخففنّ من لومهن لها.

هيّأت ما يلزم من أطباق الفاكهة، عليها السكاكين، وبعد حضورهن طلبت منه أن يخرج، لينظرن إليه **﴿فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلّا ملك كريم﴾** وتحقّق ما كانت تطلبه من العذر، وإنّ العفاف في هذا المجال خارج عن القدرة، ولا يطيقه بشر، فابتدرت في تأنيبهن **﴿قالت فذلكن الذي لمتنني فيه﴾**.

والمعنى: أنكنّ رأيتنّه مرّة واحدة فحصل بكنّ ما حصل، فكيف بي وأنا أعيش معه في بيت واحد؛ ثم تابعت كلامها:

﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ امتنع بالله وسأله العصمة من فعل القبيح **﴿ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين﴾**. تتكلّم امرأة العزيز ويوسف مطرق إلى الأرض، ثم تكلّمت النسوة بأجمعهن يطلبن منه أن يجيبها إلى طلبها.

وأعظم من هذا كلّه: فما أمسى يوسف في ذلك اليوم حتّى بعثت إليه كل امرأة تدعوه إلى نفسها.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

وهنا ضاق ذرعاً بهنّ، ورأى السجن أفضل بكثير من الانزلاق في الرذيلة، وانّ عذاب الدنيا ـ مهما عظم ـ أيسر من عذاب الآخرة، فعندها

توجّه إلى الله جلّ جلاله داعياً ﴿**قال ربّ السجن أحبُّ إليّ مما يدعونني إليه وإلّا تصرف عنّي كيدهنّ أصب إليهنّ وأكن من الجاهلين**﴾.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤] فلا زليخا واصرارها على الفاحشة، ولا جمهور النساء اللاتي راسلنه أثرن عليه، إنّه كما وصفته زليخا (فاستعصم) لقد استعصم بالله جلّ جلاله فعصمه من كل سوء، وأجزل له العطاء في الدنيا والآخرة.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥] لو لم يكن في الأمر إلّا شهادة الطفل ببراءة يوسف لكفى بها دليلًا قاطعاً على قدسه وطهارته واتصاله بالمبدأ الأعلى، ونزاهته عن كلّ ما يشين، ولكن البشر تمرّس بالشر، ولا تنفع به العبر والآيات.

فرغم ذلك كله اقتنع العزيز بأن يسجنه تسكيتاً للناس عن الخوض في حديثه، لاسيّما والحديث ذو شجون، ففيه رفعة ليوسف، وحطّ للمرأة وذويها.

☼

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف: ٣٦].

أحدهما ساقي الملك، والآخر الذي يعد له الطعام، إتهمهما بأنّهما يسعيان في قتله فسجنهما.

لقد شاهد كل من الرجلين رؤيا فقصّها على يوسف ليخبره بتأويلها.

﴿**قال أحدهما إنّي أراني أعصر خمراً وقال الآخر إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنّا نراك من المحسنين**﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

والمعنى: أأصنام من حجر وخشب، لا تضر ولا تنفع، خير لمن عبدها أم عبادة الواحد القهّار، الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير ثم توجّه بالخطاب إلى جميع أهل السجن مرشداً ومعلّماً **﴿ما تعبدون من دونه إلّا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾**.

إنّ هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله وسميتموها بأسماء ـ يريد أصنامهم التي سمّوها بالآلهة ـ هي أسماء فارغة لا حقيقة لها **﴿إن الحكم إلّا لله﴾** ما الحكم والأمر إلّا لله، فلا تجوز العبادة والخضوع والتذلّل إلّا لله **﴿أمر ألّا تعبدوا إلّا إيّاه﴾** أمركم أن لا تعبدوا غيره **﴿ذلك﴾** الذي بينت لكم من توحيد الله، وترك عبادة غيره **﴿الدين القيّم﴾** الدين المستقيم الذي لا عوج فيه **﴿ولكن أكثر لا الذين لا يعلمون﴾** ما للمطيعين من الثواب، وللعاصين من العقاب.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] وبعد أن وعظ السجناء، ودعاهم إلى توحيد الله جلّ جلاله، بدأ يعبّر لهما الرؤيا **﴿أمّا أحدكما فيسقي ربّه خمرا﴾** هذا تعبير رؤيا الذي قال: **﴿إنّي أراني أعصر خمرا﴾** قال: إنّك تخرج بعد ثلاث وتعود إلى عملك في سقاية الملك.

ثم قال للآخر تعبيراً لرؤياه **﴿أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه﴾** قال إنّك تخرج بعد ثلاث فتصلب، فتأكل الطير من رأسك ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي

﴿ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢] طلب منه أن يتوسّط عند الملك في اخراجه من السجن وليس في هذا الطلب محذور أو حرام، فالمظلوم له أن يستعمل كلَّ السبل المشروعة للخلاص من ظلامته، ولكن ينبغي للمرء أن يتوجّه في أموره كلّها لله تعالى ويطلب منه جلّ جلاله ما يريده، ولا يستعين بمخلوق سواه؛ ألا ترى إبراهيم عليه السلام وقد ألقي في النار، ويأتي إليه جبرائيل عليه السلام قائلًا: يا إبراهيم هل من حاجة؟.

ويجيبه عليه السلام: أمّا إليك فلا.

أتدري ماذا حصل له ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] أوتدري ما حصل ليوسف ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

قال الإمام الصادق عليه السلام: إنّ يوسف أتاه جبرائيل فقال له: إنّ ربّ العالمين يُقرِئُكَ السلام، ويقول لك: من جعلك في أحسن خلقة؟ فصاح ووضع خدّه على الأرض، ثم قال: أنت يا رب ثم قال له: ويقول لك: من حبّبك إلى أبيك دون أخوتك؟ قال: فصاح ووضع خدّه على الأرض وقال: أنت يا رب قال: ويقول لك من أخرجك من الجبّ بعد أن طرحت فيها، وأيقنت بالهلكة؟.

قال: فصاح، ووضع خدّه على الأرض، ثم قال: أنت يا رب.

قال: فإنَّ ربَّك قد جعل لك عقوبة في استغاثتك بغيره، فلبث في السجن بضع سنين[1].

لقد نسي الرجل المهمّة التي كلّفه بها يوسف عليه السلام، فلم يتذكّرها إلّا

---

(١) تفسير القمي ١/ ٢٧٤.

بعد مضي سبع سنين، ويوسف خلالها يعيش بين جدران السجن فالله سبحانه وتعالى يريد منّا أن لا نتوكّل إلّا عليه، ولا نطلب حوائجنا إلّا منه، ولا نعتمد في أمورنا إلّا عليه؛ ألا تسمع الإمام علياً الهادي عليه السلام يقول لأحد أصحابه وقد طلب منه الوساطة عند السلطان لقضاء حاجته، فأجابه بعد أن انقضت بلا واسطة: إنّ الله تعالى علّمنا أن لا نلجأ في المهمّات إلّا إليه، ولا نتوكّل في الملمّات إلّا عليه، وعوّدنا إذا سألناه الاجابة، ونخاف أن نعدل فيعدل بنا[1].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

وبعد هذه الفترة الطويلة من الزمن رأى الملك هذه الرؤيا فقصّها على رجال المملكة ليخبروه بتأويلها، فعجزوا و **﴿قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾**.

ولكنّ الساقي تذكّر تعبير يوسف لرؤياه ورؤيا صاحبه، وصدقه في ذلك، وما أوصاه به من الوساطة، فجاء وجثا أمام الملك وأخبره بما حصل له، وطلب منه أن يسمح له بالذهاب إلى يوسف ليأتيه بالتعبير الصحيح.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦] أسرع الساقي إلى السجن، وقصّ على يوسف رؤيا الملك، وأجابه: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ

---

(١) بحار الأنوار: ١٢٩/١٢.

يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٧ - ٤٩].

والمعنى: أمّا البقرات السبع العجاف، والسنابل السبع اليابسات، فهي السنون المجدبة، وأمّا السبع السمان، والسنابل السبع الخضر، فإنهنّ سبع سنين مخصبات، ذوات نعمة، وأنتم تزرعون فيها **﴿فما حصدتم﴾** من الزرع **﴿فذروه﴾** اتركوه **﴿في سنبله﴾** لا تذروه ولا تدوسوه، ليكون أبقى وأبعد من الفساد **﴿إلّا قليلًا مما تأكلون﴾** ما أردتم أكله فدوسوه، واتركوا الباقي في السنبل **﴿ثم يأتي بعد ذلك عام فيه يغاث الناس﴾** يمطرون وينقذون وينجون من القحط **﴿وفيه يعصرون﴾** الثمار التي تعصر في الخصب، كالعنب، والزيت، والسمسم.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

أبهره التعبير، وأعجبته الحلول، فاستدعاه سريعاً ليوكل إليه أمر تدبير ذلك والاشراف عليه.

رجع الساقي سريعاً إلى السجن مبشّراً ليوسف بالخلاص، بل إنّ الملك يستدعيه ليعهد إليه بأمور مهمة ـ ولكنّ يوسف لم يستجب للطلب، وأرسله للملك بالرسالة الآتية **﴿فاسأله ما بال النسوة﴾** ما حالهن وما شأنهن، والمراد: أن يتعرّف الملك حال النسوة **﴿اللاتي قطّعن أيديهن﴾** ليعلم صحة براءته.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١] واستجاب الملك للطلب، فأرسل في طلب النسوة

وبمن فيهن امرأة العزيز وتقدّم إليهن بالسؤال ﴿**ما خطبكنّ إذ راودتن يوسف عن نفسه**﴾.

ومعناه: ما شأنكن، وما أمركن إذ طلبتن يوسف عن نفسه، ودعوتنه إلى أنفسكن؟.

وبادرت بالجواب امرأة العزيز ﴿**الآن حصحص الحق**﴾ ظهر وتبيّن ﴿**أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصادقين**﴾ في قوله: ﴿**هي راودتني عن نفسي**﴾ اعترفت بالكذب على نفسها فيما اتهمت يوسف به﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] إنّ الغرض ممّا مرّ لأجل أن يتيّقن الملك ببراءة يوسف ونزاهته، فقد كره عليه السلام أن يأتي وفي ذهن الملك بعض الشوائب عنه، والآن وقد تبيّن للجميع إيمانه وعفافه قال الملك ﴿**ائتوني به**﴾ أمر بإحضاره ﴿**استخلصه لنفسي**﴾ اجعله خالصاً لنفسي، ارجع إليه في تدبير مملكتي وأعمل على إشارته في مهمات أموري.

عاد إليه الرسول فخرج من السجن وهو يدعو لأهله (**اللهمّ اعطف عليهم بقلوب الأخيار، ولا تعمّ عليهم الأخبار**) فلذلك يكون أصحاب السجن أعرف الناس بالأخبار في كل بلدة.

كما أنّه كتب على باب السجن (**هذا قبور الأحياء وبيت الأحزان وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء**).

ولما وقف بباب الملك قال: (**حسبي ربّي من دنياي، وحسبي ربّي من خلقه، عزّ جاره وجلّ ثناؤه، ولا إله غيره**).

ولما دخل على الملك قال: (**اللهمّ إنّي أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك، من شرّه وشر غيره**)[١].

---

(١) مجمع البيان ٥/٤١٦.

لقد أعجب به الملك غاية الاعجاب، فقال له: إنّي أحب أن أسمع رؤياي منك شفاهاً.

فقال يوسف: نعم أيّها الملك، رأيت سبع بقرات سمان شهب، غرّ حسان، كشف لك عنهن النيل، فطلعن عليك من شاطئه، تشخب أخلافهن لبناً، فبينا تنظر إليهن ويعجبك حسنهن، إذ نضب النيل، فغار ماؤه، وبدا يبسه، فخرج من حمئه ووحله سبع بقرات عجاف، شعث غبر، مقلّصات البطون، ليس لهن ضروع ولا أخلاف، ولهن أنياب وأضراس، وأكف كأكف الكلاب، وخراطيم كخراطيم السباع، فاختلطن بالسمان فافترستهن افتراس السبع، فأكلن لحومهن، ومزقن جلودهن، وحطمن عظامهن، وتمششن مخهن، فبينا أنت تنظر وتتعجّب إذا سبع سنابل خضر، وأخر سود في منبت واحد، عروفهن في الثرى والماء، فبينا أنت تقول في نفسك: أنّى هذا، هؤلاء خضر مثمرات، وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد، وأصولهن في الماء؟ أذهبت ريح فذرت الأزمات من اليابسات السود على الثمرات الخضر، فاشتعلت فيهن النار، وأحرقتهن، وصرن سوداً متغيرات، فهذا آخر ما رأيت من الرؤيا، ثم انتبهت من نومك مذعوراً فقال الملك: والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كان عجباً بأعجب مما سمعته منك، فما ترى في رؤياي أيها الصديق؟.

قال: أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة، وتبني الاهراء[1] والخزائن، فتجمع الطعام فيه بقصبه وسنبله، ليكون قصبه وسنبله علفاً للدواب، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس، فيكفيك من الطعام الذي جمعه لأهل مصر ومن حولها.

---

(١) الاهراء: جمع الهرى: بيت كبير يجمع فيه القمح ونحوه.

فقال الملك: ومن لي لهذا، ومن يجمعه ويبيعه ويكفي الشغل فيه؟ فعند ذلك ﴿قال﴾ يوسف ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾ يعني اجعلني على خزائن أرضك حافظاً ووالياً، واجعل تدبيرها إليَّ، ف ﴿إني حفيظ﴾ حافظ لما استودعتني لحفظه ﴿عليم﴾ بمن يستحق منها شيئاً، ومن لا يستحق، فأضعها مواضعها فقال المك: ومن أحق به منك، فولاه ذلك.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

وهذا من أعجب العجب، فاخوته العشرة خرجوا به ليقتلوه، ثم بدا لهم أن يلقوه في بئر عميقة، بعيدة عن طريق المارّة، فدلّوه حتى إذا بلغ نصفها ألقوه بأمل أن يموت؛ فهيأ الله جلّ جلاله له الخروج منها، ثم السكن في بيت الملك، ثم حباه الله بالنبوة ـ وناهيك بها شرفاً ـ ثم أعطاه سبحانه وتعالى الملك.

وينبغي للمسلم أن ينقاد لهذا العظيم، الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير، ولا يستبدل به غيره، ولا يطلب عزاً أو منعة من غيره فيوسف الآن يدير دفة الحكم، ويدبّر أمر المملكة، بلا منازع، بل كل أهل المملكة قد التفوا حوله، لما يرونه من حسن تدبيره وعدله، وهو لم يقتصر على جمع الطعام وخزنه، بل وصل إلى أبعد من ذلك فقد بنى القناطر، ونظم الري.

مرّت السنوات المجدبة خفيفة الوطء على المصريين، فالخزائن مملوءة بالطعام، والخير قد عمّ الشعب، وأكثر من هذا فقد جاء من كان حواليهم من أطراف البلاد يمتارون منهم، وقد فتح لهم يوسف عليه السلام أبواب مصر يمدّهم بما يحتاجون إليه من طعام.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨].

إنّ القحط والضيق أصاب آل يعقوب فيمن أصاب من الناس، فقد عمّ الجفاف المنطقة كلّها، لذا قال يعقوب عليه السلام لأولاده: بلغني أنه يُباع الطعام بمصر، وأنّ صاحبه رجل صالح، فاذهبوا إليه فإنّه سيحسن إليكم إن شاء الله.

فتجهزوا وساروا حتّى وردوا مصر، فدخلوا على يوسف فعرفهم ولم يعرفوه، لأنهم رأوه ملكاً جالساً على السرير، عليه ثياب الملك، ولم يخطر ببالهم أن يصير إلى تلك الحال.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩] إنّ يوسف عليه السلام كان يتوقع مجيء اخوته اسوة بغيرهم من أهل الأقطار القريبة من مصر، حيث جاءوا يمتارون من مصر الطعام استقبلهم بالترحيب والاكرام من دون أن يعلمهم بنفسه، حتّى أنه كان لا يكلمهم كي لا ينتبهوا إلى نبرات كلامه، فقد كان يكلمهم بواسطة ترجمان، فسألهم: من أنتم؟.

قالوا: نحن قوم من أرض الشام رعاة، أصابنا الجهد، فجئنا نمتار.

فقال: لعلكم عيون جئتم تنظرون عورة بلادي؟.

فقالوا: لا والله، ما نحن بجواسيس، وإنّما نحن اخوة بنو أب واحد، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمان، ولو تعلم بأبينا لكرمنا عليك، فإنّه نبي الله وابن أنبيائه، وإنّه لمحزون.

قال: وما الذي أحزنه، فلعل حزنه إنّما كان من قبل سفهكم وجهلكم؟.

قالوا: يا أيّها الملك لسنا بسفهاء ولا جهّال، ولا أتاه الحزن من قبلنا، ولكنّه كان له ابن، كان أصغرنا سنّاً، وأنّه خرج يوماً معنا إلى الصيد فأكله الذئب، فلم يزل بعده حزيناً كئيباً باكياً.

فقال لهم: كلكم من أب وأم؟.

قالوا: أبونا واحد، وأمهاتنا شتى.

قال: فما حمل أباكم على أن سرّحكم كلكم، ألا حبس واحداً منكم يستأنس به؟.

قالوا: قد فعل، حبس منّا واحداً وهو أصغرنا سنّاً، لأنه أخو الذي هلك من أمّه، فأبونا يتسلّى به.

قال: فمن يعلم أنّ الذي تقولونه حقّ؟.

قالوا: يا أيّها الملك إنّا ببلاد لا يعرفنا أحد.

فقال يوسف: فائتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين، وأنا أرضى بذلك.

قالوا: إن أبانا يحزن على فراقه، وسنراوده عنه.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢].

قال يوسف لعبيدهِ وغلمانه الذين يكيلون الطعام: اجعلوا ثمن طعامهم، وما كانوا جاءوا به في أوعيتهم، ليكون ذلك أدعى إلى مجيئهم مرة أخرى، وأيضاً فقد رأى عليه السلام أنّ أخذ الثمن من اخوته مع حاجتهم إليه يتنافى مع مكارم الأخلاق، ومعالي الأمور، لقد ردّ عليهم الثمن وهم لا يعلمون ذلك تفضّلا وكرماً.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣].

لقد رجعوا مسرورين من حسن معاملة الملك، وتزويده لهم بالطعام، من دون أن يصبهم في سفرهم نصب أو تعب، وبدأوا يقصّون

على أبيهم حديث سفرهم، وأنهم منعوا من المجيء إلى مصر مرّة أخرى إذا لم يأتوا بأخيهم الصغير، ثم أخذوا يصفون الملك وسيرته ليطمئن.

قالوا: يا أبانا إنّا جئناك من عند أعظم الناس ملكاً، ولم ير الناس مثله حكماً وعلماً وخشوعاً وسكينة ووقاراً، ولئن كان لك شبيه فإنه يشبهك.

وتابعوا الحديث: إنّه اتهمنا وزعم أنّه لا يصدقنا حتى ترسل معنا بنيامين برسالة منك إليه ليخبره عن حزنك، وما الذي أحزنك، وعن سرعة الشيب إليك، وذهاب بصرك.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤].

والمعنى: أني لا آمنكم عليه وعلى الذهاب به، بعد الذي صدر منكم في يوسف، فقد ضمنتم حفظه ثم فرطتم فيه ﴿فالله خير حافظاً﴾ حفظ الله خير من حفظكم ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ فهو يرحم ضعفي، وكبر سني، ويردّه عليّ.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ٦٥].

وبعد أن فتحوا أوعية الطعام وجدوا فيها دراهمهم وبضاعتهم التي أعطوها ثمناً للطعام، فشجعهم ذلك على مراجعة أبيهم مرّة أخرى في أن يأذن لهم بأخذ أخيهم ﴿قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردّت إلينا﴾ فلا ينبغي أن نخاف على أخينا ممن قد أحسن إلينا هذا الاحسان.

إنّ يعقوب عليه السلام كان مقتنعاً بندمهم على ما سلف منهم في يوسف، ويستحيل أن تبدر منهم بادرة مع أخيهم ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦].

أي تعطونني ما يوثق به من يمين أو عهد من الله **﴿لتأتنني به﴾** لتردنّه إليّ **﴿إلّا أن يحاط بكم﴾** إلّا أن يحال بينكم وبينه حتّى لا تقدروا على الإتيان به **﴿فلما أتوه موثقهم﴾** أعطوه عهودهم **﴿قال﴾** يعقوب **﴿الله على ما نقول وكيل﴾** شاهد حافظ ان أخلفتم انتصف لي منكم.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧] هذه وصيّة يعقوب عليه السلام لأولاده لمّا أرسلهم إلى مصر، والسر في هذا الطلب ـ كما يراه أكثر المفسرين: خاف عليهم العين، لأنّهم كانوا ذوي جمال وهيئة وكمال... وعن النبي صلى الله عليه وآله: إنّ العين حقّ، والعين تستنزل الحالق؟ والحالق المكان المرتفع من الجبل وغيره، فجعل عليه السلام العين كأنّها تحط ذروة الجبل من قوّة أخذها وشدّة بطشها؛ وورد في الخبر أنّه عليه الصلاة والسلام كان يعوّذ الحسن والحسين عليهما السلام بأن يقول: أعيذكما بكلمات الله التامة، من كلّ شيطان وهامة، ومن كلّ عين لامّة(١).

قوله **﴿وعليه فليتوكّل المتوكّلون﴾**.

يفوّضون أمورهم إليه، ويثقون بتدبيره؛ وهذا لا يعني ترك السعي والعمل، بل كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله للاعرابي الذي سيّب ناقته متوكّلا على الله تعالى، قال: اعقل وتوكّل، المراد: أن يقوم العبد بالدور المطلوب منه، فالزارع يزرع، متوكّلا على الله سبحانه وتعالى من نماء الزرع وحفظه، والعامل يعمل، ويتوكّل على الله جلّ جلاله بأن ينجز عمله على أتم الوجوه، ويبارك في مجهوده، ويدفع عنه وعن عمله المخاطر، وهكذا.

---

(١) مجمع البيان: ٥ - ٦/ ٣٨٠.

الخلق الرفيع

كانت السنوات السبع المجدبة التي مرّت على المصريين في عهد نبيّ الله يوسف عليه السلام صعبة للغاية، وهي حتّى الآن مضرب المثل للسنين المجدبة، ولكنّه صلوات الله عليه عالجها بحكمة النبوة، فخفف عن الناس آلامهم.

لقد مهّد للأمر، وادخر لهم ما يكفيهم، بل يزيد على حاجتهم، ومع كل ذلك فقد التزم بأمور وألزم الملك بأخرى رعاية للطبقة الضعيفة من الناس، وتأسّياً بالمحرومين، أو بالأحرى هو نبل النبوّة وشهامتها؛ لقد التزم صلوات الله وسلامه عليه بأن لا يشبع من طعام ما دامت الأزمة قائمة، والناس في شدّة.

روى الشيخ الأقدم ورّام رحمه الله قيل ليوسف عليه السلام: لِمَ تجوع وفي يدك خزائن الأرض؟! قال: أخاف أن اشبع فأنسى الجياع[1] وأكثر من هذا، فقد ألزم الملك بذلك أيضاً، فقد أمر طبّاخه أن يجعل غذاءه نصف النهار مرّة واحدة في اليوم والليلة، وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجياع[2].

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩].

سار أولاد يعقوب ميممين مصر، ومعهم أخوهم بنيامين، شقيق يوسف لأمه وأبيه، فوصلوها بسلام، ودخلوا على يوسف فقالوا: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به.

---

(١) تنبيه الخواطر: ١٠٣.
(٢) عرائس المجالس: ١٢٩.

فقال: أحسنتم؛ ثم أنزلهم وأكرمهم، ثم أضافهم، وقال: ليجلس كل بني أم على مائدة، فجلسوا، فبقي بنيامين واقفاً، فقال له يوسف: ما لك لا تجلس؟.

قال: إنّك قلت: ليجلس كل بني أم على مائدة، وليس لي فيهم ابن أم.

فقال يوسف: أفما كان لك ابن أم؟.

قال: بلى.

قال يوسف: فما فعل؟.

قال: زعم هؤلاء أنّ الذئب أكله.

قال: فما بلغ من حزنك عليه؟ .

قال: ولد لي أحد عشر ولداً كلهم اشتققت لهم اسماً من اسمه.

فقال يوسف: أراك قد عانقت النساء، وشممت الولد من بعده!.

فقال بنيامين: إنّ لي أباً صالحاً وقد قال تزوّج لعل الله يخرج منك ذريّة تثقل الأرض بالتسبيح.

فقال له يوسف: فاجلس معي على مائدتي.

فقال اخوة يوسف: لقد فضّل الله يوسف وأخاه حتّى أنّ الملك قد أجلسه معه على مائدته.

ثم بطريق وآخر أخبره ﴿قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾ لا تحزن على شيء سلف من اخوتك إليك.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٠].

فلما أعطاهم ما جاؤوا لطلبه من الميرة، وكال لهم الطعام الذي جاؤوا لأجله، وجعل لكل منهم حمل بعير ﴿**جعل السقاية في رحل أخيه**﴾ أمر حتّى جعل السقاية في متاع أخيه.

والسقاية: هي المشربة التي كان يشرب بها الملك، ثم جعل صاعاً في السنين الشداد، يكال به الطعام، وكان من ذهب.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠].

فبعد أن ارتحلوا وانطلقوا نادى مناد مسمعاً: يا أيّها القافلة إنّكم لسارقون.

إنّما قال ذلك بعض من فقد الصاع من قوم يوسف من غير أمره، ولم يعلم بما أمر به يوسف من جعل الصاع في رحالهم.

﴿**قالوا**﴾ أصحاب العير ﴿**وأقبلوا عليهم**﴾ على أصحاب يوسف ﴿**ماذا تفقدون**﴾ ما الذي فقدتموه من متاعكم.

﴿**قالوا نفقد صواع الملك**﴾ صاعه وسقايته ﴿**ولمن جاء به حمل بعير**﴾ قال المنادي: من جاء بالصاع فله حمل بعير من الطعام ﴿**وأنا به زعيم**﴾ كفيل ضامن ﴿**قالوا**﴾ اخوة يوسف ﴿**تالله لقد علمتم**﴾ أيّها القوم ﴿**ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنّا سارقين**﴾ إنّكم قد ظهر لكم من حسن سيرتنا ومعاملتنا معكم مرّة بعد أخرى ما تعلمون به أنّه ليس من شأننا السرقة ﴿**قالوا فما جزاؤه**﴾ قال الذين نادوهم فما جزاء السارق؟ ﴿**إن كنتم كاذبين**﴾ في قولكم إنّا لم نسرق، وظهرت السرقة؟ ﴿**قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه**﴾ قال أخوة يوسف: جزاء السرقة الاسترقاق[1].

---

(١) الاسترقاق: العبودية، والمراد: يمكث السارق سنة يخدم الذي سرق منه كأنّه عبد.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦].

عند ذلك أخذوا يفتشون أوعية الطعام، بدءاً بأوعيتهم حتّى انتهوا إلى أوعية بنيامين فاستخرجوا الصاع منها.

لقد أسقط ما في أيديهم وقالوا لأخيهم: فضحتنا وسوّدت وجوهنا، متى أخذت هذا الصاع؟.

فأجابهم: وضع هذا الصاع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

لقد اشتدّ جزعهم، وعظم حزنهم، ولم يستطيعوا السيطرة على أعصابهم و **﴿قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾** إنّ حياة الصديق مليئة بالمحن والبلاء، فهو منذ نعومة أظفاره تموت أمّه، فتحتضنه عمته، وبعد أن ترعرع أراد أبوه أخذه، وكانت مأنوسة به، ونفسها لا تسمح بفراقه، لذا عمدت إلى منطقة لاسحاق عليه السلام كانوا يتوارثونها بالكبر، فشدّتها على وسط يوسف وادعت أنّه سرقها، وكان من سنّتهم استرقاق السارق، فحبسته بذلك السبب عندها.

﴿فأسرّها يوسف في نفسه﴾ فأخفى يوسف تلك الكلمة التي قالوها **﴿ولم يبدها لهم﴾** لم يظهرها **﴿قال أنتم شر مكاناً﴾** أنتم أشر صنيعاً بما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم، وعقوق أبيكم، فأنتم شر مكاناً عند الله منه؟ أسرّ هذه المقالة في نفسه، ثم جهر بقوله: **﴿والله أعلم بما تصفون﴾** انظر إلى الخلق النبوي الرفيع، فهو يترك لهم ما صنعوه به من الأذى وإرادة

القتل، وحتّى بعد أن نسبوا له السرقة لا يجابههم بما يكرهون، علماً أنه بامكانه أن ينكّل بهم أعظم تنكيل.

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨] لقد اسودّت الدنيا بأعينهم لهذا الحدث غير المتوقَّع، وأعظم شيء عليهم هو مواجهة أبيهم بالأمر، فتجدّد أحزانه؛ لقد ودّوا بصدق أنه يؤخذ أحدهم مقابل الافراج عنه.

لقد رفض طلبهم بقوله **﴿معاذ الله أن نأخذ إلّا من وجدنا متاعنا عنده﴾** ولم يقل من سرق تحرّزاً من الكذب **﴿إنّا إذاً لظالمون﴾** لو فعلنا ذلك لكنّا ظالمين.

﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ [يوسف: ٨٠].

فلما يئسوا من أن يجيبهم إلى ما سألوه من تخلية أخيهم، انفردوا عن الناس من غير أن يكون معهم من ليس منهم، يتناجون ـ يتشاورون ـ فيما يواجهون به أباهم، بل أبعد من هذا هل يرجعون أو يقيمون.

وهذه الجملة لو اجتمع بلغاء العالم على أن يأتوا بمثلها لعجزوا.

وأخيراً بعد التشاور قرروا الرجوع إلى أبيهم واعلامه بما جرى **﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا ان ابنك سرق﴾** في الظاهر **﴿وما شهدنا﴾** عندك بهذا **﴿إلّا بما علمنا﴾** أنّ الصاع استخرج من رحله في الظاهر **﴿وما كنّا للغيب حافظين﴾** إنّا لم نعلم الغيب حين سألناك أن تبعث بنيامين معنا، ولم ندر أنّ أمره يؤول إلى هذا وإنما قصدنا به الخير، ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به.

وأنت أعزّك الله لا تستطيع أن تدرك ما نزل بنبيِّ الله يعقوب عليه السلام من الحزن والألم، ولعلّها كانت تضاهي مصيبته في يوسف عليه السلام.

إنّ الموضوع يلفّه الغموض، وهم في نظره متهمون؛ لقد بادرهم ﴿**بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً**﴾ فيما أظن.

لقد تدرّع عليه السلام للمصيبة بالصبر ﴿**فصبر جميل**﴾ لا جزع فيه ولا شكوى.

وفي الوقت الذي تشتبك عليه الكوارث، وتتلملم عليه النكبات إلّا أنّه كلّه أمل بفرّاج الكرب العظام ﴿**عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً**﴾ يوسف وبنيامين، وروبيل الذي تخلّف في مصر حياءً من أبيه ﴿**فلن أبرح حتّى الأرض يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين**﴾.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ [يوسف: ٨٤].

انصرف وأعرض عنهم لشدة الحزن، ولعلّ حزنه من أجل الذين معه أكثرمن الغائبين عنه، فهو مقتنع بتفريطهم واساءتهم ليوسف وأخيه، فقد كان يؤمّل أن يكونوا أنبياء، أو في مصاف الأولياء، وطليعة الأتقياء، فكيف يبدر منهم ذلك؟!.

إنّه يردّد في وحدته ﴿**يا أسفىٰ على يوسف**﴾ يا طول حزني على يوسف: لقد بلغ به الحزن حتّى ﴿**ابيضت عيناه**﴾ من البكاء، فصار لا يبصر بهما ﴿**فهو كظيم**﴾ مملوء من الحزن والهم، ممسك للغيظ، لا يشكو به إلى أحد.

☼

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥] وهم في هذه المرّة كلّهم شفقة وحنان على أبيهم، علماً أنّه لم يجرِ منهم تقصير أو افراط في حقّ أخيهم بنيامين. إنّهم الآن في أشد ما يتصوّر من الندم على ما صنعوه بيوسف لما يرون ما نزل بأبيهم،

إنّهم ما كانوا يتصورون أن يبلغ الأمر بأبيهم الشيخ إلى هذه الحال، ولو علموا ذلك لما أقدموا على الجريمة، لقد اجتمعوا به يخفّفون عنه بعض الشيء ﴿**تالله تفتؤا تذكر يوسف حتّى تكون حرضا**﴾ لا تزال تذكر يوسف حتّى تكون قريباً من الموت ﴿**أو تكون من الهالكين**﴾ الميتين ويجيبهم عليه السلام ﴿**إنّما أشكو بثّي**﴾ همّي ﴿**وحزني إلى الله**﴾ في ظُلَمِ الليالي وأوقات خلواتي، لا إليكم.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] أمرهم بالسفر إلى مصر، وأن يستخبروا من شأنهما، ويطلبوا خبرهما، بعد أن زودهم بالعطاء ﴿**ولا تيأسوا من روح الله**﴾ لا تقنطوا من رحمته ﴿**إنه لا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون**﴾ يريد أنّ المؤمن من الله على خير، ويرجوه في الشدائد والبلاء، ويشكره ويحمده في الرخاء، والكافر ليس كذلك.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨] أصابنا ومن يختص بنا الجوع والحاجة، والشدّة من السنين الشدائد القحاط ﴿**وجئنا ببضاعة مزجاة**﴾ رديئة، ندافع بها الأيام، وليست مما يتسع به ﴿**فأوف لنا الكيل**﴾ كما كنت توفي في السنين الماضية لا تنظر إلى قلّة بضاعتنا في هذه السنة.

وأعطوه رسالة من أبيهم يحكي له ما نزل به، ويطلب منه اطلاق بنيامين، وتزويدهم بالقمح.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩].

أخذ الرسالة وقبّلها، ووضعها على عينيه، وانتحب باكياً، ثم انبرى

إليهم معاتباً ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف﴾ من اذلاله، وابعاده عن أبيه، وإلقائه في البئر، والاجتماع على قتله ﴿وأخيه﴾ وما فعلتم بأخيه من إفراده عن يوسف، والتفريق بينهما، حتّى صار ذليلًا فيما بينكم ﴿إذ أنتم جاهلون﴾ صبيان، ومعناه: فعلتم ذلك حين كنتم جاهلين، جاهلية الصبي في عنفوان الشباب، حين يغلب على الإنسان الجهل.

وكان هذا تلقيناً لهم لما يعتذرون به إليه، وهذا هو الغاية في الكرم، إذ صفح عنهم، ولقّنهم وجه العذر.

﴿قالوا﴾ له ﴿أإنك لأنت يوسف﴾ فرفع التاج عن رأسه وتبسّم فرأوا ثناياه كاللؤلؤ المنظوم فعرفوه ﴿قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا﴾ بكل خير في الدنيا والآخرة ﴿إنّه من يتق﴾ يتق الله فيأتي بما أمره به، وينتهي عما نهاه عنه ﴿ويصبر﴾ على المصائب، وعن المعاصي ﴿فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ أجر من كان هذا حاله ﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾ فضلك واختارك الله علينا بالحلم والعلم والعقل والحسن والملك ﴿وإن كنّا لخاطئين﴾ ما كنّا إلّا مخطئين آثمين فيما فعلنا ﴿قال﴾ يوسف ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ لا تعيير ولا توبيخ ولا تقريع عليكم فيما فعلتم ﴿يغفر الله لكم﴾ ذنوبكم، فإنّي أستغفر الله لكم ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ في عفوه عنكم ما تقدّم من ذنبكم.

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣] وبعد العتاب والاستغفار لهم سألهم عن أبيهم فقال: ما فعل أبي بعدي؟.

قالوا: ذهبت عيناه.

قال: اذهبوا بقميصي هذا واطرحوه على وجهه يعد بصراً كما كان من قبل.

وقال: إنّما يذهب بقميص من ذهب به أولًا.

فقال يهوذا: أنا ذهبت به وهو ملطخ بالدم، فأخبرته أنّه أكله الذئب.

قال: فاذهب به وأخبره أنه حيّ وافرحه كما أحزنته؛ فحمل القميص وخرج حافياً حاسراً حتّى أتاه.

إنّ هذا القميص نزل به جبرائيل عليه السلام على إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار فألبسه إيّاه، فكسا إبراهيم عليه السلام ذلك القميص اسحاق عليه السلام، وكسّاه اسحاق عليه السلام يعقوب عليه السلام، وكساه يعقوب عليه السلام يوسف عليه السلام. قال مجاهد: أمره جبرائيل أن أرسل إليه قميصك فإنّ فيه ريح الجنّة؛ لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا صحّ وعوفي[1] ثم طلب منهم أن يأتوا إلى مصر ﴿**وأتوني بأهلكم أجمعين**﴾ ثم زوّدهم برواحل تكفيهم للمجيء.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤] لما خرجت القافلة من مصر متوجهة إلى الشام، قال يعقوب لأولاد أولاده الذين كانوا عنده ﴿**إنّي لأجد ريح يوسف**﴾ إنّه وجد ريح قميصه من مسيرة عشر ليال.

قوله: ﴿**لولا أن تفندون**﴾ تسفّهوني، وتضعّفوني في الرأي وأجابوه: ﴿**قالوا تالله إنّك لفي ضلالك القديم**﴾ قالوا له ذلك اشفاقاً عليه وترحماً، ومعناه: إنّك لفي ذهابك القديم عن الصواب في حب يوسف، لأنّه كان عندهم أنّ يوسف قد مات منذ سنين.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦].

---

(١) مجمع البيان: ٥/ ٤٥٢.

لقد طوى يهوذا المسافة سريعاً حتّى وصل المنزل، فألقى القميص على وجه أبيه فعاد بصيراً، وأكثر من هذا: عاد إليه شبابه بعد الهرم، وقوّته بعد الضعف، وسروره بعد الحزن، فقال لابنه: ما أدري ما أثيبك به، هوّن الله عليك سكرات الموت.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧].

أقبل أولاد يعقوب عليه السلام مسرعين إلى أبيهم، معترفين له بخطئهم، نادمين على ما فرط منهم، يطلبون من نبيّ الله أن يسأل لهم من الله جلّ جلاله لهم المغفرة والتوبة **﴿قال سوف أستغفر لكم ربّي إنّه هو الغفور الرحيم﴾** إنّه أخرهم إلى سحر ليلة الجمعة، لأنّه أقرب إلى اجابة الدعاء؛ إنّه كان يقوم ويصف أولاده خلفه عشرين سنة، يدعو ويؤمنون على دعائه واستغفاره لهم حتّى نزل قبول توبتهم، وروي أن جبرائيل عليه السلام علّم يعقوب هذا الدعاء «**يا رجاء المؤمنين لا تخيّب رجائي، ويا غوث المؤمنين اغثني، ويا عون المؤمنين أعنّي، ويا حبيب التوابين تُبْ عليّ واستجب لهم**»[1].

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩].

لقد تحمّل يعقوب عليه السلام بجميع أهله إلى مصر، وحثوا السير فرحاً وسروراً، فلما دخلوا على يوسف في دار الملك، اعتنق أباه وقبله وبكى، ورفعه ورفع خالته ـ أم يامين ـ على سرير الملك ثم دخل منزله واكتحل وادهن، ولبس ثياب العز والملك فلما رأوه سجدوا جميعاً شكراً لله جلّ جلاله على ما أنعم عليهم من اجتماع الشمل، ورفع المكاره.

(١) مجمع البيان: ٥/ ٤٥٥.

وانبرى يوسف عليه السلام قائلًا : **﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي﴾** هذا تصديق رؤياي التي رأيتها **﴿من قبل قد جعلها ربّي حقا﴾** صدقا في اليقظة.

﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [يوسف: ١٠١] لمّا جمع الله جلّ جلاله ليوسف شمله، وأقرّ له عينه، وأتمّ له رؤياه، ووسّع عليه في ملك الدنيا ونعيمها، علم أنّ ذلك لا يبقى له ولا يدوم، فطلب من الله سبحانه نعيماً لا يفنى، وتاقت نفسه إلى الجنّة، فتمنّى الموت ودعا به، ولم يتمنّ ذلك نبيُّ قبله ولا بعده، فقال مبتهلًا: إلى الله سبحانه وتعالى **﴿ربّ قد آتيتني من الملك﴾** أعطيتني النبوة وملك مصر **﴿وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾** تأويل الرؤيا **﴿فاطر السموات والأرض﴾** خالق السماوات والأرض ومنشئهما لا على مثال سبق **﴿أنت وليي﴾** ناصري ومدبّري وحافظي **﴿في الدنيا والآخرة﴾** تتولّى فيهما اصلاح معاشي ومعادي **﴿توفّني مسلماً﴾** ثبتني على الإيمان إلى وقت الممات، وأمتني مسلماً **﴿وألحقني بالصالحين﴾** بأهل الجنّة من الأنبياء والأولياء والصديقين.

فتوفاه الله بمصر وهو نبيّ، فدفن في النيل في صندوق من رخام، وذلك أنّه لمّا مات تشاح الناس عليه، كلُّ يُحِبُّ أن يُدفن في محلته، لما كانوا يرجون من بركته، فرأوا أن يدفنوه في النيل، فيمرُّ الماء عليه ثم يصل إلى جميع مصر، فيكون كلهم فيه شركاء، وفي بركته شرعاً سواء، فكان قبره في النيل إلى أن حمله موسى عليه السلام حين خرج من مصر.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] كان في بدء السورة **﴿لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين﴾** وفي ختامها **﴿لقد كان في قصصهم عبرة﴾** في قصص يوسف واخوته فكرة وبصيرة من الجهل وموعظة، وهو ما وصل إليه من

ملك مصر، والجمع بينه وبين أبيه واخوته... إلخ ﴿**لأولي الألباب**﴾ لذوي العقول.

فينبغي أن نأخذ منها الدروس النافعة، وأن تشدّنا للانقياد لأوامر الله جلّ جلاله، والأخذ بما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه، فإنّ ذلك يوصلنا إلى سعادة في الدنيا ونعيم في الآخرة.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يأخذ بأيدينا إلى منهج الحق والصواب.



أيوب عليه السلام

الصبر

الصبر: هو توطين النفس على تحمل المشاق من دون جزع؛ ويقسم إلى ثلاثة أقسام: **فصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على البلاء. فصبر الطاعة**، لما فيها من تكاليف ومتاعب للمكلّف، يجب عليه أن يصبر على تحملها ليفوز برضا الله جلّ جلاله؛ وعلى سبيل المثال: الحج، ويحتاج إلى تحمّل وعثاء السفر، وحرّ الحجاز، والجهد في تأدية المناسك مع الزخم البشري الهائل، وغير ذلك مما يحتاج إلى الصبر.

والصبر عن المعصية: فالنفس أمّارة بالسوء، وتميل للانزلاق، وتهوى الرذيلة، وتألف المعصية؛ والصبر هو الزمام الذي يأخذ بها إلى نهج الرشاد، يوقفها عند حدّها، ويمنعها عن التمادي في غيّها.

الصبر على البلاء: فالدنيا دار بلاء واختبار، فيها فقدان الأحبّة، وذهاب المال، ومكابدة الأمراض، وغير ذلك من عوارض الحياة، فعلى العبد أن يوطّن نفسه على تحمل ذلك بعزم وثبات.

واعلم أنّ بالصبر تُنال الدرجات الرفيعة، والمقامات السامية، وحسبنا الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وصبر الأنبياء عليهم السلام هو من النوع الأخير (الصبر على البلاء) فهم لا يحتاجون إلى صبر على الطاعة، لأنّهم على غرار ما يقول أمير

المؤمنين عليه السلام: ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، ولكن وجدتك أهلًا للعبادة فعبدتك.

إنّهم أتوا بالعبادات والطاعات التي لم يلزمهم بها الله جل جلاله، فقد تطوّعوا بكثرة الصلاة والصيام وغيرهما من العبادات؛ إن المفسّرين يقولون في قوله تعالى: ﴿طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١، ٢] أنّه صلوات الله وسلامه عليه كان يصلّي الليل كله، ويعلّق صدره بحبل حتى لا يغلبه النوم، فأمره سبحانه بأن يخفف على نفسه، وذكر أنّه ما أنزل عليه الوحي ليتعب كل هذا التعب[1] وعلى هذا كان نهج الأنبياء والأوصياء عليهم الصلاة والسلام.

وموضوع المعصية: فهم معصومون عن كل قبيح، منزّهون عن كل رذيلة، بهذا جاءت الآثار، وحكم به العقل؛ فتحقق صبرهم صلوات الله عليهم على بلاء الدنيا و محنها؛ وأنت لو قرأت سير الأنبياء صلوات الله عليهم لوجدتها محفوفة بالمكاره والمتاعب والأذى، فقد تصدّى لهم الطغاة والجبابرة ليحولوا بينهم وبين تبليغ رسالاتهم، فجنّدوا كل طاقاتهم في ذلك فنحن حينما نذكر إبراهيم عليه السلام نتذكّر نمرود والنار التي عملها، وحينما نذكر موسى عليه السلام نتذكّر فرعون وهامان والقوم الفاسقين، وسعيهم الحثيث لاطفاء نور الله، وكذلك حينما نذكر محمداً صلى الله عليه وآله وسلم نتذكر قريشاً ومساعيها في خنق الرسالة الأحمدية، علماً أنّ ذلك لم يَزِد الأنبياء عليهم السلام إلّا ثباتاً وعزماً ومضيّاً على تبليغ الرسالة.

وقد تكون بلواهم من جهات أخرى، كما ابتلي يوسف عليه السلام باخوته، ثم بزليخا، وربّما كان بشكل آخر كما ابتلي أيوب عليه السلام، فقد

---

(١) مجمع البيان: ٧ - ٨/ ٥.

ابتلاه الله تعالى بفقد الأولاد، وذهاب الأموال، ثمّ بالمرض العضال، رفعاً للدرجات، وتعليماً لكل فرد من الأمّة على التأسّي بالأنبياء عليهم السلام في الصبر على البلاء الذي يصيبه؛ والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: أعظم الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل[١].

وقال صلى الله عليه وآله: إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه، وإن صبر اجتباه، فإن رضي اصطفاه[٢].

ويقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: مثل المؤمن كمثل كفّتي ميزان، كلّما زيد في إيمانه زيد في بلائه، ليلقى الله عزّ وجلّ ولا خطيئة له[٣].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: إنّ عظيم الأجر لمع عظيم البلاء، وما أحبّ الله قوماً إلّا ابتلاهم[٤].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: في كتاب عليٍّ عليه السلام: إنّ أشدّ الناس بلاء النبيّون، ثم الوصيّون، ثمّ الأمثل فالأمثل؛ وإنّما يُبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمن صحّ دينه، وصحّ عمله اشتدّ بلاؤه، وذلك أنّ الله عزّ وجلّ لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن، ولا عقوبة لكافر؛ ومن سخف دينه، وضعف عمله، قلّ بلاؤه؛ والبلاء أسرع إلى المؤمن المتّقي من المطر إلى قرار الأرض[٥].

نتحدّث في هذا الفصل عما ابتلي به أيوب عليه السلام إذ تبدأ قصته بشكره الكثير لله جلّ جلاله، فقد اتصف بكثرة الشكر، وكان سبحانه وتعالى يشكر له ذلك.

---

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٤/ ٥٣.
(٢) أمالي الشيخ المفيد: ٦٣.
(٣) ارشاد القلوب: ١/ ١٩٩.
(٤) مشكاة الأنوار: ٢٩٨.
(٥) علل الشرايع: ٤٤.

يقول الإمام الصادق عليه السلام لأبي بصير وقد سأله عن بليّة أيوب عليه السلام لأيّ علّة كانت؟.

قال: لنعمة أنعم الله عليه بها، وأدّى شكرها، وكان في ذلك لا يحجب ابليس من دون العرش، فلّما صعد ورأى شكر أيّوب نعمة ربه حسده ابليس وقال: يا رب إنّ أيوب لم يؤدّ إليك شكر هذه النعمة إلّا بما أعطيته من الدنيا، ولو حرمته دنياه ما أدّى إليك شكر نعمة أبداً.

فقيل له: قد سلطتك على ماله وولده؛ فانحدر إبليس فلم يبق له مالّا ولا ولدا، فازداد أيوب لله شكراً وحمداً.

قال: سلطني على زرعه.

قال: قد فعلت، فجاء مع شياطينه فنفخ فيه فاحترق، فازداد أيوب شكراً وحمداً.

فقال: يا رب سلّطني على غنمه، فسلّطه على غنمه فأهلكها فازداد أيوب شكراً وحمداً.

قال: يا رب سلّطني على بدنه، فسلّطه على بدنه ما خلا عقله وعينيه، فنفخ فيه ابليس فصار قرحة واحدة، من قرنه إلى قدمه، فبقي على ذلك عمراً طويلًا يحمد الله ويشكره[١].

ورواية الثعلبي: وأيوب على ما به لا يفتر عن ذكر الله تعالى، والثناء عليه، والصبر على ما ابتلاه الله، فصرخ عدوّ الله صرخة جمع بها جنوده من أقطار الأرض فزعاً من صبر أيوب، فلما اجتمعوا عليه قالوا له: ما حاجتك؟.

قال لهم: أعياني هذا العبد، سألت ربّي أن يسلّطني على ماله وولده، فلم أدع له مالّا ولا ولداً، فلم يزده ذلك إلّا صبراً وثناءً على الله، ثمّ

---

(١) البرهان في تفسير القرآن ٤/ ٥١.

سلّطت على جسده فتركته قرحة ملقى على كناسة لا يقربه إلّا امرأته، وقد افتضحت من ربّي، فاستعنت بكم لتعينونني عليه.

فقالوا: أين مكرك، أين علمك الذي أهلكت به من مضى؟!.

قال: بطل ذلك كلّه في أيوب، فأشيروا عليّ[١].

المرأة الصالحة

عندما نذكر نبيَّ الله أيوب عليه السلام يتبادر الذهن إلى زوجته الصالحة (رحمة) بنت نبيِّ الله يوسف عليه السلام، وموقفها من زوجها المبتلى.

فقد ذكر أهل السير والتاريخ أنّ أهل البلد أخرجوا نبيَّ الله أيوب عليه السلام من بلدهم ولم يبق معه أنيس سوى زوجته، فهي التي كانت تمرّضه، وتقوم بما يلزمه من طعام وشراب، وكانت المشكلة أن ليس معها مال لتنفقه عليه، فكانت تباشر الخدمة في البيوت ليعطوها ما تنفقه على نفسها وزوجها.

وهذا اللون من البلاء لو تأملته جيداً لوجدته من أشدّ الأمور، فهي ابنة نبيٍّ، وزوجة نبيٍّ، تزاول هذا اللون من العمل برحابة صدر لترجع بأرغفة يسيرة إلى زوجها فيعيشان بها.

وطبيعي أنها كانت دونه صلوات الله عليه في الإيمان، لأنّ الأنبياء هم أفضل الناس إيماناً ومعرفة وهدى، لذا كانت تطلب منه أن يدعو بالفرج، ويجيبها: ويلك أرأيت مما تبكي عليه ممّا كنا فيه من المال والولد والصحّة، من أنعم به علينا؟.

قالت: الله.

---

(١) عرائس المجالس: ١٦١.

قال: فكم متّعنا به؟.

قالت: ثمانين سنة.

قال: ويلك ما عدلت ولا أنصفت ربّك، ألا صبرت في هذا البلاء الذي ابتلانا به ربّنا ثمانين سنة، كما كنا في الرخاء[١].

والعاقبة للمتقين

في الدنيا والآخرة، فهم يفوزون بهما جميعاً، ويخسر أولياء الشيطان الدنيا والآخرة، ففي الدنيا تصحبهم الآلام والأمراض لفجورهم ولتناولهم الخمرة، وفي الآخرة الخلود في الجحيم.

وموضوعنا (أيوب وزوجته) والشيطان يجهد بكل قواه لتبدو منه صلوات الله وسلامه عليه كبوة، لكنّه يزداد في كل ساعة شكراً لله تعالى وتقرّباً إليه.

لقد وجد عدو الله ثغرة جديدة فدخلها مؤمّلًا أن يجد ضالته، فعن ابن عباس رضوان الله عليها قال: إنّ إبليس لقيها ـ زوجة أيوب ـ في صورة طبيب، فدعته إلى مداواة أيوب عليه السلام، فقال: أداويه على أنّه إذا برأ قال: أنت شفيتني، لا أريد جزاءً سواه.

فقالت: نعم، فأشارت إلى أيوب بذلك فحلف ليضربنّها[٢].

وحسب مجرى الحادثة أنّها لمّا رأت غضبه ذهبت عنه، واشتدّ على نبيِّ الله الأمر، فأعظم شيء يؤلم الأنبياء عليهم السلام هو السلوك المعوج لمن فرض أن يكون مستقيماً.

استكبر أيوب عليه السلام ما أشارت زوجته عليه بأن يقبل عرض الطبيب،

---

(١) عرائس المجالس: ١٦١.

(٢) قصص الأنبياء: ٢٢٨.

لأنّ المفروض بها أن تستنّ بأبيها إبراهيم عليه السلام حيث يقول: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

لهذا وغيره ضاقت به الحال، فتوجّه إلى كشّاف الكرب العظام قائلًا: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١].

وجاء الفرج، فقد هبط جبرائيل عليه السلام قائلًا: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢].

فنبعت له في الحال عينان[١] اغتسل بواحدة فزال ما بجسمه من أذى، وشرب من الأخرى فارتوى، وطلب منه جبرائيل عليه السلام أن يضربها بعذق نخل تكون عيدانه مائة كي لا يحنث في يمينه، ويغفر لها هذه الهفوة، لأن عطفها عليه أنساها تبعة كلامها.

لم تستطع المرأة الصالحة أن تطيل الغيبة عن زوجها، فعادت فرأت شخصاً أحسن وأجمل ما يكون مخلوق، فسألته يا عبدالله هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان هاهنا؟.

فقال لها: وهل تعرفينه إذا رأيتيه؟.

فقالت: نعم، وكيف لا أعرفه، تبسّم وقال: ها أنا هو، فعرفته لما ضحك فاعتنقته.

قال ابن عباس: والذي نفسي بيده ما فارقته من عناقه حتّى مرّ بهما كل ما كان لهما من المال والولد[٢].

وتتابعت عليهما نعم المنعم ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣].

---

(١) في العراق، وفي محافظة الحلة، عينان في مكان واحد، يقصدهما الناس للاستشفاء يُروى أنهما اللتان نبعتا لأيوب عليه السلام.

(٢) عرائس المجالس: ١٦٠.

يقول ابن عباس: ردّ الله على المرأة شبابها حتى ولدت له ستة وعشرين ذكراً، وكانت له سبع بنين وسبع بنات أحياهم الله بأعيانهم[١].

إنّها عاقبة التقوى والصبر، سعادة في الدنيا، ونعيم دائم لا يزول في الآخرة، أضف إلى ذلك الذكر الجميل في كتاب الله العزيز، يتلوه المسلمون آناء الليل وأطراف النهار.

في العرض القرآني المجيد

القرآن الكريم ذكر أيوب عليه السلام في أربع سور، نذكر من ذلك:

١ - ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وينبغي للإنسان عندما يُصاب بنكبة أن يتوجّه إلى الله تعالى في تفريجها، ويفزع إليه في كشفها، فهو القائل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

وأيوب عليه السلام وإن كانت مصيبته عظيمة جداً، وهي حتّى الآن مضرب المثل في العظم، فقد أصيب نبيُّ الله بنكبات وبلايا لا يطيقها إلّا الخلّص من الأولياء، ولكنّه صلوات الله وسلامه عليه لم يسأل الله جلّ جلاله كشف ما به تأدّباً، واحتساباً للأجرة والثواب، رغم الحاح زوجته عليه.

ولكن حدث أمر لم يكن بالحسبان فتضايق منه صلوات الله وسلامه عليه فتوجّه إلى الله تعالى داعياً، وحصلت الاجابة بالفور.

---

(١) قصص الأنبياء: ٢٣١.

١ - فاستجبنا له:

إنّ الذي فتح باب الدعاء، وأمر به لا يبخل بالاجابة، ولكن أحياناً تقتضي الحكمة الإلهية عدم الاستجابة لمصالح لا يعرفها العبد، كمن يسأل الله سبحانه وتعالى سيارة، والله سبحانه يعلم أنّ منيّته بها، أو يسأل الله جلّ جلاله مالًا والله يعلم أنه يكون سبباً لهلاكه، فلا يستجيب له، وثمة شيء آخر: نحن ندعو من دون توجّه، خلافاً لما أمرنا؛ حتّى يُحكى عن أحد ملوك الإسلام زار إحدى العتبات المقدَّسة، فوجد أعمى يتوسّل بالله تعالى في كشف ضرّه، فسأله منذ كم تدعو؟ فأخبره بالمدّة.

فقال له: أنا الملك فلان، أطوف مرّة حول المرقد الشريف فإن وجدتك لا تزال أعمى قتلتك.

توجّه الرجل توجّهاً كاملًا للدعاء خوفاً على نفسه من القتل، فما هي إلّا لحظات حتّى عاد إليه بصره بأحسن ما يكون.

نعود للآية: **﴿فاستجبنا له﴾** أجبنا دعاءه ونداءه **﴿فكشفنا ما به من ضرّ﴾** أزلنا ما به من الأوجاع والأمراض.

﴿وآتيناه أهله ومثلهم معهم﴾.

وعندما تقتضي الاشاءة، وتحصل الإجابة يكون العطاء أضعاف المسألة، كمن يدعو ويسأل الله جل جلاله داراً فيرزقه داراً وبستاناً، أو يسأله زوجة فيرزقه زوجة وأولاداً، فهو يعطي ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(١) [هود: ١٠٨].

استجاب الله جلّ جلاله لعبده أيوب عليه السلام، فكشف ما به من ضرّ، وأيضاً أحيا له أهله الذين هلكوا في النكبة، ورزقه آخرين، كما ردّ عليه أمواله التي ذهبت وأعطاه غيرها.

---

(١) غير مجذوذ: غير مقطوع.



الخضر عليه السلام

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠].

١ - المنطلق

إنّ سبب اللقاء أنّ موسى عليه السلام سئل من أعلم الناس؟ فقال: أنا، ورواية الطبري: إنّ موسى عليه السلام قام في بني اسرائيل خطيباً، فقيل له: أي الناس أعلم؟.

فقال: أنا، فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إليه، فقال: بل عبد لي عند مجمع البحرين(١).

وهو صلوات الله عليه لم يبتعد عن الصواب، فالنبيُ يجب أن يكون أعلم الأمّة، لاسيّما وهو أحد أولي العزم الذين بعثوا للعالم أجمع، والأمر الآخر: إنّ الناس حينما يسمعون منه ذلك يكون تعلقهم به أكثر، والتفافهم حوله أشد، وهذا ما يطلبه الرسل، ولكنّ الله جلّ جلاله يريد لأوليائه ورسله أن يتزيّنوا بالتواضع، لاسيما وهم لا يحيطون علماً بجميع خلقه، فلهذا وغيره أُخبر بأنّ في الأرض من هو أعلم منه، وهنا يظهر نبل الرسول الكريم، فهو بمجرّد أن علم بذلك سأل الله سبحانه أن يدلّه عليه ليتعلّم منه.

---

(١) تاريخ الطبري: ١/ ٢٥٧.

وأجابه سبحانه وتعالى إلى مسألته، وقال له: تأخذ حوتاً فتجعله في مكتل، فحيث تفقده فهو هناك[1].

وهذا وحده يكفي طلاب العلم، بل والعلماء في الحرص على طلب العلم، والرحلة من أجله، وعدم الاستنكاف من التعلّم، اقتداءً بنبيِّ الله موسى عليه السلام، لاسيّما والعلم في العلم ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] وأمرنا بطلب العلم من المهد إلى اللحد.

٢ - الرحلة

توجّه موسى عليه السلام مع تلميذه وخليفته يوشع بن نون عليه السلام إلى ملتقى البحرين: بحر فارس وبحر الروم، للأخذ من العالم عليه السلام.

نعود للآيات: ﴿**لا أبرح حتّى أبلغ مجمع البحرين**﴾ لا أزال أمضي وأمشي، ولا أسلك طريقاً آخر حتّى أبلغ ملتقى البحرين ﴿**أو أمضي حقبا**﴾ دهراً طويلًا ﴿**فلما بلغا مجمع بينهما**﴾ فلما بلغ الموضع الذي يجتمع فيه رأس البحرين ﴿**نسيا حوتهما**﴾ ضلّ الحوت عنهما حين اتخذ سبيله في البحر سرباً، فسمى ضلاله عنهما نسياناً ﴿**فاتخذ سبيله في البحر سربا**﴾ فاتخذ الحوت طريقه في البحر مسلكاً يذهب فيه؛ وذلك أنّ موسى وفتاه تزوّدا حوتا مملوحاً، ثم انطلقا يمشيان على شاطىء البحر حتّى انتهيا إلى صخرة على ساحل البحر فأويا إليها، وعندها عين ماء تسمّى عين الحياة، فجلس يوشع بن نون وتوضّأ من تلك العين، فانتضح على الحوت شيء من ذلك الماء فعاش، ووثب في الماء، وجعل يضرب بذنبه الماء، فكان لا يسلك طريقاً في البحر إلّا صار ماءً جامداً، فذلك معنى قوله: ﴿**فاتخذ سبيله في البحر سربا * فلما جاوزا**﴾ ذلك المكان ﴿**قال**﴾ موسى ﴿**لفتاه آتنا غداءنا**﴾ أنهما انطلقا بقيّة يومهما وليلتهما، فلما كان من الغد قال موسى

---

(١) المصدر نفسه.

ليوشع: أعطنا ما نتغدّى به ﴿**لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا**﴾ تعباً وشدّة ﴿**قال**﴾ له يوشع عند ذلك ﴿**أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنّي نسيت الحوت**﴾ إنّ يوشع تذكّر قصة الحوت لما دعا موسى بالطعام ليأكل، فقال له: أرأيت حين وصلنا إلى الصخرة، ونزلنا هناك، فإنّي تركت الحوت وفقدته ﴿**وما أنسانيه إلّا الشيطان أن أذكره**﴾ وذلك أنّه لو ذكر لموسى عليه السلام قصّة الحوت عند الصخرة لما جاوزها موسى، ولما ناله النصب الذي أشقاه ﴿**واتخذ سبيله في البحر عجبا**﴾ وهو أنّ الماء انجاب عنه، وبقي كالكوّة لم يلتئم ﴿**قال ذلك ما كنّا نبغ**﴾ قال موسى: ذلك ما كنّا نطلب من العلامة ﴿**فارتدّا على آثارهما**﴾ رجعا وعادا في الطريق الذي جاءا منه يقصّان آثارهما ﴿**قصصا**﴾ القصص: تتبع الأثر، وهو رجوع الرجل من حيث جاء.

٣ - ﴿فوجدا عبداً من عبادنا﴾

وبعد جهد ليس بالقليل كان اللقاء، لقد وجدوا عبداً من عباد الله الصالحين قائماً على صخرة يصلي، وهو الخضر عليه السلام، واسمه بليا بن ملكان، وإنما سمّي خضراً لأنّه إذا صلّى في مكان اخضرّ ما حوله، سلّما عليه، فقال: وعليك السلام يا نبيّ بني إسرائيل.

فقال له: وما أدراك من أنا؟ ومن أخبرك أنّي نبيٌّ؟.

قال: من دلّك عليّ.

قوله تعالى: ﴿**آتيناه رحمة من عندنا**﴾ يعني النبوّة ﴿**وعلّمناه من لدنّا علماً**﴾ قال الإمام الصادق عليه السلام: كان عنده علم لم يكتب لموسى عليه السلام في الألواح، وكان موسى يظنّ أنّ جميع الأشياء التي يحتاج إليها في تابوته، وأنّ جميع العلم قد كتب له في الألواح[1].

(١) مجمع البيان: ٥ - ٦/٧٤٦.

٤ - ﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علّمت رشدا﴾

يتجلّى التواضع في أعظم صورة بنبيِّ الله موسى بن عمران ﷺ، في لقائه مع العالم، وطلب التعلّم منه، ويقول أمين الإسلام الطبرسي: ومتى قيل: كيف يكون نبيٌّ أعلم من موسى وفي وقته؟.

قلنا: يجوز أن يكون الخضر خصّ بعلم ما لا يتعلّق بالأداء، فاستعلم موسى من جهته ذلك العلم فقط، وإن كان موسى أعلم منه في العلوم التي يؤدّيها من قبل الله تعالى.

ومعنى الآية: تعلّمني علماً ذا رشد، والرشد: العلوم الدينيّة التي تُرشد إلى الحقّ[١].

وأنت تلاحظ أنّ موسى ﷺ عظّمه بهذا القول غاية التعظيم، حيث أضاف العلم إليه، ورضي باتباعه، وخاطبه بمثل هذا الخطاب: ولكنّ العالم يجيبه: ﴿**إنّك لن تستطيع معي صبرا**﴾ يثقل عليك الصبر، ولا يخف عليك، والسبب في ذلك: أنّ موسى ﷺ كان يأخذ الأمور على ظواهرها، والخضر ﷺ كان يحكم بما أعلمه الله من بواطنها، فلا يسهل على موسى مشاهدة ذلك ﴿**وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا**﴾ كيف تصبر على ما ظاهره عندك منكراً وأنت لم تعرف باطنه، ولم تعلم حقيقته؟ والخبر: العلم.

﴿**قال**﴾ موسى ﴿**ستجدني إن شاء الله صابراً**﴾ أصبر على ما أرى منك ﴿**ولا أعصي لك أمراً**﴾ تأمرني به، ولا أخالفك فيه.

---

(١) مجمع البيان: ٥ - ٧٤٦/٦.

وقال الزجاج: وفيما فعله موسى عليه السلام ـ وهو من جملة الأنبياء ـ من طلب العلم، والرحلة فيه، ما يدل على أنّه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته، ويجب أن يتواضع لمن هو أعلم منه[١].

وأخيراً وافق العالم بعد أن وضع شرطاً للتعلّم.

٥ - ﴿فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء﴾

هذا هو الشرط الذي وضعه، والمعنى: لا تسألني عن شيء أفعله مما تكره ولا تعلم باطنه حتّى أكون أنا الذي أفسّره لك، ويستفاد من الآيات أنّ العالم كان موكّلا بمُهمّات يؤدّيها بأمر الله جلّ جلاله، لا يهتدي أحد إلى أسرارها، وأنّ لله سبحانه وتعالى تدابير في خلقه سخّر هذا العالم لتنفيذها.

٦ - البداية

وعند بداية الأخذ والتعلّم شاهدا عصفوراً نقر في الماء، فقال الخضر لموسى عليه السلام: ما ينقص علمي وعلمك من علم الله إلّا مقدار ما نقر العصفور من البحر[٢].

٧ - ﴿حتّى إذا ركبا في السفينة خرقها﴾

لقد انخرم الشرط في بداية الطريق، وعند أوّل مرحلة للتعليم، فقد كانا سلام الله عليهما على شاطىء البحر، وأرادا العبور إلى أرض أخرى، فأتيا معبراً، فعرف صاحب السفينة العالم فحملهما، فلمّا ركبا في السفينة شقّها حتّى دخلها الماء، ولم يسع موسى عليه السلام السكوت، فقال معرّضاً: **﴿أخرقتها لتغرق أهلها﴾** وتتبيّن عظمة الكليم عليه السلام، فإنّه لم يقل لنغرق، بل إنّه أشفق على من فيها أكثر من اشفاقه على نفسه؛ وتابع كلامه وهو في نهاية الغضب: **﴿لقد جئت شيئاً إمرا﴾** منكراً عظيماً، ويجيبه العالم عليه السلام:

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الكامل في التاريخ: ١/ ١٢٤.

﴿ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبرا﴾ ألم أقل لك حين رغبت باتباعي أنّ نفسك لا تطاوعك على الصبر معي؟.

فتذكّر موسى ﷺ شرطه فاعتذر: **﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾** بما غفلت من التسليم لك، وترك الانكار عليك **﴿ولا ترهقني من أمري عسرا﴾** لا تكلّفني مشقةً، وعاملني باليسر ولا تعاملني بالعسر، ولا تضيّق عليّ الأمر في صحبتي إيّاك.

٨ - الحدث العظيم

الذي اهتزّ له نبيُّ الله موسى ﷺ، وأنكره عليه أشدّ الإنكار، وقامت قيامته، وذلك أنّهما خرجا من البحر، وانطلقا يمشيان في البر، فلقيا غلاماً يلعب مع الصبيان وكان أحسنهم وجهاً فذبحه العالم بسكين، فقال موسى ﷺ: **﴿أقتلت نفساً زكية﴾** طاهرة من الذنوب **﴿بغير نفس﴾** بغير قتل نفس، والمراد: أنّ الغلام لم يقتل أحداً حتّى يجب عليه القود **﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾** قطعاً منكراً، لا يُعرف في الشرع.

قال ذلك لأنّ قلبه صار كالمغلوب عليه حين رأى قتله، ويجيبه العالم بكل هدوء: **﴿ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبرا﴾**.

أعاد هذا القول لتأكيد الأمر عليه، والتحقيق لما قاله أوّلًا، مع النهي عن العود بمثل اعتراضه.

٩ - الاعتذار مجدّداً

عاد موسى ﷺ إلى الاعتذار مرّة أخرى، وملتزماً أن لا يسأله بعد ذلك عن شيء يفعله **﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني﴾** فلا تتركني أصحبك **﴿قد بلغت من لدنّي عذراً﴾** أعذرت فيما بيني وبينك، وقد

أخبرتني أنّي لا أستطيع معك صبراً وروي أنّ النبيَّ ﷺ تلا هذه الآية فقال: استحيى نبيُّ الله موسى، ولو صبر لرأى ألفاً من العجائب[١].

١٠ - الفراق

قوله تعالى: ﴿**فانطلقا حتّى أتيا أهل قرية**﴾ على ساحل البحر، يقال لها (ناصرة) وبها سمّيت النصارى نصارى ﴿**استطعما أهلها**﴾ سألاهم الطعام ﴿**فأبوا أن يضيفوهما**﴾ لم يضيّفهما أحد من أهل القرية، ويقول الرسول الأعظم ﷺ: كانوا أهل قرية لئام، ويقول الإمام الصادق عليه السلام: لم يضيّفوهما ولا يضيّفون أحداً إلى أن تقوم الساعة[٢].

قوله: ﴿**فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ**﴾ أشرف أن ينهدم ﴿**فأقامه**﴾ فسوّاه ﴿**قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً**﴾ لما بخلوا عليهما بالطعام، وأقام الخضر عليه السلام الجدار المشرف على الانهدام، عجب موسى عليه السلام من ذلك فقال: لو شئت لعملت هذا الجدار بأجر تأخذه منهم حتّى كنّا نسد به جوعنا ﴿**قال هذا فراق بيني وبينك**﴾ هذا وقت فراق اتصالنا ﴿**سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً**﴾ سأخبرك بتفسير الأشياء التي لم تستطع على الامساك عن السؤال عنها صبراً.

الرحمان الرحيم

يُحكى أنّ شخصاً رأى عقرباً يعدو مسرعاً فتبعه حتّى انتهى إلى شجرة ورجل نائم تحتها وقد طوّقته حيّة عظيمة، فضربها العقرب فماتت لحالها، وعاد مسرعاً.

تعجّب الرجل من ذلك كثيراً، وأيقظ النائم، وأوقفه على لطف الله جلّ جلاله بعباده، ورعايته لهم في نومهم ويقظتهم.

---

(١) مجمع البيان: ٦/ ٣٧٤.

(٢) المصدر نفسه.

والذي يظهر من هذه القصّة أنّ الله جلّ جلاله سخّر عبده الخضر عليه السلام لمصالح بعض العباد ورعايتهم من حيث يعلمون أو لا يعلمون.

أخذ عليه السلام يخبر موسى عليه السلام بتفسير ما حصل: **﴿أمّا السفينة فكانت لمساكين﴾** أمّا السبب في خرقي السفينة، فهو أنّها كانت لفقراء لا شيء لهم يكفيهم **﴿يعملون في البحر﴾** يتعيّشون بها، **﴿فأردت أن أعيبها﴾** أحدث فيها عيباً **﴿وكان وراءهم﴾** وكان قدّامهم **﴿ملك يأخذ كل سفينة﴾** صحيحة غير مصيبة **﴿غصباً﴾** إنّما خرقتها لأنّ الملك إذا رآها منخرقة تركها، ورقّعها أهلها بقطعة خشب فانتفعوا بها **﴿وأمّا الغلام فكان أبواه مؤمنين﴾** وأمّا الغلام الذي قتلته فإنّما قتلته لأنّه كان كافراً **﴿فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً﴾** فخفنا أن يحمل أبويه على الطغيان والكفر، بأن يباشر ما لا يمكنهما منعه منه، فيحملهما على الذبّ عنه والتعصّب، فيؤدّي ذلك إلى أمور تكون مجاوزة للحد في العصيان والكفر **﴿فأردنا أن يبدلهما ربّهما خيراً منه زكاة﴾** ولداً خيراً منه ديناً وطهارة وصلاحاً **﴿وأقرب رحماً﴾** وأرحم بهما **﴿وأمّا الجدار فكان﴾** فإنّما أقمته لأنّه كان **﴿لغلامين يتيمين في المدينة﴾** في القرية المذكورة **﴿وكان تحته كنز لهما﴾** الكنز: هو كل مال مذخور من ذهب أو فضة وغير ذلك **﴿وكان أبوهما صالحاً﴾** بيّن أنّه حفظ الغلامين لصلاح أبيهما؛ وعن أبي عبدالله عليه السلام: أنّه كان بينهما وبين ذلك الأب الصالح سبعة آباء.

ويقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الله ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده، وأهل دويرته، ودويرات حوله، فلا يزالون في حفظ الله لكرامته على الله **﴿فأراد ربّك أن يبلغا أشدّهما﴾** ينتهيان إلى الوقت الذي يعرفان فيه نفع أنفسهما، وحفظ مالهما، وهو أن يكبرا ويعقلا **﴿ويستخرجا كنزهما رحمة من ربّك﴾** نعمة من ربّك، والمعنى: أنّ كل ما فعلته رحمة

من الله تعالى، والمراد: رحمة الله لهؤلاء المساكين، وأبوي الغلام، واليتيمين **﴿وما فعلته عن أمري﴾** وما فعلت ذلك من قبل نفسي، وإنّما فعلته بأمر الله تعالى **﴿ذلك﴾** الذي قلته لك **﴿تأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾** ثقل عليك مشاهدته ورؤيته واستنكرته.

مكارم الأخلاق

أولياء الله جلّ جلاله من سنخ خاص، قد تحلّوا بالفضائل، واشتملوا على جميع المكارم، وبلغوا القمة في كل مجد وشرف؛ إنّ القصّة التي رواها أهل السير للخضر عليه السلام تنبىء عما كان عليه هذا العبد الصالح من نبل وخلق عظيم.

روى أبو أمامة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال ذات يوم لأصحابه: ألا أحدثكم عن الخضر؟.

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: بينما هو يمشي في سوق من أسواق بني إسرائيل أبصره مكاتب، فقال: تصدّق عليّ بارك الله فيك.

قال الخضر: آمنت بالله، ما يقضي الله يكون، ما عندي من شيء أعطيكه.

قال المسكين: بوجه الله لمّا تصدّقت عليّ إنّي رأيت الخير في وجهك، ورجوت الخير عندك.

قال الخضر: آمنت بالله، إنّك سألتني بأمر عظيم، ما عندي شيء أعطيكه، إلّا أن تأخذني فتبيعني.

قال المسكين: وهل يستقيم هذا؟!.

قال: الحق أقول لك، إنّك سألتني بأمر عظيم، سألتني بوجه ربّي عزّ وجلّ أما انّي لا أخيّبك مسألتي بوجه ربّي، فبعني.

فقدّمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم، فمكث عند المشتري زماناً لا يستعمله في شيء.

فقال الخضر عليه السلام: إنّما ابتعتني التماس خدمتي، فمرني بعمل.

قال: إنّي أكره أن أشقّ عليك، إنّك شيخ كبير.

قال: لست تشق عليّ.

قال: فقم فانقل هذه الحجارة.

قال: وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم، فقام فنقل الحجارة في ساعة.

فقال له: أحسنت وأجملت، وأطقت ما لم يطقه أحد.

قال: ثم عرض للرجل سفر، فقال: إنّي أحسبك أميناً، فاخلفني في أهلي خلافة حسنة، وإنّي أكره أن أشقّ عليك.

قال: ليس تشق عليّ.

قال: فاضرب من اللبن شيئاً ـ أو قال: لبّن ـ حتّى أرجع إليك.

قال: فخرج الرجل لسفره ورجع وقد شيّد بناؤه.

فقال له الرجل: أسألك بوجه الله، ما حسبك، وما أمرك؟.

قال: إنك سألتني بأمر عظيم، بوجه الله عزّ وجلّ، ووجه الله عزّ وجلّ أوقعني في العبودية، وسأخبرك من أنا، أنا الخضر الذي سمعت به، سألني مسكين صدقة ولم يكن عندي شيء أعطيه، فسألني بوجه الله عزّ وجلّ، فأمكَنته من رقبتي فباعني؛ فأخبرك، أنّه من سئل بوجه الله عزّ وجلّ، فردّ سائله وهو قادر على ذلك وقف يوم القيامة ليس لوجهه جلد ولا لحم ولا دم، إلّا عظم يتقعقع.

قال الرجل: شققت عليك ولم أعرفك.

قال: لا بأس، أبقيت وأحسنت.

قال: بأبي وأمي أحكم في أهلي ومالي بما أراك الله عزّ وجلّ، أم أخيّرك فأخلّي سبيلك؟.

فقال: أحب إليّ أن تخلّي سبيلي، فأعبد الله، فخلّى سبيله.

قال الخضر: الحمد لله الذي أوقعني في العبودية وأنجاني منها[١].

آثار الصديقين

وما أكثرها في بلادنا الإسلامية، فمن مزار قائم، ومسجد لا يزال يتعبّد به، ووثيقة سماوية توارثها الخلف عن السلف.

إنّ هذه الآثار التي أبقاها الله جلّ جلاله عبر القرون المتطاولة ليزداد المؤمن برؤية معالمها إيماناً، ويكسب من ذلك أجراً.

ومن آثار نبيّ الله ادريس عليه السلام مسجد السهلة[٢] وهو منزله، ومحل مصلاه وعمله؛ وهو أحد المساجد المعظمة التي تقصد للصلاة من أطراف بعيدة، طلباً لما له من الفضل، لأنه مصلّى الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وذكر العلماء لكل مقام صلاة ودعاء، ويقول الإمام الصادق عليه السلام: وما صلّى فيه أحد فدعا الله بنيّة صادقة إلّا صرفه الله بقضاء حاجته، وما أحد استجاره إلّا أجاره الله مما يخاف منه[٣].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: بالكوفة مسجد يقال له مسجد السهلة،

(١) أعلام الدين: ٣٥١.

(٢) يبعد عن مسجد الكوفة حوالي كيلو متراً واحداً، وعن النجف الأشرف حوالي ٨ كيلو متراً، وفيه مقام إبراهيم عليه السلام، ومقام الخضر عليه السلام، ومقام الإمام المهدي عليه السلام، ومقام الصالحين.

(٣) مفاتيح الجنان: ٤٠٤.

لو أنّ عمي زيداً أتاه فصلّى فيه، واستجاره الله لأجار له الله عشرين سنة، فيه مناخ الراكب.

قيل: ومن الراكب؟.

قال: الخضر عليه السلام، وبيت ادريس النبي عليه السلام، وما أتاه مكروب قط فصلّى فيه ما بين العشاءين، فدعا الله عزّ وجلّ إلّا فرّج الله كربته[١].

وصايا الصديقين

وصّى بها صادق صادقاً، ونبيٌّ نبيّاً، أو إمام إماماً أو عبداً صالحا لهذا يجب أن تعطى مكانتها من الكلام الرفيع، وتؤخذ للعمل والتطبيق، فهي اكسير السعادة، ومنهج الهدى والسداد.

نذكر وصيّة الخضر عليه السلام لموسى عليه السلام في فضل العلم وآدابه:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ موسى عليه السلام لقي الخضر عليه السلام فقال: أوصني فقال الخضر: **يا طالب العلم إنّ القائل أقل ملالة من المستمع، فلا تمل جلساءك إذا حدّثتهم، واعلم أنّ قلبك وعاء فانظر ماذا تحشو به وعاءك، واعرف الدنيا وأنبذها وراءك، فإنّها ليست لك بدار، ولا لك فيها محل قرار، وأنها جعلت بلغة للعباد ليتزودوا منها للمعاد يا موسى وطّن نفسك على الصبر تلق الحلم، واشعر قلبك التقوى تنل العلم، ورضّ نفسك على الصبر تخلص من الاثم.**

يا موسى تفرّغ للعلم إن كنت تريده، فإنّما العلم لمن تفرّغ له، ولا تكونن مكثاراً بالنطق تكن مهذاراً؛ إنّ كثرة المنطق تشين العلماء، وتبدي مساوىء السخفاء، ولكن عليك بذي اقتصاد، فإنّ ذلك من التوفيق

---

(١) تهذيب الأحكام: ٣/ ٢٥٢.

والسداد؛ واعرض عن الجهال، واحلم عن السفهاء، فإنّ ذلك فضل الحلماء، وزين العلماء؛ إذا اشتمك الجاهل فاسكت عنه سلماً، وجانبه حزماً، فإنّ ما بقي من جهله عليك، وشتمه إيّاك أكثر.

يا ابن عمران، لا تفتحنّ باباً لا تدري ما غلقه، ولا تغلقنّ باباً لا تدري ما فتحه يا ابن عمران، من لا ينتهي مع الدنيا بهمته، ولا تنقضي فيها رغبته، كيف يكون عابداً من يحقّر حاله، ويتهم الله بما قضى له، كيف يكون زاهداً، يا موسى تعلّم ما لا تعلم لتعمل به، ولا تعلمه لتحدّث به، فيكون عليك بوره، ويكون على غيرك نوره[1].

أدعيته

إنّ الله جلّ جلاله أمر عباده بالدعاء، وعلّمهم كيف يدعوه، وماذا يطلبون منه؛ إنّ القرآن الكريم اشتمل على آيات كثيرة في الدعاء؛ نذكر منها على سبيل المثال: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

ثم جاء دور الأنبياء والأوصياء صلوات الله وسلامه عليهم فامتلأت الدنيا بأدعيتهم، وأنت إذا علمت أنّ السيد علي بن طاووس ـ من علماء القرن السابع ـ له ما يناهز الثلاثين كتاباً في الأدعية أدركت ما نملكه من هذا التراث النفيس، الذي تُنال به كرامة الدنيا والآخرة.

---

(١) منية المريد: ٤٨.

وفي هذه الصفحات بعض ما ورد من أدعية الخضر عليه السلام.

١ - قال محمد بن الحنفيّة: بينما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يطوف بالبيت إذ برجلٍ متعلّق بالأستار وهو يقول: (**يا من لا يشغله سمع عن سمع يا من لا يغلّطه السائلون يا من لا يبرمه إلحاح الملحين أذقني برد عفوك وحلاوة معرفتك**).

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: هذا دعاؤك؟.

قال له الرجل: وقد سمعته؟.

قال: نعم.

قال: فادع به في دبر كلّ صلاة، فوالله ما يدعو به أحد من المؤمنين في أدبار الصلاة إلّا غفر الله له ذنوبه ولو كانت عدد نجوم السماء وقطرها، وحصباء الأرض وترابها.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ علم ذلك عندي والله واسع كريم.

فقال الرجل ـ وهو الخضر عليه السلام ـ صدقت والله يا أمير المؤمنين، وفوق كل ذي علم عليم[١].

٢ - روي أنّ الخضر والياس يجتمعان في كل موسم، فيفترقان عن هذا الدعاء، وهو: **بسم الله ما شاء الله، لا قوّة إلاّ بالله ما شاء الله، كل نعمة من الله، ما شاء الله الخير كلّه بيد الله عزّ وجلّ، ما شاء الله لا يصرف السوء إلاّ الله.**

فمن قالها حين يصبح ثلاث مرات، أمن من الحرق والسرق والغرق[٢].

---

(١) أمالي الشيخ المفيد: ٩٢.

(٢) مهج الدعوات: ٣١١.

٣ - من دعاء له عليه السلام :

يا شامخاً في علوّه، يا قريباً في دنوّه، يا مدانياً في بعده، يا رؤوفاً في رحمته، يا مخرج النبات، يا دائم الثبات، يا محيي الأموات، يا ظهر اللاجين، يا جار المستجيرين، يا أسمع السامعين، يا أبصر الناظرين، يا صريخ المستصرخين، يا عماد من لا عماد له، يا سند من لا سند له، يا ذخر من لا ذخر له، يا حرز من لا حرز له، يا كنز الضعفاء، يا عظيم الرجاء، يا منقذ الغرقى، يا منجي الهلكى، يا محيي الموتى، يا أمان الخائفين، يا إله العالمين، يا صانع كل مصنوع، يا جابر كل كسير، يا صاحب كل غريب، يا مؤنس كل وحيد، يا قريباً غير بعيد، يا شاهداً غير غائب، يا غالباً غير مغلوب، يا حيّ حين لا حي، يا محيي الموتى يا حيّ لا إله إلاّ أنت.

من قاله قولًا، أو سمعه سمعاً أمن الوسوسة أربعين سنة[١].

يقلّبها كيف يشاء

والدنيا لها خالق قادر حكيم، يقلّبها كيف يشاء، وأنت لو تأملت نفسك وما يحدث لها من تطوّر وتغيير، فمضافاً للأدوار التي تمرّ بها وجميع المخلوقين ما يحدث لك من يسر بعد عسر، وغنى بعد فقر، وفرج بعد شدّة، وعافية بعد مرض، إلى تغيرات كثيرة لا تحصى، وكذلك بالنسبة للعوالم الكبيرة فهي أيضاً معرّضة لذلك؛ وقد يكون التبديل والتغيير طبيعياً كنهرٍ انقطعت روافده فجفّ، ومدينة نضب ماؤها فنزح عنها أهلها، وقد يكون عن سخط وغضب كالذي حدث للأمم المعذّبة.

نعود لنذكر بعض مشاهدات الخضر عليه السلام :

(١) مهج الدعوات: ٣١١.

السائح الأكبر

ولله جلّ جلاله تدبير في خلقه لا نحيط بأبعاده، ولا ندرك تفصيله، وهو من أجلك، وللحفاظ على سعادتك الدنيويّة والأخرويّة، فمن ذلك أنّ لله جلّ جلاله ملائكة تزجر الناس عن المعاصي، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ [الصّافّات: ٢].

ومصداق ذلك أنّك ربّما هممت بسلوك غير الطريق الذي رُسم لك، وأمرت بسلوكه، ولكن ما أسرع أن تتخلّى عن ذلك، وتلزم سمت الاستقامة والسداد، وما ذلك إلّا بدوافع القوى الخفيّة التي هيأها الله جلّ جلاله للحيلولة بينك وبين الشيطان وأعوانه وأيضاً لله عباد في الأرض لا تعرفهم، لهم مهمات في الاصلاح، وإقامة معالم الخير والرشاد، وفي طليعة هؤلاء الخضر عليه السلام.

إنّ المدة القليلة التي صحب فيها موسى عليه السلام الخضر عليه السلام ظهر للناس بعض ما أمر به عليه السلام، وأسند إليه من الأعمال، ويظهر من هذه الصحبة وغيرها أنّ له عليه السلام مجالات واسعة قد تستغرق العالم بأسره.

إنّ الرواية الآتية تكشف عمّا نبّهنا إليه، وإلى ما يحدث في الأرض من تقلّبات كثيرة، وتغيّرات واسعة، قد تكون اليوم بعض بقاع الدنيا زاهرة بالعمران والسكان، وتكون في غد خاوية على عروشها، قد لفّ أهلها الفناء، علماً أنّ ذلك لما يزهّد في الدنيا، ويحد من السعي الحثيث في طلبها، ومن التكالب عليها.

نعود للرواية التي ذكرها الأبشيهي: سئل الخضر عليه السلام عن أعجب شيء رآه في الدنيا مع طول سياحته، وقطعه للقفار والفلوات؟.

فقال: أعجب شيء رأيته أنّي مررت بمدينة لم أر على وجه الأرض أحسن منها، فسألت بعض أهلها متى بنيت هذه المدينة؟.

فقالوا: سبحان الله، لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا متى بنيت، وما زالت كذلك من عهد الطوفان. ثم غبت خمسمائة سنة ومررت بها فإذا هي خاوية على عروشها، ولم أر أحداً أسأله، وإذا رعاة غنم فدنوت منهم.

فقلت: أين المدينة التي هاهنا؟.

فقالوا: سبحان الله، لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنّه كان هاهنا مدينة ثم غبت خمسمائة سنة، ومررت بها فإذا موضع تلك المدينة بحر، وإذا غوّاصون يستخرجون منه شبه الحلية، فقلت للغوّاصين: منذ كم هذا البحر هنا؟.

فقالوا: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلّا أنّ هذا البحر من عهد الطوفان.

فغبت خمسمائة سنة وجئت فإذا البحر قد غاض ماؤه، وإذا مكانه غيضة، وصيّادون يصيدون فيها السمك في زوارق صغار، فقلت لبعضهم: أين البحر الذي كان هاهنا؟.

فقالوا: سبحان الله، لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنّه كان هاهنا بحر، فغبت خمسمائة عام ثم جئت إلى ذلك المكان فإذا هو بالمدينة على الحالة الأولى، والحصون والقصور، والأسواق قائمة، فقلت لبعضهم: أين الغيضة التي كانت هاهنا، ومتى بنيت المدينة؟.

فقالوا: سبحان الله، لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلّا أنّ هذه المدينة على حالها من عهد الطوفان.

فغبت عنها نحو خمسمائة سنة ثم أتيت إليها فإذا عاليها سافلها، وهي تدخن بدخّان شديد، فلم أر أحداً أسأله، ثم أتيت راعياً فسألته: أين المدينة؟.

فقال: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلّا أنّ هذا المكان هكذا منذ كان. فهذا أعجب شيء رأيته في سياحتي، فسبحان مبيد العباد، ومفني البلاد، ووارث الأرض ومن عليها، وباعث من خلق منها، بعد ردّه إليها[١].

ويحضر أيضاً

في كثير من بقاع الأرض مقامات للخضر عليه السلام، تشير إلى صلاته فيها، وحتّى أنّ في جنوب العراق مدينة تحمل اسمه الشريف، ومقامه فيها، كما في لبنان مدينة باسمه، وفيها مقامه.

وربّما حضر صلوات الله عليه مؤبّناً.

روى الحاكم بسنده عن أنس بن مالك قال: لمّا قبض رسول الله صلى الله عليه وآله، أحدق به أصحابه، فبكوا حوله، واجتمعوا، فدخل رجل أصهب اللحية، جسيم، صبيح، فتخطّا رقابهم فبكى، ثم التفت إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: **إنّ في الله عزاء من كلّ مصيبة، وعوضاً من كلّ فائت، وخلفاً من كل هالك، فإلى الله فأنيبوا، وإليه فارغبوا، ونظرة إليكم في البلاء فانظروا، فإنّما المصاب من لم يجبر**، وانصرف.

قال بعضهم لبعض: تعرفون الرجل؟.

فقال عليٌّ: نعم، هذا أخو رسول الله صلى الله عليه وآله الخضر عليه السلام وأيضاً فقد حضر لتأبين أمير المؤمنين عليه السلام، فقد ذكر أهل الأدعية والمزارات مجيئه إلى الكوفة.

فعن أسيد بن صفوان، صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لما كان

---

(١) المستطرف: ٥١٥.

اليوم الذي قبض فيه أمير المؤمنين عليه السلام، ارتجّ الموضع بالبكاء، ودُهش الناس، كيوم قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، وجاء رجل باك وهو مسرع مسترجع، وهو يقول: اليوم انقطعت خلافة النبوّة، حتى وقف على البيت الذي فيه أمير المؤمنين عليه السلام وقال: رحمك الله يا أبا الحسن، كنت أوّل القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدّهم يقيناً، وأخوفهم لله، وأعظمهم عناءً، وأحوطهم على رسول الله صلى الله عليه وآله، وآمنهم على أصحابه، وأفضلهم مناقب، وأكرمهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأشبههم به هدياً وخُلقاً وسمتاً وفعلاً، وأشرفهم منزلة، وأكرمهم عليه؛ فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن المسلمين خيراً؛ قويت حين ضعف أصحابه، وبرزت حين استكانوا، ونهضت حين وهنوا، ولزمت منهاج رسول الله صلى الله عليه وآله إذ همّ أصحابه، وكنت خليفته حقّاً، لم تنازع، ولم تضرع برغم المنافقين، وغيظ الكافرين، وكره الحاسدين، وضغن الفاسقين؛ فقمت بالأمر حين فشلوا، ونطقت حين تتعتعوا، ومضيت بنور الله إذ وقفوا، فاتبعوك فهدوا، وكنت أخفضهم صوتاً، وأعلاهم قنوتاً، وأقلّهم كلاماً، وأصوبهم نطقاً، وأكبرهم رأياً، وأشجعهم قلباً، وأشدّهم يقيناً، وأحسنهم عملاً، وأعرفهم بالأمور، كنت والله يعسوباً للدين أوّلاً وآخراً، الأوّل حين تفرّق الناس، والآخر حين فشلوا؛ كنت للمؤمنين أباً رحيماً إذ صاروا عليك عيالاً، فحملت أثقال ما عنه ضعفوا، وحفظت ما أضاعوا، ورعيت ما أهملوا، وشمرت إذ اجتمعوا، وعلوت إذ هلعوا، وصبرت إذ أسرعوا، وأدركت أوتار ما طلبوا، ونالوا بك ما لم يحتسبوا؛ كنت للكافرين عذاباً صبّاً ونهباً، وللمؤمنين عمداً وحصناً، فطرت والله بنعمائها، وفزت بحبائها، وأحرزت سوابقها، وذهبت بفضائلها؛ لم تفلل حجّتك، ولم يزغ قلبك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك، ولم تخن؛ كنت كالجبل لا تحرّكه

العواصف، وكنت كما قال عليه السلام: آمن الناس في صحبتك، وذات يدك، وكنت كما قال عليه السلام: ضعيفاً في بدنك، قويّاً في أمر الله، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، كبيراً في الأرض، جليلًا عند المؤمنين، لم يكن لأحد فيك مهمز، ولا لقائل فيك مغمز، ولا لأحد فيك مطمع، ولا لأحد عندك هوادة، الضعيف الذليل عندك قويُّ عزيز حتّى تأخذ له بحقّه، والقويُّ العزيز عندك ضعيف ذليل حتّى تأخذ منه الحقّ، والقريب والبعيد عندك في ذلك سواء، شأنك الحقُّ والصدق والرفق، وقولك حكم وحتم، وأمرك حلم وحزم، ورأيك علم وعزم فيما فعلت؛ وقد نهج بك السبيل، وسهل بك العسير، وأطفئت بك النيران، واعتدل بك الدين، وقوي بك الإسلام والمؤمنون، وسبقت سبقاً بعيداً، وأتعبت من بعدك تعباً شديداً، فجللت عن البكاء، وعظمت رزيتك في السماء، وهدّت مصيبتك الأنام، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، رضينا عن الله قضاءه، وسلّمنا لله أمره، فوالله لن يُصاب المسلمون بمثلك أبداً، كنت للمؤمنين كهفاً وحصناً وقُنّة راسياً، وعلى الكافرين غلظة وغيظاً، فألحقك الله بنبيّه، ولا حرمنا أجرك، ولا أضلّنا بعدك.

وسكت القوم حتّى انقضى كلامه، وبكى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وأصحابه عليه السلام، ثم طلبوه فلم يصادفوه.

قال السيد: الرجل المذكور هو الخضر عليه السلام، كما فهمه الأصحاب، ويظهر من اكمال الدين[1].



(١) عمدة الزائر: ١٠٢.

شعيب عليه السلام

تمهيد

هذه صفحات قليلة من حياة نبيِّ الله شعيب عليه السلام، كما هي لمحة مختصرة من سيرة مجتمعه، والأمة التي بُعث إليها، وبيان كفرهم وتراكضهم في الضلال، وعدم استجابتهم لداعي الحق حتّى نزل بهم البلاء، وحلّ بهم الدمار، وما أعدّ الله جلّ جلاله لهم من العذاب والهوان أعظم من ذلك بكثير.

واعلم أنّ الكثير من المفسرين وأهل السير والآثار يذهبون إلى أنّه صلوات الله وسلامه عليه بعث إلى أمّتين: أهل مدين، وأصحاب الأيكة[1] وبعضهم يرى أنّ أهل مدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة، والأيكة: هي الشجر الملتف.

البكاء من خشية الله تعالى

وهذا نهج أولياء الله وأحبائه، وسيرة السلف الصالح، ويكفي في ذلك ما ورد في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام، حيث استفاضت الأخبار بكثرة بكائه؛ يقول ضرار بن ضمرة الكناني لمعاوية بن أبي سفيان لمّا طلب منه أن يصف أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: واشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، قابضاً على لحيته، يتململ

---

(١) عرائس المجالس ١٦٥.

تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأنّي أسمعه الآن وهو يقول: يا ربّنا، يا ربّنا. . .[١].

واعلم أنّ أخبار الصادقين صلوات الله وسلامه عليهم حثّت على ذلك؛ فمن وصيّة له ﷺ لعليٍّ عليه السلام: أوصيك في نفسك بخصال فاحفظها عنّي. . . والرابعة: كثرة البكاء من خشية الله، يبنى لك بكل دمعة ألف بيت في الجنّة[٢].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام لنوف البكالي: يا نوف إن طال بكاؤك في هذا الليل مخافة من الله عزّ وجلّ قرّت عيناك غداً بين يدي الله تعالى، يا نوف إنّه ليس من قطرة قطرت من عين رجلٍ من خشيّة الله إلّا أطفأت بحاراً من النار.

يا نوف، ليس من رجل أعظم منزلة عند الله عزّ وجلّ من رجل بكى من خشية الله، وأحبّ في الله، وأبغض في الله[٣].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: ما من شيء إلّا وله كيلٌ ووزن إلّا الدموع، فإنّ القطرة تطفىء بحاراً من النار، فإذا اْغرورقت العين بمائها لم يرهق وجهه قتر ولا ذلّة، فإذا فاضت حرّمه الله على النار، ولو أنّ باكياً بكى في أمّة لرحموا[٤].

وأنت ربّما لم تُحطْ بالأمر تماماً، ولكن لو تأملت جيداً اتضح لك المقصود، فإنّ من كانت هذه حاله فهو في حصانة من أن يتلاعب به الشيطان أو يكيده، أو يدفع به إلى مهاوي الضلال. نعود فنذكر بعض ما جاء في سيرة نبيّ الله شعيب عليه السلام.

---

(١) صفة الصفوة: ١/ ١٢٢.
(٢) روضة الكافي: ٧٩.
(٣) فلاح السائل: ٢٤٢.
(٤) أصول الكافي: ٥٢٣.

إنّ كل من ترجم له ذكر كثرة بكائه حتّى ذهب بصره.

قال رسول الله ﷺ: بكى شعيب عليه السلام من حب الله عزّ وجلّ حتّى عمي، فردّ الله عزّ وجلّ بصره، ثمّ بكى حتّى عمي، فردّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمي فردّ الله عليه بصره، فلما كانت الرابعة أوحى الله إليه: يا شعيب إلى متى يكون هذا أبداً منك؟ إن يكن هذا خوفاً من النار فقد أجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنّة فقد أبحتك.

فقال: يا إلهي وسيّدي، أنت تعلم أنّي ما بكيت خوفاً من نارك، ولا شوقاً إلى جنّتك، ولكن عقد حبّك على قلبي فلست أصبر أو أراك.

فأوحى الله جلّ جلاله إليه: أمّا إذا كان هذا هكذا فمن أجل ذلك سأخدمك كليمي موسى بن عمران.

قال الشيخ الصدوق: يعني بذلك: لا أزال أبكي أو أراك قد قبلتني حبيباً[١].

خطيب الأنبياء

الله جلّ جلاله وهب رسله جميع الكمالات، وحلاهم بجميع الكرامات، ووهب لهم معالي الأخلاق، ومحاسن الصفات، كل ذلك لأجل أن ينتشلوا عباده من طريق الضلال، ويأخذوا بأيديهم إلى شاطىء السلامة والنجاة.

فمن مواهب الله جلّ جلاله لشعيب عليه السلام الخطابة، فقد وصفوه بأنّه خطيب الأنبياء[٢].

اشارة إلى حسن بيانه، وبديع كلامه، وأسلوبه الجميل في مراجعة

(١) علل الشرايع: ٣١.

(٢) بحار الأنوار: ١٢/ ٣٨٦.

قومه ووعظهم، ولكن مع الأسف أنّ ذلك لم يجد فيهم نفعاً، لشدّة شغفهم بالدنيا واعراضهم عن الآخرة.

قست القلوب فلم تمل لهداية   تبّاً لهاتيك القلوب القاسية

بخس المكيال

اعلم رعاك الله وسدّدك أنّ من أهم الأمور التي تُسأل عنها غداً في مواقف القيامة هي حقوق الآخرين، فالحذر ثمّ الحذر أن تتجاوز ذلك وتعتدي على حقوق الغير، وتبخس الناس شيئاً من أموالهم.

وأزيدك علماً أنّ احدى سور القرآن الكريم تسمّى (سورة المطففين) وهي في التحذير من نقص المكيال والميزان.

إنّ الله سبحانه وتعالى لا يغفر للمطففين وإن تابوا إذا لم يرضوا الذين سرقوهم، أو يردّوا إليهم حقوقهم.

وكل من كتب عن قوم شعيب عليه السلام ذكر بخسهم للمكيال، وفي الذكر الحكيم: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤].

وأنا لا أدري أكفرهم أدّى بهم إلى نقص المكيال والميزان، أو أنّ الشيطان تدرَّج بهم من نقص المكيال إلى الكفر؟ لأنّه يتدرج مع الإنسان بالصغائر حتّى يوقعه في الكبائر.

داهنوا أهل المعاصي

وهذا أمر في غاية الأهمية، وقد حذّر منه الإسلام أشدّ الحذر، ويكفي في ذلك قوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩] وقول أمير المؤمنين عليه السلام: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرّة[١].

وهو عين الحكمة، وأحسن السبل لاستصلاح أهل الضلال، بل انّ هذا السلوك مع العصاة يجعل بقية الناس تستقيم وتترك سبل الشيطان وأضاليله حذراً من مقت المجتمع لهم؛ ومن المؤسف أننا تركنا هذا الأمر كما تركنا غيره من تعاليم الإسلام، فنحن نداهن الفاسقين، لاسيّما إذا كانوا من وجوه الناس أو الحاكمين.

إنّ الحديث الآتي يكشف، لنا خطورة الموقف، وانّ المداهن يتعرّض لغضب الله جل جلاله.

قال الإمام الباقر عليه السلام: أوحى الله إلى شعيب النبي عليه السلام: إنّي معذّب من قومك مائة ألف، أربعين ألفاً من شرارهم، وستين ألفاً من خيارهم.

فقال: يا رب هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟!.

فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: داهنوا أهل المعاصي، ولم يغضبوا لغضبي[٢].

رسل الحق

ذكر أهل السير والتاريخ أنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بعدما استقرّ في المدينة المنوّرة، وانتشر الإسلام في ربوع العالم العربي، أرسل رسله إلى ملوك الشرق يدعوهم إلى الإسلام؛ والواقع أنّ هذا هو نهج جميع الأنبياء والأوصياء عليهم الصلاة والسلام، فهم الدعاة إلى الله جلّ جلاله والقادة إلى سبيله.

---

(١) الوسائل: ١١/٤١٣.

(٢) الوسائل: ١١/٤١٦.

ونبيّ الله شعيب عليه السلام أرسل جماعة من الدعاة المؤمنين إلى بعض المناطق يدعونهم إلى الإيمان، وأن هؤلاء المبشرين لقوا حتفهم على أيدي الطغاة والجبارين[١].

العذاب

جميع الأمم الكافرة أخذها الله جلّ جلاله في الدنيا بأشدّ العذاب، مضافاً لما أعدّ لهم من جحيم لا يوصف، وعذاب دائم لا يفتر ولا يخفف عنهم وهم فيه مبلسون.

إنّ الله جلّ جلاله يقصّ علينا عذاب الأمم لنحذر أن ينزل بنا ما نزل بهم، إنّ البراكين والزلازل والفيضانات التي تحل بالمجتمع هي مظهر من مظاهر القدرة الإلهية؛ لأجل أن يرعوي الخلق، وينهجوا نهج الاستقامة والسداد، ويستدلّوا بها على عذاب الآخرة.

نعود فنذكر بعض ما نزل بأهل مدين من عذاب:

فعين أمين الإسلام: أرسل الله عليهم وقدة[٢] وحرّاً شديداً، فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا أجواف البيوت، فلم ينفعهم ظلٌّ ولا ماءٌ، وأنضجهم الحرّ، فبعث الله تعالى سحابة فيها ريح طيّبة، فوجدوا برد الريح وطيبها وظلّ السحابة فتنادوا: عليكم بها، فخرجوا إلى البريّة، فلما اجتمعوا تحت السحابة ألهبها الله عليهم ناراً، ورجفت بهم الأرض فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلي، وصاروا رماداً، وهو عذاب يوم الظلّة، عن ابن عباس وغيره من المفسّرين[٣].

---

(١) قصص الأنبياء للجزائري: ٢٥٦.

(٢) الوقدة: النار.

(٣) مجمع البيان: ٤/ ٤٥٠.

في العرض القرآني المجيد

إنَّ القرآن الكريم ذكر شعيباً عليه السلام في عدة سور، كما ذكر قومه في مواضع كثيرة من كتابه العزيز، نذكر بعض ذلك في هذه الصفحات.

١ - ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤] ومدين اسم القبيلة التي بُعث إليها شعيب عليه السلام، وأيضاً هو اسم للمدينة، وهي من أرض معان، من أطراف الشام.

بعث الله جلّ جلاله شعيباً بما بعث به الأنبياء عليهم السلام من قبل **﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾** إنّ عبادة الله جلّ جلاله النظام الذي يسعد به الخلق في الدنيا: تحفظ بها النفوس والأموال، وتصان بها الأعراض، وترعى بها الحقوق، كما أنّها السبب الأوّل والأخير لحصول المنازل الرفيعة في الآخرة.

٢ - **﴿لا تنقصوا المكيال والميزان﴾** والشيطان حينما يخرج الإنسان من حظيرة الإيمان بالله تعالى يحاول أن يكثر عليه الموبقات، ويركسه في مهوى عميق لا يستطيع الخروج منه. إنّك حينما تستعرض قصص الأمم المعذّبة تجدهم جمعوا مع الشرك بالله تعالى صنوف الجرائم، إنّ الخبيث اختار لكل أمّة ما يناسبها من طرق الضلال، ووسائل الاجرام، فكان نصيب أهل مدين من ذلك نقص المكيال والميزان.

وقد تتصوّر أن ذلك هيّن وهو عند الله عظيم؛ إنّه يؤدّي إلى الشحناء والعداوة، فأنت تحقد كل الحقد على من أعطاك دون حقّك، أو أخذ منك أكثر من حقّه، ولو لم يكن في نقص المكيال والميزان إلّا ذلك لكفى به جريمة، فالحقد والعداوة يكمن وراءها سفك الدماء، وذهاب الأموال، وهتك الأعراض.

٣ - ﴿اني أراكم بخير﴾.

إنّكم تعيشون في خصب ورخاء، فلا تتعرّضوا لغضب الله تعالى وسخطه، فيبدّل الخصب بالجدب، والرخص بالغلاء، ومن وراء ذلك عذاب شديد.

إنّ الله سبحانه وتعالى يبتلي عباده عند تركهم خط الاستقامة، وإصرارهم على الذنوب، ببلايا الدنيا وعقوباتها، لأنّها مهما عظمت فهي دون عذاب الآخرة، وأيضاً ربما كان البلاء سبباً للرجوع والانابة، والتزام منهج السداد والرشاد.

٤ - ﴿بقيّة الله خير لكم﴾.

يتصوّر الملتوون في المعاملات، والذين ينهجون طريق الاختلاس والسرقة والربا والغش، أنّهم لا يمكنهم أن يعيشوا بغير ذلك، بينما الاستقامة في العمل أنفع لهم في الدنيا فضلًا عن الآخرة.

إنّ الإنسان بطبعه يبتعد عمن يسرق منه أو يغشّه، فحينئذٍ يقل الذين يتعامل معهم الغشّاشون، فتقل أرباحهم، بينما تجد المستقيمين في معاملاتهم تكثر زبائنهم، وتزداد أرباحهم مضافاً إلى ما أعدّ لهم من نعيم وجنات هم فيها خالدون.

ومعنى قوله: ﴿بقية الله خير لكم﴾ البقيّة: بمعنى الباقي، والمراد: ما أبقى الله لكم من الحلال بعد اتمام الكيل والوزن خير من البخس والتطفيف ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ وما أنا بحافظ نعم الله تعالى أن يزيلها عنكم، وإنّما يحفظها الله عليكم، فاطلبوا بقاء نعمه بطاعته.

٥ - ﴿أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح﴾.

لقد حذّرهم نبيُّ الله أن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم المكذّبة

لأنبيائها، فيغرقوا مثل ما غرق قوم نوح ﴿أو قوم هود﴾ فتهلكوا بالريح العقيم ﴿أو قوم صالح﴾ تأخذكم الرجفة ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ إنّ دارهم قريبة من داركم، فيجب أن تتعظوا بهم، وتحذروا أن ينزل بكم ما نزل بهم.

وأنت أعزّك الله اتعظ بهؤلاء الأمم، وتجنّب المعاصي والموبقات، حذراً من أن يصيبك ما أصابهم من العذاب فتخسر الدنيا والآخرة، ولو قدّر أن تنجو من عذاب الدنيا، فلن تنجو من عذاب الآخرة، وليس بينك وبينه إلّا الموت، ولا تدري متى يأتيك.

والموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

٦ - **﴿واستغفروا ربّكم ثم توبوا إليه﴾**.

ولعمري لو استجابوا لهذا الطلب لسلمت لهم دنياهم وآخرتهم، ولسعدوا فيهما جميعاً، ولكنّ الشيطان فوّت عليهم فرصة العمر، وسعادة الأبد حتّى هلكوا ظالمين وخلّدوا في الجحيم.

٧ - **﴿إنّ ربّي رحيم ودود﴾**.

وهذه من صفات الخالق العظيم، فهو رحيم بعباده، يقبل توبتهم، ويعفو عن معاصيهم، مريد لمنافعهم، منعم عليهم، ولا أدلّ على ذلك من امهاله العصاة وهو الغالب القاهر، والمدرك الغلاب، والعظيم الجبّار.

٨ - **﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾**.

إنكم نسيتم ربّكم، ونسيتم تعاليمه وأوامره ونواهيه وهذه هي المشكلة العظمى التي نعانيها اليوم، إنّ عدم الاكتراث بأوامر الله جلّ

جلاله، والتخلّي عنها يوجبان مقت الله سبحانه وتعالى، وحلول النقمة في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

٩ - ﴿ولمّا جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه﴾ .

النجاة من الهلاك الدنيوي، والفوز في النعيم الأخروي الذي سبق لمؤمني الأمم السالفة، حصل أيضاً للمؤمنين من قوم شعيب عليه السلام، فقد سلموا جميعهم مما أصاب قومهم من العذاب الذي يصوّره لنا ابن اياس: أرسل الله على قوم شعيب ريحاً كادت تنسفهم نسفاً، فبادروا مسرعين إلى منازلهم من شدّة الريح، وآمن بشعيب في ذلك اليوم خلق كثير، رجال ونساء، فأرسل الملك يهدّد من آمن، فقال شعيب: لا تخافوا؛ فأمر الملك (أبو حاد) أعوانه أن يترصّدوا لشعيب ومن آمن به ويقتلونهم، فعند ذلك قال شعيب: ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالفتح وأنت خير الفاتحين؛ وإذا بريح قد هاجت عليهم فيها حرّ وكرب لا طاقة لهم بها، فرمى القوم أنفسهم في الآبار والسراديب، ودام عليهم مدّة وهم لا يزدادون إلّا عتوّاً أو نفوراً، وشعيب يحذِّرهم فيقولون: هذا من فعل آلهتكم فاصبروا؛ فأرسل الله عليهم الذباب الأزرق يلدغهم كلدغ العقارب، وربّما قتل أولادهم، وشغلهم بأنفسهم عن أذى شعيب ومن آمن به وهم لا يؤمنون؛ فهبّت عليهم ريح السموم، فكانوا ينتقلون من مكان إلى مكان ليجدوا لهم فرجاً من الكرب، وشعيب يناديهم: إلى أين تهربون، فليس لكم إلّا التوبة، فيقولون: يا شعيب نحن نكفر بك وبربّك، فزدنا لما نحن فيه؛ وإذا بسحابة سوداء قد ظلّتهم، فنصبوا لهم ظلّة واستظلّوا جميعاً، فأظلمت الأرض عليهم حتّى لم يبصر بعضهم بعضاً، واشتدّ عليهم الحرّ، فأوحى الله إلى شعيب: ان أخرج أنت وقومك واعتزلهم، وانظر كيف يحلّ عذابي بهم،

ثم رمت السحابة بوهجها وحرّها، وضربت القوم بعضهم في بعض، وأضرمت فأحرقت جلودهم وأكبادهم، وجميع ما كان على وجه الأرض، والمؤمنون ينظرون إليهم، ولم يصل شيء من العذاب إلى المؤمنين، فذلك قوله تعالى: **﴿ولمّا جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه﴾**[1].



(١) بدائع الزهور: ١٢٥.



موسى عليه السلام

في حفظ الله

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

نحن نفزع في مشاكلنا وحاجاتنا إلى الناس، وننسى أنّ لنا ربّاً بيده الخير وهو على كل شيء قدير، ما يشاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

في قصة موسى عليه السلام تتجلّى هذه الاشاءة والقدرة للجميع، ففرعون الطاغية أخبره منجموه أنّ هلاكه على يد وليد من بني اسرائيل قد حان وقت ولادته، فأمر بذبح كل ولد يولد لهم، هذا وموسى عليه السلام بعد لم يولد، وإلى هذا أشار بنو إسرائيل في شكواهم إلى موسى عليه السلام فيما أصابهم من قتل أولادهم ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وشاء المهيمن جلّ جلاله، أن يولد موسى عليه السلام في الوقت الذي عيّنه المنجّمون لفرعون، وأكثر من هذا أن يكون بيت فرعون هو المأوى والسكن له، وأن يعيش في أحضان زوجته، وتحت رعايته، كل هذا ليستيقن الخلق أنّ الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، فيتوجّهوا إليه بحاجاتهم، ويتوسّلوا إليه بمهماتهم، ويقطعوا طمعهم عن غيره.

نعود للآية الكريمة: ﴿**وأوحينا إلى أم موسى**﴾ ألهمناها، وقذفنا في

قلبها، وليس بوحي نبوّة **﴿أن أرضعيه﴾** ما لم تخافي عليه الطلب **﴿فإذا خفت عليه﴾** في القتل الذي أمر به فرعون في أبناء بني اسرائيل **﴿فألقيه في اليم﴾** في البحر، وهو النيل **﴿ولا تخافي﴾** عليه الضيعة **﴿ولا تحزني﴾** من فراقه **﴿إنّا رادّوه إليك﴾** سالماً عن قريب **﴿وجاعلوه من المرسلين﴾** والأنبياء؛ وفي هذه الآية أمران، ونهيان، وخبران وبشارتان.

وكيفية إلقائه: لما خافت عليه أُمه عملت له تابوتاً مطبقاً، ومهّدت له فيه، ثم ألقته في البحر ليلًا كما أمرها الله تعالى.

أمّا كيفية اخراجه: أنّ النيل جاء بالتابوت إلى موضع فيه فرعون وامرأته على شط النيل، فأمر فرعون فأتي به، وفتحت آسية بنت مزاحم بابه، فلما نظرت إليه ألقى الله في قلبها محبّة موسى، فلما نظر فرعون إلى موسى غاظه ذلك، وقال: كيف أخطأ هذا الغلام الذبح؟!.

قالت آسية وهي قاعدة إلى جنبه: هذا لوليد أكبر من ابن سنة، وأنّك أمرت أن يذبح الولدان لهذه السنة، فدعه يكن قرّة عين لي ولك، وإنّما قالت ذلك فأطمعته في ولد.

قال ابن عباس: إنّ أصحاب فرعون لما علموا بموسى جاؤوا ليقتلوه، فمنعتهم وقالت لفرعون: قرّة عين لي ولك لا تقتلوه، قال فرعون: قرّة عين لك وأمّا لي فلا.

وطلب فرعون له المرضعات فكان لا يقبل ثدي واحدة منهن، وهو قوله **﴿وحرّمنا عليه المراضع﴾** فجاءت أخته وهي تقول: **﴿هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾** فوافقوا على ذلك، فجاءت بأمّه، فلما وجد موسى ريح أمه قبل ثديها، وسكن بكاؤه، فقال فرعون: كيف ارتضع منك ولم يرتضع من غيرك؟ فقالت: لأني امرأة طيّبة الريح، طيبة

اللبن، لا أكاد أوتى بصبي إلّا ارتضع مني، فسر فرعون بذلك. لقد عادت به إلى بيتها﴿**فرددناه إلى أمّه كي تقرّ عينها ولا تحزن**﴾.

انظر رعاك الله إلى أثر الامتثال لأوامر الله جلّ جلاله، وكيف أنّ الممتثل يسعد دنيا وآخرة، وإن تصوّر في البداية أنّ العمل الذي أمر به شاقاً وصعباً.

إنّ هذه المرأة أمرت بإلقاء وليدها العزيز في البحر ـ وهذا أمر في غاية الشدّة والصعوبة ـ ولكنّها لما امتثلت لأمر الله سبحانه وتعالى فقد نجا وليدها من الذبح، ورجع إليها ترضعه بأمان، وبمخصصات تتقاضاها من الطاغية، واكرامات سنية من زوجته، وأكثر من هذا فقد حصل بعض الانفراج لبني اسرائيل باعتبارهم يرضعون محبوب الملك.

في العرض القرآني المجيد

إنّ اسم نبيِّ الله موسى بن عمران عليه السلام ورد في القرآن الكريم في ١٣٦ موضعاً، مقروناً بالإكبار والإجلال، وفي هذا العرض قبس من ذلك؛ ثم انّك ستجد بعض الآيات في بني إسرائيل، وأخرى في فرعون وقومه، ولمّا كان الجميع مرتبطاً بالنبوّة أثبتناه في هذا الفصل.

١ - ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

لم يكن الإسرائيليون يحلمون يوماً بالنجاة من فرعون وملائه، ولو قدّر أنّ شعباً آخر كان يعاني بعض ما كان يعانيه الإسرائيليون من فرعون، ثمّ تخلّصوا منه بالإعجاز العظيم الذي شاهدوه لكانوا أعبد خلق الله وأتقاهم، ولكنهم شعب طبع على الخلاف، وتأصلت فيهم الوثنية، ولعل الأربعمائة

سنة التي قضوها في عبودية فرعون كان لها الأثر النفسي فيهم، لم تستطع أن تغيّره الرسالة.

٢ - ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

إنّ مشهد هلاك الطاغية، وجيشه الجرّار الذي شاهده بنو إسرائيل يكفي البشريّة كلها إيماناً وحسن اعتقاد واستقامة، ولكنّهم وبعد لحظات يمرّون بقوم يعكفون على أصنام لهم فيعجبهم الأمر، فيقولون لنبيّهم: **﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾**.

ويجيبهم عليه السلام وملء قلبه الأسى: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

والواقع انّ الجهل هو داؤهم الأعظم، وداء كل متنكّب عن طريق الاستقامة؛ ألا تسمع قول يوسف عليه السلام لاخوته: **﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾**.

فالجهل هو الذي يؤدّي بالإنسان إلى المعصية، ثم يورده النار.

٣ - ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

وموضوع عبادة العجل وبالكيفيّة التي حدثت لبني إسرائيل لم تحدث لأمة من الأمم التي تقدّمتهم أو تأخّرت عنهم.

صحيح أنّ أمماً كثيرة كانت ولا تزال تعبد أوثاناً ونيراناً، ولكن الصورة التي حدثت لبني اسرائيل لا مثيل ولا شبيه لها في العالم كله.

فهم شاهدوا معاجز نبيّهم، والآيات التسع التي ظهرت على يديه، وخاتمتها ما حلّ بآل فرعون وهم ينظرون، ثم يتركهم زمناً قليلًا ليوافيهم

بالتوراة، ويترك أخاه هارون عليه السلام بينهم نبيّاً ومرشداً، فيتنكّبوا الطريق، ويهووا إلى هذا المستوى من الانحطاط.

حقّاً ان ذلك من عجائب الدنيا، لهذا أو غيره جاء التشديد في قبول توبتهم.

قال قتادة: جعل الله توبة عبدة العجل القتل، لأنّهم ارتدّوا وكفروا، والكفر مبيح الدم، فلما أمرهم موسى بالقتل استسلموا لأمره، وقالوا: نصبر لأمر الله، فجلسوا في الأفنية محتسبين، وأطلّ عليهم القوم بالسيوف والخناجر فكان الرجل يرى أخاه وابنه وأباه وقريبه وجاره، فلا يمكنه إلّا إمضاء أمر الله تعالى، فقالوا يا موسى كيف نصنع؟.

فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء حتّى لا يبصر بعضهم بعضاً، وقيل لهم: من حلّ حبوته، أو مدّ طرفه إلى قاتله، أو اتقاه بيد أو رجل فهو ملعون مردودة توبته، فكانوا يقتلونهم إلى المساء، فلّما كثر فيهم القتل، وبلغ عدد القتلى سبعين ألفاً، دعا موسى وهارون ربّهما، وجزعا وتضرّعا، وقالا: يا رب هلكت بنو اسرائيل، البقيّة البقيّة، فكشف الله السحابة عنهم، وأمرهم أن يرفعوا السلاح، ويكفّوا عن القتل[1].

٤ - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

إنّ الذنب كبير للغاية، فالأمّة بأسرها أقدمت على عبادة العجل باستثناء قلّة من المؤمنين، هذا ونبيّهم هارون عليه السلام بين ظهرانيهم يصرخ

---

(١) عرائس المجالس: ٢١١.

فيهم: ﴿**يا قوم إنّما فتنتم به**﴾ فلا يلتفتون إليه، لهذا جاء التشديد في قبول توبتهم ألا وهو القتل.

نعود للآية الكريمة: ﴿**و**﴾ اذكروا ﴿**إذ قال موسى لقومه**﴾ الذين عبدوا العجل عند رجوعه إليهم ﴿**يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم**﴾ أضررتم بأنفسكم، ووضعتم العبادة غير موضعها، وظلمهم إيّاه فعلهم بها ما لم يكن لهم أن يفعلوه، ما يستحق به العقاب، وكذلك كل من فعل فعلًا يستحق به العقاب فهو ظالم لنفسه ﴿**باتخاذكم العجل**﴾ بعبادتكم العجل ﴿**فتوبوا إلى بارئكم**﴾ ارجعوا إلى خالقكم ومنشئكم بالطاعة والتوحيد، وجعل توبتهم الندم مع العزم، وقتل النفس، جميعاً ﴿**فاقتلوا أنفسكم**﴾ ليقتل بعضكم بعضاً، يقتل البريء المجرم.

روي أنّ موسى عليه السلام أمرهم أن يقوموا صفّين، فاغتسلوا، ولبسوا أكفانهم، وجاءهم هارون عليه السلام باثني عشر ألفاً ممن لم يعبدوا العجل، ومعهم الشفار المرهفة، فكانوا يقتلونهم، ولمّا قتلوا سبعين ألفاً تاب الله على الباقين، وجعل قتل الماضين شهادة لهم، وإنّما امتحنهم الله تعالى بهذه المحنة العظيمة لكفرهم بعد الدلالات والآيات العظام ﴿**فتاب الله عليكم**﴾ بعد ما فعلتم ما أمرتم به ﴿**إنّه هو التوّاب**﴾ قابل التوبة من عباده ﴿**الرحيم**﴾ بهم.

٥ - ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾ [البقرة: ٥٥].

والمثل المعروف: حدّث عن بني اسرائيل ولا حرج، يُراد به كثرة تنكّبهم عن خط الاستقامة، واسراعهم في البغي، وبعدهم عن مسار الهدى والصلاح، رغم الجهود المكثّفة لاستصلاحهم وهدايتهم، فهم أكثر الأمم أنبياءً، وأيضاً المعاجز والآيات التي شاهدوها أكثر مما شاهدها غيرهم

والموضوع الذي أشارت إليه الآية الكريمة هو أنّ نبيَّ الله موسى عليه السلام اختار منهم سبعين شخصاً أخذهم معه للميقات، عندما وعده جلّ جلاله أن يعطيه التوراة، ليشهدوا له عند بني إسرائيل، لأنّهم لم يثقوا بخبره أنّ الله سبحانه يكلمه ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥].

فلما حضروا الميقات، وسمعوا كلام الله قالوا ﴿**يا موسى لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة**﴾ علانيّة، فيخبرنا بأنّك نبيٌّ مبعوث، ومما هو جدير بالذكر أنّ طلبهم الرؤية جاء بعد عبادتهم العجل ﴿**فأخذتكم الصاعقة**﴾ الموت ﴿**وأنتم تنظرون**﴾ إلى الناس وعن علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى عليه السلام، فقال له المأمون: يا بن رسول الله أليس من قولك إنّ الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، فسأله عن آيات من القرآن، فكان فيما سأله أن قال له: فما معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿**ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه قال ربّ أرني أنظر إليك قال لن تراني**﴾ الآية، كيف يجوز أن يكون كليم الله موسى بن عمران عليه السلام لا يعلم أنّ الله تعالى ذكره لا يجوز عليه الرؤية حتّى يسأله هذا السؤال؟.

فقال الرضا عليه السلام: إنّ كليم الله موسى بن عمران عليه السلام علم أنّ الله تعالى لا يُرى بالأبصار، ولكنّه لمّا كلّمه الله عزّ وجلّ، وقرّبه نجيّاً رجع إلى قومه فأخبرهم أنّ الله عزَّ وجلّ كلّمه وقرّبه وناجاه، فقالوا: لن نؤمن لك حتّى نسمع كلامه كما سمعت، وكان القوم سبعمائة ألف رجل، فاختار منهم سبعين ألفاً، ثم اختار منهم سبعة آلاف، ثم اختار منهم سبعمائة، ثم اختار منهم سبعين رجلًا لميقات ربّه، فخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم في سفح الجبل، وصعد موسى عليه السلام إلى الطور وسأل الله تبارك، وتعالى أن يكلّمه ويسمعهم كلامه، فكلّمه الله تعالى ذكره، وسمعوا كلامه من فوق

وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام، لأنّ الله عزّ وجلّ أحدثه في الشجرة، ثم جعله منبعثاً منها حتى سمعوه من جميع الوجوه، فقالوا: لن نؤمن لك بأنّ هذا الذي سمعناه كلام الله حتّى نرى الله جهرة، فلّما قالوا هذا القول العظيم، واستكبروا وعتوا، بعث الله عزّ وجلّ عليهم صاعقة فأخذتهم بظلمهم فماتوا، فقال موسى: يا رب ما أقول لبني اسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا: إنّك ذهبت بهم فقتلتهم، لأنّك لم تكن صادقاً فيما ادّعيت من مناجاة الله إيّاك، فأحياهم الله وبعثهم معه، فقالوا: إنّك لو سألت الله أن يريك أن تنظر إليه لأجابك، وكنت تخبرنا كيف هو فنعرفه حقّ معرفته.

فقال موسى عليه السلام: يا قوم إنّ الله لا يُرى بالأبصار، ولا كيفيّة له، وإنّما يُعرف بآياته، ويُعلم بأعلامه.

فقالوا: لن نؤّمن لك حتّى تسألّه.

فقال موسى: يا رب إنّك قد سمعت مقالة بني اسرائيل، وأنت أعلم بصلاحهم.

فأوحى الله جلّ جلاله إليه: يا موسى اسألني ما سألوك فلن أؤاخذك بجهلهم، فعند ذلك قال موسى عليه السلام: **﴿ربّ أرني انظر إليك قال لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني فلما تجلّى ربّه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين﴾** بأنّك لا تُرى.

فقال المأمون: لله درّك يا أبا الحسن[١].

وهذه الآية تفنّد مزاعم الذين يدّعون بأنّ من حقّ الأمّة أن تجتمع وتنتخب لها إماماً ـ كما حصل في عصر سالف ـ بل أنّ تعيين الإمام من قبل

---

(١) التوحيد: ١٢٢.

الله جلّ جلاله، كما هو في منشأ النبوّة، لأنّ البشر مهما أوتي من العلم والفهم قد لا يحالفه التوفيق والاختيار كما حدث ذلك لنبيٍّ الله موسى بن عمران عليه السلام، فقد وقع اختياره على الأدنى منهم وهو يحسبهم الأفضل.

٦ - ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨].

تمر عجلة الزمن على الاسرائيليين، ومع كثرة مشاهداتهم لمعالم الإيمان والنبوة، ومع ذلك تراهم يزدادون عتوّاً وعناداً، وبعداً عن طريق الحق والرشاد؛ لقد أمروا بدخول بيت المقدس، ووعدوا بنعيم الدنيا والآخرة **﴿نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين﴾** فمع هذا العطاء والوعد من الله ورسوله، فقد أعرضوا أشدّ الإعراض **﴿فبدّل الذين ظلموا قولًا غير الذي قيل لهم﴾**.

في هذا المشهد تتجلّى حقيقة هذه الجماعة، وما طبعوا عليه من الخلاف، والبعد عن منهج الاستقامة والسداد، وسوء السيرة، والاستهانة بأوامر السماء، والبغي، والكفر.

ففي تفسير الإمام العسكري عليه السلام **﴿وإذ قلنا﴾** لأسلافكم **﴿ادخلوا هذه القرية﴾** وهي أريحا من بلاد الشام، وذلك حين خرجوا من التيه **﴿فكلوا منها﴾** من القرية **﴿حيث شئتم رغداً﴾** واسعاً بلا تعب **﴿فبدّل الذين ظلموا قولًا غير الذي قيل لهم﴾** لم يسجدوا كما أمروا، ولا قالوا ما أمروا، وظلموا، ولكن دخلوها مستقبليها باستاهم وقالوا: حطاً سمقانا، يعني حنطة حمراء نتقوتها أحب إلينا من هذا الفعل وهذا القول قال الله: **﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾** يخرجون عن أمر الله وطاعته.

والرجز الذي أصابهم أنّه مات بالطاعون في بعض يوم مائة وعشرون ألفاً، وهم في علم الله أنّهم لا يؤمنون[١].

٧ - ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٦١].

الدنيا مليئة بالعجائب والغرائب، وأشدّها غرابة ما يتعلّق ببني اسرائيل، فهم في كلّ شيء قد خالفوا الاستقامة والسداد، بل وحتّى الذوق السليم، ومن هذه الغرائب وما أكثرها ـ طلبهم من نبيّهم أن يدعو الله سبحانه وتعالى في أن يكون طعامهم مما تنبت الأرض، بدلًا من المنّ ـ وهو نوع من الحلوى يسقط على أشجارهم فيأخذونه والسلوى هي المرعة: طائر أبيض، حسن اللون، طويل الرجلين، بقدر السماني، يقع في المطر من السماء.

إنّ سوء السليقة جعلهم يقولون لنبيّهم: لن نصبر على طعام واحد، ويتجلّى سوء اختيارهم حيث طلبوا **﴿يخرج لنا ممّا تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾**.

ويجيبهم عليه السلام **﴿قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾** أتتركون ما اختار الله لكم من الطعام، مع ما فيه من اللذة والمتعة، والحصول عليه بدون جهد، وتؤثرون ما هو أدنى، ولا يحصل إلّا بجهد وتعب **﴿اهبطوا مصراً﴾** الديار المصرية التي خرجوا منها **﴿فإنّ لكم﴾** منها **﴿ما سألتم﴾** من نبات الأرض **﴿وضربت عليهم الذلّة﴾** لزموا الذلّة الزاماً **﴿والمسكنة﴾** زين الفقر، فترى الثريَّ منهم يتباءس، ولا يوجد يهودي غنيّ النفس.

---

(١) البرهان في تفسير القرآن: ١/١٠٣ عن تفسير الإمام العسكري عليه السلام.

٨ - ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

وهذا مورد من الموارد الكثيرة التي خالفوا فيها الله ورسوله، وجانبوا تعاليم السماء، حتّى أكرهوا على قبول ما أمروا به.

قال أبو زيد: هذا حين رجع موسى من الطور، فأتى بالألواح، فقال لقومه: جئتكم بالألواح، وفيها التوراة، والحلال والحرام، فاعملوا بها قالوا: ومن يقبل قولك؟.

فأرسل الله عزّ وجلّ الملائكة حتى نتقوا الجبل فوق رؤوسهم، فقال موسى عليه السلام: إن قبلتم ما آتيتكم به وإلّا أرسلوا الجبل عليكم، فأخذوا التوراة وسجدوا لله تعالى ملاحظين إلى الجبل، فمن ثم يسجد اليهود على أحد شقي وجوههم قوله: ﴿**خذوا ما آتيناكم**﴾ يعني التوراة ﴿**بقوّة**﴾ بجدٍّ ويقين لا شكّ فيه ﴿**واذكروا ما فيه**﴾ يعني احفظوا ما في التوراة من الحلال والحرام ولا تنسوه ﴿**لعلّكم تتقون**﴾ كي تتقوني إذا فعلتم ذلك، وتخافوا عقابي وتنتهوا إلى طاعتي، وتنزعوا عمّا أنتم عليه من المعصية.

٩ - ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢] ويظهر أنّ موضوع النقباء والميثاق أوّل ما استعمل مع بني اسرائيل، كمحاولة جديدة لربطهم بخط السماء.

والميثاق: هو العهد المؤكّد باليمين بإخلاص العبادة لله تعالى، والإيمان برسله وما يأتون به من الشرائع.

والنقباء: وهم اثنا عشر، من كل سبط منهم نقيب، وهو ضمين بأن يفوا بالعهد والميثاق الذي أخذ عليهم.

وهذان الأمران لو تأملهما متأمل يجدهما من أحسن الروابط وأوثقهما في الانضباط والالتزام بنهج الحقّ والصواب؛ فبعد هذا التقنين جاء عطاء السماء ﴿**إنّي معكم**﴾ بالنصر والحفظ، أنصركم على أعدائكم الذين أمرتكم بقتالهم.

وجاءت الشروط التي يجب مراعاتها ليستوجبوا العطاء ﴿**لئن أقمتم الصلاة**﴾ يا معشر بني اسرائيل ﴿**وآتيتم الزكاة**﴾ أعطيتموها ﴿**وآمنتم برسلي**﴾ صدّقتم بما آتاكم به رسلي من شرائع ديني ﴿**وعزرتموهم**﴾ عظمتموهم ووقرتموهم وأعطيتموهم ﴿**وأقرضتم الله قرضاً حسناً**﴾ أنفقتم في سبيل الله، وأعمال البر ﴿**لأكفرنّ عنكم سيئاتكم**﴾ لأغطين على ما مضى من اجرامكم بعفوي ﴿**ولأدخلنكم جنّات تجري من تحتها الأنهار**﴾ تتخللها أنهار جارية ﴿**فمن كفر بعد ذلك منكم**﴾ بعد بعث النقباء، وأخذ الميثاق ﴿**فقد ضلّ سواء السبيل**﴾ أخطأ قصد الطريق الواضح وزلّ عن منهج الحقّ.

ثم بيّن سبحانه وتعالى نقضهم للعهد، ورجوعهم إلى التمادي في الغي والضلال، فقال: ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم**﴾ واللعن: هو الطرد من الرحمة، والإبعاد عن الفيوضات الإلهية.

وهذه الآيات في الوقت الذي تكشف هوية الاسرائيليين، واسراعهم في الضلال، هي أيضاً تسلية للنبي ﷺ لما كان يعانيه منهم. يقول أمين الإسلام الطبرسي: في المراد من الآية الكريمة: لا تعجب يا محمد من هؤلاء اليهود الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليك وإلى أصحابك، وينكثوا العهد الذي بينك وبينهم، ويغدروا بك، فإنّ ذلك دأبهم، وعادة أسلافهم

الذين أخذت ميثاقهم على طاعتي في زمن موسى عليه السلام، وبعثت منهم اثني عشر نقيباً، فنقضوا ميثاقي وعهدي، فلعنتهم بنقض ذلك العهد والميثاق[١].

قوله: ﴿**وجعلنا قلوبهم قاسية**﴾ يابسة غليظة، تنبو عن قبول الحق ولا تلين، ومعناه: سلبناهم التوفيق واللطف الذي تنشرح بهم صدورهم حتّى ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴿**يحرّفون الكلم عن مواضعه**﴾ يفسّرونه على غير ما أنزل، ويغيّرون صفة النبي صلى الله عليه وآله ﴿**ونسوا حظّاً مما ذكّروا به**﴾ وتركوا نصيباً مما وعظّوا به، ومما أمروا به في كتابهم من اتباع النبي، فصار كالمنسي عندهم، ولو آمنوا به واتبعوه لكان ذلك لهم حظّاً ﴿**ولا تزال تطلع على خائنة منهم**﴾ يعني على كذب وزور، ونقض عهد، ومظاهرة للمشركين على رسول الله صلى الله عليه وآله، وغير ذلك مما كان يظهر من اليهود من أنواع الخيانات ﴿**إلّا قليلًا منهم**﴾ لم يخونوا ﴿**فاعف عنهم واصفح**﴾ ما داموا على عهدك ولم يخونوك ﴿**إنّ الله يحب المحسنين**﴾.

١٠ - ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [المائدة: ٢٠].

ذكر سبحانه في هذه الآيات محاولة نبيّه موسى عليه السلام نشر رسالة السماء، وتعميمها على بعض القرى المجاورة، لا سيّما وهو من أولي العزم، وأنّ رسالته تلزم البشرية جمعاء، فقد بدأ حديثه مع جنوده وهو يعبئهم للحرب بذكر نعم المولى عليهم، لأنّ ذكرها في مثل هذا الموقف يشحذ العزيمة، ويدعو للاستجابة لأمر السماء.

نعود للآية الكريمة: ﴿**وإذ قال موسى لقومه**﴾ واذكر يا محمد إذ قال موسى لهم ﴿**يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم**﴾ وأياديه لديكم، وآلاءه فيكم

---

(١) مجمع البيان ٣ - ٤/ ٢٦٧.

﴿إذ جعل فيكم أنبياء﴾ يخبرونكم بأنباء الغيب، وتنصرون بهم على الأعداء، ويبيّنون لكم الشرائع **﴿وجعلكم ملوكاً﴾** بأن سخّر لكم من غيركم من يخدمكم **﴿وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾** وأعطاكم ما لم تؤت أحداً من عالمي زمانكم.

ثم كلفهم سبحانه دخول الأرض المقدّسة بعد ذكر النعم فقال: **﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدّسة﴾** وهي بيت المقدس، والمقدّسة: المطهرة، طهرت من الشرك، وجعلت مكاناً وقراراً للأنبياء والمؤمنين **﴿التي كتب الله لكم﴾** كتب في اللوح المحفوظ أنّها لكم **﴿ولا ترتدّوا على أدباركم﴾** ترجعوا عن الأرض التي أمرتكم بدخولها **﴿فتنقلبوا خاسرين﴾** الثواب في الآخرة، أنهم أمروا بدخولها كما أمروا بالصلاة وغيرها.

ثم ذكر سبحانه جوابهم لنبيّهم **﴿قالوا﴾** يعني بني اسرائيل **﴿يا موسى إنّ فيها﴾** في الأرض المقدّسة **﴿قوماً﴾** جماعة **﴿جبّارين﴾** شديدي البطش والبأس والخلق **﴿وإنّا لن ندخلها﴾** يعني لقتالهم **﴿حتّى يخرجوا منها﴾** يعني الجبّارين **﴿فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون﴾** إليها **﴿قال رجلان﴾** هما يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا **﴿من الذين يخافون﴾** الله جلّ جلاله **﴿أنعم الله عليهما﴾** بالتوفيق للطاعة **﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنّكم غالبون﴾** ادخلوا على الجبّارين باب مدينتهم، فإنكم ستنصرون عليهم **﴿وعلى الله فتوكّلوا﴾** في نصرة الله على الجبّارين **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** بالله، وما آتاكم رسوله من عنده.

أتدري ماذا كان جوابهم؟ **﴿قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ههٰنا قاعدون﴾**.

إنّ الآيات التي شاهدوها من نبيّهم كانت مدعاة لهم إلى أن يطيعوه تمام الطاعة، وإنّ المعاجز التي رأوها، ودلائل النبوّة التي عاينوها، لو رأى

بعضها شعب غيرهم ثم أمرهم نبيّهم أن يخوضوا لجج البحار لخاضوها، أو يدخلوا نار نمرود لدخلوها، ولكنّهم شعب طبع على الخلاف والشقاق.

لقد تهيّبوا من دخول المدينة مع أنّ أهلها ليسوا بأعظم من آل فرعون، وقد أخذهم الله جلّ جلاله في ساعة أو بعضها ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠] لهذا وغيره كان العقاب على تخلّفهم صارماً للغاية، ولم يعاقب به سبحانه أمةً قبلهم، مضافاً لما أعدّ لهم في القيامة من عذاب دائم لا يزول وإنّه لأعظم من تخلّفهم هو ردّهم السيىء على نبيّهم **﴿فاذهب﴾** يا موسى **﴿أنت وربّك فقاتلا﴾** الجبّارين **﴿إنّا ههٰنا قاعدون﴾** إلى أن تظفر بهم، وترجع إلينا، فحينئذٍ ندخل.

﴿قال﴾ موسى إذ غضب على قومه **﴿ربّ إنّي لا أملك إلّا نفسي﴾** أي لا أملك إلّا تصريف نفسي في طاعتك **﴿وأخي﴾** وأخي كذلك لا يملك إلّا نفسه **﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾** فافصل بيننا وبينهم بحكم ويقول ابن عباس: إنّه سأله تعالى أن يحكم ويقضي بما يدل على بعدهم عن الحقّ والصواب فيما ارتكبوه من العصيان، ولذلك ألقوا في التيه[١].

﴿قال﴾ الله سبحانه لموسى عليه السلام **﴿فإنّها محرّمة عليهم﴾** إنّ الأرض المقدّسة حرّمت عليهم **﴿أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾** يتحيّرون في المسافة التي بينهم وبينها، لا يستهدون إلى الخروج منها.

فتاهوا في أربعة فراسخ أربعين سنة، حتّى إذا انتهوا إلى مقدار ما

---

(١) مجمع البيان ٣ - ٤/ ٢٨١.

أرادوا أمر الله الأرض فدارت بهم إلى منازلهم الأولى، فيصبحون في منزلهم الذي ارتحلوا منه، فمكثوا بذلك أربعين سنة[١].

قوله: ﴿**فلا تأس على القوم الفاسقين**﴾ خطاب لموسى عليه السلام، أمره الله تعالى أن لا يحزن على إهلاكهم لفسقهم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] ومن لطف الله سبحانه وتعالى بعباده أنّه لا يعاجلهم عند معاصيهم، وقد يريهم ألواناً من العذاب من أجل أن ينيبوا أو يرجعوا إلى الاستقامة.

إنّ الله جلّ جلاله لم يمهل أمّة كما أمهل فرعون وقومه، ولم يرسل كوارث النقمة، وأفواج البلاء كما أرسلها عليهم، كل ذلك من أجل أن يرتدعوا ويستقيموا، ولكنهم لم يستفيدوا من تلك المحن، ولم ينيبوا عند البلاء، بل ازدادوا عتوّاً وتمرّداً ﴿**وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين**﴾.

لقد كان عنادهم بشكل غريب جداً؛ إنّ مواكب البلاء التي حلّت بهم كان بعضها يكفيهم للإستقامة، ولكنّهم كانوا الغاية في العناد، والبعد عن الله ورسوله ﴿**فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم**﴾.

كانت الآيات التسع التي جاء بها نبيُّ الله موسى بن عمران عليه السلام تكفي العالم بأسره أن يتديّن، ويخضع لقانون السماء، ولكنّهم ـ ومع الأسف ـ ظلّوا على بعدهم عن نهج الحقّ، وامعانهم في الضلال، علماً أنّهم في كل مرّة ينزل بهم بلاء ومكروه يفزعوا إلى نبيِّ الله موسى عليه السلام

(١) سفينة، البحار: ١/١٢٨.

متوسلين، يطلبون منه أنّ يتوسّل بالله جلّ جلاله في أن يكشف ما بهم، ويعاهدونه على الاستقامة والطاعة، ولكنّهم بعد كشف الضرّ عنهم ينقضون عهودهم، ويعودون بأشد مما كانوا ﴿**ولمّا وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع ربّك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلنّ معك بني اسرائيل**﴾.

والرجز: هو العذاب، وقد ثقل على فرعون وقومه.

فتعهّدوا لموسى عليه السلام بأن يؤمنوا إذا كشفه عنهم، وفعلًا استجاب الله جلّ جلاله دعاء نبيّه، وكشفه عنهم، ولكنّهم نكثوا عهدهم، وساروا قدماً في الضلال ﴿**فلما كشفنا عنهم الرجز**﴾ رفعنا عنهم العذاب ﴿**إلى أجل هم بالغوه**﴾ يعني الأجل الذي عرّفهم الله به ﴿**إذا هم ينكثون**﴾ ينقضون العهد؛ فعندها استوجبوا عذاب الاستئصال فجزيناهم على سوء صنيعهم بالعذاب، ثم فسّر ذلك العذاب ﴿**فأغرقناهم في اليم**﴾ في البحر ﴿**بأنهم كذبوا بآياتنا**﴾ فعلنا ذلك بهم جزاء تكذيبهم بآياتنا وحججنا وبراهيننا الدالة على صدق موسى، وصحة نبوّته، وجحودهم لها ﴿**وكانوا عنها غافلين**﴾ كانوا غافلين عن نزول ذلك بهم.

﴿**فأخرجناهم من جنّات وعيون**﴾ أشار جلّ جلاله في هذه الآية إلى ما حصل لهم في الدنيا فضلًا عمّا أعدّ لهم في الآخرة؛ وهنا أمر يجب الانتباه إليه: فهم إنّما بغوا واعتدوا لأجل التمتع في الدنيا، فقد فاتتهم وخسروها أعظم خسران، ولم يتمتعوا بحياتهم وأعمارهم، ولم يستوفوا المدة المقرّرة لهم لو كانوا قد تركوا البغي والفساد، لقد ماتوا شرّ ميتة مضافاً لما خسروه من أموال وأولاد وإلى هذا يجب أن يتنبّه الذين يطلبون الدنيا، ويسعون لها بذهاب الآخرة، كقادة الضلال، ورؤساء الفجور، يجب أن

يتيقنوا بأن الله جلّ جلاله سوف يحرمهم منها ومن التمتع بها، فضلًا عما يلحقهم من الهوان والنكال في الآخرة.

﴿**فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها**﴾ وبعد المفاجأة العظمى التي وقعت لبني اسرائيل، ونجاتهم من أعظم طاغية عرفته الكرة الأرضية، وهلاكه وجيشه الجرار بمنظر منهم ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠] كان المفروض بهم أن يكونوا بعد هذ الحدث العظيم أكثر أهل الدنيا إيماناً وتقوى ولكن الذي حصل هو خلاف ذلك؛ إن أرجلهم لم تجف من ماء البحر الذي خاضوه بسلام، وغرق فيه خصمهم وإذا بهم يقولون لنبيّهم ـ وقد شاهدوا في الجانب الثاني من البحر قوماً يعبدون الأصنام ﴿**اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة**﴾.

ويجيبهم عليه السلام والألم يحزّ في قلبه: ﴿**إنكم قوم تجهلون**﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١].

إنّ كلّ واحدة من هذه الآيات تكفي أهل الدنيا بأجمعهم على صدق المبعوث بالرسالة، ولا عذر لأحد منهم بالتخلّف عن الاستجابة.

إنّ فرعون كان على يقين تام من صدق موسى عليه السلام، وأنّه مبعوث من ربّ العالمين، ولكن الذي حال بينه وبين الإيمان هو الملك، والملك عقيم، ولكن الغريب هو تخلّف الأمة كلّها مع مشاهدتهم للآيات، وكان المفروض بهم أن يؤمنوا جميعاً من المشهد العظيم الذي آمن به السحرة، ولكنّهم كما وصفهم جلّ جلاله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

والآيات التسع التي أشارت إليها الآية الكريمة: الطوفان، والجراد،

والقمل، والضفادع، والدم، والبحر، والعصا، والطمسة[(١)]، والحجر[(٢)] [(٣)].

وتفصيل الموضوع: لما آمنت السحرة، ورجع فرعون مغلوباً، وأبى هو وقومه إلّا الاقامة على الكفر، قال هامان لفرعون: إنّ الناس قد آمنوا بموسى، فانظر من دخل في دينه فاحبسه، فحبس كل من آمن به من بني اسرائيل، فتابع الله عليهم بالآيات، وأخذهم بالسنين، ونقص من الثمرات، ثمّ بعث عليهم الطوفان فخرب دورهم ومساكنهم، وامتلأت بيوت القبط ماءً ولم يدخل بيوت بني اسرائيل من ذلك الماء قطرة، فقالوا لموسى: ادع لنا ربّك يكشف عنا فنؤمن لك، ونرسل معك بني اسرائيل، فدعا ربّه فكشف عنهم الطوفان، فلم يؤمنوا، فأنزل عليهم في السنة الثانية الجراد، فجرّدت زروعهم وأشجارهم، حتّى كانت تجرّد شعورهم ولحاهم، وتأكل الأبواب والثياب والأمتعة، وكانت لا تدخل بيوت بني اسرائيل، ولا يصيبهم من ذلك شيء؛ فعجّوا وضجّوا، وجزع فرعون من ذلك جزعاً شديداً، وقال: يا موسى ادع لنا ربّك يكشف عنّا الجراد حتى أخلّي عن بني اسرائيل، فدعا موسى ربّه فكشف عنهم الجراد، ولم يدع هامان فرعون أن يخلّي عن بني اسرائيل، فأنزل الله عليهم في السنة الثالثة القمّل، وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له، وهو شر ما يكون وأخبثه، فأتى على زروعهم كلّها، واجتثها من أصلها، وأخذت أشعارهم وأبشارهم، وأشفار عيونهم وحواجبهم، ولزمت جلودهم، ومنعتهم من

---

(١) الطمسة: دعاء موسى عليه السلام، وتأمين هارون عليه السلام ﴿ربّنا اطمس على أموالهم﴾ [يونس: ٨٨].

(٢) الحجر: ﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر﴾ [الأعراف: ١٦٠].

(٣) مجمع البيان: ٥ - ٦/ ٦٨٥.

النوم والقرار، فصرخوا وصاحوا، فقال فرعون لموسى: ادع لنا ربّك يكشف عنّا القمّل لأكفنّ عن بني اسرائيل، فدعا موسى حتّى ذهب القمّل فنكثوا، فأنزل الله عليهم في السنة الرابعة الضفادع، فكانت تكون في طعامهم وشرابهم، وامتلأت منها بيوتهم وأبنيتهم، فلا يكشف أحد ثوباً أو اناءً ولا طعاماً ولا شراباً إلّا وجد فيه الضفادع، فكانت تثب في قدورهم فتفسد عليهم ما فيها، وكان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، ويهم أن يتكلّم فيثب الضفدع في فيه، ويفتح فاه لأكلته فيسبق الضفدع أكلته إلى فيه، فلقوا في ذلك أذى شديداً، فلما رأوا ذلك بكوّا وشكوا إلى موسى، وقالوا: هذه المرّة نتوب ولا نعود، فأخذ عهودهم ومواثيقهم، ثم دعا ربّه فكشف عنهم الضفادع، ثم نقضوا العهد، وعادوا لكفرهم، فلما كانت السنة الخامسة أرسل عليهم الدم، فسال ماء النيل عليهم دماً، فكان القبطي يراه دماً، واسرائيلي ماءً، فإذا شربه الاسرائيلي كان ماءً، وإذا شربه القبطي كان دماً، وكان القبطي يقول للاسرائيلي: خذ الماء في فيك وصبّه في فيّ، فكان إذا صبّه في فم القبطي تحوّل دماً، وإنّ فرعون اعتراه العطش حتّى أنّه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة، فإذا مضغها يصير ماؤها في فيه دماً، فمكثوا سبعة أيام لا يأكلون ولا يشربون إلّا الدم.

ثم أخبر سبحانه عنهم أيضاً فقال: ﴿**ولما وقع عليهم الرجز**﴾ وهو الطاعون، مات من القبط سبعون ألف إنسان ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٤ - ١٣٦].

١ - ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه: ٩].

تمهيد:

القرآن الكريم يكرر قصص الأنبياء عليهم السلام، مستوحياً من التكرار تركيز الأهداف التي جاءت فيها القصة في نفوس المسلمين، وأخذ العبر والدروس منها.

لقد ذكر القرآن الكريم قصّة موسى عليه السلام مع فرعون أكثر من مرّة ليعتبر العرب بما نزل به وبجيشه الجرار، وكيف أبيدوا بأجمعهم في ساعة واحدة، كذلك ليعتبر طغاة العالم، وقادة الضلال بما حدث لسلفهم فيحذروا أن ينزل بهم ما نزل به من عذاب ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

والشيء الغريب في هذه القصص، والذي لا يستطيعه جميع كتّاب العالم، ورجال العلم والأدب أنّ في كلّ مرّة يتناول فيها القرآن الكريم قصّة موسى مع فرعون (مثلًا) يأتي بجديد لم يوجد في غيرها، فالقصص في الوقت الذي تكون فيه مكرّرة هي في الوقت نفسه جديدة وبكر في أسلوبها ومعانيها.

٢ - ﴿إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا﴾.

فهو صلوات الله وسلامه عليه بعد الإقامة في (مدين) عند نبيِّ الله شعيب عليه السلام، سار بأهله، وبقطيع صغير من الأغنام، حصيلة السنوات العشر التي كان يعمل فيها لشعيب عليه السلام.

ويقول ابن عباس: وكان موسى رجلًا غيوراً لا يصحب الرفقة، لئلا تُرى امرأته، وليت ابن عباس يرى مجتمعنا اليوم وقد سُلبت منه الغيرة، وصار السفور أمراً اعتيادياً؛ يرى الرجل زوجته واخته وبناته في أحسن هيئة وهن يخرجن متبرجات، ويجالسن الأجانب فلا يغار لذلك.

يقول الرسول الأعظم ﷺ: كان أبي إبراهيم غيوراً وأنا أغير منه، وأرغم الله أنف من لا يغار.

خرج موسى عليه السلام من (مدين) وكانت أهله على أتان وعلى ظهرها جوالق فيها أثاث البيت، فأضلّ الطريق في ليلة مظلمة، وتفرّقت ماشيته، ولم ينقدح زنده، وامرأته في الطلق، فرأى ناراً من بعيد، كانت عند الله نوراً، وعند موسى ناراً **﴿فقال﴾** عند ذلك **﴿لأهله﴾** وهي بنت شعيب **﴿امكثوا﴾** الزموا مكانكم **﴿إنّي آنست ناراً﴾** أبصرت ناراً **﴿لعلّي آتيكم منها بقبس﴾** بشعلة اقتبسها من معظم النار تصطلون بها **﴿أو أجد على النار هدى﴾** هادياً يدلّني على الطريق.

٣ - **﴿فلما أتاها﴾** كان ذلك بداية الفيض الإلهي، والمنح الربّانيّة، في خلاص شعب من أكبر طاغية عرفته الكرة الأرضية، وهلاك قوم فاسقين بمعيّة هرمهم الأكبر.

توجّه موسى عليه السلام نحو النار فإذا هي في شجرة عنّاب، فوقف متعجّباً من حسن ضوء تلك النار، وشدّة خضرة تلك الشجرة، فسمع النداء من تلك الشجرة وهو قوله: **﴿نودي يا موسى * إنّي أنا ربّك﴾**.

لقد سمع تسبيح الملائكة، ورأى نوراً عظيماً، والشيء الغريب في الموضوع: لم تكن الخضرة تطفىء النار، ولا النار تحرق الخضرة **﴿فاخلع نعليك﴾** انزعهما والسبب الذي أمر بخلع النعلين أنّ الحفاء علامة التواضع **﴿وأنا اخترتك﴾** اصطفيتك بالرسالة **﴿فاستمع لما يوحى﴾** إليك من كلامي.

٤ - **﴿إنني أنا الله لا إله إلّا أنا﴾** كان أوّل الوحي والتعاليم السماوية التوحيد لأنّه عماد الشرائع، وأصل الأديان، والباب الذي يفضي إلى كل خير وسناء **﴿فاعبدني﴾** خالصاً، ولا تشرك في عبادتي أحداً.

إنّ موسى عليه السلام وجميع الأنبياء عليهم السلام كانوا على التوحيد من قبل أن يوحى إليهم والمراد بالآية الكريمة أن يبلّغ ذلك قومه.

٥ - **﴿وأقم الصلاة لذكري﴾** وبعد التوحيد بدأ الصلاة، لأنها أهم الواجبات الدينيّة.

إن قبلت تقبل بها الأعمال وان تُرد ردّ كلّ ما عمل.

ولا عذر لأحد ـ مهما كانت ظروفه في تركها، أو التسامح بها، وهي العلامة الفارقة بين أهل الإيمان والكفر؛ ومعنى قوله: **﴿لذكري﴾** تذكرني فيها بالتسبيح والتعظيم، لأنّ الصلاة لا تكون إلّا بذكر الله تعالى.

٦ - **﴿إنّ الساعة آتية﴾**.

الساعة: هي القيامة، وموعد اجتماع الخلائق كلهم للحساب، ومنها المنطلق إلى الجنّة، أو النار؛ وتقدّم ذكرها لأنّ بمراعاتها يستقيم الإنسان وينجو، ومعنى الآية: أنّ القيامة جائية قائمة لا محالة **﴿أكاد أخفيها﴾** أريد أن أخفيها عن عبادي؛ وفائدة الاخفاء: التهويل، والتخويف، فإنّ الناس إذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها في كل وقت **﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾** بما تعمل من خير أو شرّ، ولينتصف من الظالم للمظلوم **﴿فلا يصدّنّك عنها من لا يؤمن بها﴾** لا يمنعك عن الإيمان بالساعة من لا يؤمن بها **﴿واتبع هواه﴾** الهوى: ميل النفس إلى الشيء، ومعناه: ومن بنى الأمر على هوى النفس دون الحقّ، وذلك أنّ الدلالة قامت على قيام الساعة **﴿فتردى﴾** فتهلك كما هلك؛ والمراد: إن صددت عن الساعة بترك التأهب لها هلكت.

والخطاب وإن كان لموسى عليه السلام إلّا أنه في الحقيقة لسائر المكلّفين.

٧ - **﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾** والأنبياء صلوات الله عليهم كلّهم

مزوّدون بالمعاجز، إقامة للحجّة، وأيضاً ليتميّز الصادق من الكاذب، ولولا ذلك لكثر مُدَّعو هذا المنصب العظيم.

والمعجزة: أن يأتي النبيُّ بشيء يعجز عن الاتيان به جميع الخلق؛ وأوّل معاجز موسى عليه السلام العصا، وهي التي كانت سبباً لإيمان جمهور السحرة.

في هذا المشهد جاء سؤال العزيز القادر ﴿**وما تلك بيمينك يا موسى**﴾ فسأله عمّا في يده من العصا تنبيهاً له عليها، ليقع المعجز بها بعد التثبت فيها، والتأمّل لها ﴿**قال**﴾ موسى ﴿**هي عصاي أتوكأ عليها**﴾ اعتمد عليها إذا مشيت ﴿**وأهش بها على غنمي**﴾ وأخبط بها ورق الشجر لترعاه غنمي ﴿**ولي فيها مآرب أخرى**﴾ حاجات أخرى ﴿**قال**﴾ الله سبحانه ﴿**ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هي حيّة تسعى**﴾ تمشي بسرعة، وعيناها تتوقدان ناراً، فلما عاين ذلك ولى مدبراً ولم يعقب، ثم ذكر ربّه فوقف استحياءً منه، ثم نودي: ارجع حيث كنت، فرجع وهو شديد الخوف ﴿**قال خذها**﴾ بيمينك ﴿**ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى**﴾ سنعيدها إلى الحالة الأولى عصا ﴿**واضمم يدك إلى جناحك**﴾ واجمع يدك إلى تحت عضدك ﴿**تخرج بيضاء**﴾ لها نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر وأشدّ ضوءاً ﴿**من غير سوء**﴾ من غير برص، ففعل، فخرجت يده كما قال الله، ثمّ ردّها فعادت إلى لونها الذي كانت عليه ﴿**آية أخرى**﴾ فنزيدك بها آية أخرى ﴿**لنريك من آياتنا الكبرى**﴾ لنريك من دلائلنا الكبرى هاتين الدلالتين.

٨ - ﴿**اذهب إلى فرعون إنه طغى**﴾ وهذا الرجل كان في منتهى الضعة والحقارة، عمل في عدّة مهن فلم يحصل على ما يسد حاجته، وأخيراً اهتدى إلى أن يقف بالمقبرة، ويأخذ من ذوي كل جنازة مبلغاً يسيراً كأتاوة

صغيرة، ثم خدمته الظروف حتّى وصل إلى العرش، فكان شكره للمنعم العظيم أن نازعه الربوبية.

٩ - ﴿**قال ربّ اشرح لي صدري**﴾ كان التكليف كبيراً، ولا بدّ أن يكون العون الإلهي عظيماً، لقد سأل الكليم من الكريم أن يوسّع له صدره حتّى لا يضجر ولا يغتم ﴿**ويسّر لي أمري**﴾ سهّل عليّ أداء ما كلفتني من الرسالة ﴿**واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي**﴾ واطلق عن لساني العقدة التي فيه حتّى يفقه كلامي(١).

استجاب الله دعاءه فأحلّ العقدة عن لسانه ﴿**واجعل لي وزيراً**﴾ يؤازرني على المضي إلى فرعون، ويعاضدني عليه ﴿**من أهلي**﴾ لأنّه إذا كان الوزير من أهله كان أولي ببذل النصح له؛ ثم بيّن الوزير وفسّره ﴿**هارون أخي**﴾ وكان أخاه لأبيه وأمّه، وكان بمصر ﴿**أشدد به أزري**﴾ قوّ به ظهري وأعنّي به ﴿**واشركه في أمري**﴾ اجمع بيني وبينه في النبوّة ﴿**كي نسبحك كثيراً**﴾ ننزّهك عما لا يليق بك ﴿**ونذكرك كثيراً**﴾ نحمدك ونثني عليك بما أوتينا من نعمك، ومننت به علينا من تحمّل رسالتك.

١٠ - ﴿**إنّك كنت بنا بصيرا**﴾ عالماً بأحوالنا وأمورنا؛ وهو جلّ جلاله بصير بعباده كلّهم، يرعاهم جميعاً برعايته، ويكلؤهم ويحوطهم بحياطته، ويدفع عنهم المكروه بقدرته، ويفرّج عنهم الشدائد برحمته، ويصرف عنهم السوء بلطفه.

١١ - ﴿**وقتلت نفساً فنجيناك من الغم**﴾ وتستمر الآيات في تذكيره

---

(١) كان سبب تلك العقدة في لسانه جمرة طرحها في فيه، وذلك لمّا أراد فرعون قتله لأنّه أخذ بلحيته ونتفها وهو طفل، فقالت آسية: لا تفعل فإنّه طفل لا يدرك، والدليل على ذلك أنّه لا يميّز بين الدرّة والجمرة، فأمر فرعون باحضار درّة وجمرة بين يديه، فأراد موسى أن يأخذ الدرّة، فصرف جبرائيل يده إلى الجمرة، فأخذها ووضعها في فيه، فاحترق لسانه.

صلوات الله عليه بنعم الله جلّ جلاله عليه، ورعايته له وحفظه؛ فمن ذلك يوم قتل شخصاً من أتباع الطاغية، ومع حرصه الشديد على القاء القبض عليه وقتله، ولكنّ الذي نجّاه طيلة هذه السنين منه نجّاه أيضاً في هذه المرّة؛ فقد خرج خائفاً يترقّب، على غير بصيرة بالطريق الذي يوصله إلى مأمن من الأرض، ثم انتهى به المطاف إلى بيت نبيّ الله شعيب عليه السلام، فعاش فيه معزّزاً مكرّماً.

يا رب موسى وهارون ومنجيهما من كيد فرعون والظالمين، نجّنا يا رب من أيدي العتاة الظالمين، وانظر إلى شعبنا المظلوم نظرة تكفيهم فيها ما أهمّهم من أمر دينهم ودنياهم، إنّك على كل شيء قدير.

١٢ - **﴿فقولا له قولًا ليّناً﴾** وبعد أن تستمر الآيات يأتي الأمر الإلهي بأن يذهبا إلى الطاغية، وأن يكلماه برفق، ولا يغلظا له في القول.

فعن بعض أعلام المفسّرين: أنّ موسى عليه السلام أتاه فقال له: تسلم وتؤمن بربّ العالمين على أنّ لك شبابك فلا تهرم، وتكون ملكاً لا يُنزع الملك حتّى تموت، ولا تُنزع منك لذّة الطعام والشراب والجماع حتّى تموت، فإذا مت دخلت الجنّة؛ فأعجبه ذلك، وكان لا يقطع أمراً دون هامان، وكان غائباً، فلما قدم هامان أخبره بالذي دعاه إليه، وأنّه يريد أن يقبل منه فقال هامان: قد كنت أرى لك عقلًا، وأن لك رأياً، بينا أنت ربّ وتريد أن تكون مربوباً، وبينما أنت تعبد، وتريد أن تعبده!! فقلبه عن رأيه[1].

وأنت أعزّك الله مهما كنت بعيداً عن الله تعالى وعاصياً، فلا تقنط من رحمة الله، وبادر إليه بالتوبة، فستجده رؤوفاً عطوفاً ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥]

---

(١) مجمع البيان ٧ - ٨/ ١١.

١٣ - ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾ يقول جلّ جلاله ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣] لقد بلغ الذروة في الطغيان والفساد، لذا قالا سلام الله عليهما: ﴿إنّنا نخاف أن يفرط علينا﴾ نخشى أن يتقدّم فينا بعذاب، ويعجّل علينا ﴿أو أن يطغى﴾ يجاوز الحدّ في الإساءة إلينا.

وجاء جواب القويّ المتعال ﴿لا تخافا إنني معكما﴾ إنّي ناصركما وحافظكما ﴿أسمع وأرى﴾ أسمع ما يسألكما به فألهمكما جوابه، وأرى ما يقصدكما به فأدفعه عنكما.

وفعلًا فقد سلما من بطشه، من عزمه الشديد على قتلهما.

وهذا درس لكلّ فرد من الأمّة أن يبذل جهده في الإصلاح، والدعوة إلى الخير، وأن يؤدّي ما فرضه الله جلّ جلاله عليه من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعندما يصوّر له الشيطان أنّ ذلك يسبب له أذى فيتذكّر كلمة أمير المؤمنين عليه السلام: وإنّ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يقربان من أجل، ولا ينقصان من رزق[١].

١٤ - ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾ السلام: هو الأمان والنجاة، والهدى: دين الله الذي أمر عباده أن يتديّنوا به، فالمتبع لتعاليم الله تعالى يسلم وينجو من العذاب، وأيضاً يسلم وينجو من كثير من مآسي الحياة ومكارهها؛ وعلى سبيل المثال: تجنّب الخمر يحفظ للإنسان ويقيه العشرات من الأمراض، وعدم الكذب يحفظ له ماء وجهه، ويسهّل له أموره، ويكسبه محبة المجتمع، وهكذا بقية تعاليم الإسلام، فكلها تكسبه في الدنيا خيراً ومجداً.

---

(١) نهج البلاغة: ٣/٢٢٦.

١٥ - ﴿إن العذاب على من كذّب وتولّى﴾ وكما أنّ النجاة لمتبعي الرشاد كذلك العذاب للمكذبين برسالات الأنبياء عليهم السلام، والمعرضين عن تعاليمهم، التاركين لأوامرهم؛ وأنت سلّمك الله قد أنعم الله جلّ جلاله عليك بالإيمان به وبرسله، فاشكره على هذه النعمة العظمى التي لا يساويها شيء، وفي الوقت نفسه احذر الشيطان كل الحذر أن يخدعك، أو يخرجك عن خط الشريعة، أو يجعلك متسامحاً بالوظائف الدينيّة، أو تتسرّع متجرئاً على الله تعالى ومبارزاً له بالمعاصي.

١٦ - ﴿ربّنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ وهذا جواب موسى عليه السلام للطاغية لما سأله: ﴿فمن ربّكما يا موسى﴾ فأجابه: ﴿ربّنا الذي أعطى كل شيء خلقه﴾ ومعناه: أعطى كل شيء خلقته، أي صورته التي قدّرها له، وهداه إلى مطعمه ومشربه، وتدبير أموره.

وما ذكره عليه السلام يكفي دلالة على التوحيد، فسبحان الذي هدى الرضيع إلى محالب أمّه، والنملة إلى أن تخزن قوتها لفصل الشتاء، بعد أن تقسم كلّ حبّة إلى نصفين، خوفاً من أن تنبت وتخضر، فعند ذلك لا تنتفع بها، وأكثر من هذا: أنّها تقسم حبّة الكزبرة إلى أربعة أقسام، لأنها تعلم أنّها عندما تقسمها قسمين تنبت، خلافاً لبقية الحبوب.

١٧ - ﴿في كتاب لا يضل ربّي ولا ينسى﴾ اعترض الطاغية على موسى عليه السلام لمّا أمره بطاعة الله جلّ جلاله بالأمم التي سلفت، والتي كانت تعبد الأصنام فأجابه ﴿علمها عند ربي﴾ لا يذهب عليه شيء من أحوالهم ﴿في كتاب﴾ هو اللوح المحفوظ، والمراد: أنّ أعمالهم مكتوبة، مثبتة عليهم ﴿لا يضلّ ربّي﴾ لا يذهب عليه شيء ﴿ولا ينسى﴾ ما كان من أمرهم، بل يجازيهم بأعمالهم.

واعلم رعاك الله، فكما أنَّ أعمال الأمم الماضية مثبتة ومسجّلة عليهم كذلك أعمالك، صغيرها وكبيرها، ما أحسنت فيها وما أسأت، فاحذر كل الحذر ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

١٨ - معالم التوحيد

انتهى جواب موسى عليه السلام للطاغية، ولكنّه صلوات الله عليه أخذ يستعرض أدلّة التوحيد، والتي من كلٍّ واحد منها دلالة على الواحد الأحد.

﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾ فرشاً ومهاداً **﴿وسلك لكم فيها سبلاً﴾** سهّل لكم فيها طرقاً **﴿وأنزل من السماء ماءً﴾** يعني المطر.

وتمّ الإخبار عن موسى عليه السلام، ثم أخبر سبحانه عن نفسه فقال موصولًا بما قبله من الكلام: **﴿فأخرجنا به﴾** بذلك الماء **﴿أزواجاً﴾** أصنافاً **﴿من نبات شتى﴾** مختلفة الألوان والطعوم والمنافع **﴿كلوا﴾** مما أخرجنا لكم بالمطر من النبات والثمار **﴿وارعوا أنعامكم﴾** وأسيموا مواشيكم فيما أنبتناه بالمطر **﴿إنّ في ذلك﴾** فيما ذكر **﴿لآيات﴾** دلالات **﴿لأولي النهى﴾** لذوي العقول الذين ينتهون عما حرم الله عليهم.

١٩ - **﴿أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى﴾** وبعد أن يعجز الطغاة عن مجابهة الحقِّ، وتدمغهم أدلّة التوحيد، يلجأون من أجل الهيمنة على الجماهير وينسبون المصلحين إلى السحر.

وتمر المئات من السنين والتاريخ يعيد نفسه، لقد اجتمعت قريش إلى شيخها المضل الوليد بن المغيرة المخزومي فقالوا: يا أبا عبد شمس ما هذا الذي يقول محمد، أسحر، أم كهانة، أم خطب؟.

فقال: دعوني أسمع كلامه، فدنا من رسول الله ﷺ وهو جالس في الحجر فقال: يا محمد أنشدني شعرك.

فقال: ما هو بشعر، ولكنه كلام الله الذي بعث به أنبياءه ورسله.

فقال: أتلُ.

فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، فلما سمع الرحمن، استهزأ منه وقال: يدعو إلى رجل باليمامة، يسمّى الرحمن.

فقال: لا، ولكنّي أدعو إلى الله، وهو الرحمن الرحيم.

ثم افتتح حم السجدة، فلما بلغ إلى قوله: **﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾** ولما سمعه اقشعرّ جلده، وقامت كل شعرة في بدنه، وقام ومشى إلى بيته، ولم يرجع إلى قريش، فقالوا: صبا أبو عبد شمس إلى دين محمد، فاغتمت قريش، وغدا عليه أبو جهل فقال: فضحتنا يا عم.

فقال: يا ابن أخي ما ذاك، وإني على دين قومي، ولكن سمعت كلاماً صعباً تقشعر منه الجلود.

قال: أفشعر هو؟.

قال: ما هو بشعر.

قال: فخطب؟.

قال: لا، إنّ الخطب كلام متّصل، وهذا كلام، منثور، ولا يشبه بعضه بعضاً.

قال: فكهانة هو؟

قال: لا.

قال: فما هو؟.

قال: دعني أفكّر.

فلما كان من الغد قالوا: يا أبا عبد شمس ما تقول؟.

قال: قولوا هو سحر، فإنّه آخذ بقلوب الناس فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ إلى قوله: ﴿عليها تسعة عشر﴾[١].

واليوم استبدل الملحدون بكلمة السحر الطبيعة، فهم حينما يلزمهم الحق، والإقرار بالتوحيد والرسالة، وبعدها الفرائض، ولأجل أن يتهرّبوا من ذلك كله فينسبوا معالم التوحيد إلى الطبيعة.

ويصوّر الثعلبي المشهد: إنّه ألقى عصاه من يده ﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾ كأعظم ما يكون من الثعابين، أسود مدلهم، يدب على أربع قوائم قصار، غلاظ شداد، وهو أعظم وأطول من بختي عظيم، وله ذنب يقوم عليه، فيشرف فوق حيطان المدينة برأسه وعنقه وكاهله، لا يضرب بذنبه على شيء إلّا حطّمه وقضمه، ويكسر بقوائمه الصخور الصم الصلاب، ويطحن كل شيء، ويصدم الحيطان والبيوت؛ نفسه نار، وله عينان تلتهبان ناراً، ومنخراه ينفخان سموماً، وعلى معرفته شعر كأمثال الرماح، وصارت الشعبتان له على ما سعته اثنتا عشر ذراعاً، وفيه أنياب وأضراس لها فحيح وكشيش وصريف وصرير؛ فاستعرض ما ألقت السحرة من حبالهم وعصيهم وهي تخيّل في أعين الناس وعين فرعون أنها تسعى، فجعلت تلقفها وتبلعها واحداً واحداً، حتى لم يُر في الوادي لا قليلًا ولا كثيراً مما ألقوا، وانهزم قوم فرعون هاربين منقلبين، فتزاحموا وتضاغطوا، ووطىء بعضهم بعضاً حتّى مات منهم يومئذٍ في ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفاً، وانهزم فرعون فيمن انهزم مرعوباً ذاهباً عقله، وقد استطلق عليه بطنه من

(١) سفينة البحار: ٢/ ٦٩٠.

يومه ذاك، أربعمائة مرّة، فصار يحصل له ذلك أربعين مرّة في كل يوم وليلة[١].

٢٠ ـ **﴿فلنأتينك بسحر مثله﴾** هدّد الطاغية موسى عليه السلام بأن يأتي بمثل ما أتى به، والذي شجّعه على ذلك هو انتشار السحر يومئذٍ في مصر، وبلوغهم فيه أقصى المراتب، وحتّى قيل: إنّ السحرة الذين جمعهم فرعون لموسى عليه السلام كانوا أربعين ألفاً.

واتفق الطرفان على المكان والزمان، وخرج للمشاهدة كل من يمكنه الخروج، وجاء السحرة بأعظم ما يمكن من السحر ﴿قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

٢١ - **﴿والق ما في يمينك﴾**.

لقد ملأ السحرة قاعة العرض بحيات تسعى، وبلغ الأمر **﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾** خاف أن يتفرّق الناس من قبل أن يتبيّن لهم الحق؛ وجاء الأمر الإلهي **﴿وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا﴾** فألقى عصاه فإذا هي حيّة عظيمة، أكلت جميع الحيّات، ثم عادت عصا بيده الكريمة.

٢١ - **﴿فألقي السحرة سجداً﴾** لقد تيقّن السحرة بأن العصا آية سماوية، وأن صاحبها مرسل من إله السماء، وأنّه من المستحيل أن يكون ما شاهدوه سحراً، لأنهم أعلم أهل الدنيا بالسحر، ولا يخفى عليهم شيء منه، فقد قرروا بأجمعهم من اللحظة الأولى الإيمان بالله وبرسوله **﴿فألقي السحرة سجّدا قالوا آمنا بربّ هارون وموسى﴾**.

٢٣ - **﴿فلأقطّعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾** وصعب الأمر على فرعون غاية الصعوبة، فقد ظنّ أن يكسب بعض الموقف، لا سيما وقد

---

(١) عرائس المجالس: ١٨٩.

رأى الأرض كلها حيّات تسعى، وموسى لا يملك إلا عصا واحدة، فتكون حيّة واحدة، ولم يكن يدور في خلده أن يعلن السحرة بأجمعهم الإيمان برسالة السماء، لقد هاله الأمر وأخذ يهذي **﴿إنه لكبيركم الذي علّمكم السحر﴾** في حين لم تكن بينهم وبين موسى أيّة رابطة ومعرفة، وأنه جمعهم من أطراف المملكة بعد أن اشترطوا عليه المكافأة ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١ - ٤٢].

وأخيراً استعمل أقصى ما يمكن من التهديد والوعيد **﴿فلأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾** أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى **﴿ولأصلبنّكم في جذوع النخل﴾** على جذوع النخل.

٢٤ - **﴿إنّا آمنّا بربّنا ليغفر لنا خطايانا﴾** ورغم التهديد والشدّة التي جوبهوا بها فنراهم لم يرتاعوا لذلك ولم يجبنوا، بل كان تصميمهم على الإيمان بشكل غريب، فلم يعهد في جماعة من قبلهم كانوا على ضلال ثم انتقلوا بأجمعهم إلى الإيمان، والموت منهم بمشهد ومسمع.

لقد أجابوا الطاغية بأجمعهم **﴿إنّا آمنّا بربّنا ليغفر لنا خطايانا﴾** فبالإيمان بالله ورسله تغفر الذنوب، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

٢٥ - **﴿فإنّ له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى﴾** وأشد شيء خلقه الله جلّ جلاله جهنم، ومضافاً لما فيها من عذاب ونكال وسلاسل وأغلال، وعقارب وحيّات كل واحدة ثخن رقبة البعير، وأعظم من هذا كله أنّ أهلها لا يموتون فيستريحون من العذاب، ولا يحيون حياة فيها راحة، بل هم في

دوامة من العذاب ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

٢٦ - ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠].

عندما يتغلغل الإيمان في النفوس، وتستجيش دوافع العقيدة، فيهون عندها الموت، وهذا هو الذي يدفع بالمؤمنين إلى الاستبسال في ميادين الحرب والشهادة، وأعداؤهم يعرضون عليهم الأمان فلا يعبأون لندائهم.

فالإيمان هو الذي جعل السحرة لا يبالون بتهديد فرعون و **﴿قالوا لا ضير﴾** لا ضرر علينا فيما تفعله بنا **﴿إنّا إلى ربّنا منقلبون﴾** إلى ثواب ربّنا راجعون، فيجازينا على إيماننا وصبرنا بالنعيم الدائم الذي لا ينقضي ولا يضرّنا قطعك وصلبك فإنّه ألم ساعة وينقضي ورغم القسوة التي عرف بها فرعون، والتي لم تعهد في مخلوق قبله ولا بعده، يكفيك ذلك ذبحه لآلاف الأطفال الرضع، ورغم تهديد السحرة، بقطع الأيدي والأرجل والصلب على جذوع النخل فإنّ الله جلّ جلاله نجّاهم بأجمعهم منه، ولم يصب واحداً منهم بأذى فضلًا عن القتل قال الحسن: لم يصل فرعون إلى قتل واحد منهم ولا قطعه[1].

☼

في سورة القصص عرض تفصيلي لقصّة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يبدأ من قبل الولادة حتى هلاك الطاغية، أخذنا منه:

١ - **﴿فخرج منها خائفاً يترقّب﴾**.

فهو بعد قتله للقبطي، ومجيء من نصحه بالخروج لأنّ القوم يفتّشون عنه، فخرج من المدينة بالصورة التي ذكرتها الآية الكريمة.

---

(١) مجمع البيان: ٧/ ٢٦١.

لقد اجتمعت عليه في هذه الرحلة دواع كثيرة تفت في عضده، وتزيد في حيرته ووجله، منها: الخوف، وجهل الطريق، وليس لديه دابة يركبها، ولا غذاء يتبلّغ به، ولكنه في الوقت نفسه يملك ثقة بالله تعالى، وأنّه لا يتخلّى عن عبده، لا سيّما إذا كان العبد قد بادر فدخل باب الطاعة والامتثال.

وبينما هو يمشي على غير هدى إذ وصل إلى مفترق عدة طرق، فلم يدر أيّها يسلك، فتوجّه إلى الله تعالى فقال: ﴿**عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل**﴾.

فاستجاب له ربّه، وهداه إلى الطريق المستقيم الذي يوصله إلى ﴿**مدين**﴾.

٢ - ﴿**ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمّة من الناس يسقون**﴾.

وبعد رحلة شاقة، استمرّت ثمانية أيام، يأكل فيها ما تنبت الأرض، وصل إلى بئر قد ازدحم عليها الرعاة يسقون أغنامهم ﴿**ووجد من دونهم امرأتين تذودان**﴾ تحبسان وتمنعان غنمهما عن الورود إلى الماء، فتعجّب من ذلك وسألهما: ﴿**ما خطبكما**﴾ ما شأنكما وما لكما لا تسقيان مع الناس؟ ﴿**قالتا لا نسقي**﴾ عند المزاحمة مع الناس ﴿**حتى يصدر الرعاء**﴾ ينصرف الناس، فإنّا لا نطيق السقي، فننتظر فضول الماء، فإن انصرف الناس سقينا مواشينا من فضول الحوض ﴿**وأبونا شيخ كبير**﴾ لا يقدر أن يتولّى السقي بنفسه من الكبر، ولذلك احتجنا ونحن نساء أن نسقي ﴿**فسقى لهما**﴾ سقى موسى غنمهما الماء ﴿**ثمّ تولّى إلى الظل**﴾ جلس في ظل شجرة يستظلّ بها من حرارة الشمس، وهو جائع ﴿**فقال ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير**﴾.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: والله ما سأله إلّا خبزاً يأكله، لأنّه كان يأكل

بقلة الأرض، لقد كانت خضرة البقل ترى من شغيف صفاف بطنه، لهزاله وتشذّب لحمه.

٣ - ﴿**فجاءته إحداهما**﴾ استجاب الله دعاءه، فما أسرع أن عادت إليه احداهما ﴿**تمشي على استحياء**﴾ قد غطّت وجهها بكم درعها ﴿**قالت إنّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا**﴾ ليكافئك على سقيك لغنمنا.

والأنبياء عليهم السلام يتصفون بأفضل خصال الكمال، وأعلى درجات النبل والشرف، منذ نعومة أظفارهم، لقد جعلهم الله جلّ جلاله في المرتبة العليا من كل فضيلة، لأنّ ذلك ادعى لإيمان الناس بهم، وتصديقهم بما جاؤوا به من عند الله تبارك تعالى، لما يرونه من حسن سيرتهم، واستقامة طريقتهم.

فمن هذا الخلق والعفاف ما ذكره المفسّرون وأهل السير والآثار عن نبيِّ الله موسى عليه السلام وهو يمشي مع المرأة إلى بيت أبيها نبيِّ الله شعيب عليه السلام، فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف لموسى عليه السلام عجزها، فجعل موسى عليه السلام يعرض عنها، ويغض مرّة بعد أخرى، ثم ناداها يا أمة الله كوني خلفي وأرني السمت بقولك، أي قولي الطريق يمنة أو يسرة، وهكذا.

٤ - ﴿**قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين**﴾.

وصل موسى عليه السلام إلى المنزل وإذا هو بالعشاء مهيّأ، فقال له شعيب: اجلس يا شاب فتعشى.

فقال موسى: أعوذ بالله.

قال شعيب: ولِمَ ذاك، ألست بجائع؟.

قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملك الدنيا ذهباً.

فقال شعيب: لا والله يا شاب، ولكنّها عادتي وعادة آبائي نقري الضيف، ونطعم الطعام.

فجعل موسى يأكل، ثم أخذ يحدّثه بما جرى له من أحداث، وتفتيشهم عنه ليقتلوه، وهو المراد بقوله تعالى: **﴿فلما جاءه وقصّ عليه القصص﴾** وبشّره شعيب عليه السلام بالأمان وأنّه قد تجاوز بلاد الظالمين بمراحل، وأن لا سلطان لفرعون في بلادهم **﴿قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾**.

٥ - **﴿يا أبت استأجره﴾** وتوالت النعم على موسى عليه السلام، فأولها الأمان على نفسه، وأن لا خطر عليه من فرعون وأعوانه، ثم ايجاد عمل يعيش منه ويدّخر، والاقامة في بيت نبيٍ مرسل، ثم الزواج من ابنته.

ومعنى قولها: **﴿استأجره﴾** اتخذه أجيراً **﴿إنّ خير من استأجرت القويُ الأمين﴾** أي خير من استعملت من قوي على العمل، وأداء الأمانة.

قال شعيب: وما علمك بأمانته وقوّته؟.

قالت: أمّا قوّته: فلأنّه رفع الحجر الذي لا يرفعه كذا وكذا، وأمّا أمانته: فإنّه قال لي: امشي خلفي، فأنا أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي عجزك.

فلما ذكرت المرأة من حاله ما ذكرت زاده ذلك رغبة فيه **﴿قال إنّي أريد أن أنكحك﴾** أزوّجك **﴿احدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج﴾** على أن تكون أجيراً إلى ثمان سنين **﴿فإن أتممت عشراً فمن عندك﴾** ذلك تفضّل منك، وليس بواجب عليك؛ فزوّجه ابنته بمهر، واستأجره للرعي، ولم يجعل ذلك مهراً، وإنّما شرط ذلك عليه **﴿وما أريد أن أشقّ عليك﴾** في هذه الثمانية حجج، ولا أكلفك خدمة سوى رعي الغنم **﴿ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾** في حسن الصحبة، والوفاء بالعهد **﴿قال﴾** موسى **﴿ذلك بيني وبينك﴾** ذلك الذي وصفت وشرطت عليّ

فلك، وما شرطت لي من تزويج أحداهما فلي ﴿**أيّما الأجلين**﴾ من الثماني والعشر ﴿**قضيت**﴾ أتممت وفرغت منه ﴿**فلا عدوان عليّ**﴾ لا ظلم عليّ بأن أكلّف أكثر من ذلك ﴿**والله على ما نقول وكيل**﴾ شهيد فيما بيني وبينك.

٦ - ﴿**فلمّا قضى موسى الأجل وسار بأهله**﴾ ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة من حياة موسى عليه السلام، لقد أتمّ عشر سنين في منزل نبيٍّ الله شعيب عليه السلام معزّزاً مكرّماً، في أهنأ عيش، وتوجّه بعدها إلى الشام ومعه زوجته، وقطيع صغير من الغنم، حصيلة عمله في السنوات العشر.

لقد سار موسى عليه السلام على غير الطريق، مخافة من ملوك الشام، وامرأته في شهرها، فأخذ به المسير إلى جانب الطور الأيمن في ليلة مظلمة، شديدة البرد، وأخذ امرأته الطلق، وتفرّقت ماشيته، وأصابه المطر، فبقي لا يدري إلى أين يتوجّه، فبينما هو كذلك آنس من جانب الطور ناراً.

☼

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣] وجاء أمر السماء بالانتقام من الكافرين، لقد أمهلهم جلّ جلاله طويلًا، وتابع بالآيات والنذر، فلم يزدهم ذلك إلّا اعراضاً وتمادياً في الكفر.

لقد أوحى الله جل جلاله إلى نبيّه موسى عليه السلام بالخروج ليلًا بالمؤمنين، حذراً من أن يردّهم فرعون، وأعلمه أنه سيتبعهم.

﴿**واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون**﴾.

وبعد أن قطع عليه السلام وأصحابه مسافة طويلة، ووصلوا إلى ساحل البحر، وافتهم طلائع جيش فرعون؛ وهنا تأزم الموقف للغاية، فالبحر أمامهم، والعدو خلفهم، ولو قدّر لفرعون أن يظفر بهم هذه المرة لم يبق منهم أحداً.

وأدرك يوشع بن نون[١] خطورة الموقف، فتقدم إلى موسى عليه السلام وقال: بماذا أمرت يا نبي الله؟.

قال: أن أضرب البحر بعصاي.

قال: افعل ما أمرت به.

فضربه فانفلق، وصار كالطود العظيم، جبل شاهق من الماء، وقاع البحر جافة يمكن السير عليها، فتقدم موسى عليه السلام قومه فدخله، وتتابع أصحابه من خلفه حتى عبروا بأجمعهم، وقيل له: ارجعه خوفاً من أن يدخله فرعون خلفنا، وجاء أمر السماء **﴿واترك البحر رهواً﴾** منفتحاً منكشفاً ليطمع العدو في دخوله.

﴿إنهم جند مغرقون﴾ جاء فرعون وجيشه البالغ مليوناً وستمائة ألف وبنو اسرائيل في البحر يعبرون فلما رأى البحر قال لأصحابه: ألا تعلمون أني ربكم الأعلى، قد فرج لي البحر؟.

فلم يجسر أحد أن يدخل البحر، وامتنعت الخيل منه لهول الماء، فتقدّم فرعون إلى ساحل البحر فقال له منجمه: لا تدخل البحر، وعارضه فلم يقبل منه، وكان على فرس حصان، فامتنع الحصان أن يدخل الماء، فجاء جبرائيل عليه السلام على رمكة[٢] ودخل البحر، فنظر الفرس إلى الرمكة فطلبها ودخل البحر، واقتحم أصحابه خلفه، فلما دخلوا كلهم حتى كان آخر من دخل من أصحابه وآخر من خرج من أصحاب موسى عليه السلام، أمر الله الرياح فضربت البحر بعضه ببعض، فأقبل الماء يقع عليهم مثل الجبال[٣].

---

(١) وصي موسى عليه السلام والنبي من بعده.

(٢) الرمكة: الأنثى من البراذين.

(٣) تفسير القمي ٢/ ٢٣ بتصرّف.

كان فرعون من قرنه إلى قدمه في الحديد. قد لبسه على بدنه، فلما غرق ألقاه الله على نجوة من الأرض ببدنه، ليكون لمن بعده علامة، فيرونه مع تنقّله بالحديد على مرتفع من الأرض، وسبيل التثقيل أن يرسب ولا يرفع، فكان ذلك آية وعلامة[١].

مناجاة

في ثنايا الكتب التي بين أيدينا الكثير مما أوحاه الله جلّ جلاله إلى كليمه موسى بن عمران عليه السلام، أو هو بعض الأسئلة التي سأل عنها سبحانه وتعالى؛ سجّلنا لك من هذا وذاك لتأخذه للاعتبار والاتعاظ، لا للحفظ والرواية، فلو عملت بحكمة واحدة كان أنفع لك من أن تحفظ ألفاً بلا عمل، بل الحفظ بلا عمل وبال على الإنسان، ويكون حجّة عليه يوم القيامة.

نبدأ ذلك بسؤال قد يرد: ما السبب الذي كلّم الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام؟ ويجيب الإمام أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام: أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام أتدري لِمَ اصطفيتك بكلامي دون خلقي؟.

فقال موسى: لا يارب.

فقال: يا موسى إنّي قلّبت عبادي ظهراً لبطن فلم أجد أحداً أذلّ لي منك نفساً، يا موسى إنّك إذا صليت وضعت خديك على التراب[٢].

ويجب أن تعلم أنّ معنى أنّ الله سبحانه وتعالى كلّمه فليس ذلك على الشكل المتعارف بيننا، فالله سبحانه وتعالى منزّه عن هذا وشبهه ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

---

(١) علل الشرائع: ٥٩.
(٢) قصص الأنبياء: ٢٤٩.

وإنّما كان يحدث الصوت في مكان فيسمعه موسى عليه السلام بلا واسطة من الملائكة، كما هو الحال مع بقية الأنبياء عليهم السلام، فقد كان ينزل عليهم جبرائيل عليه السلام بالوحي من الله تعالى.

نعود فنذكر بعض هذه المناجاة:

١ - قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: فيما ناجى الله عزّ وجلّ به موسى: إنّ لي عباداً أبيحهم جنّتي، وأحكّمهم فيها.

فقال: يا رب من هؤلاء الذين تبيحهم جنّتك وتحكمهم فيها؟.

قال: من أدخل على مؤمن سروراً[١].

٢ - قال الإمام الصادق عليه السلام: بينما موسى بن عمران عليه السلام يناجي ربّه تعالى إذا رأى رجلًا تحت ظلّ عرش الله، فقال: يا رب من هذا الذي قد أظلّه عرشك؟.

فقال: كان هذا بارّاً بوالديه، ولم يمش بالنميمة[٢].

٣ - قال تعالى لموسى عليه السلام: أتدري أنّ عبداً من عبادي تكون له ذنوب وخطايا حتّى تبلغ أعنان السماء فأغفرها له ولا أبالي.

قال: يا رب كيف لا تبالي؟.

قال: لخصلة شريفة تكون في عبدي أحبّها: لحب الفقراء المؤمنين، يتعاهدهم ويساوي نفسه بهم، ولا يتكبّر عليهم، فإذا فعل ذلك غفرت له ذنوبه ولا أبالي؛ يا موسى إنّ الفخر ردائي، والكبرياء ازاري، من نازعني في شيء منهما عذّبته بناري[٣].

---

(١) أصول الكافي: ٤٠٤.

(٢) روضة الواعظين ٢/٤٠٢.

(٣) الجواهر السنية: ٥٩.

٤ - روي أنّ موسى عليه السلام مرّ برجل وهو يبكي، ثم رجع وهو يبكي، فقال: إلهي عبدك يبكي من مخافتك.

فقال: يا موسى لو نزل دماغه مع دموع عينيه لم أغفر له وهو يحب الدنيا(١).

٥ - في أخبار موسى: إنّهم قالوا: سل لنا ربّك أمراً إذا نحن فعلناه يرضى به عنّا، فأوحى الله إليه: قل لهم يرضون عنّي حتّى أرضى عنهم(٢).

٦ - إنّ موسى عليه السلام قال: يا رب دلّني على أمر فيه رضاك عنّي أعمله فأوحى الله إليه: أنّ رضاي في كرهك، وأنت ما تصبر على ما تكره قال: يا رب دلّني عليه.

قال: فإنّ رضاي في رضاك بقضائي(٣).

٧ - قال الإمام الصادق عليه السلام: قال الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام: يا ابن عمران لا تحسدنّ الناس على ما آتيتهم من فضلي، ولا تمدنّ عينيك إلى ذلك، ولا تتبعه نفسك، فإنّ الحاسد ساخط لنعمتي، مضاد لقسمي الذي قسّمت بين عبادي، ومن يك كذلك فلست منه وليس منّي(٤).

٨ - قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: كان فيما أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى بن عمران من زنى زني به ولو في العقب من بعده، يا موسى بن عمران عف تعف أهلك، يا موسى إذا أردت

(١) الجواهر السنية: ١٦٢.
(٢) مسكّن الفؤاد: ٣٥.
(٣) المصدر نفسه: ص٨١.
(٤) الجواهر السنية: ٣٩.

أن يكثر خير أهل بيتك فإيّاك والزنا، يا موسى بن عمران كما تدين تُدان[١].

٩ - قال الإمام الصادق عليه السلام: أوحى الله إلى موسى بن عمران: قل للملأ من بني اسرائيل: إيّاكم وقتل النفس الحرام بغير حقٍّ، فإنّ من قتل منكم نفساً في الدنيا قتلته مائة ألف قتلة، مثل قتلة صاحبه[٢].

١٠ - أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران: أن يا موسى ما خلقت خلقاً أحب إليّ من عبدي المؤمن، وإنّما ابتليته لما هو خير له، وأعافيه لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر عبدي، فليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، وليرضى بقضائي، أكتبه في الصديقين عندي، إذا عمل برضائي فأطاع أمري[٣].

١١ - مرّ موسى عليه السلام برجل من أصحابه وهو ساجد، ثم انصرف من حاجته وهو ساجد، فقال موسى: لو كانت حاجتك في يدي لقضيتها لك؛ فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى لو سجد حتّى ينقطع عنقه ما قبلت منه حتّى يتحوّل عما أكره إلى ما أحب[٤].

ثم قال الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام: احفظ وصيّتي لك بأربعة أشياء:

أولها: ما دمت لا ترى ذنوبك تغفر فلا تشتغل بعيوب غيرك.

والثانية: ما دمت لا ترى كنوزي قد نفدت فلا تغتم بسبب رزقك.

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ١٣. واعلم أن الأنبياء عليهم السلام منزّهون عن هذا وشبهه، والغرض من الوحي بيان قبح الجريمة عند المولى جلّ جلاله، وبيان أثرها الدنيوي مضافاً لما أعدّ الله جلّ جلاله لهم من عذاب.

(٢) بحار الأنوار: ١٣/ ٣٥٦.

(٣) التوحيد: ٤٥.

(٤) الجواهر السنية: ٤٦.

والثالثة: ما دمت لا ترى زوال ملكي فلا ترج أحداً غيري.

والرابعة: ما دمت لا ترى الشيطان ميّتاً فلا تأمن مكره[(١)].

١١ - مرّ موسى عليه السلام برجل وهو ساجد، رافع يده يدعو، فغاب في حاجته سبعة أيام ثم رجع إليه وهو رافع يده إلى السماء يدعو، فقال: يا ربّ هذا عبدك رافع يديه إليك يسألك حاجة، ويسألك المغفرة منذ سبعة أيام لا تستجيب له.

فأوحى الله إليه: يا موسى لو دعاني حتّى تسقط يداه، أو تنقطع يداه، أو ينقطع لسانه لم أستجب له، حتّى يأتيني من الباب الذي أمرته[(٢)].

١٣ - فيما أوحي إلى موسى: ادعني بالقلب النقي واللسان الصادق[(٣)].

١٤ - قال موسى عليه السلام: يا رب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به.

قال: قل يا موسى: لا إله إلّا الله.

قال: يا رب كل عبادك يقول هذا.

قال: قل: لا إله إلّا الله.

قال: لا إله إلّا أنت يا رب، إنّما أردت شيئاً تخصّني به.

قال: يا موسى، لو كانت السماوات السبع وعامريهن عندي، والأرضين السبع في كفّة، ولا إله إلّا الله في كفّة، مالت بهن لا إله إلّا الله[(٤)].

وتهون المصاعب

وقد تقسو الحياة على المؤمن، أو بالأحرى يقسو عليه المجتمع، أو يشتدّ عليه الظالمون، ولكن الأمر يهون بما أعدّ الله جلّ جلاله له من نعيم،

---

(١) التوحيد: ٣٧٢.

(٢) الجواهر السنية: ٥٩.

(٣) الجواهر السنية: ٦١.

(٤) الجواهر السنية: ٦٣.

فلا ينبغي له أن يتأثر أو يتألم نفسياً لما يلاقيه، وكذلك حين يرى بعض الكافرين والظالمين يعيشون في نعيم وسرور، قد تمهّدت لهم الدنيا، وطاب لهم نعيمها، فإنَّ ذلك لا يدوم، فهو كطيف رآه نائم ثم استيقظ، وأيّ نعيم والمجرم يودّ أنّ الدنيا كلها له ليفتدي بها من العذاب ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١١ - ١٤].

إنّ الرواية الآتية تشير إلى ما ذكرناه:

قال رسول الله ﷺ: إنّ موسى قال: أي رب عبدك المؤمن مقتّر عليه في الدنيا؛ ففتح له باب من الجنّة، فنظر إليها، قال: يا موسى، هذا ما أعددته له.

قال: وعزّتك وجلالك لو كان مقطّع اليدين والرجلين، يُسحب على وجهه، منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة، وكان هذا مصيره لم ير بؤساً.

ثم قال: أي رب، عبدك الكافر موسّع عليه في الدنيا؛ ففتح له باب إلى النار، فقال: يا موسى هذا ما أعددته له.

فقال موسى: أي رب، وعزّتك وجلالك، لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة، وكان هذا مصيره لم ير خيراً قط[1].

خصال السوء

وربّك ذو رحمة واسعة، فهو الرحمن الرحيم، الجواد الكريم، فمن رحمته بك أن أرسل إليك الأنبياء والأوصياء، ومن بعدهم العلماء، لينقذوك ويهدوك ببيانهم ومواعظهم، كما فتح لك باب التوبة، وجعل كلَّ حسنة تعملها بعشر حسنات، وقد تتضاعف إلى سبعمائة وأكثر، وأكثر من

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٣٨٧.

هذا جعل نيّتك للطاعة ـ وإن لم تأت بها ـ حسنة، يسجّلها لك في دفترك، ومضافاً لهذا وغيره أنطق عدوّك اللدود إبليس بالأساليب التي يوافيك بها، والأشباك التي نصبها لاقتناصك، كل ذلك لتتنبّه له، وتحذره أشدّ الحذر.

روى الشيخ الأقدم ورّام رضوان الله عليه: أنّ موسى عليه السلام كان جالساً في بعض مجالسه إذ أقبل إبليس لعنه الله، وعليه برنس يتلون ألواناً، فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ثم أتاه فقال: السلام عليك.

فقال موسى: من أنت؟.

قال: أنا إبليس.

قال: فلا حيّاك الله، ما جاء بك؟.

قال: جئت لأسلّم عليك لمنزلتك من الله تعالى، ومكانك منه.

قال: فما الذي رأيت عليك؟.

قال: به أختطف قلوب بني آدم.

قال: فما الذي إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه؟.

قال: إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله، ونسي ذنوبه، وأحذّرك ثلاثة: لا تخل بامرأة، فإنّه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلّا كنت صاحبه، أفتتنه بها، ولا تعاهد الله عهداً إلّا وفيت به، ولا تخرجنّ صدقة إلّا أمضيتها، فإنّه ما أخرج رجل صدقة ولم يمضها إلّا كنت صاحبه دون أصحابي، حتّى أحول بنيه وبين الوفاء بها؛ ثمّ ولّى وهو يقول: يا ويلتاه، علم موسى ما يحذّر به بني آدم(١).

---

(١) تنبيه الخواطر: ١/١٠٣.

هارون عليه السلام

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

هذا قول موسى عليه السلام لهارون عليه السلام وذلك حين ذهابه للميقات، لأنّ البشر يجب أن يكون في كلّ وقت برعاية الرسالة وتوجيهاتها؛ وهذه سنّة الأنبياء عليهم السلام، فقد كان سليمان عليه السلام خليفة أبيه عليه السلام حينما يذهب لبعض مهماته، وكان آصف خليفة سليمان عليه السلام، وأنت لو قرأت سيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم لوجدته لم يخرج من المدينة لحرب أو سلم إلّا ويستخلف عليها واحداً من الصحابة، لهذا يستحيل أنه صلى الله عليه وآله وسلم تركهم عند وداعه الدنيا همَلًا بلا راع، وبلا قيّم يقيم أحكام الله فيهم، ويرشد من ضلّ منهم.

﴿يا قوم إنّما فتنتم به﴾.

وأشد دور مرّ على نبيّ الله هارون عليه السلام هو عند ذهاب موسى عليه السلام للميقات، فقد حصل ما لم يكن بالحسبان أبداً.

إنّ البشر معرّض لاقتراف الذنوب والآثام، ولكن ارتداد أمّة بأكملها، وعكوفها على عبادة العجل، ونبيّهم يصرخ فيهم: **﴿يا قوم إنّما فتنتم به﴾** فهذا مما انفرد به الاسرائيليون من دون العالم، إنّ السبعمائة ألف الذين أعدّهم موسى عليه السلام هداة للعالم، ودعاة للخير والرشاد، قد عكفوا بأسرهم على عبادة العجل الذي عمله السامري، عدا ثلة قليلة جداً بقيت مع هارون عليه السلام، ثمّ أنّ هارون عليه السلام رغم مساعيه المكثّفة لم ينجح في ارشادهم، بل إنّه جوبه من قبلهم ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا

مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١] وفعلًا فقد استمرّوا على ذلك، وأعظم من هذا، فبعد رجوع موسى عليه السلام وحرقه للعجل ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧].

فهل تدري ماذا فعلوا؟.

فكان أحدهم ليقع في الماء وما به إليه من حاجة، فيتعرّض لذلك الرماد فيشربه، وهو قول الله تعالى: **﴿واشربوا في قلوبهم العجل﴾**[١].

وحتى بعد الموت

ومن الغريب جداً أمر الاسرائيليين، وما طبعوا عليه من الخلاف والعناد، ومخالفتهم لنبيّهم عليه السلام، لقد بلغوا في ذلك إلى حدّ لا يتصوّر، فبعد أن أخبرهم موسى عليه السلام بوفاة هارون عليه السلام، وإذا بهم يتهمونه بأنّه هو الذي قتله.

ورواية الطبري: فدفنه موسى وانصرف موسى إلى بني اسرائيل، فقالوا: ما فعل هارون؟.

قال: مات.

قالوا: كذبت، ولكنّك قتلته لحبّنا إياه ـ وكان محبّباً في بني اسرائيل، فأوحى الله إليه: أن انطلق إلى موضع قبره فإنّي باعثه حتّى يخبرهم أنّه مات موتاً ولم تقتله، فانطلق بهم إلى قبر هارون، فنادى: يا هارون، فخرج من قبره ينفض رأسه، فقال: أنا قتلتك؟.

قال: لا والله، ولكنّي متّ.

قال: فعد إلى مضجعك، وانصرفوا[٢].

(١) مواهب الرحمن: ١/٣٣٦.

(٢) تاريخ الطبري: ١/٣٠٦.

الياس عليه السلام

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٣] وهو من أنبياء بني اسرائيل، ذكر أهل الآثار أنّ يوشع بن نون ـ وصيّ موسى عليه السلام ـ لما فتح الشام بوّأها بني اسرائيل، فأحلّ سبطاً منهم بعلبك ـ وهم سبط الياس ـ وبعد أن تعاظمت منهم الأحداث بعثه جلّ جلاله إليهم نبيّاً.

قوله: ﴿**إذ قال لقومه ألا تتقون**﴾ والدعوة إلى التوحيد، وتقوى الله جلّ جلاله هي المطلب الأوّل والأخير للأنبياء عليهم السلام، فالتوحيد: أصل الدين، وركنه الأساسي، والتقوى: وهي الضابط المهم في الاستقامة والسلوك، وبها تسعد الحياة، وتُنال المنازل الرفيعة في جنّات النعيم، وما دخل امرؤ النار إلا لعدم رعايته التقوى، وتفريطه فيها.

قوله: ﴿**أتدعون بعلًا وتذرون أحسن الخالقين**﴾ لو أراد باحث أن يبحث عن أعجب ما في الدنيا خلال قرونها المتطاولة لم يجد أعجب من عبادة الأصنام والمعبودات الأخرى من نار ونجوم وحيوانات، إلى غير ذلك من السفاسف التي عبدتها الأمم السالفة، إنها دليل انحطاط العقل البشري وهبوطه إلى أسفل ما يمكن أن يتصوّر.

قوله: ﴿**الله ربّكم وربّ آبائكم الأولين**﴾ الذي خلقكم ويرزقكم، وأنتم لا تخرجون عن قبضته، وإلى حكمه تصيرون، فهو وحده الذي يحق له العبادة. قوله: ﴿**فكذّبوه فإنهم لمحضرون**﴾ لم ينفع معهم النصح والإرشاد، ولم يستجيبوا لنداء الحق ، شأنهم شأن جل أهل الأرض

﴿أكثرهم الفاسقون﴾ ومعنى قوله لمحضرون: أي في جهنم لا يفلت منهم أحد.

قوله: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ وهم الذين أخلصوا العبادة لله جلّ جلاله، ولم يعبدوا غيره، فهم مستثنون من هذا الحضور، بل هم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، قد أجزل لهم العطاء، وبالغ في إكرامهم غاية الإكرام، بما لا يخطر على قلب بشر.

قوله: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ المراد به الياس عليه السلام، والمعنى: أبقينا عليه ذكراً جميلًا، وأثنينا عليه في أمّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فمضافاً لما أنعم الله عليه بالنبوّة ـ وكفى بها شرفاً ـ ونجّاه من القوم الظالمين، وأجزل له العطاء الأخروي، كذلك خلّده في كتابه العزيز بآيات تتلى إلى آخر الدنيا تثميناً لمواقفه في الدعوة إلى الله تعالى، والاخلاص له.





داوود عليه السلام

١ - ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

كان بنو اسرائيل من أكثر الشعوب عناداً وتمرّداً، وعدم استجابة لنداء السماء، وقد عاقبهم سبحانه وتعالى بكثير من العقوبات، مثل تسلّط فرعون عليهم، وقتله أولادهم، واستحيائه نساءهم.

إنّ تاريخهم حافل باضطهاد الظالمين لهم مثل نوبخت نصّر وغيره، عقوبة من الله تعالى عاقبهم بها لطغيانهم وكفرهم، وعدم استجابتهم لأنبيائهم عليهم السلام، لكنّه سبحانه تسبق رحمته غضبه، ويدفع بالمؤمن المطيع عن العاصي ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وفي بداية عهد داود عليه السلام تسلّط عليهم جالوت فقتلهم، وضجّوا إلى الله تعالى منه، فأوحى الله جلّ جلاله إلى نبيّهم بأنّه قد جعل طالوت عليهم ملكاً فعليهم بطاعته، والخروج معه لقتال جالوت وانّ النصر سيكون حليفهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧].

ولكن الكبرياء والعتو، وعدم المبالاة لا تفارقهم أبداً مع أنهم في أسوأ الظروف، فتراهم يجيبون نبيّهم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وأجابهم نبيّهم: إنّ هذا الذي ذكرتموه ليس بمبرر، فالملك بيد الله يؤتيه من يشاء، وعليهم بالطاعة والامتثال ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٧ - ٢٤٨].

لم يكن لهم مفرّ من الاستجابة، فسيف جالوت يقطر من دمائهم عَبّاً طالوت جيشه، وطلب من والد داود أن يأتيه بأولاده جميعهم، لأنه علم ـ من طريق الوحي ـ أنّ من استوت عليه درع موسى عليه السلام منهم فهو الذي يقتل جالوت، فأمرهم واحداً بعد واحد بلبسها، فكانت تقصر عليهم أو تطول، فسأله: هل بقي أحد من ولدك؟.

قال: خلّفت أصغرهم يرعى الغنم.

قال: عليّ به؛ فأرسل خلفه.

جاء داود إلى المعسكر، وفي الطريق التقط أحجاراً وضعها في مخلاته، فلما حضر عند طالوت، ألبسه الدرع فاستوت عليه.

سار طالوت بجيشه المتزعزع، وفي طريقهم لمعسكر الطاغية نهر فأمرهم أن لا يشربوا منه ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ورغم الأدلّة المكثّفة لديهم بأن طالوت مرسل من قبل الله تعالى، وتجب طاعته، وعلى يديه يكون النصر، لكنّهم عصوا فشربوا منه إلّا القليل منهم.

ولما جاوز طالوت النهر منع الشاربين من الالتحاق معه، وسار بالقلّة المؤمنة، وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر جندياً ـ عدة أهل بدر ـ ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ثم سار باتجاه الطاغية، وعند أوّل لقاء رمى داود حجراً من الأحجار التي التقطها الميمنة فانهزمت، ورمى بآخر الميسرة فانهزمت، وثالثاً رمى به جالوت فصكّ جبهته فوقع ميّتاً(١) ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

وشكر الله جلّ جلاله لداود ذلك وهو المنعم الشكور فوهب له النبوة والملك ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦].

وأيضاً وهب له سليمان عليه السلام نبياً وملكاً ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وأيضاً شرّفه ببناء بيت المقدس.

☼

١ - ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] عطايا الله جلّ جلاله لأنبيائه عليهم السلام لا تحصى، ومواهبه لهم لا تعد، فمن هذا العطاء ما ظهر لكل واحد منهم من المعاجز والآيات، إقامة للحجّة على الخلق، وسبباً لانقاذ البشر من الضلال.

إنّ الخوارق التي ظهرت على يد كلّ واحد منهم صلوات الله وسلامه عليهم تدعو الخلق كافة إلى الاعتقاد الصحيح، والسلوك الحسن، وإنّ

---

(١) تفسير القمي: ١/ ١١٠.

الشقي كل الشقي من تخلّف عن مسيرتهم مع مشاهدات تلك الآيات والمعاجز، ولو لم يكن من ذلك شيء لكان اللازم على الناس متابعتهم لما رأوا من حسن سيرتهم، ونبل دعوتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النّحل: ٩٠].

نعود للآية الكريمة: يختلف المفسّرون في معنى تسبيح الجبال والطير، فيرى بعض منهم أنّ الجبال كانت تسير مع داود عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث سار، وكذلك الطيور آية عظيمة تدعو إلى تسبيح الله وتعظيمه وتنزيهه عن كلّ ما لا يليق به، مما يدل على أنّ مسخّرها قادر على ما يشاء فعبّر عن ذلك بالتسبيح.

ويرى آخرون أنّ الجبال والطير كانت تردد تسبيحه بكيفيّة يسمعها ويفهمها المجتمع وكنّا فاعلين قادرين على فعل هذه الأشياء والله سبحانه قادر لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

١ - **﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم﴾** والأنبياء صلوات الله عليهم في غاية الزهد والتعفف عن التناول من بيت المال، فداود عَلَيْهِ السَّلَامُ رغم ما أوتي من نبوّة وملك كان يسف سعف النخيل، يعمل منها الحصر وغيرها، ويقول لأصحابه: من منكم يكفيني بيعها، ويعيش وأهله بما يدرّه عليه هذا العمل المتعب، والذي يتطلب جهداً ووقتاً، فشكا إلى الله تعالى مما يلقاه من ذلك، فألان الله جلّ جلاله له الحديد، إعجازاً له وتيسيراً لأموره؛ صار الحديد في يده كالشمع، يعمل منه ما يشاء من دون أن يدخله النار، أو يستعمل مطرقة، كما هو متبع.

وفائدة أخرى من ذلك: إنّ البشر مجبول على العتو، ومن طبعه الشر والاعتداء، لهذا وغيره استعمل نبيُّ الله هذه الكرامة التي أجراها الله جل جلاله على يديه لصنع دروع يلبسها المتقاتلون فتخفف من وطأة الحرب.

ومعنى الآية الكريمة: علّمناه كيف يصنع الدرع، وهو أوّل من صنعها وسردها وحلّقها، فجمعت الخفّة والتحصين، وهو قوله: ﴿**لتحصنكم من بأسكم**﴾ لتحفظكم وتمنعكم من وقع السلاح فيكم ﴿**فهل أنتم شاكرون**﴾ لنعم الله عليكم.

☼

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] في هذه السورة المباركة استعراض طويل عن نبيِّ الله داود عليه السلام، مليء بالموعظة والاعتبار، بدأت الآيات:

١ - ﴿**واذكر عبدنا داوود**﴾ تأمّل أعزّك الله الآية، فقد قدّم الله العبوديّة على النبوّة؛ فالعبوديّة لله جلّ جلاله، والإخلاص له، والامتثال لأوامره هي السبب لنيل النبوّة؛ العبودية لله جلّ جلاله وإن عظمت رتبتها وشرفت ـ فبالإمكان لكلّ واحد منّا أن ينالها، ويسعد بها سعادة لا شقاء بعدها.

١ - ﴿**ذا الأيد**﴾ أي ذا القوّة؛ وهذه القوّة التي وهبها الله جلّ جلاله له فقد أحسن استغلالها، لقد استغلّها في كسب نفع دائم، وتجارة مربحة، ونعيم لا ينفد؛ استغلّ عليه السلام قوّته لطاعة الله، فقد قتل الطاغية جالوت وعدداً من جنوده، وأيضاً كان يحيي نصف ليله بالعبادة، وكان طيلة السنة يصوم يوماً ويفطر يوماً.

هكذا يجب أن تستغلّ النعم للنفع الأخروي، وتستثمر في التجارة مع الله سبحانه وتعالى، وأنا وأنت لا نقوى على هذه العبادة، ولكن المفروض بنا أن نحرص على أداء الفرائض اليومية في وقتها، كذلك يجب علينا أن نستغلّ نعمة الأموال لما ننتفع به غداً.

قوله: ﴿**إنّه أوّاب**﴾ توّاب، راجع عن كل ما يكره الله سبحانه وتعالى إلى ما يحب.

٣ - ﴿إنّا سخّرنا الجبال معه يسبحنَ﴾ والله جلّ جلاله قادر على ما يشاء، أعطى أنبياءه المعاجز حجّة تلزم البشر بمتابعتهم، ودليلًا على صدقهم، فكان مما أعطى داوود عليه السلام أن جعل الجبال تردد تسبيحه، وتتجاوب معه بذكر الله تعالى وتنزيهه، وكذلك كانت تفعل الطيور أيضاً.

٤ - ﴿وشددنا ملكه﴾ ومضافاً إلى ما متّعه الله جلّ جلاله بمعاجز تأخذ بالأعناق إلى تصديقه، كذلك فقد قوّى الله ملكه بكثرة الجنود، وحسن عدتهم، يكفيك من ذلك دروعه التي لم تعرفها البشرية من قبل.

٥ - ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾.

المراد بالحكمة: النبوّة، وفصل الخطاب: علم القضاء.

٦ - ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب﴾ انتقلت الآيات إلى قصة طريفة وقعت له عليه السلام، فقد كان جالساً في محرابه[١] إذ تسلّق شخصان إلى أعلى البيت، ثم نزلا عليه، وبدآ يترافعان عنده.

لقد خاف منهما لعدم دخولهما من الباب، ولمجيئهما في غير الوقت المخصص للمرافعات، ولدخولهما عليه بغير استئذان، وهما أيضاً شعرا بخوفه فبدآ كلامهما قائلين: ﴿لا تخف﴾ ثم تابعا كلامهما ﴿خصمان بغى بعضنا على بعض﴾ ظلم أحدنا الآخر وتجاوز عليه ﴿فاحكم بيننا بالحقّ ولا تشطط﴾ توخّى العدل في الفصل بيننا ولا تنحرف عنه.

٧ - ﴿إنّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة...﴾ ثم بدأت المرافعة، قال المدعي: إنّ أخي عنده هذا العدد من النعاج[٢] وأنا أملك نعجة واحدة، ومع ذلك فقد طلبها منّي ﴿وعزّني في الخطاب﴾ غلبني في

---

(١) المحراب: مكان المصلّي، سمّي بذلك لأنّ المصلّي في حرب مع الشيطان.

(٢) النعجة: الأنثى من الضأن (الغنم).

الكلام؛ إنّه إذا تكلّم كان أبين منّي، وإذا بطش كان أشد منّي استاء عليه السلام من ذلك كثيراً، فما كان يدور بخلده أنّ الطمع مبلغ بالإنسان إلى هذا الحد، فينسى القيم والمُثل، لذا تراه سارع في إصدار الحكم.

٨ - **﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾** لقد تجاوز وتعدّى عليك، ثم تابع **﴿وإنّ كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض﴾** إنّ أكثر الشركاء يستعملون البغي والتعدّي، لاسيّما إذا كان الطرف الآخر ضعيفاً، ثم استثنى من هذه القاعدة **﴿إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** فإنّهم لا يظلمون ولا يتجاوزون على شركائهم خوفاً من العقاب الأخروي **﴿وقليل ما هم﴾** وهؤلاء النبلاء عدد قليل في كلّ زمان ومكان.

٩ - **﴿وظنّ داوود إنّما فتنّاه﴾** المراد بالفتنة الابتلاء والاختبار، والمعنى: أنّه صلوات الله عليه علم أنّه تعرّض لابتلاء واختبار الخصوم، وهي مهمة عسيرة، خصوصاً لمن أراد أن يتحرّى الحق، ويحكم بالعدل، إنّها تحتاج إلى علم جمّ، وبراعة ومقدرة.

١٠ - **﴿فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً وأناب﴾** وهذا بيت القصيد، فالإنسان مهما ارتفعت درجته، وسمت مرتبته، قد يشذ ويبتعد عن طريق الاستقامة والسداد، ولكن المفروض به أن يرجع سريعاً ولا يتمادى في ذلك، ألا تسمع القرآن الكريم يصف المتقين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فهذا نبيّ الله داود عليه السلام وقد رأى أنه قد تجاوز في رسم الحكم، وأنّ اللازم عليه أن يسأل المدّعي البينة، ويستمع لدفاع المتهم، قبل أن يصدر الحكم لهذا تراه بادر بالاستغفار والرجوع إلى الله جلّ جلاله، والصلاة له، لأنّها أفضل القرب.

١١ - ﴿**فغفرنا له ذلك**﴾ والرجوع إلى الله جلّ جلاله بالاستغفار والتوبة يكسب العبد المقامات الرفيعة في الدنيا، والخلود في النعيم الدائم، فمضافاً إلى مغفرة الله سبحانه وتعالى له ﴿**وإنّ له عندنا لزلفى**﴾ قربة وكرامة ﴿**وحسن مآب**﴾ في الجنة.

١٢ - ﴿**يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض**﴾ وهذا يؤيّد أنّ منصب الخلافة منصب سماوي، لا دخل للبشر في التعيين كما لا دخل لهم في اختيار الأنبياء عليهم السلام، وأنّ ذلك موكل إلى العليم الخبير.

ومعنى الآية: إنّا صيّرناك خليفة تدبّر أمر العباد من قبلنا وبأمرنا ﴿**فاحكم بين الناس بالحقّ**﴾ افصل أمورهم بالحق، وضع كلّ شيء موضعه ﴿**ولا تتبع الهوى**﴾ ما يميل طبعك إليه، ويدعو هواك إليه إذا كان مخالفاً للحقّ ﴿**فيضلّك عن سبيل الله**﴾ إنّك إذا اتبعت الهوى عدل الهوى بك عن سبيل الحق الذي هو سبيل الله.

١٣ - ﴿**إنّ الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد**﴾ اختتمت الآية بالتهديد لمن يتجاوز الحق، ويعدل عن طريق الاستقامة، ويترك العمل بأوامر الله تعالى ونواهيه، سواءً كان رئيساً أو قاضياً، وحتى سائر الناس.

ذكرت الآية الكريمة أنّ الذي حدا بهم إلى أن يتركوا طريق الهدى، ويسلكوا طريق الضّلال هو نسيانهم الآخرة، وما أعدّ الله جلّ جلاله فيها للظالمين..

١٤ - تتمة:

وهناك أقوام منذ القديم وحتّى اليوم قد لهجوا ـ والعياذ بالله ـ بأن نسبوا إلى الأنبياء عليهم السلام ما لا يرضون أن ينسب إلى آبائهم وأجدادهم، وحتّى أنّهم فسروا هذه الآية بما لا يليق بأدنى الخلق، وهذا علي بن الجهم ـ من شعراء العصر العباسي ـ يسأل الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ـ

الإمام الثامن من أئمة أهل البيت عليهم السلام ـ عن ذلك فقال عليه السلام: إنّ داود إنّما ظن أنّه ما خلق الله عزّ وجلّ خلقاً هو أعلم منه، فبعث الله عزّ وجلّ إليه الملكين فتسوّرا المحراب فقالا: **﴿خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحقّ ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط * إنّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزّني في الخطاب﴾** فعجّل داود على المدّعى عليه فقال: **﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾** ولم يسأل المدّعي البيّنة على ذلك، ولم يقبل على المدّعى عليه فيقول له: ما تقول، فكان هذا خطيئة رسم الحكم لا ما ذهبتم إليه، ألا تسمع الله عزّ وجلّ يقول: **﴿يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتبع الهوى﴾** إلى آخر الآية[١].

الزَبُور وما أوحاه الله تعالى إلى داوود عليه السلام

الزبور: هو الكتاب السماوي الذي أنزله الله جلّ جلاله على داود عليه السلام، نذكر بعض ما جاء فيه برواية الصادقين عليهم السلام.

١ - مما أوحى الله سبحانه وتعالى إلى داود عليه السلام: **إن أقرب الناس منّي يوم القيامة المتواضعون، كذلك وأبعد الناس منّي يوم القيامة المتكبّرون**[٢].

١ - قال الإمام الصادق عليه السلام: أوحى الله إلى داود: **إنّ عبدي المؤمن إذا أذنب ذنباً ثم تاب من ذلك الذنب، واستحيى منه عند ذكره، غفرت له وأنسيته الحفظة، وأبدلته حسنة ولا أبالي، وأنا أرحم الراحمين**[٣].

---

(١) عيون أخبار الرضا: ١/ ١٩٤.

(٢) روضة الواعظين: ٢/ ٣٨٢.

(٣) الجواهر السنية: ٧٦.

٣ - إنّ الله أوحى إلى داود: **يا داود تريد وأريد، ولا يكون إلاّ ما أريد، فإن سلّمت لما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلّم لما أريد أتعبتك فيما تريد، ولا يكون إلاّ ما أريد**[١].

٤ - في زبور داود: **من ذا الذي انقطع إليّ فخيّبته، أو من ذا الذي أناب إليّ فطردته عن باب انابتي، ما لكم لا تقدّسون الله وهو مصوّركم وخالقكم على ألوان شتّى، ما لكم لا تحفظون طاعة الله آناء الليل والنهار، وتطردون المعاصي عن قلوبكم؟ كأنّكم لا تموتون، وكأنّ دنياكم باقية لا تزول ولا تنقطع، ولكم في الجنّة عندي أوسع وأخصب لو عقلتم وتفكرتم، وستعلمون إذا أحضرتم وصرتم إليّ إنّي بما يعمل الخلق خبير، سبحان خالق النور.**

وفي السورة العاشرة: **أيها الناس لا تغفلوا عن الآخرة، ولا تغرنّكم الحياة لبهجة الدنيا ونضارتها.**

بني إسرائيل لو تفكّرتم في منقلبكم ومعادكم، وذكرتم القيامة وما أعددت فيها للعاصين قلّ ضحككم، وكثر بكاؤكم، ولكنّكم غفلتم عن الموت، ونبذتم عهدي وراء ظهوركم، واستخففتم بحقّي كأنّكم لستم بمسيئين ولا محاسبين، كم تقولون ولا تفعلون، لو تفكّرتم في خشونة الثرى، ووحشة ظلمته لقلّ كلامكم، وكثر ذكركم واشتغالكم إليّ[٢].

٥ - **يا داود لو أريت صاحب التبعات، قد جعل في عنقه طوق من نار؛ فحاسبوا أنفسكم، وأنصفوا الناس، ودعوا الدنيا**[٣].

٦ - فيما أوحى الله إلى داود: **لو رأيت الذين يأكلون الناس بألستهم**

(١) مسكّن الفؤاد: ٨١.
(٢) سفينة البحار: ١/ ٥٤٥.
(٣) قصص الأنبياء للجزائري: ٣٩٩.

وقد بسطتها بسط الأديم، وضربت نواحي ألستهم بمقامع من نار، ثمّ سلطت عليهم موبّخاً لهم يقول: يا أهل النار هذا فلان السليط فاعرفوه(١).

٧ - في زبور داود: يا ابن آدم تسألني فأمنعك لعلمي بما ينفعك، ثمّ تلح عليّ بالمسألة فأعطيك ما سألت، فتستعين به على معصيتي، فأهم بهتك سترك، فتدعوني فأستر عليك، فكم من جميل أصنع معك، وكم من قبيح تصنع معي، يوشك أن أغضب عليك غضبة لا أرضى بعدها أبداً(٢).

٨ - أوحى الله إلى داود: يا داود إنّه ليس من عبد من عبادي يطيعني إلاّ أعطيته قبل أن يسألني، واستجبت له قبل أن يدعوني(٣).

٩ - قال الإمام الباقر عليه السلام: إنّ الله أوحى إلى داود: بلّغ قومك انه ليس من عبد منهم آمره بطاعتي فيطيعني، إلاّ كان حقاً عليّ أن أطيعه وأعينه على طاعتي، وإن سألني أعطيته، وإن دعاني أجبته، وإن اعتصم بي عصمته، وإن استكفاني كفيته، وإن توكّل عليّ حفظته من وراء عورته، وإن كاده جميع خلقي كنت دونه(٤).

١٠ - أوحى الله إلى داود: حذّر وأنذر أصحابك عن حب الشهوات، فإنّ المعلّقة قلوبهم بشهوات الدنيا قلوبهم محجوبة عنّي(٥).

١١ - أوحى الله إلى داود: إنّ أهون ما أنا صانع بعالم غير عامل بعلمه أشد من سبعين عقوبة(٦).

١٢ - قال الإمام الصادق عليه السلام: أوحى الله تعالى إلى داود: ذكّر عبادي من آلائي ونعمائي، فإنّهم لم يروا منّي إلاّ الحسن الجميل، لئلا يظنوا

---

(١) عدّة الداعي: ٣٩.
(٢) الجواهر السنيّة: ٧٣.
(٣) الجواهر السنيّة: ٧٤.
(٤) الجواهر السنيّة: ٧٤.
(٥) بحار الأنوار: ١/ ١٥٤.
(٦) مصباح الشريعة: ٤١.

في الباقي إلاّ مثل الذي سلف منّي إليهم، وحسن الظن يدعو إلى حسن العبادة، والمغرور يتمادى في المعصية، ويتمنّى المغفرة، ولا يكون محسن الظن في خلق الله إلاّ المطيع له، يرجو ثوابه، ويخاف عقابه[١].

١٣ - أوحى الله تعالى إلى داود: **اذكرني في أيام سرّائك، استجب لك في أيام ضرّائك**[٢].

١٤ - قال الإمام الصادق عليه السلام: أوحى الله عزّ وجلّ إلى داود عليه السلام: **ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي، عرفت ذلك من نيته، ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن إلاّ جعلت له المخرج من بينهن، وما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي، عرفت ذلك من نيّته إلاّ قطعت أسباب السماوات من بين يديه، وأسخت الأرض من تحته، ولم أُبالِ بأي واد هلك**[٣].

١٥ - أوحى الله إلى داود: **يا داود إنّي وضعت خمسة في خمسة والناس يطلبونها في خمسة غيرها فلا يجدونها، وضعت العلم في الجوع والجهد، وهم يطلبونه في الشبع والراحة فلا يجدونه، ووضعت العزّ في طاعتي، وهم يطلبونه في خدمة السلطان فلا يجدونه، ووضعت الغنى في القناعة، وهم يطلبونه في كثرة المال فلا يجدونه، ووضعت رضاي في سخط النفس، وهم يطلبونه في رضا النفس فلا يجدونه، ووضعت الراحة في الجنّة، وهم يطلبونها في الدنيا فلا يجدونها**[٤].

---

(١) بحار الأنوار: ٦٧/ ٩٣.
(٢) بحار الأنوار: ١٤/ ٣٧.
(٣) بحار الأنوار: ١٤/ ٤١.
(٤) بحار الأنوار: ٧٥/ ٤٥٣.

١٦ - في حكمة آل داود: **إنّ على العاقل أن لا يكون ظاعناً إلاّ في تزوّد لمعاد، أو مرّمة لمعاش، أو طلب لذّة في غير محرّم**[١].

١٧ - قال تعالى لداود: **يا داود بشّر المذنبين وأنذر الصديقين.**

قال: كيف أبشّر المذنبين، وأنذر الصديقين؟.

قال: **بشّر المذنبين أنّي أقبل التوبة، وأعفو عن الذنب؛ وأنذر الصديقين أن لا يعجبوا بأعمالهم، فإنّه ليس من عبد نصبته للحساب إلاّ هلك**[٢].

١٨ - أوحى الله إلى داود: **يا داود إنّ العبد ليأتيني بالحسنة يوم القيامة فأحكّمه بها في الجنّة.**

قال داود: وما هذا العبد الذي يأتيك بالحسنة يوم القيامة فتحكّمه بها في الجنّة؟.

قال: **عبد مؤمن سعى في حاجة أخيه المسلم، أحبّ قضاءها، قضيت أو لم نقض.**

١٩ - قال الإمام عليه السلام: أوحى الله عزّ وجلّ إلى داود عليه السلام: **إنّ العبد من عبادي ليأتيني بالحسنة فأدخله الجنّة.**

قال: يا رب وما تلك الحسنة؟.

قال: يفرّج عن مؤمن كربته ولو بتمرة.

قال داود عليه السلام: حقٌّ لمن عرفك أن لا يقطع رجاءه منك[٣].

٢٠ - روي أن داود عليه السلام خرج مصحراً منفرداً، فأوحى الله إليه: **يا داود مالي أراك وحدانياً؟.**

---

(١) بحار الأنوار: ٧٣/ ٢٢٢.

(٢) الجواهر السنيّة: ٦٩.

(٣) عيون أخبار الرضا: ١/ ٢٤٤.

فقال: إلهي اشتدّ الشوق منّي إلى لقائك، وحال بيني وبين خلقك فأوحى الله إليه: **ارجع إليهم، فإنّك إن تأتيني بعبد آبق أثبتك في اللوح حميداً.**

عبادتهُ عليه السلام

كتب التاريخ والسير والتراجم حافلة بذكر ما كان عليه النبيّ محمد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام من العبادة، والدأب عليها، والملازمة لها، فقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١، ٢] أنّ النبيّ ﷺ كان يصلي الليل كله، ويعلّق صدره بحبل حتّى لا يغلبه النوم، فأمره الله سبحانه بأن يخفف عن نفسه، وذكر أنّه ما أنزل عليه الوحي ليتعب كل هذا التعب[١].

وأيضاً أخذ عنه بعض الصحابة ذلك **﴿إنّ ربك يعلم أنّك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وطائفة من الذين معك﴾**[٢].

وذكروا أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان يصلّي في اليوم والليلة ألف ركعة[٣] وكذلك الإمام الحسين عليه السلام والإمام علي بن الحسين عليه السلام أيضاً[٤].

وسألوا خادمة الإمام علي بن الحسين عليه السلام عنه، فقالت: أطنب أو اختصر؟.

فقيل: بل اختصري.

---

(١) مجمع البيان: ٧ - ٨/ ٢.
(٢) سورة المزمّل، الآية: ٢٠.
(٣) الغدير: ٥/ ٢٥.
(٤) أعيان الشيعة: ٤/ ١٢٥.

فقالت: ما أتيته بطعام نهاراً، ولا فرشت له فراشاً ليلًا قط[١].

وليست عبادتهم عليهم الصلاة والسلام مقتصرة على الصلاة والصيام، بل شملت جميع العبادات والطاعات، فقد ذكر المؤرخون أنّ الإمام الحسن عليه السلام حجّ خمساً وعشرين حجّة ماشياً وأنّ النجائب لتقاد معه[٢].

وكذلك الإمام الحسين عليه السلام حجّ خمساً وعشرين حجّة مشياً على الأقدام[٣] ولا يحق لك أن تنكر ذلك أو تتعجّب منه، أو تعتبره مشقّة تكلّفوها وزيادة عناء تحمّلوها، فأنت لا تعرف مدى معرفتهم بخالقهم جلّ جلاله، ، وعلمهم بعظمته وأهليته للعبادة؛ وعلى سبيل المثال: فأنت تحب أبناءك حبّاً يتعجّب منه غيرك كما أنّ غيرك يحب أبناءه بما تتعجّب منه أنت؛ بل وجميع الناس، وهؤلاء صلوات الله وسلامه عليهم أحبوا الله سبحانه وتعالى أكثر من حب الآباء للأبناء، وهذه العبادة تعبير عن هذا الحب، وترجمة لذلك الشوق. وأنت رعاك الله وسدّدك قد كلّفك سبحانه وتعالى باليسير من العبادات، وهي تعود عليك بالنفع في دنياك وآخرتك، ففي دنياك تقيك الكثير من المكاره، فالصلاة رياضة بدنيّة، والصيام صحّة، وهكذا جميع ما أمرك به سبحانه وتعالى؛ وأمّا في الآخرة فتحصل بها جنّة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين، فالله الله في الاهتمام بها، وتأديتها على أحسن الوجوه.

نعود فنذكر في هذه الصفحات بعض ما ورد من عبادة نبيّ الله داود عليه السلام:

---

(١) الخصال: ٥١٧.

(٢) كشف الغمة: ١٦٤؛ والنجائب: الابل، والمراد: أنها محملة بالأطعمة والأشربة للحجاج والمنقطعين.

(٣) مطالب السؤول: ٢/٢٨؛ أسد الغابة: ٢/٢٨.

١ - إنّ رجلاً سأل ابن عباس عن الصيام، فقال: إن كنت تريد صوم داود عليه السلام فإنّه كان من أعبد الناس... وكان له كل يوم سجدة في آخر النهار وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وإن كنت تريد صوم ابنه سليمان عليه السلام، فإنّه كان يصوم من أوّل الشهر ثلاثة، ومن وسطه ثلاثة، ومن آخره ثلاثة(١).

١ - وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: صام نوح الدهر إلّا يوم الفطر والأضحى، وصام داود نصف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر(٢).

٣ - إنّ داود جزّأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن ساعة إلاّ وإنسان من أولاده في الصلاة، فقال تعالى: ﴿**إعملوا آل داود شكراً**﴾(٣).

٤ - وكان شديد الاجتهاد، دائب العبادة، كثير البكاء(٤).

٥ - قال قتادة: إنّ داود عليه السلام كان يقوم الليل، ويصوم نصف الدهر(٥).

البيت المقدس

إنّ آدم عليه السلام هو الذي بنى الكعبة المعظمة، وإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هما اللذان رفعا تلك القواعد بعد اندثارها ﴿**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل**﴾ وجدّدا بناء البيت على القواعد التي بناها آدم عليه السلام، وداود عليه السلام بنى البيت المقدس، ومات قبل أن يكمل، فأتمه سليمان عليه السلام.

---

(١) بحار الأنوار: ٩٤/ ١٠٤.
(٢) قصص الأنبياء لابن كثير: ٩٥.
(٣) سفينة البحار: ١/ ٤٦٨.
(٤) تاريخ الطبري: ١/ ٣٣٨.
(٥) المصدر نفسه.

ذكر القطيفي: إنّ الله عزّ وجلّ سلّط على بني اسرائيل الطاعون، فهلك خلق كثير في يوم واحد، فأمرهم داود أن يغتسلوا ويبرزوا إلى الصعيد بالذراري والأهلين، ويتضرّعوا إلى الله، لعلّ الله يرحمهم، وذلك صعيد بيت المقدس، قبل بناء المسجد، وارتفع داود فوق صخرة فيه فخرّ ساجداً يبتهل إلى الله تعالى؛ وسجدوا معه، فلم يرفعوا رؤوسهم حتّى كشف الله عنهم الطاعون، فلما شفّع الله داود في بني اسرائيل، جمعهم بعد ثلاث وقال لهم: إنّ الله تعالى قد مَنَّ عليكم ورحمكم فجدّدوا له شكراً، بأن تتخذوا من هذا الصعيد الذي رحمكم فيه مسجداً، ففعلوا، فأخذوا في بناء بيت المقدس، وكان داود ينقل الحجارة على عاتقه، وكذلك خيار بني اسرائيل، حتّى رفعوه قامة، ولداود يومئذٍ مائة وسبع وعشرون سنة[١].

لسدانة الدين الحنيف

من سيرة الأنبياء عليهم السلام أن يعيّنوا خلفاءهم، وسدنة الشريعة من بعدهم، وكانوا يتخذون اليوم الذي ينصبون فيه خلفاءهم عيداً، كل ذلك لتوكيد الحجّة على الخلق، والزام الأمة باتباعهم، فلم يمت نبيُّ الله آدم عليه السلام حتّى أقام شيثاً عليه السلام مقامه، وأمر أولاده وأحفاده بطاعته، ولم يمت موسى عليه السلام حتّى عيّن يوشع بن نون عليه السلام خليفة على الأمة، ولم يمت داود عليه السلام حتّى جعل ابنه سليمان عليه السلام مكانه؛ وللمؤرخ المسعودي كتاب (إثبات الوصيّة) ذكر فيه أسماء الأوصياء والقوّامين على الشريعة من عهد آدم عليه السلام حتّى اليوم. نذكر، هنا، بعض ما جاء في وصيّة داود عليه السلام:

أنزل الله تعالى كتاباً من السماء على داود عليه السلام، مختوماً بخاتم من ذهب، فيه ثلاث عشرة مسألة، فأوحى الله تعالى إليه: أن سل ابنك

(١) قصص القرآن الكريم: ١٦٢.

سليمان، فإن هو أخرجها فهو الخليفة من بعدك، فدعا داود عليه السلام سبعين قسّاً، وسبعين حبراً، وأجلس سليمان بين أيديهم، وقال: يا بني إنّ الله تعالى أنزل عليّ كتاباً من السماء فيه مسائل، وأمرني أن أسألك عنها، فإن أخرجتها فأنت الخليفة من بعدي.

فقال سليمان: ليسأل نبيُّ الله عمّا بدا له وما توفيقي إلّا بالله، فقال: داود: يا بني ما أقرب الأشياء وما أبعدها، وما آنس الأشياء وما أوحشها، وما أحسن الأشياء، وما أقبحها، وما أقل الأشياء، وما أكثرها، وما القائمان، وما الساعيان، وما المشتركان، وما المتباغضان، وما الأمر الذي إذا ركبه الرجل حمد آخره، وما الأمر الذي إذا ركبه الرجل ذم آخره؟.

فقال سليمان عليه السلام: أمّا أقرب الأشياء: فالآخرة، وأمّا أبعد الأشياء: فما فاتك من الدنيا، وأمّا آنس الأشياء: فجسد فيه روح، وأمّا أوحش الأشياء: فجسد لا روح فيه، وأمّا أحسن الأشياء: فالإيمان بعد الكفر، وأمّا أقبح الأشياء: فالكفر بعد الإيمان، وأمّا أقل الأشياء: فاليقين، وأّما الساعيان: فالشمس والقمر، وأمّا المشتركان: فالليل والنهار، وأمّا المتباغضان: فالموت والحياة، وأمّا الأمر الذي إذا ركبه الرجل حمد آخره: فالحلم عند الغضب، وأمّا الأمر الذي إذا ركبه الرجل ذمّ آخره: فالحدّة عند الغضب.

ففكّوا الخاتم فإذا جواب المسائل سواء على ما نزل من السماء، فقال القسيسون والرهبان: لا نرضى حتّى نسأله عن مسألة، فإن أخرجها فهو الخليفة من بعدك.

فقالوا: ما الشيء الذي إذا صلح صلح كلُّ شيء من الإنسان، وإذا فسد فسد كلُّ شيء من الإنسان؟.

فقال: هو القلب.

فقام داود فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنّ الله تعالى أمرني أن أستخلف عليكم سليمان.

فضجّت بنو اسرائيل وقالوا: غلام حدث يُستخلف علينا، وفينا من هو أفضل منه وأعلم.

فبلغ ذلك داود عليه السلام. فدعا رؤساء أسباط بني اسرائيل، وقال لهم: إنّه قد بلغني مقالتكم، فأروني عصيّكم فأي عصا أثمرت فإنّ صاحبها ولي هذا الأمر بعدي.

قالوا: قد رضينا، فجاءوا بعصيّهم، فقال لهم داود: ليكتب كل رجل منكم اسمه على عصاه، فكتبوا، ثم جاء سليمان بعصاه، فكتب عليها اسمه، ثم أدخلت بيتاً، وأغلق عليها الباب، وسدّ بالأقفال، وحرسه رؤوس أسباط بني اسرائيل، فلمّا أصبح صلى بهم الغداة، ثم أقبل ففتح الباب، فأخرج عصيّهم كما هي، وأمّا عصا سليمان فقد أورقت وأثمرت، فسلّموا الأمر في ذلك لداود عليه السلام [(١)].

وصايا الصديقين

في كتب الحديث والتاريخ والسير وصايا كثيرة للأنبياء والأوصياء عليهم السلام يوصون بها أبناءهم.

إنّ هذه الوصايا تدعو إلى الأخذ بمكارم الأخلاق، والسجايا الحميدة، وما أحوجنا اليوم إلى الأخذ بها، والعمل بموجبها؛ نورد هنا بعض وصايا نبيّ الله داود عليه السلام لولده سليمان عليه السلام:

١ - قال الإمام الصادق عليه السلام: **إنّ داود قال لسليمان: يا بني إيّاك**

(١) عرائس المجالس: ٢٩١.

وكثرة الضحك، فإنّ كثرة الضحك تترك العبد حقيراً يوم القيامة؛ يا بني عليك بطول الصمت إلاّ من خير، فإنّ الندامة على طول الصمت مرّة واحدة، خير من الندامة على كثرة الكلام مرّات؛ يا بني لو أنّ الكلام كان من فضّة، كان ينبغي للصمت أن يكون من ذهب(١).

١ - لما استخلف داود ابنه سليمان عليهما السلام وعظه فقال: **يا بُني إيّاك والهزل، فإنّ نفعه قليل، ويهيج العداوة بين الإخوان، وإيّاك والغضب، فإنّ الغضب يستخف بصاحبه؛ وعليك بتقوى الله وطاعته، فإنّهما يغلبان كلّ شيء، وإيّاك وكثرة الغيرة على أهلك من غير شيء، فإنّ ذلك يورث سوء الظن بالناس، وإن كانوا براء؛ اقطع طمعك عن الناس، فإنّ ذلك هو الغنى، وإيّاك والطمع فإنّه الفقر الحاضر؛ وإيّاك وما يُعتذر منه من القول والفعل، وعوّد نفسك ولسانك الصدق، والزم الإحسان، فإن استطعت أن يكون يومك خيراً من أمسك فافعل؛ وصلّ صلاة مودّع، ولا تجالس السفهاء، ولا تردّ على عالم ولا تماره في الدين؛ وإذا غضبت فالصق نفسك بالأرض، وتحوّل من مكانك، وارج رحمة الله فإنّها وسعت كل شيء**(٢).

اللطيف الرحيم

فمن أسمائه جلّ جلاله: اللطيف، الرحيم، الرحمن، الغفور، أرحم الراحمين . . .

وجاءت الأحاديث وفقاً لهذه الأسماء، فكم من ذنوب غفرها، وعيوب سترها، ورحمة نشرها؛ وفي هذه الصفحات قصّة وقعت في عهد داود عليه السلام تتجلّى فيها رحمته جلّ جلاله بعباده، ولطفه بهم: قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: كان في بني اسرائيل عابد فأعجب به داود عليه السلام،

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٣٥.
(٢) عرائس المجالس: ٢٩١.

فأوحى الله إليه: لا يعجبك شيء من أمره، فإنّه مرائي؛ فمات الرجل، فقال داود: ادفنوا صاحبكم، ولم يحضره، فلما غسّل قام خمسون رجلًا، فشهدوا بالله ما يعلمون منه إلّا خيراً، فلما صلّوا عليه، قام خمسون آخرون، فشهدوا بذلك أيضاً، فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: ما منعك أن تشهد فلاناً؟ فقال داود: يا رب للذي أطلعتني عليه من أمره، فأوحى الله تعالى إليه: إنّه كان ذلك، ولكنّه قد شهد قوم من الأحبار والرهبان ما يعلمون إلّا خيراً، فأجزت شهادتهم عليه، وغفرت له علمي فيه[1].

وبودّي أن أشير إلى أمرين:

الأمر الأول: ورد التأكيد على أن يُكتب للميّت على قطعة من القماش: اللهمّ إنّا لا نعلم منه إلاّ خيراً، ويشهد بها أربعون من المؤمنين، يكتبون فيها أسماءهم، توضع مع الميّت في قبره، فإنّ الله سبحانه تعالى يجيز شهادتهم، ويغفر للميّت؛ وأنا أدركت الناس يعملونها عند تشييع موتاهم.

الأمر الثاني: ومع هذا اللطف ينبغي تمام الحذر من الذنوب، واجتناب كلِّ عمل مسخط لله جلّ جلاله، لا سيّما وأنت لا تعلم متى يأتيك الموت، وهل توفق للتوبة، أو بالأحرى: هل تقبل توبتك؟.

أسألك حبّك

وهذه مرتبة عظيمة، ومنزلة سامية، يدركها المخلصون الأولياء، ويحرم منها الأشقياء.

يقول أنس بن مالك: جاء رجل من أهل البادية ـ وكان يعجبنا أن

---

(١) الجواهر السنية: ٧٢.

يأتي الرجل من أهل البادية يسأل النبيَّ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله متى قيام الساعة؟.

فحضرت الصلاة، فلما قضى صلاته قال: أين السائل عن الساعة؟.

فقال: أنا يا رسول الله.

قال: فما أعددت لها؟

قال: والله ما أعددت لها من كثير عمل، لا صلاة ولا صوم[١] إلّا انّي أحب الله ورسوله.

فقال له النبيّ ﷺ: المرء مع من أحب.

قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بعد الإسلام بشيء من فرحهم بهذا[٢].

ونبيُّ الله داود عليه السلام يبتهل إلى الله تعالى داعياً: ربّي أسألك حبّك، وحبّ من يحبّك، والعمل الذي يبلّغني حبّك، ربّي اجعل حبّك أحب إليّ من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد.

وكان النبيّ ﷺ إذا ذكر داود وحدّث عنه قال: كان أعبد البشر[٣].

عبر

إنَّ أولياء الله جلّ جلاله وضعوا نصب أعينهم ما يعتبرون به، زجراً للنفس الأمارة بالسوء، وقطعاً لسبل الشيطان وطرقه المكثّفة التي ينسّي بها الإنسان طريق الآخرة، ويرغّبه في الدنيا.

---

(١) أي لست من المكثرين من الصلاة المستحبة والصيام المستحب.

(٢) علل الشرايع: ١/ ١٣٩.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٤٣٣.

وهذا نبيّ الله داود عليه السلام يلتقي بنبيٍّ من أنبياء الله جلّ جلاله، فيطرح عليه بعض الأسئلة التي تزيد المؤمن إيماناً بالله سبحانه وتعالى وبعداً عن هذه الدنيا الدنيّة.

لقد ذهب داود عليه السلام لزيارة نبيٍّ اسمه حزقيل، قد سكن في بعض الجبال، فسأله داود: يا حزقيل، هل هممت بخطيئة قط؟.

قال: لا.

فقال: فهل دخلك العجب مما أنت فيه من عبادة الله عزّ وجلّ؟.

قال: لا.

قال: فهل ركنت إلى الدنيا فأحببت أن تأخذ من شهوتها ولذّتها؟.

قال: بلى، ربّما عرض بقلبي.

قال: فماذا تصنع إذا كان ذلك؟.

قال: أدخل هذا الشعب فاعتبر بما فيه.

فدخل داود عليه السلام الشعب، فإذا سرير من حديد، عليه جمجمة بالية، وعظام فانية، وإذا لوح من حديد فيه كتابة، فقرأها داود عليه السلام فإذا هي: أنّا أروى بن أسلم، ملكت ألف سنة، وبنيت ألف مدينة، وافتضضتُ ألف بكر، فإذا كان آخر عمري أن صار التراب فراشي، والحجارة وسادتي، والحيّات جيراني، فمن رآني فلا يغتر بالدنيا[1]. وأنت أعزّك الله وسلّمك وإن لم تر سرير (أروى بن أسلم) ولكن الدنيا التي تعيش بها كلها عبر، وكلها مواعظ، ويكفي من ذلك الموت، فلا أنت ولا أحد من أهل الدنيا ينكر أو يشك في أنه ميّت، فهو لمن تأمّله وفكّر فيه أحسن موعظة وعبرة، لذا قال عليه السلام: كفى بالموت واعظاً.

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق: ٨٩.

زائر

إنَّ كل واحد منا بانتظار زائر غير مرغوب، لا ندري متى يرد علينا، وبزيارته تبدأ لنا صفحة جديدة بكلّ ما في معنى الجديد، فالدار غير الدار، والجيران غير الجيران، والحال التي نكون فيها غير الحال التي نحن فيها اليوم، كل شيء يتبدّل تماماً.

إنّ هذا الزائر هو ملك الموت.

نعود فنذكر زيارته لداود عليه السلام:

حانت من نبيّ الله التفاتة فوجد شخصاً غريباً في الدار، فبادر بالسؤال: ما أدخلك هذه الدار في هذا الوقت بغير اذن؟!.

قال: أنا الذي أدخل الدور على الملوك بغير اذن.

فقال له: إذاً فأنت ملك الموت؟.

قال: نعم.

قال: افجئت داعياً أم ناعياً؟.

قال: بل ناعياً.

فقال: داوود عليه السلام: فهلا أرسلت إليّ قبل ذلك وآذنتني لأستعدّ للموت؟.

فقال: كم أرسلت إليك فلم تتنبّه.

قال: ومن كانت رسلك التي أرسلت إليّ؟.

فقال: يا داود، أين أبوك إيشا، وأين أمّك، وأين أخوك، وأين جارك، وأين قهارمتك، وأين فلان وفلان؟.

فقال: ماتوا كلّهم.

فقال: أما علمت أنّهم رسلي إليك، وأنّ النوبة تبلغك[1].

---

(١) عرائس المجالس: ٢٩٢.

سليمان عليه السلام

تهذيب

يُحكى أنّ أم الشيخ مرتضى الأنصاري ـ الزعيم الديني الكبير قبل مائة وخمسين عاماً ـ كانت تسكن في قرية، وقد فقدت بصرها، فقيل لها: إنّ ابنك أصبح زعيم الطائفة.

فقالت: ليس هذا بشيء، فتعجبّ الناس من كلامها، فسألوها: وأي شيء أجلّ من هذا المقام؟ وماذا كنت تؤملين أن يكون ولدك؟.

قالت: كنت أريده تالياً لسيده أمير المؤمنين عليه السلام، فازدادوا تعجّباً من كلامها، فأخذت تذكر لهم عنايتها به، ومن ذلك، أنّها طيلة مدة الرضاعة لم ترضعه إلّا وهي على طهور، رغم شدّة البرد في تلك القرية.

فللأم يا أخي الأثر الكبير في تهذيب الولد واستقامته:

فالأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيّب الأعراق

وحتّى مقام النبوّة العظيم، فالأم عامل مهم في إعداده، حتّى ورد أنّ الأنبياء والأوصياء عليهم السلام ولدهم آباء مطهّرون، وأمهات عفائف.

والحديث هُنا عن أم سليمان عليه السلام، فقد روى الشيخ الصدوق عليه الرحمة بسنده عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قالت أم سليمان بن داود لسليمان: **يا بني إيّاك وكثرة النوم بالليل، فإنّ كثرة النوم بالليل تدع الرجل فقيراً يوم القيامة**[1].

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق: ١٩٤.

عبادة

إنَّ الأنبياء والأئمة عليهم الصلاة والسلام كانوا في عبادة متواصلة ليلًا ونهاراً رغم مشاغلهم الكثيرة، وقد مرّ عليك في فصل سابق بعض ما ذكره المؤرخون وأهل السير من عبادة رسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار صلوات الله عليهم.

ونضيف في هذا الفصل رواية الشيخ المجلسي طاب ثراه عن عبادة الإمام زين العابدين عليه السلام:

قال الإمام الباقر عليه السلام: إنّ فاطمة بنت علي بن أبي طالب عليه السلام، لما نظرت إلى ما يفعله ابن أخيها علي بن الحسين بنفسه من الدأب في العبادة، أتت جابر بن عبد الله الأنصاري، فقالت له: يا صاحب رسول الله ﷺ، إنّ لنا عليكم حقوقاً، ومن حقّنا عليكم: إذا رأيتم أحدنا يهلك نفسه اجتهاداً أن تذكّروه الله، وتدعوه إلى البقيا على نفسه، وهذا علي بن الحسين، بقيّة أبيه الحسين، فقد انخرم أنفه، وتفتّتت جبهته وركبتاه وراحتاه، إدآباً منه لنفسه في العبادة.

قال: فأتى جابر فوجده في محرابه، فقد أَضنته العبادة، فنهض عليٌّ فسأله عن حاله سؤالًا حفيّاً، ثم أجلسه بجنبه، فأقبل عليه جابر يقول: يا بن رسول الله أما علمت أنّ الله تعالى إنّما خلق الجنة لكم ولمن أحبّكم، وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم، فما هذا الجهد الذي كلفته نفسك؟ فقال له علي بن الحسين عليه السلام: يا صاحب رسول الله أما علمت أنّ جدي رسول الله ﷺ قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، فلم يدع الاجتهاد له، وتعبد بأبي وأمي حتّى انتفخ الساق، وورم القدم، وقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله من ذنبك ما تقدّم وما تأخّر؟.

قال: أفلا أكون عبداً شكوراً.

فلما نظر جابر إلى علي بن الحسين وليس يغني فيه قول من يستميله من الجُهد والتعب إلى القصد، قال له: البقيا على نفسك، فإنّك من أسرة بهم يُستدفع البلاء، ويُستكشف اللأواء، وبهم تستمطر السماء فقال له: يا جابر، لا أزال على منهاج أبوي مؤتسياً بهما، صلوات الله عليهما حتّى ألقاهما.

فأقبل جابر على من حضر فقال لهم: والله ما رُئي في أولاد الأنبياء مثل علي بن الحسين إلّا يوسف بن يعقوب عليه السلام، والله لذريّة علي بن الحسين أفضل من ذريّة يوسف بن يعقوب، وإنّ منهم لمن يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جوراً[١].

نتحدّث في هذه الفقرة عما كان عليه نبيّ الله سليمان بن داود عليه السلام من العبادة، وأنت إذا تأملت الرواية الآتية أدركت أهميّة العبادة واهتمامه صلوات الله عليه بها.

ذكر المجلسي بناء سليمان عليه السلام لبيت المقدس، ثم قال: ففرّغ له سليمان عشرة آلاف من قرّاء بني اسرائيل، خمسة آلاف بالليل، وخمسة آلاف بالنهار، ولا تأتي ساعة من ليل أو نهار إلّا ويعبد الله فيها[٢]. نعود فنذكر بعض ما جاء من عبادة سليمان عليه السلام:

١ - كان يصوم من أوّل الشّهر ثلاثة، ومن وسطه ثلاثة، ومن آخره ثلاثة[٣].

١ - وسليمان عليه السلام، كان مع ما هو فيه من الملك، يلبس الشعر وإذا جنّه الليل شدّ يديه إلى عنقه فلا يزال قائماً حتّى يصبح باكياً؛ وكان قوته من سفائف الخوص يعملها بيده[٤].

---

(١) بحار الأنوار: ١١/١٩.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) عدة الداعي: ١١٩.

زهد

الزهد: هو عدم الرغبة في الشيء وتركه، وأصبحت هذه الكلمة علماً وصفة لمن ترك الدنيا وزينتها. وعرَّفه الشيخ الصدوق: الزاهد من يحب ما يحبّه خالقه، ويبغض ما يبغضه خالقه، ويتحرّج من حلال الدنيا ولا يلتف إلى حرامها وهو مما ندب إليه الشرع، وحثّ عليه، فمشاكل الناس جميعاً من جراء التّكالب على الدنيا وحطامها.

إتّصف الأنبياء والأئمة صلوات الله وسلامه عليهم بهذه الصفة الحميدة، فأنت لو تصفّحت تواريخهم وسيرهم لوجدتهم جميعاً في أعلى مستوى الزهد، فإعراضهم صلوات الله عليهم الكلّي عن الدنيا وبهجتها، يخفف عند أممهم ـ ولو لحد ضئيل ـ من السعي الشديد في طلبها.

وليس بعجب أن تقرأ في سيرة الرسول الأعظم ﷺ، وابن عمه أمير المؤمنين عليه السلام الصفحات الكثيرة عن زهدهم، لأنّ ذلك مما لزماه طيلة حياتهما الكريمة، فكان رسول الله ﷺ يشد على بطنه حجر المجاعة فضلًا من أن يتفكّه بالطعام، وصام أمير المؤمنين عليه السلام وعائلته ثلاثة أيام لم يُطعموا فيها غير الماء.

ولكن العجب أن تقرأ حديث الزهد في سيرة نبي الله سليمان بن داود عليه السلام، وهو الذي وهب الله له ملكاً لم يهبه لأحد من قبله ولا من بعده ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥] وإنّ طلبه من الله جلّ جلاله الملك هو لأجل الدعوة إلى التوحيد، وليقيم في الأرض معالم العدل، ويبيد سنن الكفر والفجور، ألا تسمع رسالته إلى ـ بلقيس ملكة اليمن ـ ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١].

وقال الإمام الصادق عليه السلام : وكان لا يسمع بملك في ناحية الأرض إلّا أتاه حتّى يذلّه، ويدخله في دينه[١].

وقال الديلمي: إنّما سأل الملك ليقهر ملوك الكفر[٢].

وقال وهب بن منبه: إنّ سليمان لم يطلب الدنيا لنفسه، وإنّما طلب أن يكون أمورها إليه حتّى يعدل بين الناس، وينصف المظلوم من الظالم، ويجود على الفقراء والمساكين، فإنّ الدنيا مع العبد الصالح في يده لا في قلبه، فإن كان بالعكس فلهوى النفس[٣].

فمن هذا وغيره يتبيّن أنّ ملكه الذي شمل الدنيا بأسرها لم يخرجه عن الزهد الذي هو شعار الأنبياء عليهم السلام .

يتحدّث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه عن الأنبياء عليهم السلام فيقول: أو سليمان بن داود، وما أوتي من الملك يأكل خبز الشعير، ويطعم أهله الحنطة، وإذا جنّه الليل لَبِسَ المسوح، وغلّ يده إلى عنقه، وبات باكياً حتّى يصبح؛ ويكثر من قول: ربّي إنّي ظلمت نفسي كثيراً وإلّا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين، لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين[٤].

وقال الإمام الصادق عليه السلام : كان سليمان عليه السلام يطعم أضيافه اللحم بالحواري، وعياله الخشكار[٥] ويأكل هو الشعير غير المنخول[٦].

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٧١.

(٢) ارشاد القلوب: ١/ ١٩٣.

(٣) بدائع الزهور: ١٥٨.

(٤) دستور معالم الحكم: ٤٠.

(٥) الحواري: الذي نخل مرة بعد أخرى، والخشكار: الخبز المأخوذ من الدقيق غير المنخول.

(٦) بحار الأنوار: ١٤/ ٦٧.

وقال ابن الأثير: وكان يأكل من كسب يده[(١)].

ونختم الفصل ببعض ما جاء في فضل الزهد:

١ - قال رسول الله ﷺ: ارغب فيما عند الله يحبّك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبّك الناس؛ إنّ الزاهد في الدنيا ليريح قلبه وبدنه في الدنيا والآخرة، والراغب فيها يتعب قلبه وبدنه في الدنيا والآخرة؛ ليجيئنّ أقوام يوم القيامة لهم حسنات كأمثال الجبال، فيأمر بهم النار.

قيل: يا نبيّ الله أمصلّون كانوا؟.

قال: نعم، كانوا يصلّون ويصومون، ويأخذون وهناً من الليل، لكنّهم إذ لاح لهم شيء من أمر الدنيا وثبوا عليه[(٢)].

في العرض القرآني المجيد

١ - ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

ومن سنن المرسلين عليهم السلام أن يعهد السلف منهم للخلف، ولا يكفي في المقام القول فقط، بل يحتاج إلى تهيئة لتحصل استجابة الأمة بأسرها، ولا تهيئة أفضل من ظهور العلم على أيديهم؛ وفي عهد داود عليه السلام حدث أمر يحتاج إلى قضاء ليس بالهيّن، فعهد به إلى سليمان عليه السلام.

قال الإمام الصادق عليه السلام: كان في بني اسرائيل رجل له كرم، ونفقت فيه غنم رجل آخر بالليل وقضمته وأفسدته، فجاء صاحب الكرم إلى داود فاستعدى على صاحب الغنم، فقال داود عليه السلام: إذهبا إلى سليمان ليحكم بينكما، فذهبا إليه، فقال سليمان عليه السلام:

---

(١) الكامل في التاريخ: ١/ ٧٨.

(٢) بحار الأنوار: ٧٧/ ١٨٨.

إن كانت الغنم أكلت الأصل والفرع، فعلى صاحب الغنم أن يدفع إلى صاحب الكرم الغنم وما في بطنها، وإن كانت ذهبت بالفرع ولم تذهب بالأصل، فإنه يدفع ولدها إلى صاحب الكرم؛ وكان هذا حكم داود وإنّما أراد أن يعرّف بني اسرائيل أنّ سليمان وصيّه بعده، ولم يختلفا في الحكم، ولو اختلف حكمهما لما قال: **﴿وكنّا لحكمهم شاهدين﴾**.

٢ - ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١] لقد سأل سليمان عليه السلام ربّه **﴿قال ربّ اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنّك أنت الوهّاب﴾**.

ولا شك أنّ الغرض من هذا الطلب هو نشر الإسلام في الكرة الأرضيّة، وإقامة العالم العدل فيها، ولو لم يكن من فائدة من سؤاله عليه السلام إلّا السيطرة على الشياطين، وتحديد فعاليتهم، بل وحتّى تسخيرهم لمنافع الخلق، لكفى ذلك فائدة، وخدمة للمجتمع.

لقد سخّر الله جلّ جلاله لعبده ونبيّه سليمان عليه السلام الانس والجنّ والشياطين، وجميع ما على وجه الأرض من حيوان وغيره، بل وحتّى بعض العوالم العلوية كما في الآية الكريمة **﴿ولسليمان الريح﴾** وسخّرنا لسليمان الريح **﴿عاصفة﴾** شديدة الهبوب.

قال ابن عباس: إذا أراد أن تعصف الريح عصفت، وإذا أراد أنه ترخى أرخيت، وذلك قوله: **﴿رخاء حيث أصاب﴾** **﴿تجري بأمره﴾** بأمر سليمان **﴿إلى الأرض التي باركنا فيها﴾** هي أرض الشام، وكانت مأواه، وكانت الريح تجري في الغداة مسيرة شهر، وفي الرواح كذلك، وكان يسكن بعلبك، ويبنى له بيت المقدس، ويحتاج إلى الخروج إليها وإلى غيرها ويجتمع معه جنوده ثم تحمله الريح حيث أراد **﴿وكنّا بكل شيء عالمين﴾** فإنما أعطيناه ما أعطيناه لما علمناه من المصلحة.

قوله: ﴿**ومن الشياطين من يغوصون له**﴾ إنّ بيت المقدس لم يكن في وقته بناء يضاهيه، جمالًا واتقاناً، إنّ الأحجار الكريمة التي زيّنت بها حيطان المسجد وسقفه كانت تغني عن المصابيح، وأهل المسجد يستضيئون بها ليلًا.

إنّ معظم هذه الأحجار يستخرج من البحار، كاللؤلؤ، والمرجان وغيرهما، لذا تراه عليه السلام سخّر الشياطين في استخراجها ﴿**ويعملون عملًا دون ذلك**﴾ ولم يقتصر عملهم على هذا فقط، بل أناط بهم أعمالًا أخرى ﴿**يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات وكنّا لهم حافظين**﴾ لئلا يهربوا منه، أو يمتنعوا عليه.

٣ - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥] والله جلّ جلاله يفيض على أنبيائه بعطائه ليتمكّنوا من نشر ما كلّفوا به من رسالة على أوسع ما يكون، فكلّما كانت الطاقات أكبر كان النجاح أتم.

وثمة شيء آخر، ليستدلّ البشر بما يرون من علم الأنبياء ـ لا سيما لخفايا الأمور ـ على علمه سبحانه وتعالى، وإحاطته بخلقه، فيجعلهم ذلك أقرب للاستقامة والرشاد.

قوله: ﴿**وقالا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين**﴾ إنّ هذين النبيين العظيمين يحمدان الله جلّ جلاله على نعمه التي أنعمها عليهما، وهذا مما يستدعي كل مسلم أن يجعل الحمد شعاراً له، ونهجاً يدوم عليه.

نذكر بعض ما ورد عن الصادقين صلوات الله عليهم في ثواب الحمد:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ المؤمن ليشبع من الطعام والشراب فيحمد الله، فيعطيه الله من الأجر ما يعطي الصائم، إنّ الله يحب أن يحمد[١].

١ - عن المفضّل قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: علمني دعاءً جامعاً.

فقال لي: احمد الله، فإنّه لا يبقى أحد يصلّي إلّا دعا لك، يقول: **(سمع الله لمن حمده)**[٢].

وقال الإمام الصادق عليه السلام، أيما عبد أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه أيضاً، وحمد الله عليها بلسانه، لم ينفذ كلامه حتّى يأمر الله بالزيادة، وذلك قول الله جلّ وعزّ: **﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾**[٣].

واعلم رعاك الله أنّ كل واحد منّا لو تأمّل حاله لوجد مواهب الله جلّ جلاله التي غمره بها، ونعمه التي أنعم بها عليه، والتي لا يستطيع إحصاءها، وبما فضّله على كثير من خلقه؛ وبودّي أن يقرأ كل واحد منّا دعاء الجوشن الصغير، وهو من الأدعية المهمة، من أدعية الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، فحينئذٍ تتجلّى له نعم الله جلّ جلاله التي أنعم بها عليه، والتي لا تعد ولا تحصى، وأنا أذكر لك منه فقرتين، وأطلب منك أن تدعو به ولو مرّة واحدة.

قال عليه السلام: **إلهي وكم من عبد أمسى وأصبح خائفاً مرعوباً مسهداً مشفقاً وحيداً وجلاً هارباً طريداً، أو منحجزاً في مضيق، أو مخبأة من المخابي، قد ضاقت عليه الأرض برحبها، ولا يجد حيلة ولا منجى ولا مأوى ولا مهرباً، وأنا في أمن وأمان، وطمأنينة وعافية من ذلك كله، فلك**

---

(١) مشكاة الأنوار: ٢٨.

(٢) أصول الكافي: ٤٠٣.

(٣) مشكاة الأنوار: ٢٩.

الحمد يا ربّ من مقتدر لا يغلب، وذي أناة لا يعجل، صلِّ على محمد وآل محمد واجعلني لأنعمك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين.

وكم من عبد أمسى وأصبح مغلولاً مكبّلاً بالحديد بأيدي العتاة، لا يرحمونه، فقيداً من أهله وولده، منقطعاً عن اخوانه وبلده، يتوقّع كل ساعة بأيّ قتلة يُقتل، وبأيّ مثلة يُمثّل به، وأنا في عافية من ذلك كله، فلك الحمد يا رب من مقتدر لا يُغلب، وذي أناة لا يعجل...[١].

قوله تعالى: ﴿**وأوتينا من كل شيء**﴾ من كلّ شيء يؤتى الأنبياء والملوك.

قال الإمام الصادق عليه السلام: أعطي سليمان بن داود ملك مشارق الأرض ومغاربها، فملك سبعمائة سنة وستة أشهر، ملك أهل الدنيا كلّهم من الجن والانس والشياطين والدواب والطير والسباع.

قوله: ﴿**قال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك**﴾.

ومعنى أوزعني: ألهمني؛ والشكر من أعظم النعم وأفضلها، يستوجب به العبد المزيد ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] وبالشكر تدوم النعم.

ومن حديث الصادقين عليهما السلام.

١ - عن جعفر بن محمد عن أبيه يرفعه قال: الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الشاكر، والغني الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع[٢].

٢ - وقيل للإمام الصادق عليه السلام: من أكرم الخلق على الله؟.

---

(١) مفتاح الجنات: ١/ ٢١٩.

(٢) قرب الاسناد: ٥٠.

قال: من إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر[١].

٣ - وقال أمير المؤمنين عليه السلام: ما أنعم الله على عبد نعمة فشكرها بقلبه إلّا استوجب المزيد فيها قبل أن يظهر شكرها على لسانه[٢]. فينبغي لكل فرد منّا أن يطلب من الله جلّ جلاله أن يوفّقه ويلهمه شكر نعمه، ويجعله لا يفرّط فيها فتذهب وتولّي عنه قوله: ﴿**وأن أعمل صالحاً ترضاه**﴾ فهذا نبيُّ الله مع ما له من رفيع المنزلة، وسمو المرتبة عند الله جلّ جلاله يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يوفقه لعمل صالح مكلّل بالقبول.

وهذا تعليم لكل مسلم أن ينصب اهتمامه للعمل الصالح، ويتوسّل بالله تعالى أن يتقبّل ذلك منه، ويدّخره له في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلّا من أتى الله بقلب سليم.

قوله: ﴿**وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين**﴾.

قال ابن عباس: يعني إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ومن بعدهم من النبيين، والمراد: أدخلني في جملتهم وأثبت اسمي مع أسمائهم واحشرني في زمرتهم.

وينبغي أن يكون هذا الدعاء شعار كل مسلم ومؤمن، طالباً من الله سبحانه وتعالى أن يدخله برحمته في الصالحين، وأن يجعل اسمه في عليين، وأن يحشره في زمرة المتقين، فليس هناك من دعوة هي أسمى من هذه الدعوة أو تضاهيها، وإنّ من استجيب له فقد فاز فوزاً عظيماً ونال سعادة لا شقاء بعدها أبداً.

✡

---

(١) مشكاة الأنوار: ٢٢.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي: ١٩.

٤ - ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].

في هذه السورة المباركة آيات تتحدّث عن سليمان عليه السلام، وتسخير الرياح له، وكذلك تسخير الجن وتنفيذهم لما يطلبه منهم من عمل، كما ذكرت الآيات نعمة أخرى أنعمها الله جلّ جلاله على سليمان عليه السلام وهي: **﴿وأسلنا له عين القطر﴾** والله سبحانه وتعالى حينما يعطي عبداً من عباده عطاءً يهيىء له ما يلزم لتدبيره وحفظه، وتمام الاستفادة منه؛ لقد أعطى سليمان عليه السلام ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وسخَّر له الرياح تحمله حيث يشاء كي لا يغيب عنه شيء من أطراف مملكته التي شملت الدنيا بأسرها، وأيضاً فهو لكثرة جنوده يحتاج إلى قدور كبار يعد لهم فيها الطعام فأسال الله سبحانه له عين القطر، وهي النحاس، فقد وفره له مذاباً كمادة أوّلية للصناعات التي تلزمه.

٥ - ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] في هذه السورة المباركة استعراض مفصّل عن نبيِّ الله سليمان عليه السلام مليء بالعبر والدروس النافعة للأجيال.

تبدأ الآيات بالثناء عليه: **﴿نعم العبد إنه أوّاب﴾** مدحه جلّ جلاله بالعبودية، وهي مرتبة عظيمة، ووسام شرف، وتذكّر التشّهد في الصلاة، فقد قدّم العبودية على الرسالة «أشهد أن محمداً عبده ورسوله» ومع عظيم هذه المرتبة وجلالتها فإنَّه يمكن الحصول عليها بيسير من الأعمال والطاعات، وبالالتزام بالشريعة المحمدية وضبط النفس.

والمراد بقوله تعالى **﴿أوّاب﴾** رجّاع عن كلِّ ما يكره الله إلى ما يحب، منقطع إليه قوله: **﴿إذ عرضت عليه بالعشي الصافنات الجياد﴾**.

العشي: آخر النهار. والصافنات: الخيل الواقفة على ثلاث قوائم، والواضعة طرف السنبك الرابع على الأرض، والجياد: السريعة المشي، الواسعة الخطو.

والمراد: أنّه صلوات الله عليه استعرض هذه الأفراس عصراً، وانشغل بها بعض الوقت.

قوله: ﴿**فقال إنّي أحببت حب الخير عن ذكر ربّي**﴾.

المراد بالخير: الخيل، والمعنى أنّه انشغل باستعراضها ومشاهدتها، وفاتته عبادة وأوراد مستحبّة كان يقوم بها وقت العصر، فأسف لذلك أشدّ الأسف.

وهكذا ينبغي للمؤمن أن يحزن ويأسف على ما يفوته من طاعة الله جلّ جلاله، لأنّها هي التي تنفعه، كما ينبغي له أن لا يأسف على شيء فاته من أمر الدنيا، ألا تسمع أمير المؤمنين عليه السلام وهو يوصي الحسن والحسين عليهما السلام بعدما ضربه ابن ملجم لعنه الله: ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما.

قوله تعالى: ﴿**حتى توارت بالحجاب**﴾ حتّى غربت الشمس، وفات وقت ذلك العمل ﴿**ردّوها عليّ**﴾ أمر من كان بحضرته من الناس أن يرجعوا هذه الأفراس ﴿**فطفق مسحاً بالسوق والأعناق**﴾ أخذ يضرب سوقها وأعناقها.

والمراد: أنّه ذبحها وتصدّق بلحمها لأنّها كانت السبب فيما فاته، ولأنّها أعزّ ما له، والله تعالى يقول: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والمعنى: تعطيه وأنت صحيح، تأمل العيش، ولا تتماهل حتّى الساعات الأخيرة من حياتك فتقول: أعطوا فلاناً كذا، وفلاناً كذا!

وما فعله نبيُّ الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ من التصدّق بلحوم الخيل، والتي هي أعز ما له، هو الطريق الصحيح لمن انشغل بعمل ففاتته طاعة، فعليه أن يتقرّب إلى الله تعالى بذلك العمل الذي انشغل به، مثال ذلك: كنت تريد الذهاب للحج مرّة ثانية أو ثالثة، ثم انشغلت ببناء، فتبيعه وتنفق ثمنه في سبيل الله تعالى، أو كنت تريد صوم شهر رجب، ثم حصل لك سفر فعاقك عن ذلك، فتتصدّق بما كسبت من مال في سفرك، واعلم أنّك لو ملكت الدنيا شرقاً وغرباً كما ملكها سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لم تأخذ منها سوى الكفن، وما زاد فهو للوارثين، وطالما جعلوك مسبّة لتنازعهم فيما خلّفته لهم، بينما كل مال أنفقته في مرضاة الله جل جلاله، وكل عمل خيري قمت به لوجهه الكريم، تجده أمامك، في وقت أحوج ما تكون إليه.

قوله تعالى: ﴿**ولقد فتنا سليمان**﴾.

الفتنة: الابتلاء، والله سبحانه وتعالى يبتلي الأنبياء والأولياء لترتفع درجاتهم عنده، وتسمو منازلهم لديه، وليتعلّم الناس منهم الصبر ﴿**وألقينا على كرسيّه جسداً**﴾ وهو جسد ابن له، خاف عليه من الجن لما بلغه من قولهم: لئن عاش ولد لنلقينَّ منه ما لقينا من أبيه، فأسكنه في العوالم العلوية حفاظاً عليه، ولكنّه لم ينتفع بحذره، فقد وافته المنيّة هناك، وسقط على كرسيّه ميّتاً، تنبيهاً على أنّ الحذر لا يدفع القدر، والمفروض بالإنسان أن يستودع الله جلّ جلاله على ما أهمّه، فهو الحافظ لما استودع، ولو أنّ أهل السماوات والأرض أرادوا بعبد سوءاً، والله سبحانه وتعالى يريد حفظه لما تمكنّوا من أن يصلوا إليه بسوء، ويشهد لذلك ما حصل من تجمّع اليهود على قتل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واتفاق قريش على قتل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وتجمّعهم على بابه ليلة خروجه إلى المدينة، وغيرها كثير.

قوله: ﴿**ثم أناب**﴾ أي رجع إليه بالتوبة. وهذا أيضاً درس عظيم

يجب أن يتعلمه المسلم من سليمان عليه السلام، فربّما أخل الإنسان بواجب أو مستحبٍّ، أو سلك طريقاً لم يؤمر بسلوكه، فإنّ الواجب يحتّم عليه بالرجوع سريعاً إلى الله جلّ جلاله بالتوبة والاستغفار، والاستقامة به على ما أهمّه من أمر دينه ودنياه، والحذر ثمّ الحذر من أن يتباطأ أو ينسيه الشيطان الإنابة، أو يعظّم له الخطيئة، ويصوّر له أنّ الطريق إلى الله سبحانه أصبح أمامه مغلقاً، ألا تسمع لقمان الحكيم وهو يقول لابنه: خف الله خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذّبك، وارج الله رجاءً لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك[1].

قوله تعالى: ﴿**قال ربّ اغفر لي**﴾ فهو بعد الذي وقع له، توجّه إلى الله جلّ جلاله، وبدأ بالمهم وهو طلب المغفرة؛ يقول أمير المؤمنين عليه السلام: لا شفيع أنجح من التوبة[2].

واعلم رعاك الله أنّه لم يكن استغفاره عليه السلام عن ذنب، بل هو من باب الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى، وهو نظير قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

وحاشا أن يتسامح أنبياء الله عليهم السلام بطاعة، أو يقترفوا ذنباً، فهم معصومون منزّهون عن فعل القبيح.

قوله: ﴿**وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي**﴾ أنا وأنت وجميع البشر نسأل من الله جلّ جلاله المال والعقار لنتمتّع ونسعد به، أمّا نبيّ الله فهدفه من ذلك أن يقيم معالم الحق، وينشر كلمة التوحيد، ويقضي على رؤوس الشرك، ألا تراه وقد بلغه خبر بلقيس وشعبها ﴿**وجدتها وقومها يسجدون للشمس**﴾ كيف أسرع فعمل بكل جهده لانقاذهم من الضلال، وفعلًا تمَّ له ذلك على أحسن ما يكون.

---

(١) تحف العقول: ٢٧٧.

(٢) نهج البلاغة: حكمة رقم ٣٧١.

وتستمر الآيات في تسخير الريح له والجن وكل بنّاء وغوّاص، وختامها ﴿وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾.

وأعظم من هذا الذي مرّ من ملك سليمان عليه السلام، واتساع سلطانه. أنّ له المقام المحمود عند الله جلّ جلاله، والمنزلة الرفيعة.

لقد ذهب ملكه وسلطانه بوفاته، وأما الذي بقي له فعمله الصالح الذي قدّمه أمامه.

البديل

إن من يعامل الله جلّ جلاله يربح، ومن يعمل بطاعته يغنم، ألا تراه جعل الحسنة بعشر حسنات ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

ثم ضاعف ذلك فقال: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١] وأكثر من هذا، أنّ المتعاملين مع الله جلّ جلاله، والمسارعين إلى مرضاته، يعطيهم في الدنيا قبل الآخرة.

فهذا نبيُّ الله سليمان عليه السلام ذبح الخيل ـ وهي أعزّ ماله وأحبّها إليه ـ، ووزّع لحمها على الفقراء، طلباً لمرضاة الله جلّ جلاله، فأبدله الله سبحانه بالريح ﴿فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب﴾.

قال الحسن: فلما عقر الخيل لأجل الله أبدله الله تعالى مكانها خيراً منها وأسرع، وهي الريح تجري بأمره، رخاء كيف يشاء، غدوّها شهر، ورواحها شهر، وكان يغدو من إيليا فيقيل في اصطخر، ثم يروح منها فيبيت في بابل[١].

---

(١) بحار الأنوار: ٩٠/ ١٨٤.

سبحان الله

ملك نبيُّ الله سليمان عليه السلام الدنيا من شرقها إلى غربها، وانقادت له الجن والانس، والطير والوحش، وسخَّر له سبحانه وتعالى الريح تجري بأمره، والرواية تقول: أنّ سليمان كان معسكره مائة فرسخ في مائة فرسخ، وقد نسجت الجن له بساطاً من ذهب، فيقعد عليه، وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة، فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وتظلّهم الطير بأجنحتها، وكان يأمر الريح العاصف يسيّره، والرخاء يحمله، فيحكى أنّه مرّ بحرّاث فقال: لقد أوتي ابن داود ملكاً عظيماً، فألقاه الريح في أذنه، فنزل ومشى إلى الحرّاث وقال: إنّما مشيت إليك لئلا تتمنّى ما لا تقدر عليه، ثم قال: لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتي آل داود، لأنّ ثواب التسبيحة يبقى، وملك سليمان يفنى(١).

ويعضد هذا ما ورد في ثواب التسبيح:

١ - قال إبراهيم عليه السلام لنبيّنا محمد صلى الله عليه وآله في المعراج: يا محمد اقرىء أمّتك منّي السلام، وأخبرهم أنّ الجنّة، ماؤها عذب، وتربتها طيّبة، قيعانها بيض، غرسها (**سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم**)، فمر أمّتك فليكثروا من غرسها.

٢ - وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله برجل يغرس غرساً في حائط، فوقف له، فقال: ألا أدلّك على غرس أثبت صلاحاً، وأسرع إيناعاً، وأطيب ثمراً وأبقى.

قال: بلى، فدلّني يا رسول الله.

---

(١) روضة الواعظين: ١/ ٥٨.

قال: إذا أصبحت وأمسيت فقل: (**سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر**) فإنّ لك إن قلته بكلٍّ تسبيحة عشر شجرات في الجنّة من أنواع الفاكهة، وهنّ من الباقيات الصالحات.

فقال الرجل: فإنّي أشهدك يا رسول الله أنّ حائطي هذا صدقة مقبوضة على فقراء المسلمين أهل الصفة؛ فأنزل الله عزّ وجلّ آيات من القرآن: ﴿**فأمّا من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسّره لليسرى**﴾.

٣ - وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: من قال (**سبحان الله**) من غير تعجّب، خلق الله منها طائراً له لسانان وجناحان، يسبّح الله عنه في المسبّحين حتّى تقوم الساعة، ومثل ذلك (**الحمد لله**) (**ولا إله إلاّ الله**) و (**الله أكبر**)[1].

٤ - وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: من قال: (**سبحان الله وبحمده**) كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة، ومن زاد زاده الله، ومن استغفر غفر الله له[2].

٥ - وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: من قال (**سبحان الله**) غرس الله له بها شجرة في الجنة[3].

الرؤوف الرحيم

والله جلّ جلاله كما هو رؤوف بالإنسان كذلك هو رؤوف بالحيوان، ومن مظاهر هذه الرأفة المطر، الذي لولاه لهلك القسم الأكبر من الحيوانات، ولعلّ هذا الخير الذي ينزله من السماء هو من أجل الحيوان،

(١) ثواب الأعمال: ١٢.
(٢) معاني الأخبار: ٣٩٠.
(٣) ربيع الأبرار: ١/ ٢٥٤.

فقد ورد في الحديث: لولا شيوخ ركّع، وأطفال رضّع، وبهائم رتّع، لصبّ العذاب عليكم صبّاً.

نعود لنذكر حادثة طريفة وقعت في عهد سليمان عليه السلام.

قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: إنّ الناس أصابهم قحط شديد على عهد سليمان بن داود عليه السلام، فشكوا ذلك إليه، وطلبوا إليه أن يستسقي لهم، فقال لهم: إذا صليت الغداة مضيت، فلما صلّى الغداة مضى ومضوا، فلما أن كان في بعض الطريق إذا هو بنملة رافعة يدها إلى السماء، واضعة قدميها إلى الأرض وهي تقول: اللهمّ إنّا خلق من خلقك، ولا غنى بنا عن رزقك، فلا تهلكنا بذنوب بني آدم.

فقال سليمان عليه السلام: ارجعوا فقد سقيتم بغيركم.

قال: فسقوا في ذلك العام ما لم يسقوا مثله قط[١].

الوصيّة الخالدة

وأنت ربّما رأيت كلمة لنبيٍّ أو إمام أو صدّيق، وتأمّلتها جيداً، وأخذت بما فيها، فجنبتك متاعب كثيرة، وأغنتك غناءً ليس بعده فقر.

ومن هذا ما جاء في الحكم: ربّ كلمة أحيت ميتاً؛ ومن هذا التراث ـ وما أكثره ـ وصيّة نبيّ الله سليمان عليه السلام لبني اسرائيل: يا بني اسرائيل لا تدخلوا أجوافكم إلّا طيّباً، ولا تخرجوا من أجوافكم إلّا طيّباً[٢].

إنك لو فتشت أضابير أهل النار لوجدت معظمها ناشئاً عن التسامح في هذين الأمرين، إنّنا نتسامح في أداء حقوق الناس، ولا نتحرّج من أموالهم، وكذلك نطلق لألسنتنا العنان، فنتكلّم بما نشاء من كذب، وفحش، وغيبة، وبهتان.. وأخيراً تكون النتيجة الحتميّة النار.

---

(١) الكافي: ٨/ ١٩٨.

(٢) الكشكول للشيخ البهائي: ١/ ١٦٩.

لا راحة فيها

في الحديث القدسي: جعلت ستة في ستة والناس تطلبها في غيرها فلن يجدوها، جعلت الراحة في الآخرة والناس تطلبها في الدنيا فلن يجدوها.. ونحن نشاهد مختلف الطبقات، وكلّهم يشكو التعب، وعدم الراحة، بل الكثير منهم يدّعي أنّ متاعبه ومشاكله أعظم من الجميع، فينبغي للعامل أن يمهّد لنفسه الراحة في الدار الباقية بالعمل الصالح.

قال الإمام الصادق عليه السلام: إنّ العمل الصالح ليذهب إلى الجنّة فيمهّد لصاحبه، كما يبعث الرجل غلامه فيفرش له، ثم قرأ: ﴿**ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون**﴾[1].

ونبيّ الله سليمان عليه السلام ملك الدنيا بأسرها، وامتدّ سلطانه على الإنس والجن والحيوان، أحبّ أن يتمتّع يوماً واحداً بمشاهدة بعض مملكته، وأصناف العاملين فيها.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: إنّ سليمان بن داود قال ذات يوم لأصحابه: إنّ الله تبارك وتعالى قد وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، سخّر لي الريح والإنس والجن والطير والوحوش، وعلّمني منطق الطير، وآتاني من كلّ شيء، ومع جميع ما أوتيت من الملك ما تمّ سروري يوماً إلى الليل، وقد أحببت أن أدخل قصري فأصعد في أعلاه فأنظر إلى ممالكي، فلا تأذنوا لأحد لئلا يرد عليّ ما ينغّص عليّ يومي.

فقالوا: نعم.

فلما كان من الغد أخذ عصاه بيده وصعد إلى أعلى موضع في قصره، ووقف متكئاً على عصاه ينظر إلى ممالكه، مسروراً بما أوتي، فرحاً بما

---

(١) أمالي الشيخ المفيد: ١٢٢.

أعطي، إذ نظر إلى شاب حسن الوجه واللباس قد خرج عليه من بعض زوايا القصر، فلما بصُر به سليمان قال: من أدخلك إلى هذا القصر وقد أردت أن أخلو فيه هذا اليوم، وبإذن من دخلت؟.

قال الشاب: أدخلني هذا القصر ربّه، وبإذنه دخلت.

فقال: ربّه أحق به منّي، فمن أنت؟.

قال: أنا ملك الموت.

قال: وفيمَ جئت؟.

قال: جئت لأقبض روحك.

قال: إمض لما أمرت به، فهذا يوم سروري، وأبى الله عزّ وجلّ أن يكون لي سرور دون لقائه.

فقبض ملك الموت روحه وهو متَّكِ على عصاه.

فبقي سليمان متوكئاً على عصاه وهو ميّت ما شاء الله، والناس ينظرون إليه، ويقدّرون أنّه حيٌّ[١].

ورواية الثعلبي: يا ملك الموت هذا يوم أردت أن يصفو لي، ولا أسمع فيه ما يغمّني.

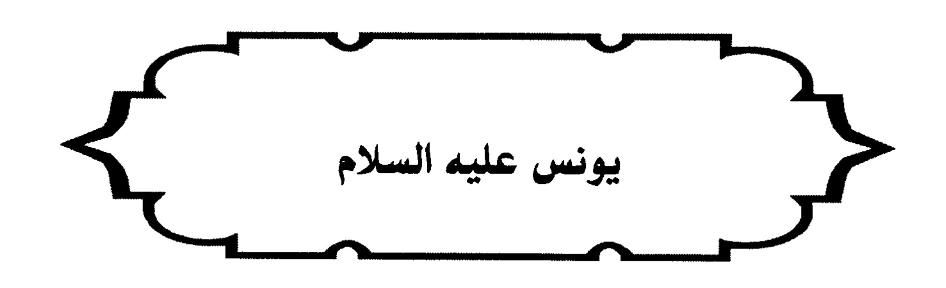
فقال: يا سليمان إنّك أردت يوماً يصفو لك فيه عيشك حتّى لا يغمك فيه شيء، وذلك يوم لم يخلق في الدنيا، فارض بقضاء ربّك فإنّه لا مردّ له.

قال: فاقبض كما أمرت[٢].

---

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٣/ ٢٤٥.

(٢) عرائس المجالس: ٣٢٧.



يونس عليه السلام

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩].

الوالد

قال الإمام الصادق عليه السلام: لا يزال العبد المؤمن يورث أهل بيته العلم والأدب الصالح حتّى يدخلهم الجنّة جميعاً، حتّى لا يفقد منهم صغيراً ولا كبيراً ولا خادماً ولا جاراً؛ ولا يزال العبد العاصي يورث أهل بيته الأدب السيىء حتّى يدخلهم النار جميعاً، حتّى لا يفقد فيها من أهل بيته صغيراً ولا كبيراً ولا خادماً ولا جاراً[1] فصلاح الآباء له الأثر الكبير في تهذيب الأبناء، فبصلاح الرجل تصلح عائلته، وبفساده يفسدون، ومع الأسف أنّنا نعلم أبناءنا الخلق السيّء من حيث نعلم أو لا نعلم، فقد يزورنا زائر لا نرغب بملاقاته فنقول للطفل: قل له: أبي غير موجود، وقد يطالبنا الدائن بتسديد حسابه فنحلف له بأنّا لا نملك ما نسدّد له دينه، في حين أنّ الطفل يعلم بأنّا نملك المبلغ، وبهذا علمناه الكذب وهو أكبر الرذائل وأعظمها جُرماً.

ونقل أحد الخمارين أنّ أطفاله يحضرون أواني الشاي، ويصب بعضهم لبعض الماء، وبعد تناولهم إيّاه يأخذون بالتمايل وفقدان الوعي كما يفعل السكران.

---

(١) دعائم الإسلام: ١/ ٨٢.

وبالعكس، فقد يتعلّم الأطفال وهم في سنّ مبكّرة بعض أفعال الصلاة، وتعاليم الإسلام الأخرى لما يشاهدونه من آبائهم، فقد يُصبح الطفل ـ وهو في الرابعة من عمره ـ ممتنعاً عن تناول طعام الافطار قائلًا: إنّي صائم، لأنّه يشاهد أباه وأمّه واخوانه الكبار يصومون.

وطالما أخذ الأدب البيتي بالطفل وهو صغير إلى صفوف العظماء وهو كبير. في هذه الصفحات نتحدّث عن بعض ما كان عليه والد نبيِّ الله يونس عليه السلام.

قال الإمام الصادق عليه السلام: إنّ داود النبي عليه السلام قال: يا ربّ أخبرني بقريني في الجنّة، ونظيري في منازلي.

فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: إنّ ذلك متّى أبا يونس، فاستأذن الله في زيارته فأذن له، فخرج هو وسليمان ابنه عليه السلام حتّى أتيا موضعه، فإذا هو ببيت من سعف، فقيل لهما: هو في السوق، فسألا عنه، فقيل لهما: أطلباه في الحطّابين، فسألا عنه، فقال لهما جماعة من الناس: تنتظران الآن حتّى يجيء، فجلسا ينتظرانه إذ أقبل وعلى رأسه وقر من حطب، فقام إليه الناس، فألقى الحطب فحمد الله وقال: من يشتري طيّباً بطيّب، فساومه واحد، وزاده آخر حتّى باعه من بعضهم، فسلّما عليه، فقال: انطلقا بنا إلى المنزل، واشترى طعاماً بما كان معه، ثم طبخه وعجنه في نقير له، ثم أججّ ناراً وأوقدها، ثم جعل العجين في تلك النار، وجلس معهما يتحدّث، ثم قام وقد نضجت خبيزته فوضعها في النقير فلفّها، وذرّ عليها ملحاً، ووضع إلى جنبه مطهرة ملأها ماءً، وجلس على ركبتيه، فأخذ لقمة، فلما رفعها إلى فيه قال: بسم الله، فلما ازدردها قال: الحمد لله، ثم فعل ذلك بأخرى وأخرى، ثم أخذ الماء فشرب منه فذكر اسم الله، فلما وضعه قال: الحمد لله يا رب، من ذا الذي أنعمت عليه وأوليته مثل ما أوليتني، قد صححت

بصري وسمعي وبدني، وقوّيتني حتى ذهبت إلى شجر لم أغرسه، ولم أهتم لحفظه، وجعلته لي رزقاً، وسقت لي من اشتراه منّي، فاشتريت بثمنه طعاماً لم أزرعه، وسخّرت لي النار فأنضجته، وجعلتني آكله بشهوة أقوى بها على طاعتك، فلك الحمد.

فقال داود لسليمان: يا بني قم فانصرف بنا، فإنّي لم أر عبداً قط أشكر لله من هذا.(١).

الرجوع إلى الله تعالى

ذكرت أيها القارىء العزيز انّ هذه القصص هي للعبرة وأخذ الدروس منها، فأوّل درس نستفيده منها هو علينا أن نرجع إلى الله تعالى مهما كانت صحائف أعمالنا سوداء، فالوالد ـ وهو أقل عطفاً على ولده من الله الخالق ـ يقبل ولده إذا جاءه معتذراً عن تفريطه، نادماً على ما سلف من تقصيره، فالله سبحانه وتعالى ـ وهو الرؤوف العطوف ـ يقبلك إذا جئته تائباً، وهو القائل: من دنا إليّ ذراعاً دنوت إليه ميلا.

فبادر رحمك الله بالرجوع إلى ربّك، ولا يمنعك عظيم ما اجترحته من المعاصي، فإنّك ترجع إلى غفور رحيم، وإنّ ذنبك مهما عظم هو دون ذنب أمّة يونس عليه السلام، لأنهم عصوه في التوحيد، والله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

ولكن عند توبتهم غفر لهم، وقبلهم أحسن قبول.

استغفار وتوبة

سمع أمير المؤمنين عليه السلام رجلًا يقول: استغفر الله، فقال له: ثكلتك

(١) تنبيه الخواطر: ١/١٩.

أمّك، أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العلّيين، وهو اسم واقع على ستة معانٍ: أوّلها: الندم على ما مضى، والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً، والثالث: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم، حتّى تلقى الله أملس، ليس عليك تبعة، والرابع: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان، حتّى تلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: استغفر الله[١].

فينبغي للتائب أن يُجهد نفسه بالطاعات كي يتأهّل للمغفرة، والدرجات الرفيعة، كما يجب عليه تأدية حقوق الناس، فقد ورد أنّ الله سبحانه وتعالى لا يغفر للعبد ـ وإن تاب ـ حقوق العباد التي قبله، إلّا إذا تنازلوا عنها. وأنت يا أخي إذا عجزت عن تأدية ما بذمتك للآخرين فاستوهبهم، واطلب منهم المسامحة.

والحديث هنا عن توبة أهل نينوى ـ قوم يونس عليه السلام ـ فعن عبدالله بن مسعود رضوان الله عليه قال: بلغ من توبة أهل نينوى أن ترادُّوا المظالم بينهم، حتّى إن كان الرجل يأتي إلى الحجر وقد وضع عليه أساس بنيانه فيقلعه ويردّه[٢].

الرأفة

اعلم رعاك الله أن أحباءك في هذه الدنيا كثيرون، فأبوك يحبّك، وأمك تحبّك، واخوانك يحبونك، وأبناؤك يحبونك، وأقرباؤك يحبّونك، وجيرانك يحبونك، وغيرهم ممن أحسنت إليهم، ولكن ربّك الذي خلقك هو أكثر حبّاً لك من هؤلاء جميعاً، فالدليل على حبّه لك هو عدم أخذه لك

---

(١) نهج البلاغة: ٥٥٠.
(٢) مجمع البيان ٥ - ٦/ ١٣٥.

عند معصيتك له، فأنت في كلّ يوم، وقد تكون في كلّ ساعة تعصيه وتخالفه، وهو في كل يوم، بل وفي كلّ ساعة يرزقك ويرعاك، وأنت قد جربت الذين يحبونك، فعندما تبدر منك بادرة سيئة إلى واحد منهم أعرض عنك، وأمّا ربّك الودود فهو مقبل عليك دائماً وفي كل الأحوال.

فمن مظاهر رأفته ورحمته جلّ جلاله ما حدث لقوم يونس عليه السلام، فقد كانوا عصاة، لم يستجيبوا لنداء السماء، ولنصائح ومواعظ نبيّهم عليه السلام.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: بعث الله يونس بن متّى إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة، فأقام فيهم يدعوهم إلى الله ثلاثاً وثلاثين سنة فلم يؤمن به إلّا رجلان، أحدهما روبيل وكان عالماً، والآخر تنوخا وكان عابداً[(١)] ولما يئس من استجابتهم دعا عليهم، فأخبر باستجابة دعائه، وأنّ العذاب نازل بهم، فلما أصبحوا تغشّاهم العذاب.

قال سعيد بن جبير: كما يغشى التراب القبر إذا دخل فيه صاحبه...

وقال وهب: أغيمت السماء غيماً أسود هائلًا، تدخن دخاناً شديداً، فهبط حتى غشى مدينتهم، واسودت أسطحتهم، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك والعذاب، فطلبوا نبيّهم يونس فلم يجدوه، فقذف الله في قلوبهم التوبة، وألهمهم الرجوع إليه، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، ولبسوا المسوح، وأظهروا الإيمان والتوبة لله، وأخلصوا النيّة، فرّقوا بين كلّ والدة وولدها من الناس والدواب والأنعام، فحنّ بعضها إلى بعض، وعلت أصواتهم، واختلط حنينهم، وعجّوا وتضرّعوا إلى الله، وقالوا: آمنا بما جاء به يونس، فرحمهم ربّهم، واستجاب دعوتهم، وقبل توبتهم، وكشف عنهم العذاب بعدما أظلّهم[(٢)].

---

(١) عرائس المجالس: ٤٠٨.

(٢) المصدر نفسه.

ويقول ابن مسعود: إنّ يونس وعد قومه العذاب، وأخبرهم أنّه يأتيهم إلى ثلاثة أيام، ففرّقوا بين كلّ والدة وولدها، ثم خرجوا فجاءوا إلى الله واستغفروا، فكشف الله عنهم العذاب[١].

هذا ويونس عليه السلام لا علم له بمآل القوم وتوبتهم، إلّا أنّه يسأل عنهم فيخبر أنّهم في أحسن حال.

ويتحدّث الثعلبي عن هذه الآونة فيقول: إنّ يونس عليه السلام مضى من عندهم فنزل قرية ليلًا، فأضافه رجل، وكان ذلك الرجل قد عمل كثيراً من الفخار، فأوحى الله إليه: يا يونس مر صاحب الفخار أن يكسر تلك الفخارات، فقال له يونس ذلك، فلما سمع منه ذلك شتمه وقال: شيء عملته بيدي أعيش منه، وأتمتّع بثمنه أنا وعيالي تأمرني بكسره؟!.

فبكى يونس، فأوحى الله إليه: هذا عمل فخاراً من طين لم تطب نفسه بكسره، وأنت طبت نفساً ووطنتها على هلاك مائة ألف أو يزيدون من عبادي[٢].

فلولا أنّه كان من المسبّحين

وقد تكون المصائب والمحن لرفع درجات العبد، وزيادة له في الخير والأجر والثواب، كما هو الحال في الأنبياء والأئمة عليهم السلام، فقد تعرّضوا لجميع مكاره الحياة ومحنها، وتجرّعوا صنوف الأذى من طواغيت زمانهم.

واعلم أنّ البلاء كما ينصب على الأنبياء والأئمة عليهم السلام كذلك يصيب

(١) عرائس المجالس: ٤٠٨.
(٢) المصدر نفسه.

الصالحين، فلا يسلم منه مؤمن، حتّى ورد في بعض الأحاديث: ما من مؤمن إلّا وله جار يؤذيه، وهو نوع من أنواع البلاء.

وصريح الأحاديث أنّ العبد كلّما ازداد إيماناً ازداد بلاءً، وذلك لأجل أن تسمو وترتفع درجاته في الجنات.

قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: مثل المؤمن كمثل كفتي ميزان، كلّما زيد في إيمانه زيد في بلائه، ليلقى الله عزّ وجلّ ولا خطيئة له[١].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: إنّ عظيم الأجر لمع عظيم البلاء، وما أحبّ الله قوماً إلّا ابتلاهم[٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن رضي اصطفاه[٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: والذي بعثني بالحقّ نبيّاً إنّ الرجل لتكونن له الدرجة في الجنّة فلا يبلغها بشيء من عمله، فيبتليه الله تعالى ليبلغ درجة لا يبلغها بعمله[٤].

وينبغي للمؤمن التوجّه إلى الله جلّ جلاله في كشف بلائه، وقد مرّ عليك في قصة إبراهيم عليه السلام حينما ألقي في النار، وقد هبط عليه جبرائيل عليه السلام وهو يقول: ألك حاجة يا إبراهيم؟.

فقال: أما إليك فلا، فجعلها جلّ جلاله عليه برداً وسلاماً.

وأيوب عليه السلام وقد اشتدّت عليه المصائب والمحن ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

---

(١) ارشاد القلوب: ١/ ١٩٩.

(٢) مشكاة الأنوار: ٢٩٨

(٣) أمالي الشيخ المفيد: ٦٣.

(٤) المستطرف: ٢/ ٢٤٤.

وما أعظم بليّة يونس عليه السلام، فقد ركب في السفينة، وبعد أن توسطت البحر عصفت بها الريح وكادت أن تغرق ، فرأوا أن يخففوا ليسلموا، فاقترعوا، فوقعت عليه القرعة، فألقى نفسه في البحر، فالتقمه الحوت ﴿**فنادى في الظلمات**﴾ ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

إنّ توجّهه إلى الله جلّ جلاله كان سبباً لنجاته، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿**فلولا أنه كان من المسبّحين**﴾ من المصلّين في حال الرخاء. فنجّاه الله عند البلاء[١] ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصّافات: ١٤٤].

لقد تداركته رحمة من ربّه فنجا من هذه المحنة العظمى، فينبغي للعبد أن يتوجّه إلى الله جلّ جلاله في كشف مصائبه وبلائه، فهو القادر على كشف ما به من ضرّ ويقتدي بأنبياء الله تعالى في التوجه إليه جلّ جلاله من في أوقات العسر والشدّة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: ولو أنّ الناس إذا زالت عنهم النعم، ونزلت بهم النِقم، فزعوا إلى الله بولهٍ في نفوسهم، وصدق من نيّاتهم، وخالص من سرايرهم، لردّ عليهم كل شارد، ولأصلح لهم كل فاسد، ولكنّهم أخلّوا بشكر النعم فسلبوها، وأنّ الله تعالى يعطي النعم بشرط الشكر لها، والقيام فيها بحقوقها، فإذا أخلّ المكلّف بذلك كان لله التغيير[٢].

وعن هشام بن سالم قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: تعرفون طول البلاء من قصره؟.

قلنا: لا.

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٤٠٤.
(٢) ارشاد القلوب: ١/ ٢٤٨.

قال: إذا ألهمتم أو أُلهِمَ أحد بالدعاء فليعلم أنّ البلاء قصير[١].

بقي أمر مهم جداً، وهو أنّ العبد إذا كان يدعو في الرخاء، يستجاب له عند الشدّة، وتقول الملائكة: صوت طالما سمعناه، وتشفع له عند الله جلّ جلاله فيشفّعها فيه.

يقول الثعلبي: فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: ربّنا إنّا نسمع صوتاً ضعيفاً معروفاً بأرض مجهولة.

قال: ذلك عبدي يونس، حبسته في بطن الحوت في البحر فقالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد لك في كلّ يوم وليلة عملاً صالحاً؟.

قال: نعم.

فشفعوا له عند ذلك[٢].

وينبغي لنا عند الشدائد والمهمات أن نتوجّه إلى الله جلّ جلاله بدعاء يونس عليه السلام في بطن الحوت **﴿لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين﴾**.

يقول سعد: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متّى.

فقلت: يا رسول الله: هي ليونس بن متّى خاصة أم لجماعة المسلمين؟.

فقال: هي ليونس خاصة، ولجماعة المسلمين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قوله تعالى: **﴿فنادى في الظلمات﴾** إلى قوله: **﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾**[٣].

---

(١) فلاح السائل: ٣٥.

(٢) عرائس المجالس: ٤١٠.

(٣) المصدر نفسه.

من مصاديق اللطف

اعلم أنّ من أسمائه جلّ جلاله (اللطيف) وأنّ ألطافه غمرت حتّى الجاحدين لربوبيّته، ومن جعلوا له شريكاً، أو عبدوا غيره.

وأنت لا تستطيع أن تعدّ المهاوي والمهالك التي ربّما كادت أن تصرم حبل حياتك أو حياة أولادك، أو تذهب بأموالك، وصرفها الله جلّ جلاله عنك.

إنّي أورد هذه القصة التي وقعت لجبّار عظيم ذكرها أهل الآثار، يتجلّى فيها اللطف الإلهي بالعباد.

فبعد أن ألقى يونس عليه السلام نفسه في البحر، والتقمه الحوت، فطاف به البحار السَّبعة حتّى إذا صار إلى البحر المسجور، وبه يعذّب قارون، فسمع قارون دويّاً، فسأل الملك عن ذلك فأخبره أنّه يونس، وأنّ الله حبسه في بطن الحوت.

فقال له قارون: أتأذن لي أن أكلّمه؟.

فأذن له، فسأله عن موسى عليه السلام، فأخبره أنه مات، فبكى، ثم سأله عن هارون عليه السلام، فأخبره أنّه مات، فبكى وجزع جزعاً شديداً، وسأله عن أخته كلثم ـ وكانت مسمّاة له ـ فأخبره أنّها ماتت، فبكى وجزع جزعاً شديداً.

فأوحى الله إلى الملك الموكّل به أن ارفع عنه العذاب بقيّة الدنيا لرقّته على قرابته[1].

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٤٠٠.

في العرض القرآني المجيد

القرآن الكريم ذكر قصّة يونس ﷺ وقومه في عدة سور كما أنّ سورة من سوره تحمل اسمه الكريم، نذكر من ذلك:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

في الوقت الذي نقرأ قصص الأمم المعذّبة يذكر القرآن الكريم أمّة كانت في متاهات الضلال، وكاد أن يحلّ بهم المكروه، وعند أوّل طلائع العذاب رجعوا إلى الله جلّ جلاله تائبين نادمين مستغفرين، فما كان منه سبحانه إلّا أن رفع عنهم العذاب، وقبل توبتهم، مع ما أعدّ لهم من نعيم الجنات.

فليس في الدنيا أمّة أذكى من أمّة يونس ﷺ، لقد سعدوا دنيا وآخرة، بينما الأمم الأخرى شقوا دنيا وآخرة، ففي الدنيا لهم العذاب والهوان، وذهاب أعمارهم وأموالهم وأولادهم، وفي الآخرة هم في أشد العذاب.

وهكذا يا أخي شأن الدنيا، فالمطيع في كلّ وقت وزمان يفوز دنيا وآخرة، ففي الدنيا يتمتّع بصحّة لا توجد عند الفاسقين(١)، وبأمان لا وجود له عند المخالفين لأحكام الله، وأهم من هذا وذاك احترام الجميع له.

ولو سلّمنا جدلًا أنّ بعض العصاة قد تمهّدت له الدنيا ونعيمها، فإنّه نعيم زائل، والنار هي مصيره الأخير.

---

(١) جاء في الحديث: إنّ الذين يموتون بالذنوب أكثر من الذين يموتون بالآجال، ومثال ذلك: ما يصيب الزناة والخمّارين من أمراض تقضي عليهم قبل أوان أجلهم، وقد تعاجلهم المنيّة فجأة، بينما ترى المطيعين يعيشون في سلام، وبمعزل عن هذا ونحوه.

نعود للآية الكريمة، ومعناها: فهلّا كان أهل قرية آمنوا في وقت ينفعهم إيمانهم؛ ذكر الله سبحانه أنّ الإيمان لا ينفع عند وقوع العذاب، ولا عند حضور الموت الذي لا يشك فيه، ولكن قوم يونس لمّا آمنوا كشف عنهم العذاب.

وعن مجمع البيان يقول الزجاج: وقوم يونس لم يقع بهم العذاب، إنّما رأوا الآية التي تدل على العذاب، فمثلهم مثل العليل الذي يتوب في مرضه وهو يرجو العافية، ويخاف الموت.

قوله: ﴿**ومتعناهم إلى حين**﴾ هو وقت انقضاء آجالهم.

١ - قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

المراد بذي النون نبي الله يونس بن متى عليه السلام، والنون: الحوت، ومعنى: مغاضباً: مراغماً لهم حين أوعدهم الله بالعذاب، وكان خروجه قبل أن يؤذن له ﴿**فظنّ أن لن نقدر عليه**﴾ لن نضيّق عليه، والظلمات: هي ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت؛ ورغم ما كان يعانيه سلام الله عليه في هذا السجن الرهيب فلم يشغله ذلك عن ذكر الله تعالى، والتوجّه إليه بحاجته، وكذلك لم ينقطع أمله بالنجاة، وأنت لا تقطع علاقتك مع الرحمن الرحيم سواءً كنت معافى أو مبتلى، خائفاً أو آمناً.

قوله: ﴿**أن لا إله إلّا أنت**﴾ لما أراد السؤال والدعاء قدَّم التوحيد والعدل، وقريب من هذا ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام: إذا كانت لك إلى الله سبحانه حاجة فابدأ بمسألة الصلاة على رسوله صلى الله عليه وآله، ثم سل حاجتك، فإنّ الله أكرم من أن يُسأل حاجتين فيقضي احداهما ويمنع الأخرى[١].

---

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٣٦١.

قوله: ﴿سبحانك﴾ تنزيهاً لك ﴿إني كنت من الظالمين﴾ أي من الذين يقع منهم الظلم، وإنّما قاله على سبيل الخشوع والخضوع، لأنّ جنس البشر لا يمتنع منه وقوع الظلم.

قوله: ﴿فاستجبنا له﴾ إنّ الذي حصل ليونس عليه السلام من النجاة هو أقرب إلى المستحيل، ولكنّ الله جلّ جلاله إذا أراد شيئاً يقول له ﴿كن فيكون﴾ تأمل في القدرة الإلهية: إنّ شخصاً يبتلعه الحوت، ويطوف به البحار، ثم يلقيه على الشاطىء أشبه ما يكون بالميّت، فينبت له الرحمن الرحيم شجرة يقطين ظلّا له من حرارة الشمس، حتّى استعاد قوّته تدريجيّاً، وعاد إلى قومه بعد أن رجعوا إلى طريق الاستقامة والسداد.

قوله: ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾ وكما أنجبنا يونس من بلاء لا يقدر على النجاة والخلاص منه أحد، كذلك ننجي المؤمنين من كلّ محنة وبلاء إذا توجّهوا إلينا.

ويُخطىء من ييمّم بحوائجه، يتقدّم بمهماته إلى سلطان أو غنيٍّ أو وجيه، ويترك التوجّه بمهماته إلى من يكشف الكرب العظام، وينجي من البأساء والضرّاء، وهو على كل شيء قدير.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩] ذكرت هذه السورة المباركة قصّة يونس عليه السلام فيما ذكرت من قصص الأنبياء عليهم السلام لقد أرسله الله جلّ جلاله إلى أهل نينوى ـ مدينة في شمال العراق، له مشهد قائم ومزار يقصد ـ فكذّبوه، وبعد مضي ثلاث وثلاثين سنة يدعوهم فيها إلى الله تعالى وهم مجمعون على الكفر، لم يؤمن به طيلة المدة إلّا رجلان، دعا على الكافرين، وأُعلم باستجابة دعائه ولكنه صلوات الله عليه خرج من المدينة قبل أن يؤذن له بالخروج، وهم بعد أن رأوا ملامح العذاب ندموا وتابوا وأخذوا في البحث عنه فلم يجدوه، فأشار عليهم أحد الاثنين

اللذين آمنا به بالخروج من منازلهم إلى الصعيد وأن يقفوا صفاً واحداً منيبين مستغفرين، وأن يفرقوا بين الأولاد والأمهات، وكذلك بالنسبة إلى الحيوانات، وأن يضجّوا إلى الله جلّ جلاله بالدعاء والبكاء فعلوا ذلك بنيّات صادقة، وتوجّه صحيح، فكشف الله جل جلاله عنهم العذاب، هذا ويونس عليه السلام لا علم له بما حصل، فقد ذهب إلى ساحل البحر ومرّت سفينة فركب فيها، وهو قوله: ﴿**إذ أبق إلى الفلك المشحون**﴾ ومعنى أبق: فرّ. والفلك: السفينة. والمشحون: المملوء من الناس والمتاع، وحدثت له المفاجأة الغريبة سارت السفينة تمخر في البحر واشتدّت عليها العواصف حتّى أشرفوا على الغرق، فرأوا أنّهم إذا ألقوا واحداً منهم في البحر سلم الباقون، وحينئذٍ اقترعوا ـ أجروا القرعة ـ وهو المراد بقوله: ﴿**فساهم**﴾ فوقعت القرعة عليه ﴿**فكان من المدحضين**﴾ المقروعين، فعندها ألقى بنفسه في البحر، والتقمه الحوت فوراً ﴿**فالتقمه الحوت وهو مليم**﴾ ومعنى مليم: ملوم، وهو لوم عتاب، لخروجه قبل الاذن، لا لوم عقاب، لأنّ الأنبياء عليهم السلام جميعهم معصومون منزّهون عن ارتكاب المآثم، وحيث إنّ مرتبتهم سامية يضرّ بهم ما لا يضر غيرهم من الناس، بقي عليه السلام في جوف الحوت مدة ربّما كانت أسبوعاً، ثم ألقاه بعدها على الساحل حيّاً، وهذا من أدلّة القدرة إذ لم تجر العادة بمثله أبداً.

قوله تعالى: ﴿**وأنبتنا عليه شجرة من يقطين**﴾ وهذا أيضاً مظهر من مظاهر القدرة الإلهية، لقد ألقاه الحوت كهيئة فرخ ليس عليه ريش، فأنبت له القادر العظيم في تلك اللحظة شجرة قرع في تلك الأرض الجرداء ليستظلّ بأوراقها لتحميه من حرارة الشمس، ويقول الطبري: وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، وهو فيما ذكر شجرة القرع، تتقطّر عليه من اللبن حتّى رجعت إليه قوّته، ثم رجع ذات يوم إلى الشجرة فوجدها قد يبست،

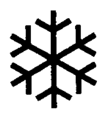
فحزن وبكى عليها، فعوتب، فقيل له: أحزنت على شجرة وبكيت عليها ولم تحزن على مائة ألف أردت هلاكهم جميعاً[١].

وبعد أن استعاد نشاطه وقوّته أرسله الله جلّ جلاله إلى محله الأول (نينوى) بعد أن تابوا واستقاموا، فمكث فيهم موجّهاً ومرشداً، وهو المراد بقوله: ﴿**وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون**﴾ ومعناه: لو نظر إليهم الناظر لقال: هم مائة ألف أو يزيدون.

قوله تعالى: ﴿**فآمنوا فمتّعناهم إلى حين**﴾ متّعهم الله جلّ جلاله بالدنيا بجميع ما يتمتّع به أهلها، وعاشوا بأعمارهم الطبيعيّة، وأعظم من ذلك ما أعدّ الله سبحانه لهم من نعيم، لقد سعدوا دنيا وآخرة، بينما نرى غيرهم من الأمم العاصية شقوا في الدنيا والآخرة، وهذه نتيجة حتميّة جعلها سبحانه وتعالى للمطيعين والعاصين.

قوله تعالى ﴿**فلولا أنه كان من المسبّحين**﴾ فيونس عليه السلام وهو في بطن الحوت كان يسبّح الله جلّ جلاله، وتسبيحه ﴿**أن لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين**﴾ ولولا هذا التسبيح ﴿**للبث في بطنه إلى يوم يبعثون**﴾ لكان هذا مصيره الأخير حتّى القيامة، ولكن ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وعلّق الطبري على الموضوع: وذلك أنّ العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر[٢].



(١) تاريخ الطبري: ١/ ٤٦٠.

(٢) تاريخ الطبري: ١/ ٤٦٠.

عزير عليه السلام

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] على الخلق كلّهم، ولا عذر لأحد منهم في التخلّف عن المسار الذي أمرهم بسلوكه؛ لقد أرسل سبحانه وتعالى إليهم الأنبياء، وأنزل عليهم الكتب، وأوضح لهم معالم الهدى والرشاد، ومضافاً لكل ذلك فبين فترة وأخرى يُظهر لهم ما يزيدهم إيماناً ويقيناً، ولكي تطمئن قلوبهم بذكر الله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: ٢٨] فتارة يبعث إليهم أصحاب الكهف بعد أن ناموا ثلاثة قرون، وتارة يحيي لهم ميّتاً بعد موت استغرق مائة عام، ليعلموا ويتيقّنوا أنّ الذي أحيى هؤلاء قادر على أن يحيي البشرية بأسرها وما ذلك على الله بعزيز.

وحتّى في عصرنا، فإن هذه الألواح التي وجدت في روسيا من بقايا سفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، والكتابات التي عليها، ومع تعتيم الإعلام عليها فهي من المعالم التي تدعو للإيمان بالله ورسوله.

والحجّة اليوم على جميع أهل الدنيا بالقرآن الكريم، كتاب الله الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصّلت: ٤٢].

إنّه يتحدّى البشرية منذ خمسة عشر قرناً على أن يأتوا بسورة من مثله ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

إنّ الذي حدا بالمجتمع إلى البعد عن النهج الذي أمروا به هوى النفس وملذاتها، وتعلّقها بالدنيا، أضف إلى ذلك شيطان مريد، نصب لهم فخاخه، وألقى بثقله في صدّهم عن الهدى.

نعود للعرض القرآني المجيد فيما جاء في عزير عليه السلام ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

وهذا من أغرب الأشياء وأعجبها، فهب أنّ المشركين جعلوا لله جلّ جلاله الأولاد والشركاء، فما بال أهل الديانات السماوية؟!.

إنّ من العجب أن يأتي شخص إلى الناس مرشداً ومعلّماً للهداية والصلاح، يدعوهم إلى عبادة الله جلّ جلاله، وهم يرونه في أتم العبودية والخضوع والخشوع لله جلّ جلاله، ثم هم بعد هذا يؤلّهونه ويعبدونه، ويجعلونه ابناً لله جلّ جلاله **﴿تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً﴾**.

إنّ هذا السلوك المستهجن مما عُرف به الاسرائيليون؛ وإنّ من المؤسف أنّ رجال الدين لكلٍّ من الأمتين نزلوا بمجتمعهم بدلًا من أن يرفعوهم، وقرّبوهم للوثنيّة اعتقاداً منهم أنّهم بالاستقامة يفقدون دنيا وزعامة، فضلّوا وأضلّوا.

نعود للآية الكريمة: **﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله﴾** ويدل على أنّ هذا مذهب جميع اليهود لأنّهم لم ينكروا ذلك لمّا سمعوا هذه الآية، مع شدّة حرصهم على تكذيب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم **﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم﴾** إنّهم اخترعوا ذلك القول بأفواههم، لم يأتهم به كتاب ولا رسول، وليس عليه حجة ولا برهان، ولا له صحة **﴿يضاهئون﴾** يشابهون **﴿قول الذين كفروا﴾** يعني عبدة الأوثان في عبادتهم اللات والعزّى **﴿من قبل﴾** شبّه كفرهم بكفر الذين مضوا من الأمم الكافرة، **﴿قاتلهم الله﴾**

لعنهم الله ﴿أنّىٰ يؤفكون﴾ كيف يصرفون عن الحقّ إلى الإفك الذي هو الكذب ﴿اتَّخذوا أحبارهم﴾ علماءهم ﴿ورهبانهم﴾ عبّادهم ﴿أرباباً من دون الله﴾ وعن مجمع البيان روي عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليه السلام أنهما قالا: أما والله ما صاموا ولا صلّوا لهم، ولكنهم أحلّوا لهم حراماً، وحرّموا عليهم حلالًا فاتبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: ليست العبادة هي السجود ولا الركوع، وإنّما هي طاعة الرجال، من أطاع مخلوقاً في معصية الخالق فقد عبده[1].

وروى الثعلبي بإسناده عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وفي عنقي صليب من ذهب، فقال لي: يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك، قال: فطرحته، ثم انتهيت إليه وهو يقرأ من سورة براءة هذه الآية: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً﴾ حتّى إذا فرغ منها فقلت له: إنّا لسنا نعبدهم فقال: أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه ويحلّون ما حرَّم الله فتستحلونه؟.

فقلت: بلى.

قال: فتلك عبادتهم.

قوله: ﴿والمسيح ابن مريم﴾ اتخذوا المسيح إلهاً من دون الله ﴿وما أمروا إلّا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ معبوداً واحداً هو الله تعالى ﴿لا إله إلّا هو﴾ لا تحق العبادة إلّا له، ولا يستحق العبادة سواه ﴿سبحانه﴾ تنزيهاً له ﴿عما يشركون﴾ عن شركهم وعمّا يقولونه وعمّا لا يليق به.

ثم أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفّار من اليهود والنصارى أنهم ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله﴾ وهو القرآن والإسلام ﴿بأفواههم﴾ لأنّ

---

(١) تفسير القمي: ٢/ ٥٤.

الإطفاء يكون بالأفواه، وهو النفخ، وهذا من عجيب البيان مع ما فيه من تصغير شأنهم، وتضعيف كيدهم، لأنّ الفم يؤثّر في الأنوار الضعيفة دون الأقباس العظيمة **﴿ويأبى الله إلّا أن يتمّ نوره﴾** ويمنع الله إلّا أن يظهر أمر القرآن، وأمر الإسلام **﴿ولو كره الكافرون﴾** على كرهٍ من الكافرين **﴿هو الذي أرسل رسوله﴾** محمداً، وحمّله الرسالات التي يؤدّيها إلى أمّته **﴿بالهدى﴾** بالحجج والبيّنات والدلائل والبراهين **﴿ودين الحقّ﴾** هو الإسلام، وكل دين سواه باطل، يستحقُّ به العقاب **﴿ليظهره على الدين كلّه﴾** ليعلي دين الإسلام على جميع الأديان بالحجّة والغلبة والقهر لها، حتّى لا يبقى دين على وجه الأرض إلّا مغلوباً، ولا يغلب أحد أهل الإسلام بالحجّة، وهم يغلبون سائر الأديان بالحجّة، وأمّا الظهور بالغلبة فهو انّ كل طائفة من المسلمين قد غلبوا على ناحية من نواحي أهل الشرك، ولحقهم قهر من جهتهم **﴿ولو كره المشركون﴾** وإن كرهوا هذا الدين، فإنّ الله يظهره رغماً لهم.

ثم عاد سبحانه إلى التحذير من الأَحبار والرهبان، فقال: **﴿يا أيتها الذين آمنوا إنّ كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾** يأخذون الرشى على الحكم **﴿ويصدّون عن سبيل الله﴾** يمنعون غيرهم عن اتباع الإسلام الذي هو سبيل الله.

صوت الحق

لقد عانى أئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام الكثير من الحكام الظالمين، لقد تتبّعوهم قتلاً وسجناً وتشريداً، ورغم ما قوبلوا به من شدّة واضطهاد، فقد كانوا يستغلّون كل فرصة تمرُّ بهم سواء كانوا في حضر أو سفر لنشر العلم، ورفع راية الإسلام، والذبّ عن شريعة سيد المرسلين محمد ﷺ؛ وأنت إذا تأملت كلمة الحسن بن علي الوشا: أدركت في

هذا المسجد يعني مسجد الكوفة ـ تسعمائة شيخ كلٌ يقول: حدّثني جعفر بن محمد[١]، أدركت ما كانوا فيه من التبليغ، ونشر العلم، وكيف كانوا يستغلّون أسفارهم التي اضطروا إليها للتعليم والهداية.

إنّ الإمام الصادق عليه السلام ولد وعاش بالمدينة المنوّرة، وإنّما كان يأتي الكوفة حيث يستقدمه المنصور العبّاسي إلى العراق وكذلك انتشرت علوم أهل البيت عليهم السلام في إيران عندما استقدم المأمون العبّاسي الإمام الرضا عليه السلام إليها واستقدم هشام بن عبد الملك الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام إلى الشام لأجل أن يحطّ من مقامه السامي، ومكانته في الأوساط الإسلامية، ويأبى الله له ذلك، فانتشرت علومه في الشام، وحتّى في البلاط الأموي، ونحن نقتصر هنا على ذكر قصّة وقعت له صلوات الله عليه في تلك الرِّحلة تتعلّق بالموضوع.

قال الشيخ القمي: حدثني أبي، عن إسماعيل بن أبان، عن عمر بن عبدالله الثقفي، قال: أخرج هشام بن عبد الملك أبا جعفر محمد بن علي زين العابدين عليه السلام من المدينة إلى الشام، وكان ينزله معه، فكان يقعد مع الناس في مجالسهم، فبينما هو قاعد وعنده جماعة من الناس يسألونه إذ نظر إلى النصارى يدخلون في جبل هناك، فقال: ما لهؤلاء القوم، ألهم عيد اليوم؟.

قالوا: لا يا بن رسول الله، ولكنّهم يأتون عالماً لهم في هذا الجبل في كل سنة في مثل هذا اليوم، فيخرجونه ويسألونه عمّا يريدون، وعما يكون في عامهم. قال أبو جعفر عليه السلام: وله علم؟.

فقالوا: هو من أعلم الناس؛ قد أدرك أصحاب الحواريين من أصحاب عيسى عليه السلام.

---

(١) ضحى الإسلام: ٣/ ٢٦٣.

قال لهم: نذهب إليه.

فقالوا: ذاك إليك يا بن رسول الله.

قال: فقنّع أبو جعفر رأسه بثوبه، ومضى هو وأصحابه فاختلطوا بالناس حتّى أتوا الجبل.

قال: فقعد أبو جعفر وسط النصارى هو وأصحابه، فأخرج النصارى بساطاً، ثم وضعوا الوسائد، ثم دخلوا فأخرجوه، ثم ربطوا عينيه، فقلب عينيه كأنّهما عينا أفعى، ثم قصد أبا جعفر عليه السلام فقال: أمنّا أنت أم من الأمّة المرحومة؟.

فقال أبو جعفر عليه السلام: من الأمّة المرحومة.

فقال: أمن علمائهم أنت أم من جهّالهم؟.

قال: لست من جهالهم.

قال النصراني: أسألك أو تسألني؟.

فقال أبو جعفر عليه السلام: سلني.

فقال: يا معشر النصارى، رجل من أمّة محمد يقول: اسألني، إنّ هذا لعالم بالمسائل، ثم قال: يا عبدالله أخبرني عن ساعة ما هي من الليل ولا هي من النهار، أي ساعة هي؟.

قال أبو جعفر عليه السلام: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

قال النصراني: فإذا لم تكن من ساعات الليل ولا من ساعات النهار، فمن أيّ الساعات هي؟.

قال أبو جعفر عليه السلام: من ساعات الجنة، وفيها تفيق المرضى.

فقال النصراني: أصبت، فأسألك أو تسألني؟.

قال أبو جعفر عليه السلام: سلني.

قال: يا معشر النصارى إنّ هذا لمليء بالمسائل، أخبرني عن أهل الجنّة كيف صاروا يأكلون ولا يتغوّطون؟ أعطني مثله في الدنيا.

فقال أبو جعفر عليه السلام: هذا هو الجنين في بطن أمه، يأكل ممّا تأكل أمّه ولا يتغوّط.

قال النصراني: أصبت؛ ألم تقل ما أنا من علمائهم؟!.

قال أبو جعفر عليه السلام: إنّما قلت لك: ما أنا من جهّالهم.

قال النصراني: فأسألك أو تسألني؟.

قال أبو جعفر عليه السلام: سلني.

قال: يا معشر النصارى لأسألنّه مسألة يرتطم فيها كما يرتطم الحمار في الوحل.

فقال له: سل.

قال: أخبرني عن رجل دنا من امرأته فحملت منه بابنين، حملتهما جميعاً في ساعة واحدة، ووضعتهما في ساعة واحدة، وماتا في ساعة واحدة، ودفنا في ساعة واحدة، في قبر واحد، عاش أحدهما خمسين ومئة سنة، وعاش الآخر خمسين سنة، من هما؟ قال أبو جعفر عليه السلام: هما عزير وعزرة، كانت حملت أمهما على ما وصفت، ووضعتهما على ما وصفت، وعاش عزرة وعزير ثلاثين سنة، ثم أمات الله عزيراً مائة سنة، وبقي عزرة حيّ، ثم بعث الله عزيراً فعاش مع عزرة عشرين سنة، وماتا جميعاً في ساعة واحدة، فدفنا في قبر واحد.

قال النصراني: يا معشر النصارى ما رأيت أحداً قط أعلم من هذا الرجل، لا تسألوني عن حرف وهذا بالشام، ردّوني إلى كهفي، فردّوه إلى كهفه، ورجع النصارى مع أبي جعفر عليه السلام [1].

من الوحي

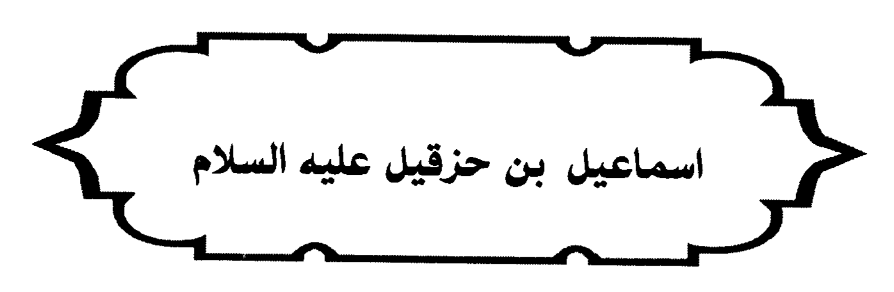
من خلال أحاديث الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وأهل بيته عليهم السلام وصل إلينا بعض ما أوحاه الله جلّ جلاله إلى أنبيائه ورسله عليهم السلام.

وهذا التراث النفيس هو حجّة على الخلق، ودعوة لهم للاستقامة على النهج القويم.

نعود فنذكر رواية القطب الراوندي: أوحى الله عزّ وجلّ إلى عزير: إذا وقعت في معصية فلا تنظر إلى صغرها، ولكن انظر من عصيت، وإذا أوتيت رزقاً منّي فلا تنظر إلى قلّته، ولكن انظر من أهداه، وإذا نزلت بك البليّة فلا تشكُ إلى خلقي، كما لا أشكوك إلى ملائكتي عند صعود مساوئك وفضائحك [2].



(١) تفسير القمي: ١/ ١٢٦.
(٢) الدعوات: ١٦٩.



اسماعيل بن حزقيل عليه السلام

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: ٥٤] قال الإمام الصادق عليه السلام: وليس هو إسماعيل بن إبراهيم، على نبيّنا وعليهما السلام(١).

١ - صفات الكمال

بعث الله أنبياءه ورسله بمعالي الأخلاق، ومحاسن الصفات، فقد روى أصحاب الحديث قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق(٢) لقد علّموا الناس على الأخلاق الرفيعة، والسجايا الفاضلة بأعمالهم قبل ألسنتهم، لأن التعليم بالأعمال أوقع في النفوس، وأبلغ أثراً من التعليم بالأقوال.

٢ - صادق الوعد

فقد حدث لنبيِّ الله إسماعيل عليه السلام أمر غريب، فقد ذكر المفسّرون وأهل السير أنّه وعد وعداً فانتظر صاحبه سنة(٣).

وشكر الله سبحانه له هذا الموقف، وأثنى عليه في كتابه العزيز.

وجاءت أحاديث الصادقين صلوات الله عليهم لتؤكّد على الالتزام بالوعد، والوفاء بالعهد، فمن ذلك:

---

(١) أمالي الشيخ المفيد: ٤٠

(٢) الأخلاق: ١٢.

(٣) تفسير القمي ٢/ ٥٠.

قال أبو مالك: قلت لعليّ بن الحسن عليه السلام: أخبرني بجميع شرائع الدين.

قال: قول الحق، والحكم بالعدل، والوفاء بالعهد(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له(٢). ثم أنّ خلف الوعد في مفهوم الإسلام من امارات النفاق.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان(٣).

٣ - كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة

وبجميع أفعال الخير، وإنّما خصّ الصلاة والزكاة اهتماماً بأمرهما وأنهما أهم معالم الدين، وأجل الوظائف الدينية، وأنّ بقية التكاليف تليهما في المنزلة والرتبة، والحديث المتسالم عليه في الصلاة: (إن قبلت قبل ما سواها، وإن ردّت ردّ ما سواها).

إن قبلت تقبل بها الأعمال وإن ترد ردّ كل ما عمل

فعلى المسلم أن يهتم بأدائها غاية الاهتمام، وأن يقتدي بنبيّ الله في أمر ذويه وأهله بإقامتها، والمحافظة عليها، لأنّه مسؤول عن ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التّحريم: ٦].

---

(١) روضة الواعظين ٢/ ٣٧٧

(٢) النوادر: ٥.

(٣) المستطرف: ٢٠٦.

٤ - البلاء

والحديث الشريف: (أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل والأمثل) والمعنى: أنّ المؤمنين والمتقين، ومن سمت مراتبهم هم أكثر الناس بلاءً في الدنيا قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: مثل المؤمن كمثل كفتي ميزان، كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه، ليلقى الله عزّ وجلّ ولا خطيئة له[١].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: إنّ عظيم الأجر لمع عظيم البلاء، وما أحبّ الله قوماً إلّا ابتلاهم[٢].

وذلك لأجل أن ترتفع درجته، وتسمو مرتبته، فالجنة درجات بعضها أسمى وأفضل من بعض، وفي بعض الروايات أنها على عدد آيات القرآن الكريم، فيقال للمسلم: اقرأ وارقَ[٣].

وثمة شيء آخر: إن صاحب الدرجة العليا يمكنه أن ينزل لمن هو دونه، أمّا الأدنى فلا يمكنه الصعود؛ ومصائب الدنيا ومحنها وبلائها سلّم الصعود ومدارج الكمال والرفعة.

إنّ الكثير من أنبياء الله ورسله لاقوا حتفهم على أيدي الطغاة والجبّارين، وحتّى ورد أنّ بني اسرائيل كانوا يقتلون في كلّ يوم سبعين نبيّاً[٤].

وذكر المفسّرون أنّ نبيّ الله إسماعيل عليه السلام بعثه الله إلى قومه، فسلخوا جلدة وجهه، وفروة رأسه، فخيّره الله في ما شاء من عذابهم فاستعفاه، ورضي بثوابه، وفوّض أمرهم إلى الله تعالى في عفوه وعقابه.

---

(١) ارشاد القلوب ٢/ ١٩٩.
(٢) مشكاة الأنوار ١/ ٢٩٨.
(٣) بحار الأنوار ٩٢/ ١٩٨.
(٤) روضة الكافي: ١٠١.

٥ - اسوة بالحسين عليه السلام

والبشرية منذ يومها الأوّل في بعد عن مسار الحقّ، تتردّى في الخطايا، وتتعثّر في الضلال، لقد رصدهم عدوّهم الشيطان، ألا تسمعه يقول: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

إنّ من مظاهر طغيان البشر، وبعدهم عن خط السماء هو قتلهم للأنبياء عليهم السلام، فمن زكريا إلى يحيى إلى إسماعيل، إلى عدد كبير لا يعلم بهم إلّا الله جلّ جلاله.

ويتفنن الطغاة في كيفية قتل الرسل، فأصحاب الرسّ رسّوا نبيّهم في البئر، وبنو اسرائيل نشروا بالمنشار الشجرة التي اختبأ فيها زكريا عليه السلام، وقوم إسماعيل كشطوا جلدة وجهه وفروة رأسه.

قال الإمام الصادق عليه السلام: فبعث الله إليه ملكاً فقال له ربّ العالمين يقرئك السلام ويقول: قد رأيت ما صنع بك قومك فسلني ما شئت، فقال: يا ربّ العالمين لي بالحسين بن علي بن أبي طالب اسوة[1].

ولو سأل سائل من أين علم إسماعيل عليه السلام بالحسين عليه السلام وما يجري عليه وبينهما آلاف السنين؟.

نجيبه: أنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا على علم بمحمد وأهل بيته صلوات الله وسلامه عليهم، وما يجري عليهم، وسبق أن وضحنا ذلك.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥].

وأوّل صفة وصف الله جلّ جلاله هؤلاء الرسل هي صفة الصبر، فقد كانوا صلوات الله عليهم يتحلّون بها، ولولاها لما بلغوا هذه المرتبة العظيمة من رضوان الله تعالى، وتبليغ الرسالة؛ فبالصبر تُنال المراتب الرفيعة،

---

(١) أمالي الشيخ المفيد: ٤٠.

ويبلغ العبد فوق ما يحلم به من نعيم وسعادة كما في الآية الكريمة **﴿إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾** وليس الصبر سلّماً يُرتقى به إلى الجنان فحسب، بل هو سلّم يبلغ به العبد السعادة الدنيويّة أيضاً، فأنت لو لم تصبر سنين المدرسة كنت جاهلًا أميّاً، والمريض إذا لم يصبر على مرّ العلاج لم يبرأ، والفلاح إذا لم يصبر على حرارة الشمس، ويعاني جهد العمل لم يحصل على الثمر.

ومعنى الآية الكريمة: أنّ هؤلاء الأنبياء عليهم السلام صبروا على المعاناة في تبليغ الرسالة، كما صبروا على البلاء، والطاعة.

١ - **﴿وأدخلناهم في رحمتنا﴾** أدخلنا هؤلاء الذين ذكرناهم من الأنبياء في نعمتنا، والمراد: غمرناهم بالرحمة وهذه هي بعض المكافاة التي كانت لهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، تثميناً لإيمانهم وصبرهم، وجهودهم الخيّرة في سبيل الاصلاح والدعوة إلى الله وتعالى.

وأنت ـ رعاك الله وسدّدك ـ تقدّم نحو الله جلّ جلاله باداء ما افترضه عليك، واجتناب ما نهاك عنه، فسيدخلك حتماً في رحمته، ويغمرك بعطائه دنيا وآخرة.

٣ - **﴿إنّهم من الصالحين﴾** وصفهم سبحانه وتعالى أولًا بالصبر، ثم بالصلاح، وهو ضد الفساد، والمراد: إنّما أدخلناهم في رحمتنا لأنّهم كانوا ممن صلحت أعمالهم.

وأهم شيء يُطالب به العبد ـ وهو جواز النجاة من أهوال القيامة ـ هو صلاح الأعمال.

فأعمال العبد جميعها مدوّنة، ويتلقّاها في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها، فينبغي للمسلم أن يحرص كل الحرص على أن يصلح أعماله، ليسرَّ بها غداً ويسعد.

زكريا ويحيى عليهما السلام

في هذه الصفحات ملامح قليلة من حياة نبيِّ الله زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، تبدأ بالعرض القرآني المجيد، وتنتهي بشهادتهما عليهما السلام.

١ - ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وبعد أن تناولت السورة قصة مريم وكفالة زكريا عليه السلام لها، وما رأى من كرامة الله جلّ جلاله لها، فعندها رغب في الولد.

لقد كان سلام الله عليه في سنٍّ غير قابلة للانجاب، فعمره مائة وعشرون سنة، وعمر زوجته ثمان وتسعون سنة[١] لكنّه توجّه للرحمن الرحيم أن يرزقه ولداً، وأن يبارك له في هذا العطاء.

قوله: **﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلّي في المحراب﴾** استجاب الله دعاءه. وبشّرته الملائكة بذلك أثناء صلاته **﴿إنّ الله يبشّرك بيحيى﴾** سمّاه الله جلّ جلاله بهذا الاسم قبل أن يولد **﴿مصدّقاً بكلمة من الله﴾** مصدّقاً بعيسى **﴿وسيّداً﴾** في العلم والعبادة **﴿وحصوراً﴾** وهو الذي لا يأتي النساء، ومعناه: أنّه يحصر نفسه عن الشهوات ويمنعها **﴿ونبيّاً من الصالحين﴾** رسولًا شريفاً، رفيع المنزلة.

قوله: **﴿أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر﴾**.

وبعد البشارة يستفهم سلام الله عليه عن الكيفيّة التي سيحصل له بها

---

(١) مجمع البيان: ١ - ٢/ ٤٣٩.

الولد، وهو وزوجته في مثل هذا العمر، هل أنّهما يعودان إلى دور الشباب والإنجاب، أم في هذه الحال؟.

وجاءت الاجابة: **﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾** أي على تلك الحال، إنكما ستزرقان الولد وأنتما على هذه الكيفيّة من الضعف والشيخوخة والعقم، وأنّ ذلك هيّن على الذين أنشأكما ولم تكونا شيئاً.

قوله: **﴿قال ربّي اجعل لي آية﴾** سأل الله سبحانه وتعالى علامة للحمل والولد فأخبره سبحانه بذلك، والعلامة: هي إمساك لسانه عن الكلام إلّا إيماءً من غير آفة حدثت فيه من إمكانه النطق بذكر الله تعالى **﴿قال آيتك﴾** علامتك **﴿أن لا تكلّم الناس ثلاثة أيام إلّا رمزاً﴾** إيماءً **﴿واذكر ربّك كثيراً﴾**، في هذه الأيام الثلاثة، إنّه لما منع من الكلام عرف أنّه لم يمنع من الذكر لله تعالى، والتسبيح له، وذلك أبلغ في الإعجاز. **﴿وسبّح﴾** ونزّه الله **﴿بالعشيّ والإبكار﴾** في آخر النهار وأوله.

إنّ الإعجاز الذي تجلّى في ولادة عيسى عليه السلام وكلامه في المهد، والذي ظهر بأروع صورة في ولادة يحيى عليه السلام، من أبوين عقيمين قد طعنا في السن، ويستحيل عليهما الانجاب، كل هذا من أجل تليين قلوب الاسرائيليين القاسية، ولكي تقرّبهم ـ ولو قليلًا ـ إلى الاستقامة، ولكن هيهات ثم هيهات، فليست هاتان الولادتان بأعظم مما شاهدوه من معجزات موسى عليه السلام، بداية من العصا، وختاماً بالآيات التسع، فما زادتهم إلّا شقاقاً وبعداً عن طريق الحق، حتّى تعالى بغيهم في عبادة العجل.

☼

٢ - **قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾** [مريم: ٣] في هذه السورة المباركة عرض لقصة نبيِّ الله زكريا عليه السلام، يتجلّى فيها الإعجاز الإلهي والعبر.

إنّ أوّل شيء نتعلمه من هذه القصّة هو التوجّه إلى الله تعالى عند كلّ شدّة وملمّة، والشكوى إليه ـ دون خلقه ـ عند كلّ بليّة ونازلة، فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، وهو الذي يفرّج عن المكروبين قوله: ﴿**واجعله ربّي رضيّا**﴾.

الكل منّا يدعو ربّه أن يرزقه أولاداً، ولكنّا لم نسمع أحداً يطلب الولد ويطلب له الصلاح، إنّ ذكر الولد ينسيه ذكر شيء غيره، في حين أنّ الصلاح أهم بكثير من الولد، إنّ حرمانه أفضل بكثيرٍ من وجوده ضالّاً، بعيداً عن تعاليم السماء.

وأنت إذا تركت زكريا عليه السلام وتأملت دعاء أم مريم عليها السلام حين ولادتها: ﴿**فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ**﴾[1] [آل عمران: ٣٦].

لمّا بشّر نبيُّ الله بالولد أحبّ أن يستفسر: هل يرزقان الولد وهما في شيخوختهما أم يعيدهما الله جلّ جلاله شابين ﴿**قال أنّى يكون له غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً**﴾ فأجيب ﴿**هو عليّ هيّنٌ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا**﴾ وهذا نظير ما وقع لإبراهيم عليه السلام وزوجته العاقر العجوز، فالله جلّ جلاله لا يعجزه شيء، وهو على كل شيء قدير ﴿**وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**﴾ [البقرة: ١١٧].

قوله: ﴿**فخرج على قومه من المحراب**﴾.

المحراب: المكان الذي يُصلّى فيه، سمّي بذلك لأنّ المصلّي في حرب مع الشياطين. يُحكى عن أحد التجار الأتقياء، ربّما جاءه مشترٍ وقد نسي البضاعة التي جاء لشرائها، فيقول له: اذهب للمسجد وصلّ ركعتين

---

(١) ومعناه بلغتهم: العابدة.

فستذكر، يريد أنّ الشيطان لا يدعك تصليهما بتوجّه، إنّه يذكّرك بكل ما وقع في يومك من مهمّ وتافه؛ فينبغي التحرز منه، والمحاولة من التفلّت من قبضته، سيّما في الصلاة.

قوله: ﴿**وآتيناه الحكم صبيّاً**﴾ من هذا وغيره يظهر أنّ النبوّة والإمامة من مواهب الله جلّ جلاله، يخصُّ بها بعض عباده، لما سبق من علمه بإخلاصهم، وأن لا مدخليّة للعمر في ذلك، فيحيى عليه السلام آتاه النبوة في صباه، وعيسى عليه السلام تكلم في يوم ولادته: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

قوله: ﴿**وكان تقيا**﴾ إنّ هذا التكريم الذي مرّ عليك أيّها المسلم ليحيى عليه السلام بسبب كونه تقيّاً، مراقباً لله تعالى، عاملًا بأوامره، منتهيّاً عما نهى عنه.

فبالتقوى ترتفع وتسمو منزلة العبد عند المولى جلّ شأنه، ويحصل على المراتب الرفيعة في الدنيا ومن ذلك الذكر الخالد، ويحصل في الآخرة على الجنّة وليس فوقها عطاء.

قوله: ﴿**وبرّاً بوالديه**﴾ وبر الوالدين، والإحسان إليهما مما أكّد عليه الإسلام، وأمر به القرآن الكريم، فينبغي للمسلم أن يرعى ذلك ويهتم به اهتماماً عظيماً؛ ومضافاً لما في بر الوالدين من أجر عظيم فإنّ البار بوالديه يكون ابنه بارّاً به، كذلك العقوق، فبالاضافة لما فيه من العقاب يكون ابنه عاقاً له، فمثلما تُدين تُدان.

قوله: ﴿**وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا**﴾.

وسلامة وأمان له منّا، ومعناه: وأمن له يوم ولد: من عبث الشيطان به، واغوائه إيّاه، **ويوم يموت**: من عذاب القبر، **ويوم يبعث حيّاً**: من هول المطلع وعذاب النار.

وتنبّه أيضاً رعاك الله إلى الآية الكريمة التي حكت قول عيسى عليه السلام ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣].

والمراد: هو السلامة والنجاة من حبائل الشيطان ومكائده، لأنّ من سقط فيها انشدّ إليها حتى القيامة ولزمته تبعته حتّى توردَه النار.

٣ - ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩] هذا دعاء زكريا عليه السلام حين رأى مريم عليها السلام وكرامتها على الله جلّ جلاله، رغب في الولد وطلب أيضاً أن يكون صالحاً ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨] وقوله سلام الله عليه ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦].

قوله ﴿**فاستجبنا له**﴾ والذي حصل عليه نبيُّ الله زكريّا عليه السلام من المستحيل حصوله، فهو في عمر بعيد جداً عن الانجاب، ألا تسمعه يقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤] وكذلك زوجته، فمضافاً لعقمها فقد تخطّت عمر الانجاب بأكثر من خمسين سنة، ألا تسمعه يقول: ﴿**وأصلحنا له زوجه**﴾ ولكنّهُ الفعّال لما يشاء، وهو الذي خلق من الطين بشراً، وخلق عيسى من غير أب استجاب لزكريا عليه السلام وهو في مثل هذه الحال.

وأنت سلمك الله لا تيأس من الفرج عندما تتلاحم عليك حلقات البلاء والنكبات، ويضيق عليك المخرج، بل عليك إن اشتدّ بك الحال أن تتوجّه إلى قاضي الحاجات بحاجتك، وتنزل به مسألتك، فإنّه أرحم الراحمين، وأكرم من سُئل.

قوله: ﴿**ووهبنا له يحيى**﴾ وعطاء الله جلّ جلاله لا يمكن الإحاطة بأبعاده، ولا يُقاس أبداً بعطاء الخلق، لقد أعطى الشيخ الهرم وزوجته

العجوز العقيم ولداً، ولم يرضه لهم كسائر الأولاد، بل جعله نبياً كريماً سيّداً؛ وطالما يعطي الله عباده ما سألوه وطلبوه منه وما لم يسألوه، كمن يسأل الله تعالى بيتاً فيعطيه بيتاً وبستاناً، أو يسأله زوجة، فيعطيه زوجة وأموالًا ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الاسراء: ٢٠].

إنّ هذا العطاء وهذه المكرمات التي حصلت لزكريا ويحيى عليهما السلام من أجل ﴿**إنّهم كانوا يسارعون في الخيرات**﴾ ويبادرون إلى الطاعات والعبادات؛ وأنت أعزّك الله ورعاك سارع لعمل الخير بكلّ قواك، وادخر ذلك ليوم فقرك وحاجتك.

قال سفيان بن عيينة: رأى الزهري علي بن الحسين عليه السلام في ليلة باردة مطرة، وعلى ظهره دقيق وهو يمشي، فقال: يا بن رسول الله ما هذا؟.

قال: أريد سفراً، أعدّ له زاداً أحمله إلى موضع حريز.

قال: فهذا غلامي يحمله عنك، فأبى.

قال: أنا أحمله عنك، فإنّي أرفعك عن حمله.

قال علي: لكنّي لا أرفع نفسي عما ينجيني في سفري، ويحسن ورودي على ما أرد عليه، أسألك بحقّ الله لما مضيت لحاجتك وتركتني.

فلما كان بعد أيّام قال له: يا بن رسول الله لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً؟.

قال: بلى يا زهري، ليس هو ما ظننت، ولكنّه الموت وله استعد، إنّما الاستعداد للموت تجنّب المحارم، وبذل الندى في الخير[1].

---

(١) بحار الأنوار: ١١/ ٢٠.

قوله: ﴿إنّهم كانوا يدعوننا رغباً ورهباً﴾ وتعاليم الإسلام تأمر العبد أن يخاف الله جلّ جلاله بمنتهى الخوف، وأن تكون النار دائماً نصب عينيه، كذلك يرجوه ويطمع في عفوه وفضله أشدّ الطمع، معتقداً أنّه سيحظى بما أعدّ الله لأحبائه من نعيم؛ والآية الكريمة تصف هؤلاء الأولياء والصديقين بأنّهم كانوا يدعون رغبة في الثواب، وخوفاً من العقاب، وأيضاً ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾ هي المخافة الثابتة في القلب.

من الوحي

وجاء حديث الرسول الأعظم ﷺ عن جوانب كثيرة من حياة الأنبياء صلوات الله عليهم، وهذا لو تأمّله متأمل لعدَّه من الإعجاز النبوي، فرجل أمّي، في مجتمع أمّي، يتحدّث عن أسرار نبويّة يجهلها علماء الكتاب فضلًا عن عوامهم.

نذكر بعض ما جاء في يحيى عليه السلام: قال رسول الله ﷺ: كان من زهد يحيى بن زكريا عليه السلام أنّه أتى بيت المقدس، فنظر إلى المجتهدين من الأحبار والرهبان، عليهم مدارع الشعر، وبرانس الصوف، وإذا هم قد خرقوا تراقيهم، وسلكوا فيها السلاسل وشدّوها إلى سواري المسجد، فلما نظر إلى ذلك أتى أمّه فقال: يا أمّاه انسجي لي مدرعة من شعر، وبرنساً من صوف حتى آتي بيت المقدس فأعبد الله مع الأحبار والرهبان.

فقالت له أمّه: حتّى يأتي نبيُّ الله أبوك وأؤامره في ذلك، فلما دخل زكريّا عليه السلام.

فقال له زكريّا: يا بني ما يدعوك إلى هذا وإنّما أنت صبيٌّ صغير؟.

فقال: يا أبت أما رأيت من هو أصغر منّي سنّاً قد ذاق الموت؟.

قال: بلى، ثم قال لأمه: انسجي له مدرعة من شعر وبرنساً من صوف، ففعلت، فتدرّع المدرعة على بدنه، ووضع البرنس على رأسه، ثم

أتى بيت المقدس، فأقبل يعبد الله عزّ وجلّ مع الأحبار، حتّى أكلت مدرعة الشعر لحمه، فنظر ذات يوم إلى ما نحل من جسمه فبكى، فأوحى الله إليه: يا يحيى أتبكي على ما نحل من جسمك؟ وعزّتي وجلالي لو اطلعت إلى النار إطلاعة لتدّرعت مدرعة من حديد فضلًا عن المسوح.

فبكى حتّى أكلت الدموع لحم خديه، ثم بدت للناظرين أضراسه، فبلغ ذلك أمّه فدخلت عليه، وأقبل زكريا فاجتمع إليه الأحبار والرهبان يخبرونه بذهاب لحم خديه، فقال زكريا: ما دعاك إلى هذا؟ وإنّما سألت ربّي أن يهبك لي لتقرَّ عيني.

قال: أنت أمرتني بذلك يا أبتِ.

قال: ومتى ذلك؟.

قال: ألست القائل: إنّ بين الجنة والنار عقبة لا يجوزها إلّا البكاؤون من خشية الله تعالى؟.

قال: بلى، فجد واجتهد فشأنك غير شأني.

فقام يحيى فنفض مدرعته وأخذته أمّه، فقالت: أتأذن لي يا بني أن أتخذ لك قطعتين من لبد يواري أضراسك، وينشفان دموعك؟.

فقال لها: شأنك، فاتخذت له قطعتين لبد تواريان أضراسه، وتنشفان دموعه، حتّى إذا ابتلّتا من دموع عينيه، فَحَسَّرَ عن ذراعيه ثمّ أخذهما فعصرهما، فتحدّر الدموع من بين أصابعه، فنظر زكريا إلى ابنه ودموع عينيه فرفع رأسه إلى السماء فقال: اللهمّ إنّ هذا ابني، وهذه دموع عينيه، وأنت أرحم الراحمين.

وكان زكريّا عليه السلام إذا أرادّ أن يعظ بني اسرائيل يلتفت يميناً وشمالاً، فإذا رأى يحيى لم يذكر جنّة ولا ناراً، فجلس زكريا عليه السلام ذات يوم يعظ بني اسرائيل، فأقبل يحيى وقد لفّ رأسه بعباءة، وقعد في غمار الناس لئلا

يعرفه زكريّا، فالتفت زكريّا يميناً وشمالاً فلم ير يحيى، فأنشأ يقول: حدّثني حبيبي جبرائيل عليه السلام عن الله تعالى: أنّ في جهنّم جبلًا يقال له السكران، في أصل ذلك الجبل وادٍ يقال له الغضبان لغضب الرحمن، في ذلك الوادي جبٌّ قامته مائة عام، في ذلك الجب توابيت من نار.

فرفع يحيى رأسه فقال: واغفلتاه عن السكر من غضب الرحمن، ثم أقبل هائماً على وجهه، فقام زكريا من مجلسه ودخل على أم يحيى فقال لها: يا أم يحيى قومي فاطلبي يحيى، فإنّي تخوّفت أن لا نراه، إلّا وقد ذاق الموت؛ فقامت فخرجت، فمرّت بفتية من بني اسرائيل فقالوا لها: يا أم يحيى إلى أين تريدين؟.

قالت: أريد أن أطلب ابني يحيى، ذكرت النار من بين يديه فهام على وجهه، فمضت أم يحيى والفتية معها، فمرّت براعٍ يرعى غنماً فقالت له: يا راعي هل رأيت شاباً من صفته كذا وكذا؟.

فقال: لعلك تطلبين يحيى بن زكريا؟.

قالت: نعم، ذلك ولدي، ذكرت النار بين يديه فهام على وجهه.

فقال: إنّي تركته الساعة على عقبة ثنيّة كذا وكذا، ناقعاً قدميه بالماء، رافعاً بصره إلى السماء وهو يقول: وعزّتك يا مولاي لا ذقت بارد الشراب حتّى انظر إلى منزلتي منك.

فمضت فوجدته كما ذكر، فلما رأته أقبلت وأخذت برأسه ووضعته بين ثدييها وهي تناشده الله أن ينطلق معها إلى المنزل، فانطلق معها حتّى أتى المنزل، فقالت له أمّه: هل لك يا ولدي أن تخلع مدرعة الشعر وتلبس مدرعة الصوف، فإنّها ألين، ففعل ذلك، ثم طبخت له عدساً فأكل ونام، فذهب به النوم فلم يقم لصلاته، فنودي في منامه: يا يحيى أردت داراً خيراً من داري، وجواراً خيراً من جواري؟.

فاستيقظ فزعاً، فقال: يا ربِّ أقلني عثرتي، إلهي فوعزّتك لا أستظلُّ بظلٍّ سوى بيت المقدس، وقال لأمه: ناوليني مدرعة الشعر، فقد عرفت أنكما تورداني المهالك.

فدفعت له مدرعة الشعر، وتعلّقت به، فقال لها زكريّا عليه السلام: يا أم يحيى دعيه، فإنّ ابني قد كُشف له عن قناع قلبه، فلن ينتفع بالعيش أبداً، فقام يحيى فلبس مدرعته، ووضع البرنس على رأسه، ثم أتى بيت المقدس، فجعل يعبد الله تعالى فيه مع الأحبار والرهبان، حتّى كان من أمره ما كان مع اليهود لعنهم الله[١].

وورد أيضاً: كان يحيى عليه السلام لباسه الليف، وأكله من ورق الشجر[٢] وورد أنّه بكى يحيى بن زكريا عليه السلام حتّى ذهب لحم خديه من الدموع، فوضع على العظم لبود يجري عليها الدموع، فقال له أبوه: يا بني إنّي سألت الله تعالى إلى أن يهبك لي لتقرّ عيني بك.

فقال: يا أبتِ إنّ على نيران ربّنا معاثر[٣] لا يجوزها إلّا البكّاؤون من خشية الله عزّ وجلّ، والخوف أن آتها فأزلّ منها.

فبكى زكريا عليه السلام حتّى غشي عليه من البكاء[٤].

الشهادة

إنّ الشيطان لا يقنع من الناس بتكذيب الأنبياء عليهم السلام، والإعراض عن تعاليمهم وأذيتهم بأقصى ما يقدرون عليه، بل إنّ تحريضه لهم أكثر من هذا، إنّه لا يتركهم حتّى يقتلوهم بأبشع صور القتل.

---

(١) تنبيه الخواطر: ٢/ ١٦٠.
(٢) بحار الأنوار: ١٤/ ١٨٧.
(٣) المعاثر: المساقط والمهالك.
(٤) بحار الأنوار: ١٤/ ١٦٧.

وهذا نبيُّ الله زكريا عليه السلام مع منزلته الرفيعة، وشأنه العظيم، استشهد على أيديهم.

ذكر الثعلبي: أنّ الشيطان أهاج بني إسرائيل على زكريّا عليه السلام، فطلبوه فهرب، واتبعه سفهاؤهم وأشرارهم، فسلك وادياً فتشبّه له الشيطان في صورة راعٍ فقال: يا زكريا قد أدركوك، فادع الله أن يفتح لك هذه الشجرة، ففعلَ ذلك، فانفتحت له، ودخل فيها، وأخرج إبليس هدب ردائه منها، فمرّت بنو اسرائيل بالشيطان، فقالوا: يا راعي هل رأيت رجلًا هاهنا من صفته كذا وكذا؟.

قال: نعم، سحر هذه الشجرة فانفتحت له فدخل فيها، وهذا هدب ردائه، فقطعوا الشجرة مع زكريّا، وفلقوها فلقتين بالمنشار طولًا، فبعث الله الملائكة فغسّلوا زكريّا وصلّوا عليه ودفنوه.

الداعي الصغير

الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم هم دعاة الإرشاد والتهذيب، أوقفوا حياتهم الشريفة لتعليم البشر وهدايتهم، لم يشغلهم عن ذلك شاغل، ونبيُّ الله يحيى عليه السلام الذي أوتي النبوّة صغيراً ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] كان منذ نعومة أظفاره داعياً إلى الله جلّ جلاله، مرشداً لعباده، وعن ابن الأثير: ونبىء صغيراً، فكان يدعو الناس إلى عبادة الله، ولبس الشعر، فلم يكن له دينار ولا درهم، ولا مسكن يسكن إليه، أينما جنّه الليل أقام، ولم يكن له عبد ولا أمة، واجتهد في العبادة(١).

---

(١) الكامل في التاريخ: ١/ ٢٣٠.

سبل الشيطان

يحسب الأتقياء أنّهم بمنجاة من الشيطان، لتورّعهم عن الزنا والسرقة والقتل، صحيح أنّهم نجوا من هذه المهالك، ولكنهم في الوقت نفسه على حافة بحر عميق ربّما هووا فيه وهلكوا، علماً أنّ بإمكانهم السلامة والنجاة، وذلك بالاعتصام بتعاليم الله جلّ جلاله، والامتثال لأوامره، والالتزام بنهجه، فإنّها حصن حصين.

إنّ ما جاء في قصص الصديقين، ومحاولات الشيطان أن تزلّ بهم قدم، أو يبتعدوا ـ ولو قليلًا ـ عن منهج الحقّ والصدق تدعونا إلى التحرّز من هذا العدو الماكر، وأن نتفقّد أنفسنا دائماً لأنّه قد يميل الإنسان عن منهج الرشاد والاستقامة وهو غير ملتفت إلى نفسه.

نعود فنذكر محاولة الشيطان مع نبيِّ الله يحيى عليه السلام.

سأل يحيى عليه السلام إبليس: فأي ساعة أنت على ابن آدم أقدر؟.

قال: حين يمتلىء شبعاً وريّاً.

قال: فهل وجدت في نفسي شيئاً؟.

قال: لا.

قال: ولا على حال؟.

قال: نعم، قدّم إليك طعامك ذات ليلة وكنت قد صمت، فشهيته لك، حتّى أكلت أكثر من عادتك، فتثاقلت عن وردك وعبادتك.

فقال يحيى: لا جرم[1] لا أشبع أبداً.

فقال الشيطان: لا جرم لا أنصح آدمياً أبداً[2].

---

(١) لا جرم: أي حقاً مقطوعاً به.
(٢) عرائس المجالس: ٤٢.

وأيضاً عن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام: إنّ الشيطان كان يأتي الأنبياء عليهم السلام إلى أن بعث الله المسيح عليه السلام، يتحدّث عندهم، ويسائلهم، ولم يكن بأحد منهم أشد أنساً منه بيحيى بن زكريّا عليه السلام، فقال له يحيى: يا أبا مرّة إن لي إليك حاجة.

فقال له: أنت أعظم قدراً من أن أردّك بمسألة، فسلني ما شئت فإنّي غير مخالفك في أمر تريده.

فقال يحيى: يا أبا مرّة أحب أن تعرض عليّ مصائدك وفخوخك التي تصطاد بها بني آدم.

فقال له إبليس: حبّاً وكرامة، وواعده لغد، فلما أصبح يحيى عليه السلام قعد في بيته ينتظر الموعد، وأغلق عليه الباب اغلاقاً، فما شعر حتّى ساواه من خوخة، فإذا وجهه على صورة وجه قرد، وجسده على صورة الخنزير، وإذا عيناه مَشقوقتان طولًا، وإذا أسنانه وفمه مشقوق طولًا، عظماً واحداً بلا ذقن ولا لحية، وله أربعة أيد، يدان في صدره، ويدان في منكبه، وإذا عراقيبه قوادمه، وأصابعه خلفه، وعليه قباء، وقد شدّ وسطه بمنطقةٍ فيها خيوط معلّقة بين أحمر وأصفر وأخضر، وجميع الألوان، وإذا بيده جرس عظيم، وعلى رأسه بيضة، وإذا في البيضة حديدة معلّقة شبيهة بالكلّاب، فلمّا تأمّله يحيى عليه السلام قال: ما هذه المنطقة في وسطك؟.

فقال: هذه المجوسيّة، أنا الذي سننتها وزيّنتها لهم.

فقال له: فما هذه الخيوط الألوان؟.

قال له: هذه جميع أصباغ النساء، لا تزال المرأة تصبغ الصبغ حتّى تقع مع لونها، فأفتتن الناس بها.

فقال له: فما هذا الجرس الذي بيدك؟.

فقال: هذا مجمع كلِّ لذة: من طنبور، ومربط، ومعزفة، وطبل، وناي، وصرناي، وإنّ القوم ليجلسون على شرابهم فلا يستلذونه، فأحرّك الجرس، فإذا سمعوه استخفّهم الطرب، فبين من ترقص، وبين من يفرقع أصابعه، وبين من يشق ثيابه.

فقال له: وأي الأشياء أقر لعينك؟.

قال: النساء، هنّ فخوخي ومصائدي، فإنّي إذا اجتمعت عليّ دعوات الصالحين ولعناتهم صرت إلى النساء فطابت نفسي بهنّ.

فقال له يحيى عليه السلام: فما هذه البيضة التي على راسك؟.

فقال: أتوقّى بها دعوة المؤمنين.

قال: فما هذه الحديدة التي أرى فيها؟.

قال: بهذه أقلب قلوب الصالحين(١).

والسجن أيضاً

الأنبياء صلوات الله عليهم أعظم الناس بلاءً، وأشدّهم عناءً في هذه الدنيا يقول الإمام الصادق عليه السلام: إنّ في كتاب عليٍّ عليه السلام: إنّ أشدّ الناس بلاءً النبيّون، ثمّ الوصيّون، ثمّ الأمثل فالأمثل، وإنّما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمن صحّ دينه وصحّ عمله اشتدّ بلاؤه، وذلك أنّ الله عزّ وجلّ لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن، ولا عقوبة لكافر؛ ومن سخف دينه، وضعف عمله، قلّ بلاؤه؛ والبلاء أسرع إلى المؤمن المتقي من المطر إلى قرار الأرض(٢).

وهذا نبيّ الله يحيى بن زكريّا عليه السلام عانى ما عانى من الظالمين، بداية من السجن، وختاماً بالشهادة.

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/١٧٣.

(٢) علل الشرايع: ٤٤.

وروي أنه كان يحيى عليه السلام في زمن ملك من ملوك بني اسرائيل، وكان له امرأة وهي ابنة ملك صيدا، وكانت قتّالة للأنبياء والصالحين، وكانت عاهرة، تبرز للناس، وكان يحيى يزجرها عن ذلك، ويقول لها: لا تبرزي كاشفة وجهك، وكان كثيراً ما يقول لها: مكتوب في التوراة: إنّ الزناة يوقفون يوم القيامة وريحهم أنتن من الجيف، فأمرت بيحيى عليه السلام فسجن[1].

أسباب الجريمة

إنّ من أعظم مظاهر الطغيان والكفر عند الاسرائيليين هو قتلهم لزكريا ويحيى عليه السلام، لذلك استوجبوا أن يقتص الله جلّ جلاله منهم بإبادة خضرائهم، وفناء مجتمعهم؛ إنّهم لم يرعوا حرمة النبوّة، ولا رعاية شيخ كبير وهن العظم منه، أفنى عمره في ارشادهم وتعليمهم وتهذيبهم، كذلك لم يعطفوا على شاب في مقتبل العمر، قد أعرض عن الدنيا وزينتها، وتجرّد لعبادة ربّه، قد أنهكته العبادة وغيّرت ملامح وجهه الشريف.

ذكر الثعلبي وغيره حديث شهادته عليه السلام:

إنّ ملك بني اسرائيل كان يكرم يحيى بن زكريّا عليه السلام، ويدني مجلسه، ويستشيره في أموره، ولا يقطع أمراً دونه، وإنّ الملك هوى أن يتزوّج بنت امرأة له، فسأل يحيى عن نكاحها، فقال: لست أرضاها لك، فبلغ ذلك أمّها فحقدت على يحيى حين نهاه أن يتزوّج ابنتها، فعمدت حين جلس الملك على شرابه، فألبست ابنتها ثياباً حمراً رقاقاً فاخرة، وطيّبتها، وألبستها من الحلي شيئاً لا قيمة له من غايته، وألبستها فوق ذلك كساءً أسود، وأرسلتها إلى الملك، وأمرتها أن تسقيه الخمر، وأن تتعرّض له،

(١) عرائس المجالس: ٣٧٩.

فإن راودها عن نفسها أبت عليه حتّى يعطيها ما تسأله، ويكون الذي تسأله أن يأتي برأس يحيى بن زكريا في طشت، ففعلت ذلك، وجعلت تسقيه الخمر، وتتعرّض له، فلما أخذ منه الشراب راودها عن نفسها.

فقالت: لا أفعل حتّى تعطيني ما أسألك.

قال: وما تسأليني؟.

قالت: أسألك أن تبعث إلى يحيى بن زكريا فتأتيني برأسه في طشت.

فقال: ويحك، سليني غير هذا.

قالت: ما أريد غير هذا، فلما أبت عليه، بعث إلى يحيى فأتي برأسه، فجعل الرأس يتكلّم ويقول: إنّها لا تحل لك.

فلما أصبح الملك وإذا دم يحيى يغلي، فأمر بالتراب فألقي عليه فرقى الدم فوق التراب يغلي، فألقى عليه أيضاً وارتفع الدم فوقه...[(١)].

الانتقام

ويُخطىء من يظن أنّ عذاب الكافرين والفاسقين مؤجّل إلى عوالم الآخرة، إنّهم ينالون بعض ما يستحقونه من الجزاء في الدنيا، ويبقى العذاب الأكبر في الآخرة؛ فالخمّار ـ مثلًا ـ يعذّب بأمراض كثيرة في الدنيا، والقاتل يقتل ـ كما هو ملاحظ ـ والمثل المعروف: بشّر القاتل بالقتل، وهكذا بقية الجرائم.

إنّ ما مرّ عليك من عذاب الأمم الذين أهلكوا بأشد أنواع العذاب، كقوم هود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام يكفي البشريّة أن تستقيم،

(١) عرائس المجالس: ٣٣٧.

وتسير على نهج الهدى والصلاح؛ والحديث عما أصاب بني إسرائيل من قتلهم لزكريا ويحيى عليهما السلام:

قال ابن اسحاق: إنّ بني اسرائيل عمّروا بيت المقدس بعد مرجعهم من بابل، وكثروا، ثم عادوا يحدثون الأحداث، ويعود الله سبحانه وتعالى عليهم، ويبعث فيهم الرسل، ففريقاً يكذّبون، وفريقاً يقتلون، حتّى كان آخر من بعث الله فيهم زكريا وابنه يحيى، وعيسى بن مريم عليهم السلام، فقتلوا يحيى وزكريّا عليهما السلام، فبعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يُقال له (جودرس) فسار إليهم حتّى دخل عليهم البلاد، فلما دخل عليهم بيت المقدس قال لقائد عظيم من عسكره اسمه (نيوزاذان) وهو صاحب الفيل: إنّي كنت حلفت لئن أنا ظفرت ببني اسرائيل لأقتلنّهم حتّى تسيل دماؤهم في وسط عسكري إلّا أن لا أجد من أقتله، وأمره أن يدخل المدينة ويقتلهم حتّى يبلغ ذلك منهم، فدخل (نيوزاذان) المدينة، فأقام في المدينة التي يقرّبون فيها قربانهم، فوجد دماً يغلي، فقال: يا بني اسرائيل ما شأن هذا الدم يغلي؟.

فقالوا: هو دم قربان لنا لم يُقبل، فلذلك هو يغلي.

فقال: ما صدقتموني الخبر.

فقالوا: إنّه قد انقطع منا الملك والنبوّة فلذلك لم يقبل منّا؛ فذبح منهم على ذلك الدم بسبعمائة وسبعين رجلًا من رؤوسهم فلم يهدأ، فأمر سبعمائة من علمائهم فذبحوا على الدم فلم يهدأ، فلما رأى أنّ الدم لا يبرد قال لهم: يا بني اسرائيل أصدقوني واصبروا على أمر ربّكم، فقد طال ما ملكتم في الأرض تفعلون ما شئتم، قبل أن لا أدع منكم نافخ نار، ولا ذكراً إلّا قتلته، فلما رأوا الجهد، وشدّة القتل صدّقوه الخبر، وقالوا: هذا نبيٌّ

كان ينهانا عن كثير مما يسخط الله، ويخبرنا فلم نصدّقه، وقتلناه، فهذا دمه.

فقال: ما كان اسمه؟.

قالوا: يحيى بن زكريّا.

قال: الآن صدقتموني، لمثل هذا انتقم ربّكم منكم(١).

نعم السلف والخلف

والدنيا منذ خلقها الله جلّ جلاله وأكثر حكامها الطغاة، وأولياء الله يعانون منهم القتل والتشريد، وصنوف الأذى، حتّى ورد أن قابيل هدّد أخاه شيثاً عليه السلام بالقتل فاستتر منه.

وهذا الحسين بن علي أمير المؤمنين عليه السلام، وابن فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، يخرج من وطن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله فراراً من الطغاة، والكل يرى أنّ أمل السلامة أصبح ضئيلًا للغاية، وقد أخذ عليه الطغاة أقطار الأرض، فكان سلام الله عليه يسلّي نفسه وأهل بيته بيحيى بن زكريا عليه السلام.

روى الشيخ المفيد عليه الرحمة عن علي بن الحسين عليه السلام قال: خرجنا مع الحسين عليه السلام، فما نزل منزلًا ولا ارتحل إلّا وذكر يحيى بن زكريّا وقتله، وقال يوماً: ومن هوان الدنيا على الله أنّ رأس يحيى بن زكريّا أهدي إلى بغيّ من بغايا بني اسرائيل(٢) ويظهر أنّ الرابطة بين نبيٍّ الله يحيى والإمام الحسين عليه السلام وثيقة جدّاً، ويكفيك منها أنّ الصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري رضوان الله عليه لما بلغه خبر واقعة الطف جاء

---

(١) الكامل في التاريخ: ١/ ٢٣٣.

(٢) الارشاد: ٢٥٢.

إلى كربلاء زائراً للحسين عليه السلام ، فقال في زيارته : «وأشهد أنك مضيت على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريّا»[١] .

وعن عبدالله بن الفضل الهمداني، عن أبيه، عن جدّه، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: مرّ عليه رجل عدوّ لله ولرسوله، فقال: **﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾** ثم مرّ عليه الحسين بن علي عليه السلام فقال: لكنّ هذا لتبكيّن عليه السماء والأرض، وقال: وما بكت السماء والأرض إلّا على يحيى بن زكريّا، والحسين بن علي عليه السلام [٢] .

وقال الإمام الصادق عليه السلام : زوروا الحسين عليه السلام ولا تجفوه، فإنّه سيّد شباب الشهداء، وسيّد شباب أهل الجنّة، وشبيه يحيى بن زكريّا عليه السلام ، وعليهما بكت السماء والأرض[٣] .

وقال عليه السلام : ولم تبك السماء إلّا عليهما أربعين صباحاً.

قيل له: وما بكاؤها؟.

قال: كانت تطلع حمراء، وتغيب حمراء، وكان قاتل يحيى عليه السلام ولد زنا، وقاتل الحسين عليه السلام ولد زنا[٤] .

ويمكن أن يكون المراد ببكاء السماء هو بكاء أهلها وهم الملائكة، ذكر ذلك الشيخ المجلسي عليه الرحمة وغيره[٥] .

والاحتمال كبير جداً أن يكون الأمران معاً، أي طلوع الشمس بالكيفيّة المذكورة، وبكاء أهلها وهم الملائكة.

وقال ابن عباس: أوحى الله إلى نبيّكم صلى الله عليه وآله : إنّي قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً، وإنّي قاتل بابن بنتك سبعين ألفاً وسبعين ألفاً[٦] .

---

(١) بشارة المصطفى: ٧٥.
(٢) بحار الأنوار: ١٤/ ١٦٨.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المستدرك على الصحيحين: ٢/ ٢٩٠.



عيسى عليه السلام

البداية

كانت حنّة جدة عيسى عليه السلام قد أمسك عنها الولد حتّى أَيِستْ، فتوجّهت إلى قاضي الحاجات جلّ جلاله أن يرزقها ولداً، استجاب الله دعاءها، فحملت، عند ذلك نذرت أن تجعل وليدها لخدمة بيت المقدس ومن فيه من المتعبّدين ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

الاشاءة الإلهيّة

نحن نريد، ولا يكون إلّا ما يريده القادر المقتدر، العليم بمصالح خلقه، فهذه حنّة وكل أمانيها وآمالها أن تلد ولداً تراه يسعى في بيت المقدس بين المصلّين، ولكنّ المفاجأة ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

تتجلّى المعرفة في هذه المرأة بأعظم معانيها، فهي لا تدعو لوليدتها بما ندعو به لأولادنا من طول عمر، وسعة رزق، وصحّة، وسعادة، بل تدعو لها بأعظم من هذا كلّه، أن يعيذها الله وذريّتها من الشيطان الرجيم.

استجاب الله جلّ جلاله للمرأة الصالحة، فجنّب الوليدة الشيطان، بل هي إحدى أربعة نسوة فُضّلن على نساء العالمين.

قال ابن عباس: خطّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط وقال: أتدرون ما هذا؟.

قالوا: الله ورسوله أعلم.

فقال رسول الله ﷺ: أفضل نساء أهل الجنّة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، امرأة فرعون[١].

وكما استجاب الله جلّ جلاله لحنَّة دعاءها لابنتها، استجاب لها أيضاً في حفيدها، فقد ولدت مريم عيسى عليه السلام.

الحدث العظيم

كان نبيُّ الله زكريّا عليه السلام قد عيّن موضعاً للعذراء عليها السلام في بيت المقدس تتعبَّد فيه، لا يدخل عليها أحد، وخرجت يوماً لمهمّ عرض لها ﴿**فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويّا**﴾ ففزعت منه غاية الفزع، وعاذت بالله منه ﴿**قالت إنّي أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّا**﴾.

وما أشد المفاجأة حين سمعته يقول: ﴿**قال إنّما أنا رسول ربّك لأهب لك غلاماً زكيّا**﴾.

الوقع الشديد

كان وقع الحادث عظيماً على السيّدة العذراء عليها السلام، وحقّ لها ذلك، وأنت إذا تأملت كلامها ﴿**قالت يا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسيا منسيّا**﴾ أدركت أبعاد ما نزل بها من الكرب والغم، ولكن طالما تتحوّل المآسي إلى مباهج حين تقابل بالصبر والثبات، والتوجّه إلى الله جل جلاله في الخلاص منها، وما حصل للصديقة العذراء أكبر شاهد على ما أقول.

---

(١) أسد الغابة: ٥/ ٤٣٧.

كن فيكون

هكذا تكون المشيئة الإلهيّة، وفعلًا تمّ الحمل، وبعد بضع ساعات ـ على رواية ـ كان الوضع، إنّ هذه الكلمة ﴿**كن فيكون**﴾ وردت في القرآن الكريم أكثر من مرّة، وهي تحذير للطغاة والعصاة من بطش الجبّار العظيم، فإنّه جلّ جلاله إذا اقتضت حكمته أن يوقع بهم فما أسرع ما يكون، ويكفيهم ما نزل بفرعون وهامان وقارون وجموعهم وأمم كثيرة مرّ عليك ذكر بعضها، فالحذر ثمّ الحذر من نقمة القادر العظيم.

المولد العظيم

لو تصفّحت القرآن الكريم لوجدت فيه المئات من الآيات في ذم بني اسرائيل، وتعداد أعمالهم الشنيعة: من عبادة العجل، وقتل الأنبياء، واعتدائهم في السبت، وعصيانهم لموسى عليه السلام، فكأنّهم خلقوا للعناد والمشاكسة، وعدم الطاعة.

وقد عاقبهم سبحانه وتعالى بأنواع العقوبات، فمسخ بعضهم قردة وخنازير.

كما ابتلاهم قبل ذلك بفرعون يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، وأهلك منهم في بعض يوم مائة وعشرين ألفاً بالطاعون[1] وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩].

كان هذا وغيره كثير في عهد موسى عليه السلام، علماً أنّهم كانوا من بعده أسوأ حالًا، وأردى معتقداً، وأخبث عملًا، حتى قاتلوا وصيّه يوشع بن نون عليه السلام.

---

(١) البرهان في تفسير القرآن: ١/ ١٠٢.

واستمرت الأجيال التالية منهم على ذلك حتى قال سبحانه وتعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

وتطوّر كفرهم حتّى ادعوا لله سبحانه وتعالى ولداً ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] فكان لزاماً أن تأتيهم حجّة قويّة، ودلالة واضحة بيّنة، ومعجزة يستوعبها الجميع، لتكون الحجّة مقنعة للرسالة الجديدة.

لقد جاءت معجزة الرسالة قبل الرسالة بالمولود المبارك، من أسرة عريقة بالرسالة، معروفة بالطهر، ولم يكتف سبحانه وتعالى لهم بذلك حتى جعل الوليد الرسول يتكلّم في المهد، توكيداً للحجّة ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] لأجل أن يبادروا بالإيمان، وتطمئن قلوبهم للحقّ.

أنطق الله جلّ جلاله الوليد (الرسول) بعد ساعة من مولده المبارك ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

مواكب الإعجاز

كان علم الطب قد بلغ ذروته قبل مبعث عيسى عليه السلام، وبرز أطباء لا يزال التاريخ يحتفظ بأسمائهم وآرائهم الطبيّة، لذا فإنّ الرؤوف الرّحيم جعل معظم معاجز عيسى عليه السلام في هذا الحقل، مع البعد الشاسع ما بين الأمرين.

لقد جاءهم صلوات الله وسلامه عليه بما أبهرهم، بل أبهر العالم بأسره، فلا أطباء اليونان آنذاك، ولا أطباء لندن اليوم، بل ولا جميع أطباء الدنيا يستطيعون أن يُبرئوا الأكمه والأبرص[1] أو يحيي الموتى.

(١) الأكمه: هو الذي ولد أعمى. البرص: مرض جلدي لا علاج له.

إضافة إلى ذلك معاجز الولادة والمائدة، والإخبار بالمغيّبات، ومع ذلك فما أقل من آمن به، وما أكثر الكافرين به.

المسيح

صدق القائلون: بأن التاريخ يُعيد نفسه دائماً، فثمود كانوا ينتفعون بالناقة أتمّ انتفاع، فجميعهم يأخذون من حليبها بالمقدار الذي يرغبون، ومع ذلك حصل منهم ما حصل، وكذلك المجتمع الاسرائيلي فقد كانوا يأكلون من المائدة حتّى يشبعوا، ويداوي عليه السلام مرضاهم، ويبرىء من كان منهم لا يجد في الدنيا شفاءً له، وأنت إذا علمت أنّ من أسمائه عليه السلام المسيح ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥] سمي بذلك لأنّه كان لا يمسح ذا عاهة بيده إلّا برىء وعوفي، وإنّما كان يداويهم بالدعاء بشرط الإيمان[١].

ومع هذا كله فقد عزموا على قتله، والفتك به.

الحواريّون

الحواري: هو الذي ينقّي الثياب من الأوساخ ويبيّضها، والحواريّون: وهم اثنا عشر رجلاً، وهم أصحاب عيسى عليه السلام، والمؤمنون به، سمّوا بذلك لأنّهم كانوا ينقّون نفوس الخلائق من الأخلاق الذميمة، والعادات السيئة، قال الضحاك: سمّوا حواريين لصفاء قلوبهم.

وقال عبدالله بن المبارك: سمّوا حواريين لأنهم كانوا نورانيين، عليهم أثر العبادة ونورها وبياضها وبهاؤها، وأصل الحور عند العرب شدّة البياض، وقال الحسن: الحواريّون الأنصار[٢].

---

(١) عرائس المجالس: ٣٩٠.

(٢) عرائس المجالس: ٣٩٠.

وأصبح اسم الحواريين ـ فيما بعد ـ علماً لجماعة من صحابة الرسول الأعظم ﷺ وبعض التابعين، وفئة من أصحاب الأئمة عليهم السلام، المختصين بهم.

في العرض القرآني المجيد

ذكر القرآن الكريم عيسى عليه السلام في مواضع كثيرة بنهاية الإكبار والإجلال، كما أنّ احدى سورهِ اسمها (سورة المائدة) في إشارة إلى المائدة التي نزلت عليه. نذكر من ذلك:

١ - **قوله تعالى:** ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٣] الآية الكريمة تشير إلى الدلالات والمعاجز التي جاء بها عيسى عليه السلام، وجلها في الواقع تدور في عالم الطب، كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وهي تفوق ما وصل إليه الطب قديماً وحديثاً.

والإمام عليُّ بن موسى الرضا عليه السلام يجيب على سؤال وجَّهه إليه علامة الدنيا ابن السكيت[(١)] قال: لماذا بعث الله موسى بن عمران بيده البيضاء وبآية السحر، وبعث عيسى بآية الطب، وبعث محمداً ﷺ بالكلام والخطب؟.

فقال عليه السلام: إنّ الله لما بعث موسى بن عمران كان الغالب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسع القوم مثله، وبما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجّة عليهم.

وإنّ الله بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات، واحتاج الناس إلى الطب، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيا لهم الموتى، وأَبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت الحجة عليهم.

---

(١) أبو يوسف، يعقوب بن اسحاق الدورقي، المستشهد سنة ٢٤٤هـ.

وإنّ الله بعث محمداً ﷺ في وقت كان الأغلب على أهل عصره الخطب والكلام، فأتاهم من عند الله من مواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجّة عليهم.

فقال ابن السكيت: هذا والله هو الجواب[١].

٢ - قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

١ - **البداية الطيبة**: نحن نعتقد أنّ الأنبياء عليهم السلام طهروا من أدناس الجاهلية ومدلهماتها، كما أنهم نزّهوا في نسبهم عن السفاح وشبهه، وأكثر من هذا: ولدهم آباء وأمهات كانوا الغاية في الإيمان والنزاهة والقرب من المولى سبحانه وتعالى، وأنّ رسالة السماء لا تعطى إلّا لمن تكامل فضلًا وشرفاً وعفافاً، وحاز المكارم كلّها.

٢ - **الأم المؤمنة**: تأمّل كلام (حنّة) أم مريم عليها السلام تجدها المرأة المثالية في التقى والإيمان، فهي تنذر أن يكون وليدها في البيت المقدس ليناله وإيّاها الأجر والثواب، ولأنّه سوف يعيش في جوّ يجعله أقرب للتقوى.

٣ - **﴿فلما وضعتها قالت ربّي إنّي وضعتها أنثى﴾** فبعد أن ولدت مريم ـ وكانت ترجو أن يكون غلاماً ـ خجلت واستحيت، والمراد من كلامها: الاعتذار من العدول عن النذر لأنّها أنثى **﴿والله أعلم بما وضعت﴾** إنّه أعلم بوضعها، لأنّه هو الذي خلقها وصوّرها **﴿وليس الذكر كالأنثى﴾** لأنها لا تصلح لما يصلح الذكر له، من التحرير لخدمة بيت المقدس، لما يلحقها من الحيض والنفاس، والصيانة عن التبرّج.

---

(١) الاحتجاج: ٢/ ٢٢٥.

٤ - ﴿وإنّي سميتها مريم﴾ وهي بلغتهم العابدة.

إن للاسم الأثر الكبير في سلوك الإنسان، كنت ألاحظ أن أسماء معظم المجرمين توحي بالإجرام، أو البعد عن حظيرة الإسلام، لهذا وغيره نجد الرسول الأعظم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام كانوا يغيّرون بعض الأسماء والكنى، وحثّوا الأمة على أن يسمّوا أبناءهم بأسماء معيّنة (فخير الأسماء ما حُمّد وعبد)[١].

٥ - ﴿وإنّي أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾.

تأمل كلام هذه المرأة الصالحة، فإنّها لا تدعو لطفلتها بالحياة والسعادة ـ شأن بقيّة الأمهات ـ بل تبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يعيذها ويسلّمها من مكائد الشيطان الرجيم وسبله، وأن يحفظ ذريّتها أيضاً منه، لأنّه ربّما يكون الابن صالحاً والحفيد طالحاً.

إنّها رجعت إلى نفسها المليئة بالوثوق بالمعطي الكريم، فهو كما يوفّق الذكر للخير والتقى، ومنزل الأبرار، قادر على أن يوفّق الأنثى لذلك، فقالت: ﴿بيدك الخير إنّك على كلّ شيء قدير﴾.

٦ - **استجابة الدعاء**: يقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

لقد استجاب الله تعالى دعاء هذه المرأة التقيّة.

٧ - ﴿فتقبّلها ربّها بقبول حسن﴾ كانت حنّة رضوان الله عليها تؤمّل أن يعيش وليدها بين ظهراني عبّاد بني اسرائيل وأتقيائهم، ليتعلم منهم

(١) مثل محمد، أحمد، عبدالله...

الهدى والصلاح، ويتدرّب على الفضيلة والكمال، فشاء المهيمن أن تكون ابنتها في رعاية نبيِّ الله زكريّا عليه السلام، زعيم أولياء الله، والسادن لبيت الله المقدس.

ومعنى قوله: **﴿فتقبّلها ربّها﴾** تكفّل في تربيتها، والقيام بشأنها **﴿بقبول حسن﴾** سلك بها طريق السعداء **﴿وانبتها نباتاً حسناً﴾** جعل نشوءها نشوءاً حسناً **﴿وكفّلها زكريّا﴾** ضمّها إلى زكريّا، وجعله كفيلها، ضمّها إلى خالتها أم يحيى، حتّى إذا شبّت، وبلغت مبلغ النساء، بنى لها محراباً في المسجد، وجعل بابه في وسطه، لا يرقى إليه إلّا بسلّم، ولا يصعد إليها غيره، وكان يأتيها بطعامها وشرابها كلَّ يوم.

قال ابن عباس: لما بلغت تسع سنين صامت النهار، وقامت الليل وتبتّلت حتى غلبت الأحبار(١).

٨ - **﴿كلّما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندها رزقاً﴾** وليست منح الله جلّ جلاله وكراماته لأوليائه وأصفيائه محصورة في الآخرة، بل إنّ فيوضاته وألطافه لا تنقطع عنهم حتّى في الدنيا، فمن هذه الألطاف ـ وما أكثرها ـ ما كان يتحف به العابدة مريم عليها السلام.

قال أهل التفسير: كان زكريّا يجد عندها فاكهة في غير حينها، فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، غضّة طريّة، فسألها **﴿قال يا مريم أنّى لك هذا﴾** من أين لك هذا؟ كالمتعجّب منه **﴿قالت هو من عند الله﴾** من الجنّة **﴿إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾** إنّه يعطي العدد من الشيء لا يضبط بالحساب، ولا يأتي عليه العدد، لأنّ ما يقدر عليه غير متناهٍ ولا محصور.

☼

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/١٩٦.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

في هذه الآيات عرض لقصّة مريم عليها السلام تتخلله المعاجز والآيات؛ إنّ العبد حينما يتجّه نحو الله جلّ جلاله يسمو وترتفع مرتبته إلى حدّ لا يكاد أن يتصوّر؛ انظر رعاك الله إلى هذه المرأة وما بلغته من عظيم المنزلة حتى أنّ الملائكة تبشرها عن الله جلّ جلاله بالاصطفاء والتطهير، وحاش لله جلّ جلاله أن يحبو مريم بعطاء ويمنعه عن الآخرين، فهو العدل الذي تقدس وتنزّه عن الظلم، ولكن المشكلة فينا نحن، فأهّل نفسك، واتبع ما أمرت به، فستجد خيراً وسروراً.

نعود للآية الكريمة: **﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم﴾** فأنت إن جعلت كلام الملائكة تثميناً لعبادتها واخلاصها صحّ ذلك، وإن جعلته ايناساً لوحدتها وانقطاعها في طاعة الله سبحانه وتعالى صحّ أيضاً، وإن جعلته تمهيداً للبشارة الكبرى لم تبعد عن الصواب.

قوله: **﴿إنّ الله اصطفاك﴾** اختارك وألطف لك حتّى تفرّغت لعبادته، واتباع مرضاته **﴿وطهّرك﴾** بالإيمان عن الكفر، وبالطاعة عن المعصية، كما طهّرك من الأخلاق الذميمة، والطباع الرديّة.

قال الإمام أبو جعفر عليه السلام: اصطفاك من ذريّة الأنبياء، وطهّرك من السفاح، واصطفاك لولادة عيسى من غير فحل(١).

قوله: **﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾** على نساء عالم زمانك، لأن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيدة نساء العالمين، نستدل على ذلك بما جاء في الحديث الصحيح:

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ١٩٣.

١ - عن عمران بن حصين قال: إنّ النبيّ ﷺ عاد فاطمة رضي الله عنها وهي مريضة، فقال: كيف تجدينك يا بنيّة؟.

قالت: إنّي وجعة، وإنّه ليزيدني أنّي ما لي طعام آكله.

قال: يا بنيّة أما ترضين أنّك سيدة نساء العالمين؟.

قالت: يا أبت فأين مريم بنت عمران؟.

قال: تلك سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك، أما والله لقد زوجتك سيّداً في الدنيا والآخرة(١).

٢ - وقال رسول الله ﷺ: أما أنّها سيدة النساء يوم القيامة(٢).

٣ - ورواية ابن طلحة الشافعي عنه ﷺ: إنّ هذا ملك لم ينزل إلى الأرض قبل هذه الليلة، استأذن ربّه أن يسلّم عليّ ويبشرني أنّ فاطمة سيدة نساء أهل الجنّة(٣).

٤ - وقال ﷺ فاطمة: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة، أو نساء المؤمنين(٤).

٥ - وروى البخاري أيضاً عن رسول الله ﷺ قوله: فاطمة سيدة نساء أهل الجنّة(٥).

نعود للآية: ﴿**يا مريم اقنتي لربّك**﴾ أعبديه وأخلصي له العبادة.

والعبادة هي التي ترفع الإنسان إلى هذا المستوى الرفيع، لأنّها الوسيلة الوحيدة لصقل صفاته، وتهذيب أخلاقه.

وإنّما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

---

(١) الاستيعاب: ٢/ ٧٥.
(٢) حلية الأولياء: ٢/ ٤٢.
(٣) مطالب السؤول: ٦.
(٤) صحيح البخاري: ٤/ ٢٠٤.
(٥) المصدر نفسه.

قوله: ﴿**واسجدي واركعي مع الراكعين**﴾ كما يعمل الساجدون.

قوله: ﴿**ذلك من انباء الغيب**﴾ في الوقت الذي يتحدّث فيه القرآن الكريم عن ولادات وقعت بإعجاز قبل مئات السنين، وتفصيل تجهله البشرية فضلًا عن الأمة العربية، وهو في الوقت نفسه أعظم إعجاز للنبيِّ الكريم ﷺ لو أنصف المنصفون وإلى هذا المعنى يشير القرآن الكريم (ذلك) إشارة إلى ما تقدّم ذكره من حديث مريم وزكريّا ويحيى عليهم السلام ﴿**من أنباء الغيب**﴾ من أخبار ما غاب عنك وعن قومك ﴿**نوحيه إليك**﴾ نلقيه عليك معجزة وتذكيراً وتبصرة وموعظة وعبرة.

ووجه الإعجاز فيه: انّ ما غاب عن الإنسان يمكن أن يحصل عليه بدراسة الكتب، أو التعلّم، أو الوحي، والنبيُّ ﷺ، لم يشاهد هذه القصص، ولا قرأها من الكتب، ولا تعلّمها، إذ كان نشوءه بين أهل مكة ولم يكونوا أهل كتاب، فوضح أنّ الله سبحانه وتعالى أوحى إليه بها، وفي ذلك دليل على صحّة نبوته.

قوله: ﴿**وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم**﴾ الآية الكريمة نبَّهتْ على أمر لم يعلمه النصارى أنفسهم فضلًا عن غيرهم، وهو أنّ حنّة أم مريم عليها السلام أقبلت بها إلى بيت المقدس حيث يجتمع الأحبار والعبّاد، فقالت: دونكم النذيرة، فتشاحوا عليها مع وجود سيّدهم ونبيّهم زكريّا عليه السلام، علماً أنه أولى بها لأنّه زوج خالتها، رغم هذا كلّه أنّ نفوسهم لم تكن لتسمح بالتنازل عنها، لذلك اقترعوا، وكانت قرعتهم أن يلقوا أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة في ماء جار، فمن ثبت قلمه على الماء أخذها فألقوا أقلامهم في الماء، فارتفع قلم زكريّا فوق الماء، وانحدرت أقلامهم ورسبت في الماء فأخذها فكان القيّم والكفيل لها.

قوله تعالى: **﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح﴾** لقد مشى الاسرائيليون أشواطاً طويلة في طريق الضلال، وطبعت نفوسهم على الشقاق والخلاف، وبعدوا بعداً شاسعاً عن تعاليم السماء، فقد مرنوا على عبادة العجل، عبدوه في عهد موسى عليه السلام وهارون عليه السلام يصرخ فيهم **﴿يا قوم إنما فتنتم به﴾** وعبدوه بعد وفاة سليمان عليه السلام، فقد صنع لهم (يربعام بن بناط) عجلين من ذهب وضعهما في (دان) و (بيت إبل) وقال: هوذا آلهتك يا اسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر، وأمر الناس بعبادتهما والحج إليهما فأطاعوا[1].

فبعد هذا المضي قدماً في الضلال أصبح لا يكفي لاستصلاحهم بعثة نبيٍّ مزوّد بمعجز، بل يحتاج إلى تهيئة نفوسهم قبل البعثة، ولا تهيئة أنفع من أن تلد عابدتهم وبنت سيّدهم طفلاً عن طريق الإعجاز، وأن يتكلم وقتئذٍ إتماماً للمعجزة، وإقامة للحجّة، وقد حصل كل هذا لنبي الله عيسى بن مريم عليه السلام.

☼

٤ - قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ [المائدة: ١١٠].

وهذا موضوع مهم جدّاً، وبالغ الخطورة، ولا يتعلّق بنبيّ الله عيسى عليه السلام، بل هو يشمل جميع البشر، فكل واحد منّا نعم الله جلّ جلاله عليه كثيرة لا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

والغرض من الأمر بتذكّرها لأنّها تدعو إلى الطاعة، كما أنّ ذكرها

---

(١) مناظرة السيد بحر العلوم مع علماء اليهود: ٩.

يدعو للمزيد ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومن المؤسف أنّ الإنسان يتذكّر دائماً السلبيّات، وينسى النعم، فمثلًا: التاجر الذي يتعاطى خمسين نوعاً من البضائع، ثمان وأربعون منها ناجحة يربح بها، واثنتان منهما كاسدة، يخسر بهما فتراه يشكو ويتحدّث دائماً عن هاتين الكاسدتين، ويتناسى البضائع المربحة.

قوله تعالى: **﴿إذ أيدتك بروح القدس﴾** يذكّره جلّ جلاله بألطافه عليه، وبما وهبه من معاجز، ولك أن تسمّيها: دلائل النبوّة، والحجج التي تلزم الأمّة بمتابعته، ولعمري لو أنصف الاسرائيليون أنفسهم لوجدوا القليل منها يكفيهم يقيناً على نبوّته عليه السلام.

وروح القدس: هو جبرائيل عليه السلام، والمعنى: انّا قوّيناه وأيدناه بجبرائيل، فكان يلازمه **﴿تكلّم الناس في المهد وكهلًا﴾** في حال ما كنت صبيّاً في المهد، وفي حال ما كنت كهلًا **﴿وإذ علمتك الكتاب﴾** الكتابة **﴿والحكمة﴾** العلم والشريعة **﴿والتوراة والانجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير﴾** واذكر أيضاً إذ تصوّر الطين كهيئة الطير الذي تريد، كخلقته وصورته **﴿بإذني﴾** تفعل ذلك بإذني وأمري **﴿فتنفخ فيها﴾** تنفخ فيها الروح **﴿فتكون طيراً بإذني﴾** إذا نفخ فيها المسيح الروح قلبها الله لحماً ودماً، وخلق فيها الحياة، فصارت طائراً بإذن الله، بأمره وإرادته لا بفعل المسيح **﴿وتبرىء﴾** تصحح **﴿الأكمه﴾** الذي ولد أعمى **﴿والأبرص﴾** من به برص مستحكم **﴿بإذني﴾** بأمري، ومعناه: إنّك تدعوني حتى أبرىء الأكمه والأبرص، ونسب ذلك إلى المسيح لما كان بدعائه وسؤاله **﴿وإذ تخرج الموتى بإذني﴾** أذكر إذ تدعوني فأحيي الموتى عند دعائك، وأخرجهم من القبور حتّى يشاهدهم الناس أحياء **﴿وإذ كففت بني اسرائيل عنك﴾** عن قتلك وأذيتك

﴿إذ جئتهم بالبيّنات﴾ حين جئتهم بالحجج والمعجزات **﴿فقال الذين كفروا﴾** وجحدوا نبوتك **﴿منهم﴾** من بني اسرائيل **﴿إن هذا إلّا سحر مبين﴾** ما جاء به عيسى سحر ظاهر واضح **﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين﴾** ألقيت إليهم بالآيات التي أريتهم إيّاها **﴿أن آمنوا بي وبرسولي﴾** صدّقوا بي وبعيسى أنه عبدي ونبيي **﴿قالوا﴾** الحواريّون **﴿آمنّا﴾** صدّقنا **﴿واشهد﴾** يا الله **﴿بأنّنا مسلمون﴾** الآية الكريمة تفيد بأنّ جميع الأنبياء عليهم السلام بعثوا بالإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

قوله تعالى: **﴿إذ قال الحواريّون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربّك أن ينزّل علينا مائدة من السماء﴾** سألها الحواريّون لتكون برهاناً جديداً لنبيّهم، ومدعاة لهم لرسوخ العقيدة، وربّما استهدفوا من ذلك أنّها تكون وسيلة لإيمان الخلق لذا تراهم يقولون: **﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾**.

لقد نهاهم عليه السلام عن ذلك **﴿قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾** لأنّ ما جاء به من الآيات والمعاجز يكفيهم وللأمة كلّها حجة ودلالة على صدق الرسالة، وأيضاً في سؤالهم محذور آخر، وهو: أنّ الأمة إذا طلبت من نبيّها آية معيّنة، وجاءهم بها، ثم كذّبوا، يعجّل الله جلّ جلاله عليهم بالعذاب، كما حصل لثمود لما طلبوا الناقة، ألا تسمع قوله تعالى حاكياً قول أهل مكة: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

ولكنّه صلوات الله عليه بعد إصرارهم طلب من الله جلّ جلاله أن يجيب اقتراحهم، وأن ينزل عليهم خواناً فيه طعام **﴿قال عيسى ابن مريم اللهمّ ربّنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً﴾** نتخذ اليوم الذي تنزل فيه المائدة عيداً نعظّمه ومن يأتي بعدنا **﴿لأولنا وآخرنا﴾** لأهل زماننا ومن يأتي بعدنا **﴿وآية منك﴾** ودلالة منك عظيمة الشأن تأخذ بقلوب العباد إلى

الإقرار بمدلولها، والاعتراف بالحق الذي يشهد به ظاهرها، تدل على توحيدك، وصحّة نبوّة نبيّك ﴿**وارزقنا وأنت خير الرازقين**﴾ اجعل ذلك رزقاً لنا.

﴿**قال الله إنّي منزلها عليكم**﴾ استجاب الله جلّ جلاله لهم بعد أن اشترط عليهم ﴿**فمن يكفر بعد منكم فإنّي أعذّبه عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين**﴾ وفعلًا لما كفروا بعد نزول المائدة مسخوا قردة وخنازير، وبعد ثلاث نقلوا إلى جهنم.

صفة المائدة وخصائصها

الرواية عن سلمان الفارسي رضوان الله عليه: فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين، غمامة من فوقها وغمامة من تحتها، وهم ينظرون إليها وهي تهوي منتقضّة حتّى استقرت بين أيديهم، فبكى عيسى عليه السلام وقال: اللهمّ اجعلني من الشاكرين اللهمّ اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة؛ وهم ينظرون إليها، فنظروا إلى شيء لم يروا مثله قط، ولم يجدوا ريحاً أطيب من رائحة ذلك، . . ثم كشف المنديل عنها وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا هو بسمكة مشويّة تسيل سيلاناً من الدسم، وعند رأسها ملح، وعند ذنبها خلّ، وحواليها من أنواع البقول، وإذا خمسة أرغفة، على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد.

فقال شمعون: يا روح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة؟ فقال عيسى عليه السلام: ليس ما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة، ولكن افتعله الله بالقدرة الغالبة، كلوا ما سألتم يمددكم ويزدكم من فضله. . فدعا لها عيسى أهل الفاقة والمرضى، وأهل البرص والجذام والمبتلين، وقال: كلوا من رزق الله ولكم الهناء، ولغيركم البلاء فأكلوا منها، وصدر

عنها ألف وثلاثمائة رجل من فقير وزمن ومريض ومبتلى، كلّهم شبعان يتجشأ، ثم نظر عيسى إلى السمكة فإذا هي كهيئتها حين نزلت من السماء، ثم طارت إلى السماء صعداً وهم ينظرون إليها حتّى توارت عنهم، فلم يأكل منها يومئذٍ مريض إلّا برىء، ولا زمن إلّا صح، ولا مبتلى إلّا عوفي، ولا فقير إلّا استغنى، ولم يزل غنياً حتّى مات[1].

☼

قوله تعالى: ﴿**وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلهين من دون الله**﴾.

إنّ هذا السؤال من العليم الخبير لعيسى عليه السلام إقامة للحجّة على القائلين بالتأليه له عليه السلام.

يقول أمين الإسلام: هذا وإن خرج مخرج الاستفهام فهو تقريع وتهديد لمن ادعى ذلك من النصارى، كما جرى في العرف بين الناس أنّ من ادعى على غيره قولًا فيقال لذلك الغير المدّعى عليه ذلك القول: أأنت قلت هذا القول؟ ليقول: لا، فيكون ذلك استعظاماً لذلك القول، وتكذيباً لقائله ﴿**قال**﴾ يعني عيسى ﴿**سبحانك**﴾ جلّ جلالك، وعظمت وتعاليت، ثم تبرّأ من قول النصارى فقال: ﴿**ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقّ**﴾ لا يجوز لي أن أقول لنفسي ما لا يحق لي، فآمر الناس بعبادتي وأنا عبد مثلهم ﴿**إن كنت قلته فقد علمته**﴾ يريد أنّي لم أقله، لأنّي لو كنت قلته لما خفي عليك ﴿**تعلم ما في نفسي**﴾ في هاتين الآيتين جاء التأكيد تلو التأكيد على علمه جلّ جلاله بما يضمر الإنسان فضلًا عما يعمله، ومعنى الآية: تعلم من أسراري التي لا يعلمها غيرك، ثم أكد ذلك ﴿**إنك أنت علّام الغيوب**﴾

---

(١) عرائس المجالس: ٣٩٩.

لا يغيب عنك علم شيء، ثمّ أكده ثالثاً: ﴿وأنت على كلّ شيء شهيد﴾ أنت عالم بجميع الأشياء، لا تخفى عليك خافية في الأرض ولا في السماء.

لهذا يجب على كلّ واحد منّا أن يتقيّد بحركاته وتصرّفاته، لا سيّما والسميع البصير يشهدها، والملائكة يسجّلونها، وأعضاء الإنسان شاهدة عليه ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

لم أقل للناس إلّا ما أمرتني به من الإقرار لك بالعبوديّة وأنّك ربّي وربّهم، وإلهي وإلههم، وأمرتهم أن يعبدوك وحدك، ولا يشركوا معك غيرك في العبادة.

قوله: ﴿وكنت عليهم شهيدا﴾ الأنبياء عليهم السلام هم المبلّغون عن الله جلّ جلاله، فهم يشهدون يوم القيامة على من بُعثوا إليهم، وأنّهم صلوات الله عليهم قد بلّغوهم رسالات الله جلّ جلاله ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفتح: ٨] إنّ هذا المشهد للأنبياء عليهم السلام يزيد من مأساة المجرمين في ذلك اليوم العصيب لاجتماع الشهادات الصادقة عليهم ﴿ما دمت﴾ حيّاً ﴿فيهم﴾ بما شاهدته وعلمته، وبما أبلغتهم من رسالتك التي حملتنيها، وأمرتني بأدائها إليهم ﴿فلمّا توفيتني﴾ أمتني ﴿كنت أنت الرقيب عليهم﴾ الحفيظ ﴿وأنت على كلّ شيء شهيد﴾ أنت عالم بجميع الأشياء، لا تخفى عليك خافية، ولا يغيب عنك شيء ﴿إن تعذّبهم فإنّهم عبادك﴾ لا يقدرون على دفع شيء عن أنفسهم ﴿وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم﴾ في هذا تسليم الأمر لمالكه، وتفويضه إلى مدبّره، وتبرؤ من أن يكون إليه شيء من أمور قومه. والعزيز: هو المنيع القادر الذي لا يُضام، والقاهر الذي لا يُرام، والحكيم: هو الذي يضع الأشياء مواضعها، ولا يفعل إلّا الحسن الجميل.

قوله: ﴿قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ وكما أنّ الصادقين

ينتفعون بصدقهم في ذلك اليوم، ويجدون ثواب ذلك جنّة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين، كذلك بقيّة أعمال البر وجميع الصالحات هي وحدها النافعة في تلك المواقف المهولة، إنّه يجدها أمامه في وقت هو في أمس الحاجة إليها، ويندم كثيراً على عدم الاستزادة منها، لما يرى من عظيم الأجر والمثوبة عليها.

قوله: ﴿**لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها**﴾ دائمين فيها، في نعيم مقيم لا يزول ﴿**رضي الله عنهم**﴾ بما فعلوا ﴿**ورضوا عنه**﴾ بما أعطاهم من الجزاء والثواب ﴿**ذلك الفوز العظيم**﴾ وهو ما يحصلون عليه من الثواب.

والمسيحيون اليوم في معزل عن عيسى وأمّه وربّه، والاتجاه للمادة، وللملاذ المحرّمة في الشريعة والقانون، وهذا هو السبب الذي جعلهم يبتعدون عن الإسلام، لأنّهم لا يريدون الإلتزام بقوانين السماء ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣].

☼

٦ - قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦].

هذه السورة المباركة باسم الصديقة مريم ابنة عمران عليها السلام، أم سيّدنا المسيح عليه السلام، تستعرض جانباً مهماً من حياتها الكريمة وحياة السيد المسيح عليه السلام والمراد بقوله: ﴿**واذكر...**﴾ اذكر في القرآن حديث مريم وولادتها، وما رافقها من اعجاز، ولأجل أن تقتدي الأمة بهذا النهج من الطهارة والعفاف.

وأيضاً: إنّ هذا التفصيل لحدث مرّت عليه المئات من السنين، ولا

علم للعرب به، بل انّ المسيحيين لم يكونوا يحيطون بتفصيله، لما يدل على أنّ هذا الكتاب الذي أنزل عليك يا محمد من العليم الخبير.

قوله: ﴿**إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً**﴾ انفردت عن أهلها من جهة المشرق للتفرّغ للعبادة ﴿**فاتخذت من دونهم حجاباً**﴾ فضربت من دون أهلها لئلا يرونها ستراً وحاجزاً بينها وبينهم ﴿**فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوياً**﴾ فبينما هي في خلوتها وعزلتها تتعبّد وإذا بجبرائيل عليه السلام قد انتصب أمامها في صورة آدمي، لقد ذعرت من هذا المشهد كثيراً و ﴿**قالت إنّي أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا**﴾؛ إني أعتصم بالرحمن من شرّك فاخرج من عندي، إن كنت ممن يخاف الله ويتقيه؛ وهكذا ينبغي للمسلم عندما يخاف شيئاً، ويحذر مكروهاً، أن يتوجّه إلى الله جلّ جلاله، فهو القادر المانع.

قوله: ﴿**قال إنّما أنا رسول ربّك لأهب لك غلاماً زكيا**﴾ ويجيبها عليه السلام بما لم يخطر على بالها، ولم يمر بمخيلتها أخبرها بأنّه مبعوث من قبل الله جلّ جلاله ليهب لها ولداً طاهراً من الأدناس؛ فزاد ذلك من قلقها وخوفها، و ﴿**قالت أنّى يكون لي غلام**﴾ ورغم ما هي فيه من حيرة ووجل إلّا أنّها سارعت معترضة على الموضوع، وأنّ ذلك من المستحيل ﴿**قالت أنّى يكون لي غلام**﴾ كيف يكون لي ولد ﴿**ولم يمسسني بشرٌ**﴾ على وجه الزوجيّة ﴿**ولم أك بغيا**﴾ ولم أكن زانية، وإنّما قالت ذلك لأنّ الولد في العادة يكون من احدى هاتين الجهتين. فأجابها ﴿**كذلك قال ربّك هو عليّ هين**﴾ إحداث الولد من غير زوج للمرأة سهل متأت، لا يشق عليّ، فسبحانه من عظيم إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون.

وأنت رعاك الله وأعزّك عندما توصد في وجهك الأبواب، وينقطع عنك العون، توجّه بحاجتك إلى قاضي الحاجات، ولا تقصد سواه،

فستجده كما وصف نفسه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

ثمّ بشّرها ﴿**ولنجعله آية للناس**﴾ ولنجعله علامة ظاهرة، وآية باهرة للناس، يلزمهم الإقرار بنبوّته، ودلالة على براءة أمّه ﴿**ورحمة منّا**﴾ ولنجعله نعمة منّا على الخلق يهتدون بسببه ﴿**وكان أمراً مقضيا**﴾ وكان خلق عيسى من غير ذكر أمراً كائناً مفروغاً منه محتوماً، قضى الله سبحانه بأن يكون، وحكم به.

قوله: ﴿**فحملته**﴾ فحملت مريم في الحال؛ إنّ جبرائيل عليه السلام أخذ ردن قميصها باصبعه فنفخ فيه، فحملت، وكمل الولد في الرحم من ساعته كما يكمل الولد في أرحام النساء عن مضي تسعة أشهر.

إنّ هذا الحدث الغريب بمجموعه جعل أمّة كبيرة تقول بالوهيته عليه السلام، وهذا ما احتج به نصارى نجران حينما جاءوا إلى المدينة للاجتماع بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، ونزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فخلقه آدم عليه السلام ادعى للعجب لو أنصف القوم، إنّ قدرات الله جلّ جلاله لا تنتهي عند حدّ، ولا يحيط بها الخلق ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

قوله: ﴿**فانتبذت به مكاناً قصيا**﴾ تنحّت عن مكانها إلى محل بعيد، ومدّة حملها ساعة واحدة ﴿**فأجاءها المخاض**﴾ ألجأها الطلق ووجع الولادة ﴿**إلى جذع النخلة**﴾ فالتجأت لتستند إليها ﴿**قالت يا ليتني متُّ قبل هذا**﴾.

وقد تنزل بالإنسان نكبات ومكاره لا يطيقها، ويتضايق منها تمام

المضايقة، ويتمنّى عندها الموت، ولكنّ الله جلّ جلاله تدبيراً لا يدركه العبد فربّما كان البلاء مفتاحاً لفتح عظيم، ومدرجاً للسمو والرفعة في الدنيا والآخرة.

وأنت لا تدرك ما نزل بالصدّيقة مريم عليها السلام من الوجد والحزن والألم حتّى تمنّت الموت، بل وأكثر من الموت ﴿**وكنت نسيا منسيّا**﴾ شيئاً حقيراً متروكاً.

ولكن ما تصوّرته صلوات الله عليها من مأساة بلغ بها إلى أقصى مراتب السمو والرفعة في الدنيا والآخرة، وحسبها من الشرف الطائل أنها احدى أربع نسوة فضلن على نساء العالمين.

قوله: ﴿**فناداها من تحتها**﴾ وبعد الشدّة يكون الفرج، وقد تتقدّمه بشائر الخير، ففي الوقت الذي تتضايق فيه الصديقة تمام المضايقة، في تلك اللحظة يناديها وليدها ﴿**ألا تحزني**﴾ لا تغتمي ﴿**قد جعل ربّك تحتك سريّا**﴾ نهراً تشربين منه وتتطهرين من النفاس، علماً أنّ النهر كان انقطع عنه الماء، ولكنّ الله سبحانه وتعالى أجرى فيه الماء، كما أحيى ذلك الجذع حتّى أورق وأثمر، وأمرت بهزّه ﴿**وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيّا فكلي واشربي**﴾ كلي من الرطب، واشربي من هذا الماء، وأعظم هذا كلّه ﴿**وقرّي عينا**﴾وطيبي نفساً، ولتقر عينك سروراً بهذا الولد.

قوله: ﴿**فإمّا ترينّ من البشر أحداً**﴾ فسألك عن ولدك ﴿**فقولي إنّي نذرت للرحمٰن صوماً**﴾ صمتاً، والمعنى: أوجبت على نفسي لله أن لا أتكلّم، وإنّما أمرت بالصمت ليكفيها الكلام ولدها بما يبرىء به ساحتها ﴿**فلن أكلّم اليوم إنسيّا**﴾ إنّي صائمة، فلن أكلّم اليوم أحداً.

قوله: ﴿**فأتت به قومها تحمله**﴾ انطلقت بوليدها إلى البلد بعد أن لفّته في خرقة، واستقبلها قومها أسوأ استقبال، متناسين قدسيتها ومنزلة أبيها

فيهم ﴿قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريّا﴾ أمراً عظيماً، إذ لم تلد أنثى قبلك من غير رجل ﴿يا أخت هارون﴾ إنّ هارون هذا كان رجلًا صالحاً في بني اسرائيل، يُنسب إليه كل من عُرف بالصلاح، والمراد: يا شبيهة هارون في الصلاح ما كان هذا معروفاً منك ﴿ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمّك بغيّا﴾ كان أبواك صالحين، فمن أين جئت بهذا الولد؟ ﴿فأشارت إليه﴾فأومأت إلى عيسى بأن كلّموه، واستشهدوه على براءة ساحتي فتعجّبوا من ذلك، ﴿قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيّا﴾ كيف نكلّم طفلًا في المهد؟!.

قوله: ﴿قال إنّي عبد الله﴾ قاتل الله الشيطان وسبله، فقد جعل اليهود يفترون على نبيِّ الله عيسى وأمّه، ويقذفونهما بالبهتان، وجعل النصارى يؤلّهونه، بل بعضهم الّه أمّه الصديقة كما ذكر الشيخ الطوسي رحمه الله في تفسيره.

إنّ أوّل ما تكلّم به الوليد النبيُّ ﴿قال إنّي عبدالله﴾ قدّم إقراره بالعبودية ليبطل قول من يدّعي له الربوبيّة والمغالاة ﴿آتاني الكتاب وجعلني نبيّا﴾ إنّ الله تعالى أكمل عقله في صغره، وأرسله إلى عباده وكان نبيّاً مبعوثاً إلى الناس في ذلك الوقت، مكلّفاً عاقلًا، ولذلك كانت له تلك المعجزة.

قوله: ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾ وجعلني معلّماً للخير، والبركة: نماء الخير، والمبارك: النفّاع ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّا﴾ إنّ الصلاة بموجب هذا النص القرآني أهم الواجبات الإسلامية الملقاة على عاتق كلِّ مسلم ومسلمة وأنّ القرآن الكريم ذكر الصلاة ٩٩ مرّة، ووردت مقرونة بالزكاة ٢٧ مرّة، ولا عذر لمسلم أن يتساهل في أدائهما، والآية الكريمة تنبيه للمسلم على ضرورة الاستمرار في أداء هاتين الفريضتين ما دام على قيد الحياة.

وتحدّث الثعلبي عن صلاة عيسى عليه السلام فقال: ولم يتخذ بيتاً ولا حلية ولا متاعاً ولا ثياباً ولا رزقاً إلّا قوت يومه، وكان حينما غابت الشمس صفّ قدميه وصلى حتّى يصبح.

ونختم الفصل بأحاديث الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في عقاب تارك الصلاة، ومانع الزكاة.

١ - قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: في جهنّم واد فيه حيّات، كل حيّة ثخن رقبة البعير، تلسع تارك الصلاة، فيغلي سمّها في جسمه سبعين سنة ثم يتهرّى لحمه[١].

٢ - وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا تضيّعوا صلاتكم فإنّ من ضيّع صلاته حشر مع قارون وهامان وكان حقّاً على الله أن يدخله النار[٢].

٣ - وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ما بين المسلم والكافر إلّا أن يترك الصلاة الفريضة متعمّداً، أو يتهاون بها فلا يصلّيها[٣].

٤ - وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما من ذي زكاة مال، إبل ولا بقر ولا غنم، يمنع زكاة ماله إلّا أقيم يوم القيامة بقاع قفر، ينطحه كل ذات قرن بقرنها، وينهشه كل ذات ناب بأنيابها، يطؤه كل ذات ظلف بظلفها، حتى يفرغ الله من حساب خلقه، وما من ذي زكاة نخل ولا زرع ولا كرم، يمنع زكاة ماله إلّا قلّدت أرضه في سبعة أرضين، يطوّق بها يوم القيامة[٤].

٥ - وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيّما رجل له مال لم يعط حقَّ الله منه إلّا جعله الله على صاحبه يوم القيامة شجاعاً له زبيبتان ينهشه حتى يقضى بين الناس، فيقول: مالك ومالي؟.

(١) عرائس المجالس: ٣٨٧.
(٢) الكبائر: ٥٣.
(٣) الخصال: ٦.
(٤) عيون أخبار الرضا: ٢/ ٣٠.

فيقول: أنا كنزك الذي جمعت لهذا اليوم.

قال: فيضع يده فيقضمها[(١)].

قوله تعالى: ﴿**وبرّاً بوالدتي**﴾.

وهو قريب مما جاء عن لسان يحيى بن زكريّا عليه السلام: ﴿**وبرّاً بوالديه ولم يكن جبّاراً عصيّا**﴾.

وأظن هذا يكفي المسلم في أن يبذل جهده في طاعة والديه وبرّهم لا سيّما وقت شيخوختهما وحاجتهما للرعاية والعناية.

قوله: ﴿**ولم يجعلني جبّاراً**﴾ متجبراً، أوقع بالبشر وأنكّل بهم

إنّ أعظم مشاكل البشرية اليوم ـ بل وقديماً أيضاً ـ هي مشكلة الجبابره الطغاة وفي عصرنا الحاضر لبس بعض الجبابرة الطغاة أزياء فضفاضة خيطتها لهم معامل الحزبية والصهيونية ﴿**شقيّا**﴾ الشقي: التعس غيرالسعيد.

قوله: ﴿**والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّا**﴾ وسلامة وأمان له منّا، والمراد: وأمن له يوم ولد من عبث الشيطان به وإغوائه إيّاه، ويوم يموت من عذاب القبر، ويوم يبعث حيّا: من هول المطّلع، وعذاب القبر قوله: ﴿**ذلك عيسى ابن مريم**﴾.

الذي قال: إنّي عبدالله عيسى ابن مريم، لا ما يقوله النصارى إنّه ابن الله، أو الله، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً ﴿**قول الحق**﴾ أحق الحق ﴿**الذي فيه يمترون**﴾ يشكّون، يعني اليهود والنصارى، فزعمت اليهود أنّه ساحر كذّاب، وزعمت النصارى أنّه ابن الله، وثالث ثلاثة ﴿**ما كان لله أن**

---

(١) عقاب الأعمال: ٢٣١

يتخذ من ولد﴾ ما كان ينبغي لله أن يتخذ من ولد، لا يصلح له ولا يستقيم **﴿سبحانه﴾** تنزّه عن ذلك **﴿إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون﴾** لا يتعذّر عليه إيجاد شيء على الوجه الذي أراده، وإنّ ما قضاه من الأمور فأراد كونه فإنّما يتكوّن ويدخل تحت الوجود من غير امتناع أو توقّف، فينتفي العجب من مجيء عيسى من دون أب.

مواعظ

﴿قل إنّما أعظكم بواحدة﴾.

الموعظة: هي النصيحة التي ينصح فيها المسلم أخاه، يرشده بها إلى سلوك الطريق الموصل إلى الله تعالى، وينهاه عن سلوك الطريق الذي يؤدّي به إلى الهلاك والغرض من بعثه الأنبياء عليهم السلام هداية الناس وارشادهم، وحثّهم على عمل الخير، والابتعاد عن المعاصي والآثام.

نذكر في هذا الفصل بعض ما ورد من مواعظ نبيِّ الله عيسى ابن مريم عليه السلام:

١ - قال الإمام الصادق عليه السلام: كان عيسى بن مريم يقول لأصحابه: يا بني آدم اهربوا من الدنيا إلى الله، واخرجوا قلوبكم عنها فإنكم لا تصلحون لها ولا تصلح لكم، ولا تبقون فيها ولا تبقى لكم، هي الخدّاعة الفجّاعة، المغرور من اغترّ بها، المغبون من اطمأنّ إليها، الهالك من أحبّها وأرادها، فتوبوا إلى الله بارئكم، واتقوا ربّكم، واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، أين آباؤكم، أين أمهاتكم، أين اخوانكم، أين أولادكم؟ دعوا فأجابوا، واستودعوا الثرى، وجاوروا الموتى، وصاروا في الهلكى، وخرجوا عن الدنيا، وفارقوا الأحبّة، واحتاجوا إلى ما قدّموا، واستغنوا عما خلّفوا؛ فكم توعظون، وكم

تزجرون وأنتم لاهون ساهون؟ مثلكم في الدنيا مثل البهائم، همتكم بطونكم وفروجكم، أما تستحيون ممن خلقكم وقد أوعد من عصاه على النار، ولستم ممن يقوى على النار، ووعد من أطاعه الجنّة، ومجاورته في الفردوس الأعلى، فتنافسوا فيه، وكونوا من أهله، وانصفوا من أنفسكم، وتعطّفوا على ضعفائكم وأهل الحاجة منكم، وتوبوا إلى الله توبة نصوحاً، كونوا عبيداً أبراراً، ولا تكونوا ملوكاً جبابرة، ولا من العتاة الفراعنة المتمرّدين على من قهرهم بالموت، جبّار الجبابرة، ربّ السماوات وربّ الأرضين، وإله الأوّلين والآخرين، مالك يوم الدين، شديد العقاب، أليم العذاب، لا ينجو منه ظالم، ولا يفوته شيء، ولا يعزب عنه شيء، ولا يتوارى منه شيء؛ أحصى كل شيء علمه، وأنزله منزلته في جنّة أو نار(١).

٢ - وقال الإمام الرضا عليه السلام: قال عيسى بن مريم للحواريين: يا بني اسرائيل لا تأسوا(٢) على ما فاتكم في دنياكم إذا سلم دينكم، كما لا يأسي أهل الدنيا على ما فاتهم من دينهم إذا سلمت دنياهم(٣).

٣ - وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ عيسى بن مريم قام في بني اسرائيل فقال: يا بني اسرائيل لا تحدّثوا بالحكمة الجهّال فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، ولا تعينوا الظالم على ظلمه فيبطل فضلكم(٤).

٤ - وقال الإمام الصادق عليه السلام: قال الحواريّون لعيسى بن مريم: يا معلّم الخير اعلمنا أي الأشياء أشد؟.

قال: أشد الأشياء غضب الله عزّ وجلّ.

قالوا: فبم يُتقى غضب الله؟.

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق: ٤٤٦.
(٢) لا تأسوا: لا تحزنوا.
(٣) أمالي الشيخ الصدوق: ٢٠١.
(٤) بحار الأنوار: ٢/٦٦.

قال: بأن لا تغضبوا.

قالوا: وما بدء الغضب؟.

قال: الكبر، والتجبّر، ومحقرة الناس[١].

٥ - وقال رسول الله ﷺ: مرّ عيسى بن مريم عليه السلام بقبر يعذّب صاحبه، ثم مرّ به من قابل فإذا هو ليس يعذّب.

فقال: يا رب مررت بهذا القبر عام أوّل فكان صاحبه يعذّب، ثمّ مررت به العام فإذا هو ليس يعذّب؟.

فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا روح الله إنّه أدرك له ولد صالح فأصلح طريقاً، وآوى يتيماً، فغفرت له بما عمل ابنه[٢].

٦ - وقال الإمام الصادق عليه السلام: كان المسيح يقول: من كثر همّه سقم بدنه، ومن ساء خلقه عذّب نفسه، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر كذبه ذهب بهاؤه، ومن لاحى[٣] الرجال ذهبت مروءته[٤].

٧ - وقال المسيح للحواريين: إنّما الدنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها[٥].

٨ - وقال عيسى بن مريم: طوبى من كان صمته فكراً، ونظره عِبرا، ووسعه بينه، وبكى على خطيئته، وسلم الناس من يده ولسانه[٦].

٩ - وقال الإمام الصادق عليه السلام: قال عيسى بن مريم لأصحابه: تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة ولا ترزقون فيها إلّا بالعمل، ويلكم علماء السوء الأجرة تأخذون والعمل لا

---

(١) الخصال، ص ٦.
(٢) بحار الأنوار: ١٤/ ٢٨٧.
(٣) لاحى: نازع.
(٤) المصدر نفسه: ١٤/ ٣١٨.
(٥) المصدر نفسه: ١٤/ ٣١٨.
(٦) الخصال: ٢٩٥.

تصنعون، يوشك أن ربّ العمل أن يطلب عمله، وتوشكوا أن تخرجوا من الدنيا إلى ظلمة القبر، كيف يكون من أهل العلم من مصيره إلى آخرته وهو مقبل على دنياه، وما يضرّه أشهى إليه مما ينفعه.

١٠ - وقال عيسى عليه السلام: بحقٍّ أقول لكم: كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ به من شدّة الوجع، كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما يجده من حلاوة الدنيا.

وبحقٍّ أقول لكم: إنّ الزق إذا لم ينخرق يوشك أن يكون وعاءً للعسل، كذلك القلوب إذا لم تخرقها الشهوات، أو يدنّسها الطمع، أو يقسها النعم، فسوف تكون أوعية للحكمة[١].

١١ - وقيل لعيسى بن مريم: كيف أصبحت يا روح الله؟.

قال: أصبحت وربّي تبارك وتعالى من فوقي، والنار أمامي، والموت في طلبي، لا أملك ما أرجو، ولا أطيق دفع ما أكره، فأيّ فقير أفقر مني[٢].

١٢ - وقال عليه السلام: من ذا الذي يبني على موج البحر داراً؟ تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً[٣].

١٣ - وقال عليه السلام: لا تدري متى يغشاك الموت لِمَ لا تستعد له قبل أن يفجأك[٤].

١٤ - وقال عليه السلام: لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد[٥].

---

(١) عدّة الداعي: ١٠٧.
(٢) أمالي الشيخ الطوسي: ٤٩.
(٣) بحار الأنوار: ١٤/٣٢٦.
(٤) تنبيه الخواطر: ١/٨٦.
(٥) بحار الأنوار: ١٤/٣٢٧.

١٥ - وقيل لعيسى عليه السلام: علّمنا عملًا واحداً يحبّنا الله عليه.

قال: ابغضوا الدنيا يحببكم الله[١].

١٦ - وقال المسيح عليه السلام: بماذا نفع امرؤ نفسه باعها بجميع ما في الدنيا، ثمّ ترك ما باعها به ميراثاً لغيره، وأهلك نفسه؛ ولكن طوبى لامرىء خلّص نفسه، واختارها على جميع الدنيا[٢].

١٧ - وروي أنّه عليه السلام: ذمّ المال، وقال: فيه ثلاث خصال.

فقيل: وما هي يا روح الله؟.

قال: يكسبه المرء من غير حلّه، وإن هو كسبه من حلّه منعه من حقّه، وإن هو وضعه في حقّه شغله اصلاحه عن عبادة ربّه[٣].

١٨ - وكان عليه السلام إذا مرّ بدار قد مات أهلها وخلف فيهم غيرهم يقول: ويحاً لأربابك الذين ورثوك، كيف لم يعتبروا بإخوانهم الماضين[٤].

١٩ - فكان عليه السلام يقول: يا معشر الحواريين تحبّبوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقرّبوا إلى الله بالتباعد عنهم، والتمسوا رضاه بسخطهم[٥].

٢٠ ـ وقال عليه السلام لأصحابه: استكثروا من الشيء الذي لا تأكله النار.

قالوا: وما هو؟.

قال: المعروف.

---

(١) تنبيه الخواطر: ١/ ١٣٤.
(٢) م.ن: ٢/ ١١٥.
(٣) م.ن: ٢/ ١١٨.
(٤) م.ن: ٢/ ٢١٩.
(٥) م.ن: ٢/ ٢٣٥.

٢١ - وقال رسول الله ﷺ: قال الحواريّون لعيسى: يا روح الله من نجالس؟.

قال: من يذكّركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويرغّبكم في الآخرة عمله[١].

٢٢ - وقال عيسى عليه السلام للحواريين: ارضوا بدنيّ الدنيا مع سلامة دينكم، كما رضي أهل الدنيا بدنيّ الدين مع سلامة دنياهم، وتحبّبوا إلى الله بالبعد منهم، وارضوا الله في سخطهم[٢].

٢٣ - كان عيسى عليه السلام يقول: حبُّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، والنظر يزرع في القلب الشهوة[٣] وربّ شهوة أورثتها أهلها حزناً طويلاً[٤].

٢٤ - وقال عليه السلام: طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتّى يقتله.

٢٥ - وقال عليه السلام طوبى لعين نامت ولم تحدث نفسها بالمعصية، وانتبهت إلى غير اثم.

٢٦ - وعن مالك بن دينار قال: مرّ عيسى وأصحابه بجيفة فقالوا: ما أنتن ريحها.

فقال: ما أبيض أسنانها، لينهاهم عن الغيبة.

وقال عليه السلام: لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم، فإنّ القلب القاسي بعيد من الله. . . .

٢٧ - وقال عليه السلام: تعجبت من ثلاث: طالب الدنيا والموت يطلبه، وباني القصور والقبور منزله، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه؛ ابن آدم لا

---

(١) بحار الأنوار: ١٤/ ٣٣١.
(٢) عدّة الداعي: ١٢٢.
(٣) روضة الواعظين: ٢/ ٣٧٠.
(٤) قصص الأنبياء لابن كثير: ٦٠٦.

بالكثير تشبع، ولا بالقليل تقنع، تجمع مالك لمن لا يحمدك، وتقدم على ربّك لا يعذرك، إنّما أنت عبد بطنك وشهوتك. . . . . وأنت يا ابن آدم ترى حشد مالك في ميزان غيرك[١].

٢٨ - وقال عليه السلام: من تعلّم وعلّم وعمل، دعي عظيماً في ملكوت السماء.

٢٩ - وقال عيسى للحواريين: كلوا خبز الشعير، واشربوا الماء القراح، واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين، بحقٍّ ما أقول لكم: إنّ حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وإنّ مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وإنّ عباد الله ليسوا بالمتنعمين، بحقٍّ ما أقول لكم: إنّ شرّكم عالم يؤثر هواه على علمه[٢].

أنصار الله

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: استنصركم وله جنود السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم، واستقرضكم وله خزائن السماوات والأرض وهو العزيز الحميد، أراد أن يبلوكم أيّكم أحسن عملًا.

والمراد: أنّ النصرة التي دعا إليها سبحانه وتعالى ترمز إلى عمل يرفع المسلم دنيا وآخرة، ويأخذ بيده إلى الدرجات الرفيعة.

في الذكر الحكيم: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا كونوا أنصار الله**﴾ أي أنصار دينه، وأعوان نبيّه ﴿**كما قال عيسى ابن مريم**﴾ أي مثل قول عيسى بن مريم للحواريين، وهم خاصة الأنبياء، وسُموا بذلك لأنّهم أخلصوا من كل عيب ﴿**من أنصاري إلى الله**﴾ قل يا محمد إنّي أدعوكم إلى هذا الأمر كما دعا عيسى قومه فقال: من أنصاري فيما يقرّب إلى الله ﴿**قال الحواريّون نحن**

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ٦٠٦.

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير: ٦٠٦.

أنصار الله﴾ أي أنصار دين الله، وأولياء الله **﴿فآمنت طائفة من بني اسرائيل﴾** صدّقت بعيسى **﴿وكفرت طائفة أخرى﴾**.

☼

﴿إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾.

وبعد أن انتشر الإسلام في الجزيرة العربية وكاد يشملها جميعاً، كتب رسول الله ﷺ إلى ملوك الدنيا يدعوهم إلى الإسلام، كتب إلى كسرى أنوشروان ملك فارس، وإلى قيصر ملك الروم، وإلى النجاشي ملك الحبشة، وإلى المقوقس ملك مصر، وإلى غيرهم من الملوك، يطلب منهم الاستجابة لنداء السماء؛ تأمّل قيصر في الأمر فرأى أنّ من الأصلح أن يأخذ رأي رجال الدين في الأمر، فأرسل رسالة الرسول ﷺ إلى نجران[1] وهي يومئذٍ عاصمة المسيحيين الدينية، فيها القسيسون والأساقفة والرهبان، وجل رجالات الدين المسيحي، وطلب منهم دراسة الدعوة المحمدية، وإعطاء رأيهم.

وصلت الرسالة إلى نجران، ودرسها الأساقفة، وأقبل وفد منهم كبير إلى المدينة لمقابلة الرسول الأعظم ﷺ، والاطلاع على الإسلام والمسلمين.

كان وفد نجران أعظم الوفود التي جاءت المدينة، فيهم السيد والعاقب، وهما بمنزلة البابا في هذا العصر إن لم يكونا أكبر منه.

كانت مهمة الوفد الأولى هي مطابقة أوصاف النبي ﷺ وحركاته وسكناته على الكتب التي توارثوها في صفته، ثم اجتمعوا به ﷺ وسألوه بعض الأسئلة، فكان مما سألوه عن اسمه ﷺ، واسم أبيه، وأيضاً سألوه

---

(١) مدينة في الجزيرة العربية، بين الحجار واليمن.

عن والد عيسى عليه السلام، فنزل جبرائيل عليه السلام بالآية الكريمة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

لم يقبل الوفد بالجواب لأنّه خلاف معتقدهم، فهم يزعمون أنه ابن الله، وثالث ثلاثة، ولم يستطيعوا الرد المنطقي لأنّ الحجّة لزمتهم، فآدم عليه السلام في خلقه أعجب من عيسى عليه السلام، لأنّ عيسى عليه السلام له أمّ ولدته، بينما آدم عليه السلام بلا أمّ ولا أب.

وكان المنتظر منهم أن يؤمنوا ويتركوا الخصام والجدل بعد أن لزمهم الحق، ولكنّهم استمرّوا في المكابرة، علماً أنّ بعضهم اقتنع بالإسلام تماماً، وحاول اقناعهم فلم يفلح.

وبعد أن استمرّوا في التمادي في غيهم نزل جبرائيل عليه السلام بالآية الكريمة: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

قال لهم رسول الله ﷺ: هلّموا إلى المباهلة.

قالوا: قد أنصفت يا أبا القاسم، فمتى نباهلك؟.

قال: غداً عند شروق الشمس.

والمباهلة أن يبتهل (يدعو) المتنازعون إلى الله جلّ جلاله أن يلعن المبطل منهم وأن يعجّل في فنائه.

ذهب النصارى إلى رحالهم يتداولون في أمرهم، ويتذاكرون في قضيتهم، فهم في أحرج موقف يمر بالنصرانية، ورغم إلحاح من آمن منهم بالدعوة الإسلامية، وتذكيره لهم بأنّ صفات محمد ﷺ مطابقة لما بين أيديهم من الأناجيل والكتب السماوية الأخرى، بقي جمهورهم في تردد

وعناد، وأخيراً استقرَّ رأيهم في تلك الليلة أن يباهلوا رسول الله ﷺ إذا خرج لمباهلتهم بجمهور المسلمين، لأنّ ذلك يكشف أنّه غير مرسل، يباهل بالكثرة، وإن خرج لمباهلتهم بأهل بيته، فهو نبيٌّ مرسل من الله جلَّ جلاله، فعليهم أن لا يباهلوه مهما كلفهم الأمر، لأنّ مباهلتهم له تستوجب هلاكهم.

على هذا استقرَّ رأيهم وأصبح الصباح، وخرج المسلمون بأجمعهم، لأنّ النبيَّ ﷺ نادى مناديه في تلك الليلة: من أراد أن يشهد عزّ الإسلام، وذل النصرانية فليحضر صباحاً.

وعند اشراقة الشمس خرج رسول الله ﷺ وهو آخذ بيده اليمنى الحسن عليه السلام، وباليسرى الحسين عليه السلام، وخلفه علي بن أبي طالب عليه السلام، وخلفهما فاطمة عليها السلام، وهو يقول لهم: إذا دعوت فأمّنوا.

فسأل العاقب والسيّد: من هؤلاء؟.

فقيل لهما: هذا عليٌّ ابن عمه وزوج ابنته، وهذه ابنته، وهذان الغلامان ابناهما.

فصاحا: لا تباهلوا الرجل فتهلكوا، إنّا نرى وجوهاً لو أقسم بها على الله أن يزيل جبلًا عن مكانه لفعل.

وفجأة تغيّر الجو، وبدت علائم العذاب فصاحوا بأجمعهم: يا أبا القاسم أقلنا أقالك الله، لا نباهلك، وصالحنا على جزية نؤدّيها إليك.

فقال رسول الله ﷺ: والله لو باهلونا لاضطرم الوادي عليهم ناراً، ولأحرق الله نجران وأهله.

صالحهم رسول الله ﷺ عل جزية يدفعونها له في كل سنة، ألفي حلّة، وألفي دينار، يدفعون نصفها في رجب، ونصفها في صفر.

إنّ هذا الحدث العظيم دليل على بطلان المسيحيّة، كما هو في الوقت نفسه دليل على فضل عليّ أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وأنّهم أقرب المسلمين إلى الله تعالى منزلة لذا أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يباهل بهم[١].

مكائد الشيطان

في الوقت الذي أقدّم للقرّاء الأعزاء هذا الحوار أطلب منهم التأمّل جيّداً في ما وصل إليه الشيطان الخبيث من المكر والخداع، حتّى صار له طمع في أنبياء الله جلّ جلاله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

إذا علمت ذلك فتنبّه تماماً للخطر المحدق بك، واحذر هذا العدو اللدود، الذي يراك هو وقبيله من حيث لا تراه، وحاول أن تتلافى جميع نقاط الضعف التي عندك، لأنّ مثله كمثل الجراثيم، تهجم على نقاط الضعف من الجسم، وهو مع ما أوتي من قوّة وهيمنة لم يعطه الله جلّ جلاله السيطرة على أحد من خلقه، بل هو أشبه بصديق السوء، مهمته أن يحبّذ لك السوء، ويزيّن لك المحرّمات، علماً أنّك إذا لم تستجب لندائه في المرّة الأولى فإنّه يتركك إلى غير عودة، وهذا هو المراد من حديث الصادقين صلوات الله عليهم: اطرد الخبيث فإنّه لا يعود.

نعود للحوار: عن ابن عباس قال: لما مضى لعيسى عليه السلام ثلاثون سنة بعثه الله عزّ وجلّ إلى بني اسرائيل، فلقيه إبليس عل عقبة بيت المقدس وهي عقبة أفيق، فقال له: يا عيسى: أنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أن تكوّنت من غير أب.

---

(١) انظر تفاصيل الحادثة في جميع كتب السير والتاريخ.

قال عيسى عليه السلام: بل العظمة للذي كونني، وكذلك كوّن آدم وحوّاء.

قال إبليس: يا عيسى، فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنّك تكلّمت في المهد صبيّا.

قال عيسى: يا إبليس بل العظمة للذي أنطقني في صغري ولو شاء لأبكمني.

قال إبليس: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنّك تخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيه فيصير طيراً.

قال عيسى عليه السلام: بل العظمة للذي خلقني، وخلق ما سخّر لي.

قال إبليس: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنّك تشفي المرضى.

قال عيسى عليه السلام: بل العظمة للذي بإذنه أشفيهم، وإذا شاء أمرضني.

قال إبليس: يا عيسى، فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنه سيأتي عليك يوم تكون السماوات والأرض ومن فيهن دونك، وأنت فوق ذلك كلّه، تدبّر الأمر، وتقسّم الأرزاق.

فأعظم عيسى ذلك من قول إبليس الكافر اللعين، فقال عيسى: سبحان الله ملء سماواته وأرضه، ومداد كلماته وزنة عرشه، ورضا نفسه.

فلما سمع إبليس لعنه الله ذلك ذهب على وجهه، لا يملك من نفسه شيئاً حتّى وقع في اللجة الخضراء[1].

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق: ١٧١.

وموضوع التأليه

لقد مرّ عليك في هذا الكتاب مطامع الشيطان بالأنبياء عليهم السلام ومحاولته في أن يستجيبوا، ـ والعياذ بالله ـ له بعض الاستجابة، علماً منه بعظيم منزلتهم عند المولى جلّ جلاله، وطبيعي أنّ عمله أشد، وسبله أقوى في إضلال سائر الناس، لهذا تجده جهد معهم حتّى عبدوا الأوثان والنيران من دون الله سبحانه وتعالى، ولم يكفه ذلك حتّى جاء إلى أهل الديانتين، فلم يتركهم حتّى جعلوا لله البنين ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً.

ومرّ عليك أن الشيطان يتدرّج بالعبد، ويخطو به خطوة تلو الأخرى في المعصية، فمثلًا: يجعل الشاب يصاحب أصدقاء السوء أوّلًا، والخطوة الثانية يجلس معهم على الشراب، ثم يتذوّقه ليعرف طعمه، وأخيراً يصبح من السكيرين والمدمنين.

وكذلك تدرّج مع بني اسرائيل، فقالوا أوّلًا بأنّه ابن الله، ثم قالوا: بل هو ثالث ثلاثة، ثم قالوا: بل هو الله، لقد شابهوا المشركين في عقائدهم، وهدموا كيان التوحيد الذي هو عماد الشريعة، لقد اختلفوا فيه عليه السلام اختلافاً كبيراً، فبين إفراط وتفريط، فبعضهم لم يكفه الإعراض عنه، والكفر به حتّى بهته وأمّه عليهما السلام، رغم المعاجز الكثيرة التي شاهدوها، من حين ولادته إلى آخر ساعة كان فيها بين ظهرانيهم.

إنّ هذه المعاجز التي ظهرت على يديه صلوات الله وسلامه عليه لو شاهدها غيرهم لأسرع في الاستجابة لنداء السماء، ولكن لبني اسرائيل مزاج خاص في التعنت والإعراض.

وفريق آخر ألهوه واتخذوه إلهاً.

وفريق لم يهضموا دعوى التأليه له عليه السلام، ولكنّهم ضمّوه للإله، وأنّه ثالث ثلاثة، وهذا ما عليه الأكثرية منهم.

نعود للقرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢] وهذا مذهب اليعقوبيّة منهم، لأنّهم قالوا: إنَّ الله اتحد بالمسيح اتحاد الذات فصار شيئاً واحداً، وصار الناسوت لاهوتاً، وذلك قولهم: إنّه الإله، **﴿وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربّي ربّكم﴾** أي خالقي وخالقكم، ومالكي ومالككم، وإنّي وإياكم عبيده **﴿إنّه من يشرك بالله﴾** بأن يزعم أنّ غيره يستحق العبادة **﴿فقد حرّم الله عليه الجنّة﴾** فإنّ الله يمنعه الجنّة، **﴿ومأواه﴾** ومصيره **﴿النار﴾** وهذا كله إخبارٌ من المسيح لقومه **﴿وما للظالمين من أنصار﴾** لا ناصر لهم يخلّصهم مما هم فيه من أنواع العذاب. **﴿لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة﴾** والقائلون بهذا جمهور النصارى، يقولون: ثلاثة أقانيم جوهر واحد: أب، وابن، وروح القدس، إله واحد **﴿وما من إله إلّا إله واحد﴾** ليس إله إلّا إلهاً واحداً، وإنّما دخلت من للتوكيد **﴿وإنْ لم ينتهوا عمّا يقولون﴾** وإن لم يرجعوا ويتوبوا عمّا يقولون من القول بالتثليث، أقسم **﴿ليمسّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾** وإنّما خصّ منهم الذين يستمرون على كفرهم لأنّه علم أنّ بعضهم يؤمن، وفي هذا تحذير من الجزاء، **﴿أفلا يتوبون إلى الله﴾** قال الفرّاء: هذا أمر في لفظ الاستفهام كقوله: فهل أنتم منتهون وإنّما دخلت إلى لأنّ معنى التوبة الرجوع إلى طاعة الله **﴿ويستغفرونه﴾** الاستغفار: طلب المغفرة **﴿والله غفور رحيم﴾** يغفر الذنوب ويسترها، رحمة منه بعباده.

وأخيراً

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ

وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وهذا النداء الذي يوجّهه سبحانه وتعالى إلى أهل الكتاب، أو سمّه صرخة الحق، حجّة تلزم الجيل الحاضر منهم بالإسلام، وأنّهم مسؤولون غداً عن التخلّف عنه كأنّه جلّ جلاله، وعظم سلطانه يتوسّل بعباده أن يسلكوا سبل النجاة، ويجانبوا طريق الضلال، فيستعمل معهم شتّى وسائل الترغيب.

في هذه الآية الكريمة بدأ بدعوتهم إلى التوحيد لأنّه أوّل الدين وأساسه، ومنه المنطلق إلى الفضائل والكمالات.

ونعود للآية الكريمة:

﴿قل﴾ يا محمد **﴿يا أهل الكتاب تعالوا﴾** هلّموا **﴿إلى كلمة سواء﴾** أي عدل **﴿بيننا وبينكم﴾** مستوية بيننا وبينكم، فيها ترك العبادة لغير الله، وهي **﴿أن لا نعبد إلّا الله﴾** لأنّ العبادة لا تحق إلّا له **﴿ولا نشرك به شيئاً﴾** في العبادة **﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾** ولا تتخذ بعضنا عيسى ربّاً فإنّه كان بعض الناس **﴿فإن تولّوا﴾** أعرضوا عن الإقرار بالعبودية، وأنّ أحداً لا يستحق العبادة غيره **﴿فقولوا﴾** أنتم أيّها المسلمون مقابلة لإعراضهم عن الحق، وتجديداً للإقرار ومخالفتهم **﴿اشهدوا بأنّا مسلمون﴾** مخلصون مقرّون بالتوحيد، مقيمون على الإسلام.

وهذا تأديب من الله لعبده المؤمن، وتعليم له كيف يفعل عند إعراض المخالف بعد ظهور الحجّة.



«قصص الصدِّيقين»
مؤمن آل فرعون

إنّ من حقِّ هذا العظيم الخالد أن تؤلّف فيه الكتب، وما قيمة الكتب وقد خلّده القرآن الكريم بسورة من سوره تُتلى بكرة وعشيّا، ليعتبر به المسلمون، وليسلكوا هذا المسلك الرفيع في الاستقامة على منهج الحقّ، وتحدّي الطغاة.

الصدّيقون ثلاثة

ذكر أهل الحديث والسير والتفاسير قول الرسول الأعظم ﷺ: الصدّيقون ثلاثة: مؤمن آل يٰس الذي يقول: ﴿**يا قوم اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون**﴾ وحزبيل مؤمن آل فرعون، وعلي بن أبي طالب عليه السلام، وهو أفضلهم[1].

ومعنى الصديقين ثلاثة: هم الأوائل في أممهم، والمصدّقون لأنبيائهم؛ فمؤمن آل فرعون هو أوّل من استجاب من قوم فرعون لموسى عليه السلام، بل دعا قومه إليه، ومؤمن آل يٰس الذي أرسله عيسى عليه السلام إلى انطاكية يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، وعلي بن أبي طالب عليه السلام هو أوّل من أسلم، فقد قال عليه السلام: أنا أوّل من صدّقه[2].

وقال أهل السير: بُعث النبيُّ ﷺ يوم الاثنين، وأسلم عليٌّ يوم الثلاثاء.

---

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٤/ ٩٦.
(٢) نهج البلاغة: ١/ ١١٥.

وعن عفيف الكندي ـ أخي الأشعث بن قيس ـ قال: رأيت شاباً يصلّي، ثم جاء غلام فقام عن يمينه، ثم جاءت امرأة فقامت خلفهما، فقلت للعباس: هذا أمر عظيم.

قال: ويحك هذا محمَّد، وهذا علي، وهذه خديجة، إنّ ابن أخي هذا حدّثني أن ربّه ربّ السماوات والأرض أمر بهذا الدين، والله ما على ظهر الأرض على هذا الدين غير هؤلاء.

وكان عفيف يقول بعد إسلامه: لو كنت أسلمت يومئذٍ كنت ثانياً مع علي بن أبي طالب(١).

وهو القائل: صلّيت مع رسول الله ﷺ قبل الناس سبع سنين، وأنا أوّل من صلّى معه(٢).

وقال عليه السلام: أسلمت قبل إسلام الناس، وصلّيت قبل صلاتهم(٣).

الشخصيّة العملاقة

هو حزبيل ابن عم فرعون، وولي عهده، كان يكتم إيمانه في وقت تدعو الحاجة إلى ذلك، وأعلن إيمانه في وقت رآه مناسباً، وهو في هذا وذاك على النهج الذي أراده الله سبحانه وتعالى.

يقصُّ لنا القرآن الكريم جانباً من حياته وقت الكتمان فنجده في أعلى مستوى العمل في سبيل الله تعالى، قال عزّ من قائل: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٢٥٠.
(٢) تذكرة الخواص: ٦٣.
(٣) شرح نهج البلاغة: ١/ ٠٠

والقائل لموسى عليه السلام هو حزبيل، فهو في الوقت الذي يكتم فيه إيمانه نجده كلّه عمل في سبيل الله تعالى، ومن أجل إعلاء كلمته، ويكفيه فخراً أنّه المخبر لنبيِّ الله عليه السلام بتآمر القوم عليه، وعزمهم على قتله، ومن المحتمل القريب أنّه كان السبب في نجاة الكثير من المؤمنين بأساليب أخرى كان يسلكها وهو بعد ذلك بفترة أعلن إيمانه ودعا إلى الله جلّ جلاله بكل ما أوتي من قوّة، متحدّياً أعظم جبّار عرفته الكرة الأرضيّة.

التورية

هي أن يُسأل الإنسان عن شيء محرج له، وفي الوقت نفسه يريد أن لا يكذب، فيجيب بجواب بعيد عن السؤال، لكنّ السائل يحسبه جواب مسألته، ويقتنع به، وطالما نجا بعض الأذكياء بالتورية، في مواقف محرجة، مستغنياً عن الكذب.

ذكر أهل السير والتفسير أنّ الوشاة أخبروا فرعون بأنّ حزبيل ولي عهده على دين موسى عليه السلام، والرواية عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: كان حزبيل، مؤمن آل فرعون، يدعو قوم فرعون إلى توحيد الله، ونبوّة موسى عليه السلام... فوشى به الواشون إلى فرعون، وقالوا: إنّ حزبيل يدعو إلى مخالفتك، ويُعين أعداءك على مضادتك.

فقال لهم فرعون: ابن عمي، وخليفتي على مملكتي، وولي عهدي، إن فعل ما قلتم فقد استحقَّ العذاب على كفره لنعمتي، وإن كنتم كاذبين فقد استحققتم أشدّ العذاب، لإيثاركم الدخول بي مساءة فجاء بحزبيل، وجاء بهم، فكاشفوه، وقالوا: إنّك تجحد ربوبية فرعون الملك، وتكفر نعماءه.

فقال حزبيل: أيّها الملك هل جربت عليّ كذباً قط؟.

قال: لا.

قال: فسلهم من ربّهم؟.

فقالوا: فرعون.

قال: ومن خالقكم؟.

قالوا: فرعون هذا.

قال: ومن رازقكم، الكافل لمعايشكم، الدّافع عنكم مكارهكم؟.

قالوا: فرعون هذا.

قال حزبيل: أيّها الملك اشهد ومن حضرك أنّ ربّهم هو ربّي، وخالقهم هو خالقي، ورازقهم هو رازقي، لا ربّ لي، ولا خالق، ولا رازق غير ربّهم وخالقهم ورازقهم، وأشهدك ومن حضرك أنّ كلّ ربّ وخالق سوى ربّهم فأنا بريء منه، ومن ربوبيّته، وكافر بإلهيته.

يقول حزبيل هذا وهو يعني أنّ ربّهم هو الله، ولم يقل إنّ الذين قالوا إنَّ ربّهم فرعون هو ربّي، وخفي هذا المعنى على فرعون ومن حضره، وتوهّموا أنّه يقول: فرعون ربّي وخالقي ورازقي.

فقال لهم فرعون: يا رجال السوء، يا طلاب ومريدي الفتنة بيني وبين ابن عمي وعضدي، أنتم المستحقون لعذابي، وإرادتكم فساد أمري، وإهلاك ابن عمّي، والفت في عضدي؛ ثم أمر بالأوتاد، فجعل في ساق كلّ واحد منهم وتداً، وفي صدره وتد وأمر أصحاب أمشاط الحديد فشقّوا بها لحمهم من أبدانهم[1].

---

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٤/ ٩٦.

تناقضات

الدنيا شريط سينمائي يحمل المتناقضات، ويكاد العقل لا يصدّق هذا التّناقض لولا أنّ الجليل جلّ جلاله يخبرنا به، كيف تكون زوجة نبيٍّ من أنبياء الله كافرة، لا تتأثر بالدعوة الإلهية وهي تعيشها في بيت الزوجيّة، صباحاً ومساءً؟! وكيف تكون امرأة أعظم طاغيّة، ادّعى الربوبيّة، مؤمنة بالله تعالى، خلافاً للمجتمع الذي آمن بإلهية زوجها؟!.

يقول عزّ من قائل: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التّحريم: ١١].

ويُعيد التاريخ نفسه، فهذا أبو لهب، عم الرسول الأعظم ﷺ ينفرد من بين أهله في مقاومة الدعوة الإلهيّة، بأعنف ما يكون، فينزل قرآن من السماء في كفره ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: ١ - ٥].

وسلمان الفارسي من أهل بيت لهم سدانة النار التي يعبدها المجوس، بلغ إيمانه بالله وبرسوله وبكتابه حتّى قال فيه رسول الله ﷺ: سلمان منّا أهل البيت[١].

وحصل لنبيّ الله موسى عليه السلام ما حصل للأنبياء الذين قبله وبعده، فقد آمن به حزبيل، وهو ابن عم فرعون، وولي عهده على المملكة، وكفر به قريبه قارون ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ

(١) السيرة النبويّة لابن هشام: ٢/ ٢٢٤.

مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

ولعلّ الحديث الشريف: (خلق الله الجنَّة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً، والنار لمن عصاه ولو كان سيّداً قرشياً) يشير إلى هذا التناقض، ونحن نسأل العليَّ القدير أن يحيينا مسلمين، ويميتنا مسلمين، وأن يُلحقنا بعباده الصالحين، بمحمد وأهل بيته الطاهرين.

نعود للعرض القرآني المجيد، فهو أصدق الحديث:

كتاب الله أصدق كل قيل رواه المصطفى عن جبرئيل
عن اللوح المحيط بكلّ شيء عن القلم الرفيع عن الجليل

١ - ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤۡمِنٌ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [المؤمن: ٢٨]
نحن أمام صرح شامخ للإيمان، وقمّة عليا للمجد، ومنار رفيع للتقى، ومثل رائع من أمثلة الصلابة من أجل الحقّ، والتفاني في مرضاة الله جلّ جلاله، إنّه يعلّم الأجيال على الثبات على المبدأ الحقّ وعدم الاغترار بالمنصب.

إنّ هذا الرجل الذي تحدّثت عنه الآية الكريمة هو ابن عم فرعون، وولي عهده، كان يخفي إيمانه من الطواغيت، ويعمل ما يمكنه عمله.

٢ - ﴿**أتقتلون رجلًا أن يقول ربّي الله**﴾ وهذا استفهام إنكار واستهجان لهم، يؤنّبهم لسعيهم في قتل رجل يؤمن بالله وحده؛ ثم تابع إنكاره عليهم ﴿**وقد جاءكم بالبيّنات من ربّكم**﴾ أتقتلونه مع ما جاءكم من آيات تدلُّ على صدقه، وأنّه رسول من ربّ العالمين؛ إنّ عصاه التي آمنت بها السحرة ـ وهم علماء الأمّة وقتئذٍ ـ تكفيكم دلالة على رسالته، ثم زاد في تخويفهم وتحذيرهم ﴿**يصبكم بعض الذي يعدكم**﴾ من العذاب.

يشير إلى ما رواه المفسّرون من تخويف موسى عليه السلام لهم من هلاك ودمارٍ ينزل بهم إن استمرّوا على التكذيب.

٣ - ﴿إنّ الله لا يهدي من هو مسرف كذّاب﴾ وهذا الذي ذكره رضوان الله عليه كونه قاعدة عامة لجميع الأجيال، والمراد: أنّ الألطاف، أو بعبارة أوضح: المنح الإلهيّة التي يفيضها على الذين يعملون الخير، ويسارعون لمرضاته، يمنعها عن الكافرين والفاسقين لأنّهم استوجبوا البعد عن ساحة الرحمة.

٤ - ﴿يا قوم لكم الملك اليوم﴾ لا تغترّوا بسلطانكم وقوّتكم، فتتمادوا في الضلال، واحذروا أن ينزل بكم ما نزل بالأمم المكذّبة من العذاب والنكال.

٥ - ﴿وقال فرعون ما أريكم إلّا ما أرى ولا أهديكم إلّا سبيل الرشاد﴾ لقد سيطر عدو الله (فرعون) على أعصابه رغم أنّ الدنيا قد اسودّت في وجهه، إنّه يرى ابن عمه، وأقرب المقرَّبين إليه في طليعة المؤمنين بخصمه، وأشد المنكرين عليه جبروته وطغيانه، ومع هذا فهو يحاول أن يتكلّم بكل هدوء، فيقول: إنّ ما أرى لكم في قتل موسى هو رأيي الذي أراه صلاحاً، وإنّي أقود سفينتكم إلى شاطىء السلامة والنجاة.

٦ - ﴿وقال الذي آمن يا قوم إنّي أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب﴾ وربّما تتفاعل العقيدة في المؤمن وهو يرى حرمات الله تنتهك، فيثور ويتكلّم أمام الطغاة غير مبالٍ بما يصيبه منهم من مكروه، أمّا وبعد أن ينتهي من كلامه، ويتكلّم الطاغية، لا سيّما وأنّه لم يعرّض به، فالموقف يصبح في نهاية الاحراج، ولا يسمح المجال بالحديث، ولكن صلابة الإيمان، وقوّة العقيدة، وعدم الاهتمام بالظالمين مهما عتوا وتجبرّوا جعله يتابع كلامه ﴿مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً

للعباد﴾ ذكّرهم بالأمم التي أصابها العذاب، وحذرهم أن يكون مصيرهم كمصيرهم.

٧ - **﴿ويا قوم إنّي أخاف عليكم يوم التناد﴾** ويوم التناد من أسماء القيامة، وأصله (التنادي) حذفت الياء للكسرة الدالة عليها، وسبب التسمية هو أنَّ بعض الظالمين ينادي بعضاً بالويل والثبور فيه، فهو بعد أن أنذرهم أن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم المكذبة من العذاب، رجع فخوّفهم بما هو أشد وأعظم وهو عذاب يوم القيامة **﴿يوم تولُّون مدبرين﴾** من ساحة القيامة إلى النار.

٨ - **﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبيّنات﴾** فهو بعد أن حذّرهم مواقف القيامة ومشاهدها نقلهم إلى ذكرى إيمانيّة محبَّبةٍ إلى قلوبهم، لقد ذكّرهم بالنَّبي يوسف عليه السلام، وما أصابهم من بركاته من خير لا تزال أخباره تنقله الآباء للأبناء، وتلهج بالثناء عليه، إنّه عطاء السماء لمن آمن بالله ورسله، وكأنّه رضوان الله عليه يريد أن يقول لهم: إنّكم إذا آمنتم بموسى عليه السلام يفيض الله سبحانه عليكم النعم، كما فعل بأسلافكم الذين كانوا في عهد يوسف عليه السلام.

٩ - **﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً﴾** لقد هيمن رضوان الله عليه على الموقف تماماً، وكأن الله جلّ جلاله أنطقه بهذه الحجج والدلائل إتماماً للحجّة وقطعاً للأعذار، ولكي لا يقول أحد من الأتباع إنّي لم أعلم، ولم أتبين طريق الهدى والنجاة.

لقد انهزم الطاغية من الموقف شرّ هزيمة، ولم يبق في حقيبته شيء، فنقل الحديث إلى أشبه ما يكون بالسخرية، قد طلب من وزيره **﴿هامان﴾** أن يبني له قصراً مشيّداً بالآجر **﴿لعلّي أبلغ الأسباب أسباب السَّماوات﴾** لعلّي أبلغ الطرق من سماء إلى سماء **﴿فأطلع إلى إله موسى﴾** أي فانظر

إليه؛ هكذا قال لوزيره ليسمع قومه، ويلبّس عليهم الأمر، لأنّه كان يعلم أنّ ذلك لا يصح ﴿**وإنّي لأظنه كاذباً**﴾ وإنّي لأظن أنّ موسى كاذباً في دعواه بأنّ له إلهاً غيري.

١٠ - ﴿**وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد**﴾ وهذا الموقف أشد من الموقفين، وأكثر جرأة، لا يقوى عليه أحد مهما أوتي من قوّة الإيمان واليقين، وعدم الاقتداء بالظالمين، إنّه مظاهرة صاخبة أمام الطاغية، إنّه يقول لهم: تعالوا معي إلى نبيِّ الله ورسوله موسى بن عمران، واتركوا فرعون وهامان، فإنّي أوصلكم إلى شاطىء السلامة والنجاة، وسعادة الدنيا والآخرة.

١١ - ﴿**يا قوم إنّما هذه الحياة الدنيا متاع والآخرة هي دار القرار**﴾ وهو الآن واعظ قديس، يزهّدهم في الدنيا، ويذكّرهم بفنائها وتصرّمها، وأنّ الآخرة هي الدار الباقية يسعد فيها أقوام سعادة أبديّة لا انقطاع لها، ويشقى فيها أقوام شقاءً أبديّاً لا مثيل له، ولا انقطاع لبؤسه.

١٢ - ﴿**من يعمل سيئة فلا يجزى إلّا مثلها**﴾ وكأنّه وهو يتابع كلامه كنبيٍّ يعظ أمّته، أو إمام حقّ يرشد أتباعه؛ لقد نقلهم إلى مشاهد القيامة ومواقفها بأمل أن تشدّهم هذه الذكرى إلى الحقِّ، ويتخلّوا ـ ولو قليلًا ـ عن الطاغية، ولكنهم كما قال تعالى: ﴿**إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾.

ومعنى الآية الكريمة: من عمل معصية يكون جزاؤه على قدر ما عمله من دون زيادة ﴿**ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن**﴾ ومن عمل الصالحات وهو مؤمن بالله ورسله ﴿**فأولئك يدخلون الجنّة يرزقون فيها بغير حساب**﴾ يُعطون فيها بأكثر مما يستحقون، وفوق ما يأملون.

١٣ - ﴿**ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار**﴾ ولعل كلامه أغاظ بعض المتملقين للطاغية فاعترضوا وردّوا عليه، ودعوه إلى

لالتحاق بصفوفهم، لذا تراه يقول ردّاً عليهم **﴿ومالي أدعوكم إلى النجاة﴾** مما سيصيبكم من عذاب وهوان في الدنيا والآخرة ببقائكم على عبادة فرعون **﴿وتدعونني إلى النار﴾** إلى عبادة فرعون التي توردني النار.

١٤ - **﴿وانّ مردّنا إلى الله وإنّ المسرفين هم أصحاب النار﴾** عاد إلى ذكر الآخرة وما يلاقيه الكافرون والفاسقون فيها من هوان وعذاب لا يخفف عنهم وهم فيه خالدون.

١٥ - **﴿فستذكرون ما أقول لكم﴾** وهذا أقصى ما يمكن أن يقال في الإنذار والتخويف والحثّ على الانتقال من عوالم الضلال إلى مواطن النجاة.

١٦ - **﴿وأفوّض أمري إلى الله﴾** أسلّم أمري له وأتوكّل عليه؛ فهو يعي الدور العظيم الذي يقوم به، إذ هو أمام أعظم طاغية عرفته البشريّة؛ إذّ هذا الموقف كان متعيّناً عليه دفاعاً عن نبيِّ الله، والقاءً للحجّة على المجتمع، وتعليماً للأجيال على أن لا يرهبوا الظالمين.

لقد قام رضوان الله عليه بالدور أحسن قيام، وختمه بأفضل ما يختم به الكلام، وذلك عبر تفويض أمره إلى المانع الدافع الغالب.

١٧ - **﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾** وهذا من عجائب الدنيا، ففرعون الذي يذبّح الأجنّة، ويقتل الشيوخ، ويستحيي النساء، وحتّى زوجته فقد قتلها شر قتلة، ومع هذا كله يسلم منه هذا المؤمن، وينجو من مخالبه، إنّها إرادة القادر المقتدر العظيم الذي يجب أن يلجأ إليه كل مؤمن عندما يُصاب بمكروه، ولا يستعين بأحد سواه.

١٨ - **﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾** حاق: أحاط ونزل بهم وآل فرعون: أشياعه وجنوده، لقد نزل بهم عذاب الدنيا فغرقوا بأجمعهم

في البحر، فخسروا نفوسهم وأهليهم وأموالهم، وما أعدّ الله جلّ جلاله لهم في الآخرة من العذاب أعظم من ذلك بكثير.

١٩ - **﴿النار يعرضون عليها غدوّا وعشيّا﴾** هذا عذابهم في الدنيا **﴿ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب﴾** هذا أمر للملائكة بأن يدخلوهم في أشد العذاب وأعظمه.

دروس

ومضافاً لما مرّ في هذه القصّة من دروس يجدر بنا العمل بأهدافها، نذكر أيضاً:

١ - إنَّ كثيراً منا يتقاعس في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر حتّى مع اخوانه وأقربائه، بل من هم دونه سنّاً ومنزلة، متخيّلاً أن يصيبه مكروه أو أذى ممن يأمرهم وينهاهم، وكل هذه المزاعم من الشيطان، فالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لا يقدّمان أجلاً، ولا يؤخّران رزقاً، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام، لا سيما ونحن مأمورون بأن نتصف ونكون مع الذين نأمرهم وننهاهم بأحسن ما نكون من الخلق الرفيع، حتّى ورد: من أمر بمعروف فليكن بمعروف، ولا يمكن أن يصيبك سوء من شخص مهما طغى وتجبّر وأنت تكلّمه وترشده بلطف، ولكن الشيطان وسبله الكثيرة تدفعنا إلى الإهمال، وترك الواجب.

٢ - إنّ قصّة هذا المؤمن تعلّمنا أنّ المنصب الرفيع يجب أن يستغل للدعوة إلى الله جلّ جلاله، لا أن يكون سبباً لمجاملة الظالمين، والركوع لهم.

٣ - ونتعلم منها أيضاً: الجرأة على مجابهة الطغاة، وإعلان الاستنكار في وجوههم مهما بلغ طغيانهم، والله سبحانه، وتعالى يقينا شرّهم ومكرهم، وينجينا من كيدهم، كما حصل لهذا المؤمن.



آسية بنت مزاحم

تثمين

القرآن الكريم خلّد بعض المؤمنين الذين مضوا في الزمن السالف بآيات من القرآن الكريم يتلوها المسلمون، وأكثر من هذا فقد نزلت سور بأسماء بعض هؤلاء كسورة لقمان والمؤمن ومريم والكهف.

وعلى هذا نهج الرسول الأعظم ﷺ، فطالما ذكر فريقاً من هؤلاء بنهاية الاكبار والاجلال.

ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنّة

الدنيا مملوءة بالعجائب، ومن أعجب ما فيها أن تكون زوجة أعظم جبّار في الأرض من الرعيل الأوّل من المؤمنات القانتات، بينما تكون زوجة نبيٍّ مرسل من العريقات في الكفر.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التّحريم: ١١].

فبعد أن علم الطاغية بإيمانها بالله وبرسوله موسى عليه السلام، طلب منها أن ترجع، فرفضت، وثبتت على الإيمان، فلما أيس منها، أمر أن يضرب على يديها ورجليها سكك الحديد. وأن يمشّط جسمها بأمشاط الحديد. إنّها في الوقت الذي تعاني آلام التعذيب تبتهل إلى الله جلّ جلاله **﴿ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجّني من فرعون وعمله﴾**.



لقمان الحكيم

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

إنّ رجلًا يخلّده سبحانه وتعالى في سورة من كتابه المنزل على نبيّه الأعظم ﷺ، يتلوها المسلمون صباحاً ومساءً، يذكره فيها بأحسن الذكر والإكبار جدير بنا التعرّف عليه، ودراسة حياته، والاستفادة من تعاليمه وحكمه.

ومن خلال حديث للإمام الصادق عليه السلام يتضح منه جوانب من حياة هذا العظيم، قال: أما والله لقد أوتي لقمان الحكمة لا بحسب ولا بمال ولا أهل، ولا بسط في الجسم ولا جمال، ولكنّه كان رجلًا قويّاً في أمر الله، متورّعاً في الله، عميق النظر، طويل الفكر، لم ينم نهاراً قط، ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط ولا اغتسال لشدّة تستره، ولم يضحك من شيء قط، ولم ينازع إنساناً قط، ولم يفرح بشيء أتاه من أمر الدنيا، ولا حزن منها على شيء قط، وقد نكح من النساء، وولد له الأولاد الكثيرة، وقد مات أكثرهم افراطاً[1] فما بكى لأحد منهم؛ ولم يمر برجلين يختصمان أو يقتتلان إلّا أصلح بينهما، ولم يسمع قولًا من أحد استحسنه إلّا سأل عن تفسيره، وعمّن أخذه؛ وكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء،

---

(١) أي ماتوا قبله

وكان يغشى القضاة والملوك والسلاطين فيرثي للقضاة مما ابتلوا به، ويرحم الملوك والسلاطين لغرّتهم بالله، وطمأنينتهم بذلك، ويتعلّم ما يغلب به نفسه، ويجاهد به هواه؛ وكان يداوي قلبه بالتفكّر، ويداوي نفسه بالعبر، وكان لا يتكلّم إلا فيما يعنيه، فبذلك أوتي الحكمة، وأنّ الله أمر طوائف من الملائكة حين انتصف النهار، وهدأت العيون بالقايلة، فنادوا لقمان حيث يسمع ولا يراهم فقالوا: يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض، وتحكم بين الناس؟ فقال لقمان: إذا أمرني ربّي فالسمع والطاعة، لأنّه إن فعل بي ذلك أعانني وعلّمني وعصمني، وإن هو خيّرني قبلت العافية.

فقالت الملائكة: يا لقمان لِمَ؟!.

فقال: لأنّ الحكم بين الناس بأشد المنازل من الدين، وأكثر فتناً وبلاءً.

فعجبت الملائكة من حكمته، واستحسن الرحمن منطقه، فلما أمسى أخذ مضجعه من الليل أنزل الله عليه الحكمة فغشّاه بها من قرنه إلى قدمه وهو نائم، وغطّاه بالحكمة غطاءً، فاستيقظ وهو أحكم الناس في زمانه وخرج على الناس ينطق بالحكمة[١].

وقيل له: ألست عبداً لآل فلان؟.

قال: بلى.

قال: فما بلغ بك ما أرى؟.

فقال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني، وغض بصري، وكف لساني، وعفّتي في بطني وطعمتي، فمن نقص عن هذا فهو دوني، ومن زاد علي فهو فوقي، ومن عمله فهو مثلي[٢].

---

(١) قصص الأنبياء للجزائري: ٣٦٨. (٢) قصص القرآن الكريم للقطيفي ١٤٦

وقال رسول الله ﷺ: لم يكن لقمان نبيّاً لكن كان عبداً عصمه الله، كثير التفكّر، حسن اليقين، أحبّ الله فأحبّه الله، فمنّ عليه بالحكمة[1].

في العرض القرآني المجيد

١ - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢] نحن الآن أمام شخص عظيم، بلغ من السمو والرفعة، وعلوّ المرتبة حتّى خلّده القرآن الكريم في سورة من سوره بعد عشرات القرون على وفاته، تثميناً لمواقفه في الاستقامة والسلوك، وإكباراً لمقامه الكريم، ودعوة إلى الخلق لينهجوا نهجه.

ومما يزيد عظمته إنه لم يكن نبيّاً ولا وصيّاً، بل كان عبداً صالحاً من عباد الله، يمتهن الحرف البسيطة، اتجه بكلّه إلى الله تعالى، فحباه بعطائه، ورفع منزلته، وخلّده بكتابه الكريم.

نعود للآيات: **﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾** أعطيناه العقل والعلم، والعمل به، والاصابة في الأمور؛ كان حكيماً ولم يكن نبيّاً، وكان عبداً يرعى الغنم.

٢ - **﴿اشكر لله﴾** والشكر، وكل ما أمر الله جلّ جلاله به عباده هو لأجل منافعهم، ولكن سبحانه مستغنٍ عنهم وعن شكرهم وعبادتهم كما في آيةٍ أخرى **﴿إن الله لغنيّ عن العالمين﴾** فبالشكر تزداد النعم، وبالشكر راحة نفسيّة، ولذّة معنويّة يحسُّ بها الشاكر، تسبب له طمأنينة، وتكسبه صحّة، وتدفعه للمسير قدماً للمجد والخلود؛ ومعنى الآية: قلنا له: أُشكر الله على ما أعطاك من الحكمة **﴿ومن يشكر فإنّما يشكر لنفسه﴾** لأنّ ثواب شكره عائد عليه، ويستحق به المزيد من النعم **﴿ومن كفر فإنّ الله غنيّ﴾** عن شكر الشاكرين **﴿حميد﴾** على أفعاله.

---

(١) عرائس المجالس: ٣٤٩.

٣ - ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه﴾ اقتضت حكمته رضوان الله عليه أن يبذل المزيد من عنايته بتهذيب ابنه، فمن أدّب ابنه أرغم أنف عدوّه؛ والابن هو العمر الثاني للإنسان، إن صلح فقد حصل الأب على عطاء عظيم، لا يضاهيه عطاء، ينتفع به حيّاً وميّتاً، والعكس بالعكس.

والأب مسؤول أمام الله تعالى عن تهذيب أولاده، وتعليمهم وتدريبهم على معالي الأمور، وعلى هذا النهج سار أولياء الله وأحباؤه، فكم تجد للأئمة صلوات الله عليهم وصايا قيّمة أوصوا بها أبناءهم، وانتفع بها من جاء من بعدهم.

٤ - ﴿يا بني لا تشرك بالله﴾ بدأ وصاياه بالتوحيد، لأنّه أساس الدين، وأوّل ما يجب على المكلّف معرفته، ووصف الشرك بأعظم الظلم؛ إنّ المشرك أو الكافر أو الفاسق يُسيءُ لنفسه قبل أن يسيء للآخرين، ومهّد لنفسه الخلود في الجحيم.

٥ - ﴿يا بني إنّها إن تك مثقال حبّة من خردل﴾ الخردل: نبات عشبي ينبت في الحقول، وعلى حواشي الطريق، تستعمل بذوره في الطب. ومعنى الآية: إنّ أفعال الإنسان من خير أو شر إن كانت مقدار حبّة خردل في الوزن تلقى جزاءها.

والمراد: أن الله تعالى يحاسب على الصغائر كما يحاسب على الكبائر، يجزي على الخير احساناً، وعلى الشر عقاباً، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] فالمفروض بالمسلم أن لا يتسامح بصغائر الذنوب لا سيّما وهي تؤدّي به إلى الكبائر، والحديث: «لا تنظر إلى صغر المعصية ولكن انظر إلى من عصيت».

نعود للآية: ﴿**فتكن في صخرة**﴾ فتكن الحبّة في جبل، لأنّ ذلك أخفى وأبعد في استخراجها ﴿**أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله**﴾ يحضرها يوم القيامة، ويجازي عليها ﴿**إنّ الله لطيف**﴾ باستخراجها ﴿**خبير**﴾ بمستقرّها.

٦ - ﴿**يا بني أقم الصلاة**﴾ وحينما أنتقل في وصيّته إلى الفرائض بدأ بالصلاة، لأنّها أهم الفرائض.

وهي الفريضة التي لا رخصة لأحد في تركها، أو التسامح بها، ولا عذر لمسلم مهما كانت ظروفه في التهاون بها.

ويُستفاد من الآية الكريمة وآيات أخرى غيرها أنّها مفروضة في جميع الأديان، وأن الأنبياء جميعاً جاؤا بها.

٧ - ﴿**وأمر بالمعروف وانه عن المنكر**﴾ الأمر بالمعروف: هو الأمر بالطاعة، والنهي عن المنكر: وهو النهي عن كل معصية وقبيح، سواء كان من القبائح العقلية أو الشرعيّة، وهما واجبان على كل مسلم ومسلمة بحدود امكانياتهما، ولا عذر لأحد في التخلّي عن ذلك، بل الواجب عليه أن يسلك في ذلك المرتبة التي يطيقها.

لقد حثّ الإسلام كثيراً على ذلك، نذكر بعض ما ورد عن الصادقين سلام الله عليهم:

١ - قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر خلقان من خلق الله، فمن نصرهما أعزّه الله، ومن خذلهما خذله الله عزّ وجلّ[1]

---

(١) الخصال: ٤٢.

٢ - وقال أمير المؤمنين عليه السلام: وإنّ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لخلقان من خلق الله سبحانه، وإنّهما لا يقرّبان من أجل، ولا ينقصان من رزق[١].

٣ - وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سبيل الأنبياء، ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة، بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحل المكاسب، وترد المظالم، وتعمر الأرض، وينتصف من الأعداء، ويستقيم الأمراء[٢].

٨ - **﴿ولا تصعّر خدّك للناس﴾** ومعنى **﴿لا تصعّر﴾** لا تمل وجهك عن الناس تكبرّاً، ولا تعرض عمن يكلمك استخفافاً، لقد نهاه عن الكبرياء والخيلاء، لأنّ ذلك يؤدّي إلى الهلاك دنياً وآخرة، ففي الدنيا يمقته الناس، ولا يجد من يتعاون معه، بل ولا من يسلّم عليه، وقد يصيبه الجوع لأنّه يأنف من كثير من الأعمال، وفي الآخرة يحلُّ عليه غضب الله عزّ وجلّ وعذابه **﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾** بطراً وخيلاء **﴿إنّ الله لا يحب كل مختال فخور﴾** كل متكبّر فخور على الناس **﴿واقصد في مشيك﴾** امش على وجه السكون والوقار **﴿واغضض من صوتك﴾** اغضض من صوتك إذا دعوت وناجيت ربّك **﴿إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾** أقبح الأصوات صوت الحمير، أوّله زفير، وآخره شهيق.

الحكيم

هو الذي تكون أعماله وأقواله طبقاً للحقّ والواقع، لا تزول عنه، يصيب برأيه الحق كما يصيبه بعمله أجمع، وأصبح اسم لقمان عليه السلام مقروناً بالحكمة، وصارت علماً له بعد أن وصفه بها القرآن الكريم.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٠٣. (٢) وسائل الشيعة: ١١/ ٣٩٥

وسُئِل ما الذي أجمعت عليه من حكمتك؟.

فقال: لا أتكلّف ما قد كفيته، ولا أضيّع ما وليته[١].

ومعناه: إنّي لا أتبرّع بعمل لم يُطلب منّي القيام به، خشية أن لا أقدر على إتمامه، كما إذا كلفت بعمل لا أقصّر في إنجازه.

وبلغ من حكمته أنّه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع، وقد ليّن الله له الحديد كالطين، فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت، فلما أتمّها لبسها وقال: نعم لبوس الحرب أنتِ.

فقال: الصمت حكم قليل فاعله.

فقال له داوود: بحقٍّ ما سميت حكيما[٢].

مختارات من حكمه

كتب التاريخ والسير والحديث مستفيضة بحكم لقمان عليه السلام، ويمكن جمع كتاب مستقلّ منها.

نسجل في هذه الصفحات مختارات منها مستهدفين من القارىء الكريم أن يأخذها للعمل والتطبيق.

١ - قال: عدوّ حليم، خير من صديق سفيه[٣].

٢ - وقال: ثلاثة لا يُعرفون إلاّ في ثلاثة مواضع: لا يُعرف الحليم إلاّ عند الغضب، ولا يُعرف الشجاع إلاّ في الحرب، ولا تعرف أخاك إلاّ عند حاجتك إليه[٤].

٣ - وقيل للقمان: أيّ الناس شرّ؟.

---

(١) بحار الأنوار: ١٣/ ٤١٥.

(٢) مجمع البيان: ٧ - ٨/ ٣١٧.

(٣) الاختصاص: ٢٤٦.

(٤) المصدر نفسه.

قال: الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئا[١].

نصائح الآباء

إنّ من الضروري الإلمام بسيرة لقمان عليه السلام، والتعرّف على حياته، وأن نستلهم من سيرته الثريَّة الغنيّة الدروس والعبر، ومن أهم ما حفظه التاريخ من عطاءات هذه الشخصية الكريمة هي وصاياه لولده، فكل كتاب تعرّض للقمان ذكر بعضاً من هذه الوصايا.

فأوّل شيء نستفيده من هذا الفصل أن ينهج الآباء مع أبنائهم هذا النهج التربوي، فليست مهمة الأب أن يوفّر لابنه المأكل والملبس فحسب، بل أنّ أهم من هذا وذاك أن يعلّمه ويؤدّبه وينهج به طريق الحق.

إنّ من حقّ الولد على والده ـ كما جاء في الحديث ـ أن يحسن اسمه وأدبه، وأن يعلّمه القرآن الكريم.

نقرأ في نهج البلاغة وصيّة مطوّلة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام أوصى بها ابنه الإمام الحسن عليه السلام، جمعت معالي الأخلاق والآداب، وإذا كان الإمام الحسن عليه السلام ـ وهو الإمام المفروض على الناس طاعته ـ يقدّم له أبوه صلوات الله وسلامه عليه هذه النصائح والحكم، فنحن أحوج وأحرى بتقديم نصائحنا ووصايانا إلى أولادنا.

ومن المؤسف أن يهتم الآباء ـ غالباً ـ بنصح وتوجيه أولادهم لما يخص أعمالهم، فهو يوصيه بحانوته، ويوصيه بتجارته، ويهتم كثيراً أن يربّيه لمعاونته.

إهتم أيّها الأب بتهذيب ابنك وتقويم خلقه، ولا تجعل اهتمامك

(١) مجمع البيان: ٧ - ٨/ ٣١٧.

بمدرسته ودروسه أعظم من اهتمامك بصلاته وأخلاقه، فإنّ الله جلّ جلاله سائلك عن ذلك.

واعلم أنّك إذا أدبته على النهج الذي أمرك به الله سبحانه وتعالى تحققت لك أمنيتك من الخدمة في متجرك وأعمالك، لأنّ دينه يمنعه أن يعصيك.

واعلم أنّك شريكه في ثواب الله تعالى على أعمال الخير التي يقوم بها، فالأحاديث عن الصادقين صلوات الله عليهم تشير إلى أنّ الآباء شركاء أبنائهم في الطاعات التي يعملونها، فاغتنم هذه التجارة التي لا تبور؛ وورد أيضاً عن رسول الله ﷺ: إذا مات الرجل انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، وعلمٌ ينتفع به، وولد صالح يدعو له.

وألفت نظرك إلى شيء تشاهده، بل تعمله دائماً، فأنت ـ بل وجميع الناس ـ عندما ترى من شخص طيباً وإحساناً تترحّم على أبيه وإن كنت لا تعرفه، كما أنّك عندما ترى منه عدواناً وظلماً تلعن أباه، وإن كنت لا تعرفه، فاحرص كل الحرص على أن تحصل على الرحمة لحسن سلوك ولدك.

نعود لنسجّل في هذه الوريقات بعض وصاياه لولده: قال أمير المؤمنين عليه السلام: كان فيما وعظ به لقمان ابنه أن قال له: يا بني ليعتبر من قصر يقينه، وضعفت نيّته في طلب الرزق، أنّ الله تبارك وتعالى خلقه في ثلاثة أحوال من أمره، وأتاه رزقه ولم يكن له واحدة منها كسب ولا حيلة، والله تبارك وتعالى سيرزقه في الحالة الرابعة؛ وأمّا أوّل ذلك فكان في رحم أمّه، يرزقه هناك في قرار مكين، حيث لا يؤذيه حرّ ولا برد، ثم أخرجه من ذلك وأجرى له رزقاً من لبن أمّه، يكفيه به ويربيه من غير حول ولا قوّة، ثم فطم من ذلك فأجرى له رزقاً من كسب أبويه، ورأفة من قلوبهما، لا

يملكان غير ذلك، حتّى أنّهما يؤثرانه على أنفسهما في أحوال كثيرة، حتّى إذا كبر وعقل واكتسب، وضاق به أمره، وظنّ الظنون بربّه، وجحد الحقوق في ماله وقتّر على نفسه وعياله، مخافة إقتار رزق، وسوء يقين بالخلف من الله له في العاجل والآجل، فبئس العبد هذا يا بني[١].

١ - قال الإمام الصادق عليه السلام: كان فيما وعظ لقمان ابنه: يا بني إنّ الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم فلم يبق ما جمعوا، ولم يبق من جمعوا له، إنّما أنت عبد مستأجر، قد أمرت بعمل ووعدت عليه أجراً، فأوفه عملك، واستوف أجرك؛ ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتّى سمنت، فكان حتفها عند سمنها، ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها وتركتها، ولم ترجع إليها آخر الدهر، أخربها ولا تعمرها، فإنّك لم تؤمر بعمارتها.

واعلم أنّك ستسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله عزّ وجلّ عن أربع. شبابك فيما أبليته، وعمرك فيما أفنيته، ومالك فيما اكتسبته، وفيما أنفقته، فتأهّب لذلك وأعدّ له جواباً، ولا تأس[٢] على ما فاتك من الدنيا، فإنّ قليل الدنيا لا يدوم بقاؤه، وكثيرها لا يؤمن بلاؤه، فخذ حذرك، وجد في أمرك، واكشف الغطاء عن وجهك، وتعرّض لمعروف ربّك، وجدّد التوبة في قلبك، واكمش[٣] في فراغك قبل أن يقصد قصدك، ويقضى قضاؤك ويحال بينك وبين ما تريد[٤].

٣ - وقال لولده: تعلّمت سبعة آلاف من الحكمة، فاحفظ منها أربعاً وسر معي إلى الجنّة: احكم سفينتك فإنّ بحرك عميق، وخفف حملك فإنّ

---

(١) قصص الأنبياء للجزائري: ٣٧٠.
(٢) لا تأسَ: لا تحزن.
(٣) اكمش: أسرع وعجّل.
(٤) سفينة البحار: ٢/ ٦٦٩.

العقبة كؤود، وأكثر الزاد فإنّ السفر بعيد، وأخلص العمل فإنّ الناقد بصير[١].

٤ - وقال الإمام الباقر عليه السلام: كان فيما وعظ لقمان ابنه أن قال: إن تكُ في شكّ من الموت فادفع عن نفسك النوم، ولن تستطيع ذلك، وإن كنت في شكّ من البعث فادفع عن نفسك الانتباه، ولن تستطيع ذلك، فإنّك إذا فكّرت في هذا أعلمت أن نفسك بيد غيرك، وإنّما النوم بمنزلة الموت، وإنّما اليقظة بمنزلة البعث بعد الموت[٢].

٥ - وعّظ لقمان ابنه بالنار حتّى تفطّر وانشق، وكان فيما وعظه أن قال: يا بني إنك منذ سقطت إلى الدنيا استدبرتها، واستقبلت الآخرة، فدار أنت إليها تسير أقرب إليك من دار أنت عنها متباعد.

يا بني، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، ولا تجادلهم فيمنعوك، وخذ من الدنيا بلاغاً، ولا ترفضها فتكون عيالاً على الناس، وصم صوماً يقطع شهوتك، ولا تصم صوماً يمنعك من الصلاة، لأنّ الصلاة أحب إلى الله من الصيام.

يا بني إنّ الدنيا بحر عميق قد هلك فيها عالم كثير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان، واجعل شراعها التوكّل، واجعل زادك فيها تقوى الله، فإن نجوت فبرحمة الله، وإن هلكت فبذنوبك يا بني، إن تأدبت صغيراً انتفعت به كثيراً يا بني، خف الله خوفاً لو أتيت يوم القيامة ببرّ الثقلين خفت أن يعذّبك، وارج الله رجاءً لو وافيت القيامة بذنوب الثقلين رجوت أن يغفر الله لك، فقال له ابنه: يا ابه وكيف أطيق هذا وإنّما لي قلب واحد؟.

---

(١) قصص الأنبياء للجزائري: ٣٧٢.
(٢) سفينة البحار: ٢/ ٦٦٩.

فقال: يا بني، لو استخرج قلب المؤمن فشقّ لوجد فيه نوران: نور للخوف، ونور للرجاء، لو وزنا ما رجح أحدهما على الآخر مثقال ذرّة(١).

يا بني، لا تركن إلى الدنيا، ولا تشغل قلبك بها، فما خلق الله خلقاً أهون عليه منها، ألا ترى أنّه لم يجعل نعيمها ثواباً للمطيعين، ولم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين(٢).

٧ - ومما أوصى به ابنه: يا بني إنّ الدنيا بحر عميق، هلك فيه بشر كثير، تزوّد من عملها، واتخذ سفينة حشوها تقوى الله، ثم اركب لجج الفلك تنجو، وإنّي لخائف أن لا تنجو.

يا بني، السفينة إيمان، وشراعها التوكّل، وسكانها الصبر، ومجاذيفها(٣) الصوم والصلاة والزكاة.

يا بني، من ركب البحر من غير سفينة غرق.

يا بني، أقلّ الكلام، واذكر الله عزّ وجلّ في كلّ مكان، فإنّه قد أنذرك وحذّرك وبصرك وعلّمك.

يا بني، إتعظ بالناس قبل أن يتعظ الناس بك. يا بني، اتعظ بالصغير قبل أن ينزل بك الكبير.

يا بني، إملك نفسك عند الغضب حتّى لا تكون لجهنم حطباً.

يا بني، الفقر خير من أن تظلم وتطغى.

يا بني، إيّاك أن تستدين فتخون من الدين.

يا بني، إيّاك أن تستذل فتخزى.

---

(١) مجمع البيان: ٩ - ١٠/١٠.

(٢) قصص الأنبياء للجزائري: ٣٦٩.

(٣) المجذاف: ما تدفع به السفينة.

يا بني، إيّاك أن تخرج من الدنيا فقيراً وتدع أمرك وأموالك عند غيرك قيماً فتصيّره أميراً[١].

يا بني، إنّ الله تعالى رهن الناس بأعمالهم، فويل لهم مما كسبت أيديهم.

يا بني، لا تأمن الدنيا والذنوب والشيطان فيها.

يا بني، إنّه قد افتتن الصالحون من الأولين، فكيف ينجو منه الآخرون؟!.

يا بني، اجعل الدنيا سجنك، فتكون الآخرة جنتك.

يا بني، إنّك لم تكلّف أن تشيل الجبال، ولم تكلّف ما لا تطيقه، فلا تجعل البلاء على كتفك، ولا تذبح نفسك بيدك.

يا بني، إنّك كما تزرع تحصد، وكما تعمل تجد.

يا بني، لا تجاور الملوك فيقتلوك، ولا تطيعهم فتكفر

يا بني، جاور المساكين، واخصص الفقراء والمساكين من المسلمين.

يا بني، كن لليتيم كالأب الرحيم، وللأرملة كالزوج العطوف.

يا بني إنّه ليس كل من قال: اغفر لي غفر له، إنّه لا يُغفر إلّا لمن عمل بطاعة ربّه.

يا بني، الجار ثم الدار.

يا بني، الرفيق ثم الطريق.

---

(١) المراد من العبارة أن يقدّم خيراته ومبرّاته ما دام في قيد الحياة، لا أن يتسامح بذلك ويوصي بها عند الموت.

يا بني، لو كانت البيوت على العجل ما جاور الرجل جار سوء أبداً.
يا بني، الوحدة خير من صاحب السوء.
يا بني، نقل الحجارة والحديد خير من قرين السوء.
يا بني، إنّي نقلت الحجارة والحديد فلم أجد شيئاً أثقل من قرين السوء
يا بني، إنّه من يصحب قرين السوء لا يسلم، ومن يدخل مداخل السوء يتّهم.
يا بني، من لا يكف لسانه يندم.
يا بني، المحسن يُكافى بإحسانه، والمسيء يكفيك مساويه، لو جهدت أن تفعل به أكثر مما يفعله بنفسه ما قدرت عليه.
يا بني، من ذا الذي عبد الله فخذله، ومن ذا الذي ابتغاه فلم يجده؟.
يا بني، ومن ذا الذي ذكره فلم يذكره، ومن ذا الذي توكّل عليه فوكّله إلى غيره، ومن ذا الذي تضرّع إليه جلّ ذكره فلم يرحمه؟!.
يا بني، شاور الكبير، ولا تستح من مشاورة الصغير.
يا بني، إيّاك ومصاحبة الفسّاق، وهم كالكلاب، إن وجدوا عندك شيئاً أكلوه، وإلّا ذموك وفضحوك، وإنّما حبّهم بينهم ساعة.
يا بني، معاداة المؤمنين خير من مصادقة الفاسق[1].
يا بني، المؤمن تظلمه ولا يظلمك، وتطلب عليه فيرضى عنك، والفاسق لا يراقب الله فكيف يراقبك.
يا بني، استكثر من الأصدقاء، ولا تأمن من الأعداء، فإنّ الغلّ في صدورهم مثل الماء تحت الرماد.
يا بني، ابدأ الناس بالسلام والمصافحة قبل الكلام.

---

(١) أي إذا عاداك المؤمنون خير لك من أن يصادقك الفاسقون.

يا بني، لا تكالب الناس فيمقتوك، ولا تكن مهيناً فيذلّوك، ولا تكن حلواً فيأكلوك، ولا تكن مرّاً فيلفظوك.

يا بني، لا تخاصم في علم الله، فإنّ علم الله لا يُدرك ولا يحصى.

يا بني، خف الله مخافة لا تيأس من رحمته، وارجه رجاءً لا تأمن من مكره.

يا بني، إنه النفس عن هواها، فإنّك إن لم تنه النفس عن هواها لم تدخل الجنّة ولم ترها.

يا بني، إنّك منذ يوم هبطت من بطن أمّك استقبلت الآخرة، واستدبرت الدنيا، فإنك إن نلت مستقبلها أولى بك أن تستدبرها.

يا بني، إيّاك والتجبّر والتكبّر والفخر، فتجاور إبليس في داره.

يا بني، دع التجبّر والكبر، ودع عنك الفخر، واعلم أنّك ساكن القبور.

يا بني اعلم أنّه من جاور إبليس وقع في دار الهوان، لا يموت فيها ولا يحيى.

يا بني، ويلٌ لمن تجبّر وتكبّر، كيف يتعظّم من خلق من طين وإلى الطين يعود، ثم لا يدري إلى ماذا يصير، إلى الجنة فقد فاز، أو إلى النار فقد خسر خسراناً مبيناً وخاب.

يا بني، كيف ينام ابن آدم والموت يطلبه، وكيف يغفل ولا يغفل عنه؟!.

يا بني، إنّه قد مات أصفياء الله عزّ وجلّ وأحباؤه وأنبياؤه صلوات الله عليهم، فمن ذا بعدهم يخلد فيُترك؟![1].

---

(١) الاختصاص: ٣٣٩.

١٨ - وأوصى ولده: يا بني أقم الصلاة، فإنّ مثل الصلاة في دين الله كمثل عمود الفسطاط، فإنّ العمود إذا استقام نفعت الأطناب والأوتاد والظلال، وإن لم يستقم لم ينفع وتد ولا طنب ولا ظلال[١].

٩ - وأوصى ولده: اعلم يا بني إنّي ذقت الصبر وأنواع المر، فلم أجد أمرّ من الفقر، فإذا افتقرت يوماً فاجعل فقرك بينك وبين الله، ولا تحدّث الناس بفقرك فتهون عليهم، ثم سل في الناس: من ذا الذي أحسن الظن بالله فلم يكن عند حسن ظنه به.

يا بني، من يُرد رضوان الله يسخط نفسه كثيراً، ومن لا يسخط نفسه لا يرضي ربّه، ومن لا يكظم غيظه يشمت عدوه.

يا بني، تعلم الحكمة تشرف بها، فإنّ الحكمة[٢] تدل على الدين، وتشرّف العبد على الحر، وترفع المسكين على الغني، وتقدّم الصغير على الكبير، وتجلس المسكين مجالس الملوك، وتزيد الشريف شرفاً، والسيد سؤدداً، والغني مجداً، وكيف يظن ابن آدم أن يتهيّأ له أمر دينه ومعيشته بغير حكمة، ولن يهيىء الله عزّ وجلّ أمر الدنيا والآخرة إلّا بالحكمة، ومثل الحكمة بغير طاعة مثل الجسد بغير نفس، ومثل الصعيد بغير ماء، ولا صلاح للجسد بغير نفس، ولا للصعيد بغير ماء، ولا للحكمة بغير طاعة[٣].

روائع من حياته

وحياة العظماء تتخللها روائع حرية بالدرس، جديرة بالتتبع، مدعاة إلى الاقتباس منها، لنستفيد منها في حياتنا العملية، ونأخذ منها الدروس والعبر.

---

(١) بحار الأنوار: ٤١٦/١٣.
(٢) الحكمة: طلب العلم.
(٣) أعلام الدين: ٣٢٧.

وحياة هذا الحكيم كلّها خير وعطاء، وقد مرّ عليك جوانب منها، ونضيف إليها مختارات من حياته الكريمة الحافلة بالحكم والآثار.

١ - ذكر أنّ مولى لقمان دعاه فقال: اذبح شاة فأتني بأطيب مضغتين منها، فأتاه بالقلب واللسان، ثم أمره بذبح شاة فقال له: إئتني بأخبث مضغتين منها، فأتاه بالقلب واللسان، فسأله عن ذلك فقال: إنّهما أطيب شيء إذا طابا، وأخبث شيء إذا خبثا[١].

١ - وقيل: إنّ مولاه دخل المخرج فأطال فيه الجلوس، فناداه لقمان: إنّ طول الجلوس على الحاجة يفجع منه الكبد، ويورث منه الباسور، ويصعد الحرارة إلى الرأس، فاجلس هوناً، وقم هونا.

فكتب حكمته على باب الحش[٢].

٣ - روي أنّه قدم من سفر فلقي غلامه في الطريق، فقال: ما فعل أبي؟.

قال: مات.

قال: ملكت أمري.

قال: ما فعلت امرأتي؟.

قال: ماتت.

قال: أجدد فراشي.

قال: ما فعلت أختي؟.

قال: ماتت.

قال: سترت عورتي.

---

(١) قصص الأنبياء للجزائري: ٣٧١. (٢) مجمع البيان: ٧ - ٨/٣١٦

قال: ما فعل أخي؟.

قال: مات.

قال: انقطع ظهري[١].

٤ - قال لقمان في وصيته لابنه ما حاصله: لا تعلّق قلبك برضى الناس، فإنّ ذلك لا يحصل، ثم مثّل له ذلك بأن خرج وأخرجه معه ومعهما بهيم، فركبه لقمان وترك ولده يمشي وراءه، فقال قوم: هذا شيخ قاسي القلب، قليل الرحمة؛ ثم عكس.. أي ركب الولد ومشى لقمان ـ فاجتاز على جماعة أخرى فقالوا: هذا بئس الوالد، وهذا بئس الولد، أمّا أبوه فإنّه ما أدّب ولده، وأمّا الولد عقّ والده؛ فركبا جميعاً، فقالت أخرى: ما في قلب هذين رحمة، يركبان معاً، يقطعان ظهر الدابة، ويحملانها ما لا تطيق، فتركا الدابة تمشي خالية وهما يمشيان، فقالت جماعة: هذا عجيب من هذين، يتركان دابة فارغة ويمشيان، فذمّوهما على ذلك.

فقال لولده: ترى في تحصيل رضاهم حيلة المحتال، فلا تلتفت إليهم، واشتغل برضا الله جلّ جلاله[٢].



(١) قصص الأنبياء للجزائري: ٣٧١.

(٢) سفينة البحار: ٢/٥١٢.

قصة طالوت

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

١ - القرآن الكريم يتحدّث عن حادث مهم حصل لبني اسرائيل اظهروا فيه الخلاف والشقاق، ومن الغريب أنّهم عند كل عمل يخالفون فيه أمر الله جلّ جلاله يصيبهم البلاء العظيم فضلاً عما أُعدّ لهم في الآخرة من العذاب والهوان، ومع ذلك فهم لا يرتدعون.

٢ - لقد مرّت عليهم ظروف حرجة، في غاية الشدّة، تعرّضوا فيها لأبشع القتل والهوان، فقد ذكر أهل التاريخ والسير بعض الأدوار الشديدة التي عانوها، وأسماء الملوك الذين تغلّبوا عليهم وساموهم سوء العذاب[1].

٣ - في هذه الآية الكريمة يتحدث القرآن الكريم عن مرحلة صعبة مرّت عليهم، ففزعوا فيها إلى نبيّهم يطلبون منه أن يعيّن لهم ملكاً يقاتلون تحت لوائه المتغلّبين عليهم.

٤ - ويسألهم نبيّهم ـ وكلّه شك في صدق نواياهم ـ **﴿هل عسيتم إن كتب عليكم القتال﴾** لعلّكم إن فرض عليكم الحرب مع ذلك الملك **﴿ألّا تقاتلوا﴾** لا تفوا بما تقولون وكلامه عليه السلام بمنزلة أخذ العهد عليهم.

---

(١) مروج الذهب: ٢/ ٥١٢

٥ - فكان جوابهم بالعزم على القتال، والصبر عليه، وأن لا مبرر لهم في تركه بعد أن استباحهم العدو، وإنّ ما أصابهم من ذل وهوان يكفي في أن يشدّ من عزمهم، ويدفعهم للانتصار من عدوهم **﴿قالوا وما لنا الّا نقاتل في سبيل الله﴾** وأي شيء لنا في ترك القتال **﴿وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾** بالسبي والقهر، والمراد: أنّه وقد بلغ بنا الحال إلى أن استولى العدو على بلادنا، وأسر أبناءنا وأزواجنا، فلا عذر لنا بعد هذا عن التخلّف عن القتال.

٦ - وقد تحقّقت فراسة نبيّهم، فبعد أن فرض عليهم الجهاد تركوا ما أمروا به **﴿فلما فرض عليهم القتال تولّوا إلّا قليلًا منهم﴾**.

٧ - كان الشوط الأوّل للخلاف اعتراضهم على نبيّهم في تعيين الملك، علماً أن تعيينه كان من قبل الله جلّ جلاله **﴿وقال لهم نبيّهم إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾** ولكن الطبع السيّئ، والبعد الشاسع عن خط الشريعة تجلّى باعتراضهم على الأمر الإلهي **﴿قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾**.

وهذا الاعتراض يكشف بأنّ المعترضين ليس لهم مسحة من دين أو عقل؛ إنّ الله جلّ جلاله بعث أنبياءه ورسله وليس لهم سعة من المال، وما أثر المال بالنسبة لتعيين السماء؟!.

٨ - وصار نبيّهم يقنعهم بجدارة الملك، وأنّه مُؤيَّد من قبل الله جلّ جلاله، وطبيعي أنّ هذا لم يكن كافياً لأنّهم قد علموه مسبقاً منه، لكنّه أضاف إلى ذلك **﴿إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم﴾** كان أعلم بني اسرائيل في وقته، وأجملهم، وأعظمهم جسماً، وأقواهم شجاعة[1].

(١) مجمع البيان: ١ - ٢/ ٦١٣.

ثمّ أخذ يفنّد اعتراضهم بأنه ليس من أهل بيت يملّكون، لأنّ الملك كان فيهم في سبط يهوذا بن يعقوب، وطالوت من سبط بنيامين بن يعقوب، فقال: **﴿والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾** إنّ اعتراضهم مردود ولا مبرر له، وإنّ الله سبحانه وتعالى لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

كل هذا لم يكن كافياً لإقناعهم بقبول طالوت ملكاً عليهم، رغم ما هم فيه من سوء الحال والاستعمار، ولكن نبيّهم أخبرهم بأنّ طالوت مزوّد بمعجزة كبرى، وعلامة للنصر، وسحق المعتدين، ألا وهو التابوت **﴿وقال لهم نبيّهم إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت﴾**.

١ - **التابوت**: صندوق أودع فيه موسى عليه السلام الألواح بعدما ألقاها غضباً من عبادتهم العجل، وكانوا يحملونه في حروبهم فيكون النصر حليفهم، ومع ذلك كلّه فقد تهاونوا في الحفاظ عليه حتى كان يلعب به أطفالهم في الطرقات، فعندها غيّبه الله عنهم، ثم أعاده لهم في إمارة طالوت.

وتحدّث الثعلبي عن التابوت، وأثره الكبير في نصرهم فقال: وكان عندهم التابوت، يتوارثونه كابراً عن كابر، فيه السكينة، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون، وكانوا لا يلقاهم عدوّ فيقدّموا التابوت، ويزحفون به معهم إلّا هزم الله تعالى ذلك العدو، وكان الله تعالى قد بارك لهم في أرزاقهم، فكان أحدهم فيما يذكرون يجمع التراب على صخرة، ثم يبذر فيه الحب، فيخرج الله له ما يأكل منه هو وعياله، ويكون لأحدهم الزيتونة فيعصر منها ما يأكل منه هو وعياله سنة، فلما كثرت أحداثهم، وعظمت ذنوبهم، وتركوا ما عهد الله إليهم سلّط عليهم العمالقة، وهم قوم كانوا يسكنون غزّة وعسقلان، وساحل البحر، ما بين مصر وفلسطين، وكان جالوت الملك فيهم[1].

---

(١) عرائس المجالس: ٢٦٢.

١١ - قوله تعالى: ﴿فيه سكينة من ربكم﴾.

السكينة: طمأنينة تسكن إليها النفس، ويقوى بها العزم، وتشحذ بها الهمّة.

قال عطا: كان فيه ـ أي التابوت ـ آية يسكنون إليها(١).

وقال السيد الطباطبائي: إنّ السكينة روح إلهي.. يوجب سكينة القلب، واستقرار النفس، وربط الجأش(٢).

ويقول العلم الحديث في السكينة:

١ - قال الدكتور (أي. ليبمان) في كتابه (سكينة النفس): سكينة النفس هي الهبة التي يدّخرها الله لأصفيائه، إنّه يُعطى الكثيرون الذكاء والصحة والمال والشهرة، أمّا سكينة النفس فإنّه يمنحها بقدر.

وقال أيضاً: إنّه بعد ربع قرن من التجارب أصبح يُدرك أنّ سكينة النفس هي الغاية المثلى للحياة الرشيدة، وأنّها تزدهر بغير عون من المال، وبغير مدد من الصحّة، وفي طاقة السكينة أن تحوّل الكوخ إلى قصر(٣).

٢ - وقال (ريموند برل): إنّه ليس في وسع أهل الكهانة أن يُقدِّروا طول العمر، ولكن يستطيع أهل العلم أن يعدّوا كشوفاً وجداول تبيّن آجال الذين أحصيت أيّام حياتهم من الناس، فيتضح منها أنّ من لم تلح عليه ثورات الغضب، أو يستبدّ به الهم أو الغم فهو مطبوع على سكينة النفس، وهذا هو أهم أسباب طول العمر مع كامل الصحّة(٤).

٣ - ولعلّ أحسن قول قاله الطب في ذلك تلك الحكمة التي تعلو عيادة في مدينة (بوسطن) كتبتها الدكتورة (سارة جوردان) الاختصاصية

---

(١) مجمع البيان: ١ - ٢/ ٦١٤.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٢/ ٢٩١.

(٣) القرآن والعلم الحديث: ٣٨.

(٤) المصدر نفسه.

العالمية في علاج أمراض واضطرابات المعدة والأمعاء، والتي يُطلق عليها اسم القديسة التي تحرس باب المعدة، ونص هذه الحكمة هو: (إنّ سكينة النفس ضرورية لصحة البدن)[١].

٤ - ويعتقد الدكتور (هربرت ستاك) مدير معهد قيادة السيارات بأمريكا أنّ معظم حوادث السيارات التي تصيب حوالي مليونين، بين قتيل وجريح، وتحطّم ما يزيد على مليون سيارة في أمريكا وحدها في العام الواحد، تنشأ من قلق يساور نفس السائق، أو انفعال كالخوف أو الهم أو الغضب، أو حتّى الفرح، وإنّ ما يحتاج إليه السائق ليتفادى الحوادث هو سكينة النفس، لذلك فإننا نعلم صحة ما يقوله الدكتور (هاري أمرسون) إذ يقول: إنّ أهم الأركان التي تقوم عليها الأصول الجوهرية للحياة الصحيّة الخالية من أمراض البدن والنفس هو سكينة النفس. وهكذا يوضح علم الطب النفسي في أحدث اكتشافاته أنّه سلسلة طويلة من الأمراض، من البرد العادي إلى النقرس، ومن أمراض عضوية إلى أخرى نفسيّة، ومن إخفاق في العمل، وقلّة في الانتاج، كلّها ترد إلى المتاعب العقلية لا البدنيّة، وأنّ علاجها هو سكينة النفس ولا شيء غيرها[٢].

١٣ - نعود للآية الكريمة: سار الجيش المتزعزع بقيادة طالوت، وفي طريقهم نهر، أمرهم طالوت أن لا يشربوا منه، وخطابه ينبىء أنّه مأمور بتبليغهم من قبل السماء **﴿إنّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منّي ومن لم يطعمه فإنّه منّي﴾** والمعنى: أنّ الله سبحانه وتعالى مختبركم وممتحنكم بهذا النهر، فمن شرب منه فليس من أصحابي، ولا يشهد معي الحرب، ومن لم يشرب منه فإنّه من أوليائي وجندي، وأذن لهم في شرب غرفة واحدة **﴿إلّا من اغترف غرفة بيده﴾**.

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) المصدر نفسه.

١٤ - ومع هذا التأكيد والعزم على ترك الشرب، فقد شرب الثمانون ألف مقاتل بأكثر من المقرر ﴿**فشربوا منه إلّا قليلًا منهم**﴾.

إنّ القليل الذين التزموا بالأمر ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلًا فقط، وبهم قاتل جالوت وانتصر عليهم، بعد أن صرف الذين شربوا، ولم يقبل أن يشهد أحد منهم المعركة.

١٥ - وجاءت ساعة الصفر، علماً أنّ الجيش غير متكافىء في العدد والعدّة، لا سيّما بعدما حصل من طرد المخالفين، ولكن إلى جانب هذا التميّع والاستهتار الذي حصل في الجيش كانت النخبة الباقية على أتم ما يكون من الاستعداد لخوض المعركة، والوثوق بنصر الله جلّ جلاله ﴿**فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنّهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾.

لقد حقق الله أمانيهم، فمكّن داوود ـ وهو أحد المقاتلين في الجيش ـ فضرب جالوت بحجر فصكّ جبهته فخرّ ميّتاً، وانهزم بعد ذلك جيش الأعداء شرّ هزيمة، وتمّ النصر الإلهي.



الاسكندر ذو القرنين

١ - من أعلام الهداة:

والأرض منذ خلقها الله جلّ جلاله وحتّى يوم القيامة لا تخلو من الدعاة إلى الله جلّ جلاله، ينذرون عباده، ويدعون إلى منهاجه، يقيمون دعائم الحق، ويحكمون بالعدل، ويكفي من ذلك أن تعلم أنّ أوّل البشر هو آدم عليه السلام: نبيُّ الله وخليفته في أرضه.

نتحدّث في هذه القصة عن أحد الدعاة، ذي القرنين عليه السلام:

١ - دعا قومه إلى التوحيد فضربوه على قرنه الأيمن، ثم دعاهم إلى التوحيد فضربوه على قرنه الأيسر(١).

٢ - لما قتل الاسكندر (دارا) ملك البلاد، ودانت له العباد، فهدّم ما كان في بلاد الفرس من بيوت النيران، وما كان بأرض الهند من بيوت الأوثان، وقتل الموابذة(٢) وأحرق كتبهم، ودعا الناس إلى الإسلام والتوحيد(٣).

١ - منطلق الإيمان:

هو التفكّر والتأمل لهذه العوالم العظيمة، وما أودع فيها خالقها من

---

(١) عرائس المجالس: ٣٥٩.

(٢) المؤبذان: فقيه الفرس وعالمهم، وأحكم المجوس.

(٣) عرائس المجالس: ٣٦١.

عجائب لا تحصى، وبدائع لا تتناهى، إنّ مثل هذه الحالة تغيّر وضع الإنسان، وتنقله إلى السعادة، لذا قال رسول الله ﷺ: فكرة ساعة خير من عبادة سنة[١].

ومن الرواية الآتية يتبيّن أنّ قائد المسيرة العظيم حالفه الحظ فدخل هذا الباب الذي أفضى به إلى خير الدنيا وسعادة الآخرة.

قال الحسني: وكان أوّل ما عزم عليه، وأجمع أمره أن فكّر في خلق السماوات والأرض والجبال والبحار والأشجار والنبات والحيوان، والإنسان وعقله وتدبيره واقتداره وتصرّفه، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وما أمر به الرسل ونهوا عنه، وتلك القوانين العادلة؛ ثم فكّر في ذلك ساعة فآمن بالله تعالى وبرسله وكتبه، ثم دعا الناس إلى الإسلام والإيمان، وامتثال أوامر الله، ورفض ما سواه، فأجابوه هيبةً له وخوفاً من صولته[٢].

٣ - اشرح لك صدرك:

إنّ مهمات الأنبياء والمصلحين عظيمة، وهي أكبر من أن نحيط بها أو نستوعبها.

إنّ تغيير الشعوب وتقويمها رسالة شاقة تحتاج إلى عون إلهي، وسند سماوي، لذلك فإن تحمُّل هؤلاء القادة وصبرهم كان بمعونة الله جلّ جلاله وتسديده.

يذكر السيد الحسني أنّ ذا القرنين لما أمر بالفتح قال: إلهي إنّك قد ندبتني لأمر عظيم، لا يقدّر قدره غيرك، فأخبرني عن هذه الأمم بأيّ قوم

---

(١) مصباح الشريعة: ٢٠.

(٢) الأنبياء حياتهم وقصصهم: ٢١٨.

أكاثرها وأكافحها، وبأي عدد أغلبها، وبأي حيلة أكيدها وبأي لسان أكلمها، وكيف لي بأن أعرف لغاتها؟ فأوحى الله تعالى: «إنّي أشرح لك صدرك فتسمع كلَّ شيء واشرح لك فهمك فتفقه كلَّ شيء، واسخّر لك النور والظلمة واجعلهما جنداً من جنودك، النور يهديك، والظلمة تحوطك، وتحوش عليك الأمم من ورائك».

قال: فحينئذٍ انطلق ذو القرنين برسالة ربّه عزّ وجلّ، فمرّ بمطلع الشمس، فلا يمرُّ بأمة من الأمم إلّا ودعاهم إلى الله تعالى، فإن أجابوا فيها وإلّا سلّط عليهم الظلمة، وأظلمت مدائنهم وقراهم وحصونهم وبيوتهم، وأغشت أبصارهم، ودخلت على أفواههم وآنافهم، فلا يزالون فيها متحيّرين حتّى يستجيبوا لله عزّ وجلّ، حتّى بلغ مغرب الشمس[١].

٤ - كان عبداً صالحاً:

والدنيا مع كثرة فجّارها وكفّارها لم تخل قديماً ولا حديثاً من عباد الله الصالحين، والحكمة الشائعة «لو خليت لقلبت» وهم المعنيون بالحديث القدسي «لولا رجال خشّع وصبيان رضّع وبهائم رتّع لصببتُ عليكم العذاب صبّا»[٢].

وورد أيضاً: أنّ الله جلّ جلاله أخفى أولياءه في عباده، فأنت لا تعرف وليّه، أهو هذا الفلاح الذي يعمل في الشمس، أو هذا التاجر الذي تراه جالساً في كلّ يوم في حانوته، أو الشيخ الكبير الذي تراه دائماً وهو يلهج بذكر الله تعالى، أم الشاب الذي يعمل في المعمل عليه سيماء الصالحين، لهذا يجب عليك احترام الجميع، وعدم الاساءة إلى أحد من عباد الله.

---

(١) الأنبياء حياتهم وقصصهم: ٢١٨. (٢) الجواهر السنيّة: ١٣٤.

والحديث في هذه الصفحات عن ولي الله وعبده ذي القرنين، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: كان ذو القرنين عبداً صالحا، أحبّ الله وأحبّه الله، ناصح الله[١] وناصحه، قد أمر قومه بتقوى الله فضربوه على قرنه ضربة بالسيف فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إليهم فدعاهم إلى التوحيد، فضربوه على قرنه الآخر بالسيف، فذانك قرناه، وفيكم مثله، يعني نفسه[٢].

٥ - ملوك الدنيا أربعة:

وورد في مجمع البيان؛ الحديث:

لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء.

والمراد: أنها عند الله جلّ جلاله في نهاية الخسّة، لا تساوي شيئاً، ولو كان لها عند المولى سبحانه وتعالى شأن ومنزلة لحرّمها على الكافرين كما حرّم الجنّة ونعيمها عليهم.

فالدنيا أو بعضها ربّما ملّكها سبحانه وتعالى مؤمناً ليقيم فيها معالم العدل، ويكون حكمه حجّة على غيره من الملوك والأمراء بتطبيقه نظام السماء، وإقرار السلام، ورعاية الأمّة؛ وقد يعطيها أو بعضها كافراً أو فاسقاً، امتحاناً للعباد، وإعلاء لدرجات المتقين لما يصيبهم في دولة الظالمين؛ والدنيا بحذافيرها ملكها مؤمنان: سليمان بن داود عليه السلام، والاسكندر ذو القرنين، وكافران: نمرود، وبخت نصر.

---

(١) ناصح الله: كان على عقيدة صحيحة في التوحيد، مع الاخلاص في العبادة ونصرة الحق.

(٢) قصص القرآن الكريم للقطيفي: ١٢٢.

٦ - عجائب المخلوقات:

ما أكثر العوالم، وما أكثر الخلائق، وما وصل علمه إلينا من ذلك إلّا النزر القليل، ولا يعلم جميع ذلك إلّا خالقهم ورازقهم، والآيات التي تعرّضت لذي القرنين ذكرت أربع أمم، مقطوعة عنا أخبارهم: الأمّة التي وجدها عند مغرب الشمس، والتي وجدها عند مطلع الشمس، ويأجوج، ومأجوج؛ وبالأمس القريب اكتشفت أمريكا وشعبها، وليتها لم تكتشف، فهي اليوم مصدر قلق الكرة الأرضية بمؤامراتها على الشعوب، وقتلها للبشرية.

٧ - السد:

وهو من عجائب الدنيا وغرائبها، وهو مع ما بذل فيه من جُهد محاط بالعناية الإلهيّة، ولولاه لما قاوم الآلاف من السنين، رغم العمل المتواصل لهدمه، وسيبقى حتّى يأذن الله سبحانه وتعالى بخرابه.

في العرض القرآني المجيد

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣].

روى الشيخ الطريحي عن عقبة بن عامر: أنّ جماعة من أهل الكتاب دخلوا على النبي ﷺ ومعهم كتب، فقال ﷺ: إن شئت أخبرتكم عما أردتم أن تسألوني قبل أن تتكلّموا، وإن شئتم تكلّموا به.

فقالوا: بل أخبرنا قبل أن نتكلم.

قال: جئتم تسألوني عن ذي القرنين، وسأحدثكم عما تجدونه عندكم مكتوباً: إنّ أوّل أمره غلام من الروم، أُعطي ملكاً، فسار حتّى بلغ

ساحل أرض مصر، فابتنى عنده مدينة يقال لها (الاسكندريّة) فلما فرغ من بنائه إيّاها أتاه ملك فعرج به فوقّفه، ثم قال له: انظر ما تحتك، قال: أرى مدينتي، وأرى مدائن معها، ثم عرج به فقال: انظر ما تحتك، قال: أرى مدينتي قد اختلطت مع المدائن فلا أعرفها، ثم زاد، فقال: انظر، فقال: أرى مدينتي وحدها، لم أر معها غيرها، فقال له الملك: إنّما تملك الأرض كلها، والذي ترى محيطاً بها هو البحر، وإنّما أراد الله تعالى بذلك أن يريك الأرض، وقد جعلك سلطاناً، وسوف يعلم الجاهل، ويثبت العالم.

فسار حتّى بلغ مغرب الشمس، ثم سار حتّى بلغ مطلع الشمس، ثم أتى السدّين، وهما جبلان ليّنان، يزلق عنهما كل شيء، فبنى السد[١].

قوله: ﴿**إنّا مكّنا له في الأرض**﴾ بسطنا يده في الأرض وملكناه حتّى استولى عليها، وقام بمصالحها؛ وروي عن علي عليه السلام أنه قال: سخّر الله له السحاب فحمله عليها، ومدّ له في الأسباب، وبسط له النور، فكان الليل والنهار عليه سواء ﴿**وآتيناه من كلّ شيء سببا**﴾ فأعطيناه من كلّ شيء علماً يتسبب به إلى إرادته، ويبلغ به إلى حاجته ﴿**فاتبع سببا**﴾ فاتّبع طريقاً واحداً في سلوكه ﴿**حتّى إذا بلغ مغرب الشمس**﴾ موضع غروبها.

والمراد: انتهى إلى آخر العمارة من جانب المغرب، وبلغ قوماً ما لم يكن وراءهم أحد إلى موضع غروب الشمس، ولم يرد بذلك أنّه بلغ إلى موضع الغروب، لأنه لم يصل إليه أحد ﴿**وجدها تغرب**﴾ وجدها كأنّها تغرب ﴿**في عين حمئة**﴾ وإن كانت تغرب في ورائها، لأنّ الشمس لا تزايل الفلك، ولا تدخل عين الماء، ولأنّه قال: وجد عندها قوماً، ولكن لما بلغ ذو القرنين ذلك الموضع تراءى له كأنّ الشمس تغرب في عين، كما أنّ من

(١) مجمع البحرين: ٦/ ٢٩٨.

كان في البر رآها كأنّها تغرب في الماء، ومن كان في البحر يراها كأنّها تغرب في الأرض؛ والعين الحمئة: هي ذات الحمأة، وهو الطين الأسود المنتن ﴿**ووجد عندها قوماً**﴾ ووجد عند العين ناساً. قوله ﴿**قلنا يا ذا القرنين إمّا أن تعذّب وإمّا أن تتخذ فيهم حسنا**﴾ وفي هذه دلالة على أنّ القوم كانوا كفّاراً، والمعنى: إمّا أن تعذّب بالقتل من أقام منهم على الشرك، وإمّا أن تأسرهم و تمسكهم لتعلّمهم الهدى وتستنقذهم من العمى. واستدلّ بعضهم على أنّه كان نبيّاً، لأنّ الله سبحانه أوحى إليه كما أوحى بهذا إلى الأنبياء عليهم السلام؛ ويقول الكلبي: إنّ الله تعالى ألهمه ولم يوح إليه، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿**وأوحينا إلى أم موسى**﴾ والمراد: ألهمناها. قوله: ﴿**أمّا من ظلم فسوف نعذّبه**﴾ المراد من الظلم: الشرك، لقوله تعالى: ﴿**إنّ الشرك لظلم عظيم**﴾ كما أنّ المراد من العذاب القتل إذا لم يرجع إلى الحق ويتوب ﴿**ثمّ يُرد إلى ربّه**﴾ بعد قتلي إيّاه ﴿**فيعذّبه عذاباً نكراً**﴾ منكراً غير معهود، والمراد بذلك عذاب النار، فهو أشدُّ من القتل في الدنيا ﴿**وأمّا من آمن وعمل صالحاً فله جزاءَ الحسنى**﴾ النعمة في الدنيا، والمثوبة في الآخرة ﴿**وسنقول له من أمرنا يسرا**﴾ قولًا جميلًا ﴿**ثم اتبع سببا**﴾ طريقاً آخر من الأرض ليؤدّيه مطلع الشمس، ويوصله إلى المشرق ﴿**حتّى إذا بلغ مطلع الشمس**﴾ بلغ موضع العمارة من الجانب الذي تطلع منه الشمس ﴿**وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً**﴾ لم يكن بها جبل ولا شجر ولا بناء، لأنّ أرضهم لم يكن يثبت عليها بناء، فكانوا إذا طلعت يغورون في المياه والاسراب، وإذا غربت تصرّفوا في أمورهم ﴿**كذلك**﴾ معناه: مثل ذلك القبيل الذين كانوا عند مغرب الشمس، في أنّ حكمهم حكم أولئك ﴿**وقدأحطنا بما لديه خبرا**﴾ علمنا ما كان عند ذي القرنين من الجيوش والعدّة، والمراد: الثناء عليه، والرضا بأفعاله، وامتثاله أوامر الله سبحانه وتعالى في كلّ أحواله.

قوله: ﴿**ثمّ اتبع سببا**﴾ اتبع مسلكاً بالغاً مما يبلّغه قطراً من أقطار الأرض؛ وهذا مما يقوّي قول من قال: إنّ الأرض كرويّة الشكل، لأنّه لم يأخذ في الطريق الذي كان قد عاد فيه، وإنّما أخذ في طريق آخر.

قوله: ﴿**حتّى إذا بلغ بين السدّين**﴾ أخبر سبحانه عن حال ذي القرنين بعد منصرفه عن المشرق، أنّه سلك طريقاً إلى أن بلغ بين السدّين، ووصل إلى ما بينهما، وهما الجبلان اللذان جعل الردم بينهما، وهو الحاجز بين ياجوج وماجوج ومن ورائهم ﴿**وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا**﴾ خصّوا بلغة كادوا لا يعرفون غيرها.

قال ابن عباس: كانوا لا يفقهون كلام أحد، ولا يفهم الناس كلامهم، وإنّما قال: لا يكادون لأنّهم فهموا بعض الأشياء عنهم وإن كان بعد شدّة، ولذلك حكى عنهم ﴿**قالوا يا ذا القرنين إنّ يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض**﴾ وفسادهم: أنّهم كانوا يخرجون فيقتلونهم، ويأكلون لحومهم ودوابهم، وكانوا لا يدعون شيئاً أخضر إلّا أكلوه، ولا يابساً إلّا احتملوه ﴿**فهل نجعل لك خرجاً**﴾ نجعل لك بعض أموالنا ﴿**على أن تجعل بيننا وبينهم سدّاً**﴾ حائطاً. قوله: ﴿**ما مكّني فيه ربّي خير**﴾ ما أعطاني ربّي من الأموال، ومكّني فيه من الاتساع في الدنيا، خير مما عرضتموه عليّ ﴿**فأعينوني بقوّة**﴾ برجال ﴿**أجعل بينكم وبينهم ردما**﴾ سدّاً حاجزاً ﴿**آتوني زبر الحديد**﴾ أعطوني قطع الحديد ﴿**حتّى إذا ساوى بين الصدفين**﴾ سوّى بين جانبي الجبل بما جعل بينهما من الزبر.

قال الأزهري: يقال لجانبي الجبل صدفان لتصادفهما، أي تحاذيهما وتلاقيهما ﴿**قال انفخوا**﴾ قال ذو القرنين: انفخوا النار على الزبر؛ أمرهم أن يأتوا بمنافخ الحدادين فينفخوا في نار الحديد التي أوقدت فيه ﴿**حتّى إذا جعله ناراً**﴾ جعل الحديد كالنار في منظره من الحمي واللهب، وصار قطعة

واحدة، لزم بعضه بعضاً **﴿قال آتوني أفرغ عليه قطرا﴾** أعطوني نحاساً مذاباً أو حديداً مذاباً أصبّه على السد بين الجبلين حتّى ينسد الثقب الذي فيه، ويصير جداراً مصمتاً، فكانت حجارته الحديد، وطينه النحاس الذائب **﴿فما اسطاعوا أن يظهروه﴾** فلمّا لم يستطع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوه **﴿وما استطاعوا له نقبا﴾** ولم يستطيعوا أن ينقبوا من أسفله لكثافته وصلابته.

إنّ هذا السد وراء بحر الروم، بين جبلين هناك، يلي مؤخرها المحيط، وإنّ مقدار ارتفاع السد مائتا ذراع، وعرض الحائط نحو خمسين ذراعاً.

وقال الأستاذ عبد الرؤوف المصري: السد بين جبلين متقابلين على حدود بلاد التركستان والصين، وقد سدّ الاسكندر ما بينهما[1] لقد مضى على السد آلاف السنين، يتحدّى أعظم أمّة في فتكها وبطشها وقوّتها، وسيبقى أيضاً للوقت الذي وقّته سبحانه وتعالى لخرابه، وعندها يعود هباءً منثوراً، علماً أنّ خرابه أذانٌ بخراب الدنيا بأسرها وفنائها.

قوله: **﴿قال هذا رحمة من ربّي﴾** قال ذو القرنين: إنّ هذا السد نعمة من الله لعباده، أنعم بها عليهم، في دفع شر ياجوج وماجوج عنهم **﴿فإذا جاء وعد ربّي﴾** إذا جاء وقت أشراط الساعة، ووقت خروجهم الذي قدّره الله تعالى **﴿جعله دكّاء﴾** جعل السد أرضاً مستوية مع الأرض مدكوكاً **﴿وكان وعد ربّي حقّاً﴾** إنّ ما وعد الله سبحانه بأن يفعله لا بدّ من كونه، فإنّه حقّ لا يجوز أن يُخلف وعده **﴿وتركنا بعضهم يومئذٍ يموج في بعض﴾** وتركنا ياجوج وماجوج يوم القضاء أمر السدّ يموجون الدنيا مختلطين

---

(١) معجم القرآن الكريم: ١/ ٢٦٩.

لكثرتهم، ويكون حالهم كحال المال الذي يتموّج باضطراب الموجة **﴿ونفخ في الصور﴾**.

إنّ خروج ياجوج وماجوج من أشراط الساعة.

والصور: هو قرن ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام **ثلاث نفخات**:

النفخة الأولى: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، التي يصعق من في السماوات والأرض فيموتون، والثالثة: نفخة القيام لربّ العالمين، فيحشر الناس بها من قبورهم.

وعن الحسن: الصور: جمع صورة، فإنّ الله سبحانه يصوّر الخلق في القبور كما صوّرهم في أرحام الأمهات، ثم ينفخ فيهم الأرواح كما نفخ وهم في أرحام أمهاتهم قوله: **﴿فجمعناهم جمعاً﴾** حشرنا الخلق يوم القيامة كلهم في صعيد واحد.





بلقيس

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠].

تبدأ القصة في استعراض جرى للجيوش والحشود التي جمعت لسليمان عليه السلام، فلم يشاهد الهدهد في موقفه بين صفوف الطيور.

وسئل الإمام الصادق عليه السلام: كيف تفقّد سليمان الهدهد من بين الطيور؟.

قال: لأنّ الهدهد يرى الماء في باطن الأرض كما يرى أحدكم الدهن في القارورة[1].

نعود للآيات: ﴿جئتك من سبأ بنبأ يقين﴾ فما أسرع أن عاد الهدهد، وأخبر سليمان عليه السلام بأمر في غاية الأهمية والخطورة، لم يكن لسليمان عليه السلام به علم، لقد شاهد مملكة تدبرها ملكة، في مدينة تسمى (سبأ) في بلاد اليمن.

وإلى هنا لا يدعو الموضوع للعجب كثيراً، ولكنّ الذي شقّ على نبيّ الله من النبأ ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾ لقد تلاعب الشيطان بالبشر، وصدّهم عن التوحيد وحقّق ظنه فيهم ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣] فجعل بعضهم يعبد الأصنام وآخرين الشمس، وفرقة

---

(١) قصص الأنبياء للجزائري: ٤٠٩.

ثالثة النار، ورابعة البقر، بل هو أضل حتّى بعض أهل الديانات والرسالات، فصدّهم عن طريق التوحيد والموحدين ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: ٣٠].

نعود للآية الكريمة: **﴿وزيّن لهم الشيطان أعمالهم﴾** عبادتهم للشمس من دون الله تعالى **﴿فهم لا يهتدون﴾** إلى طريق الرشاد **﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض﴾** كان المفروض بأهل سبأ، بل وكل أهل الأرض أن يكون سجودهم لله جلّ جلاله، لأن السجود والركوع لا يصح إلّا لله ربّ العالمين؛ والخبء الذي أشارت إليه الآية هو الغيب، وهو كل ما غاب عن الادراك، والمعنى: أنّه سبحانه وتعالى يعلم غيب السماوات والأرض **﴿ويعلم ما يخفون وما يعلنون﴾** يعلم سرّهم وعلانيتهم.

بدا على نبيِّ الله الاستغراب، وهو أن يكون في عهده وسلطانه من يعبد غير الله تعالى، لذا تراه أجاب الهدهد **﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾** فيما أخبرتنا به.

ثم كتب له كتاباً أمره أن يوصله إليهم، وأن يوافيه بجوابهم **﴿اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم﴾** إلى أهل سبأ **﴿ثمّ تولّ عنهم﴾** استتر منهم قريباً بعد إلقاء الكتاب إليهم **﴿فانظر ماذا يرجعون﴾** ماذا يردّون من الجواب.

ذهب الهدهد بالرسالة إلى غرفة الملكة، ووقف في النافذة ينتظر قيامها، فلما رمى من الكتاب إليها، وقرأته جمعت الأشراف وهم ثلاثمائة واثنا عشر لكي تشاورهم في هذا الأمر الخطير **﴿قالت يا أيّها الملأ إنّي ألقي إليّ كتاب كريم﴾** وصفته بالكريم لأنّه كان ممن يملك الإنس والجن وجميع صنوف الحيوانات وكانت قد سمعت به.

افتتحت الجلسة المغلقة بقراءة الكتاب على المجتمعين: ﴿**إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم ألّا تعلوا عليّ واتوني مسلمين**﴾ لا ترفّعوا عليّ وأتوني مؤمنين بالله تعالى ورسوله، مخلصين في التوحيد.

وهذا الكتاب مستمسك على أنّ الأنبياء عليهم السلام بُعثوا جميعاً بالإسلام، وأنّ الدين الإسلامي هو دين الله جلّ جلاله الذي أمر البشريّة أن تتديّن به، ولا يقبل من أحد غيره.

قوله: ﴿**قالت يا أيها الملأ افتوني في أمري**﴾ يظهر أنّها كانت على جانب كبير من الديمقراطية، فهؤلاء بمثابة أعضاء المجلس النيابي، وهم يمثّلون الأمّة، وقد أحالت الأمر إليهم، وطلبت منهم القرار الأخير، وأن يشيروا عليها بالصواب ﴿**ما كنت قاطعة أمراً**﴾ ما كنت ممضية أمراً ﴿**حتّى تشهدون**﴾ حتّى تحضروني، ويكون القرار النهائي بحضرتكم ومشورتكم.

وأجابوا ﴿**نحن أولو قوّة**﴾[1] أصحاب قوّة وقدرة وعدد ﴿**وأولو بأس شديد**﴾ وأصحاب شجاعة شديدة ﴿**والأمر إليك**﴾ إنّ الأمر مفوّض إليك في القتال وتركه ﴿**فانظري ماذا تأمرين**﴾ ما الذي تأمرينا به لنمتثله، فإن أمرت بالصلح صالحنا، وإن أمرت بالقتال قاتلنا.

ويظهر أنّها كانت على جانب كبير من حسن التدبير والسياسة، والفهم لبواطن الأمور، ولا غرو في ذلك فقد ولدها ملوك كثيرون ورثت منهم النظر الصائب، وحسن الإدارة، لقد أدّى بها الرأي إلى سلوك سبل السلام، لقد أجابتهم ﴿**قالت إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها**﴾ فهم إذا دخلوها عنوة عن قتال وغلبة أهلكوها وخرّبوها ﴿**وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة**﴾

---

(١) قال قتادة: وكان أولو مشورتها ثلاثمائة واثني عشر قيلاً، وكل قيل منهم تحت رايته ألف مقاتل؛ بحار الأنوار: ١٤/١١٧.

أهانوا أشرافها وكبراءها، والمراد: تحذيرهم من مسير سليمان عليه السلام إليهم، ودخوله بلادهم.

وصدّقها القرآن فيما قالت ﴿**وكذلك يفعلون**﴾ هكذا صنعهم قديماً وحديثاً.

قوله: ﴿**وإنّي مرسلة إليهم بهديّة**﴾ والهديّة لها وقع - حتى عند الملوك - في تلطيف الجو، وخلق الصفاء، وإزاحة العلل التي يبرّر بها الأقوياء تعدّيهم على الضعفاء، والله جلّ جلاله أودع في كتابه العزيز حكماً وأسراراً لو أخذ بها الناس - من ملوك وشعوب - تيسّرت بها أمورهم، وسلموا من مآسٍ كثيرة؛ ومعنى قولها: إنّي أرسل إلى سليمان وقومه بهديّة أصانعه بذلك عن ملكي ﴿**فناظرة**﴾ فمنتظرة ﴿**بم يرجع المرسلون**﴾ بقبول أم ردّ، وإنّما فعلت ذلك لأنّها عرفت عادة الملوك في حسن موقع الهدايا عندهم، وكان غرضها معرفة هل أنه ملك أو نبيّ، فإن قبل الهديّة تبيّن أنّه ملك وعندها ترضيه، وان ردّها تبيّن لها أنه نبيّ.

كانت الهدية صفائح الذهب في أوعية من الديباج، فلما بلغ ذلك سليمان أمر الجن فموّهوا له الآجر بالذهب، ثم أمر به فألقي في الطريق، فلما جاءوا رأوه ملقى في الطريق في كل مكان ، فلما رأى ذلك صغر في أعينهم ما جاءوا به.

لقد خابت آمالها في نجاح المهمة، فقد كانت تحسب أن يقبلها سليمان عليه السلام، ويدعها وشأنها ولكن ما أسرع أن رجع الرسول بالهدية ورسالة تهديد.

قوله: ﴿**فلما جاء سليمان**﴾ فلما جاء الرسول سليمان ﴿**قال أتمدونني بمال**﴾ تزيدونني مالاً؟! وهذا استفهام إنكار، والمراد: أنه لا يحتاج إلى مالهم ﴿**فما آتاني خير مما آتاكم**﴾ ما أعطاني الله من الملك

والنبوة والحكمة خير مما أعطاكم من الدنيا وأموالها ﴿**بل أنتم بهديتكم تفرحون**﴾ إذا أهدى بعضكم إلى بعض، وأمّا أنا فلا أفرح بها؛ أشار إلى قلة اكتراثه بأموال الدنيا ﴿**ارجع إليهم فلنأتينّهم بجنود لا قبل لهم بها**﴾ والأنبياء عليهم السلام يتوسّلون بجميع السبل السلميّة، مفضّلين لها على الوسائل العسكريّة، وأنت لو نظرت إلى حروب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لوجدتها دفاعية، وكان صلوات الله عليه يستجيب لدواعي السلم كما في معاهداته مع يهود المدينة، وصلحه مع قريش والذي عرف بصلح الحديبيّة، وأيضاً فقد أرسل صلوات الله عليه إلى ملوك العرب والشرق رسائل يدعوهم فيها إلى الإسلام، وفعلًا استجاب بعضهم لندائه.

ونبيُّ الله سليمان عليه السلام مع ما لديه من طاقات جبّارة تراه يكتفي بالتهديد والوعيد، وينجح بذلك أعظم نجاح، ويحقق مبتغاه، فقد أسلموا حكومة وشعباً، وتركوا ما كانوا يعبدون.

نعود للآية: ﴿**ارجع إليهم**﴾ بما جئت من الهدايا ﴿**فلنأتينّهم بجنود لا قبل لهم بها**﴾ لا طاقة لهم بها، ولا قدرة لهم على دفعها ﴿**ولنخرجنّهم منها أذلة**﴾ من أرضهم وملكهم ﴿**وهم صاغرون**﴾ ذليلون، صغيرو القدر إذا لم يأتوني مسلمين.

قوله: ﴿**يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين**﴾ جاء في مطلع الآيات التي تحدّثت عن بلقيس قوله تعالى: ﴿**إنّها كانت من قوم كافرين**﴾ فالكفر قد تأصّل منذ القدم في شعبهم وحكومتهم، وعبدوا جميعاً الشمس من دون الله سبحانه وتعالى، ونقلهم إلى التوحيد يحتاج إلى مساع متظافرة، وجهود كبيرة إلى استئصاله، فمن ذلك: التهديد بالقوّة، وقد سلكه سليمان عليه السلام، والأمر الآخر: قناعة نفسيّة لكي تتغلغل العقيدة وتأخذ دورها إلى النفوس، وموضوع العرش ـ على ضخامته، والحراسة

المكثّفة عليه ـ ونقله من اليمن إلى الشام حيث يقيم نبيُّ الله سليمان عليه السلام في لحظة واحدة، مما يدعو الملكة ورجال الدولة، بل عامة الشعب إلى حسن العقيدة والإيمان، وهذا هو مطلب نبيِّ الله سليمان، لا سيّما وقد علم ـ من طريق الوحي ـ أنّ الملكة والقادة والأشراف قد توجّهوا إليه، لهذا طلب من قادته أن يأتيه أحدهم بعرشها، فيكون ذلك دليلًا ومعجزة على نبوّته، لأنّها خلّفته في دارها، وأوثقته، ووكّلت به ثقاة قومها يحرسونه ويحفظونه ﴿**قال عفريت من الجن**﴾ مارد قويٌّ داهية ﴿**أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك**﴾ من مجلسك الذي تقضي فيه ﴿**وإنّي عليه لقويّ أمين**﴾ وانّا على حمله لقويّ، وعلى الإتيان به في هذه المدّة قادر، وعلى ما فيه من الذهب والجواهر أمين.

إنّ العرض الذي تقدّم به العفريت كان جيّداً، وفوق ما يتصوّر من السرعة، ولكنه عليه السلام رفضه وأراد ما هو أسرع، فعند ذلك ﴿**قال الذي عنده علم من الكتاب**﴾ وهو آصف بن برخيًا، وكان وزير سليمان، وكان صديقاً، يعرف اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وقيل إن ذلك الاسم (الله) وقيل: (يا حيُّ يا قيّوم) وقيل هو: (ياذا الجلال والإكرام) ﴿**أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك**﴾ ارتداد الطرف: ادامة النظر حتّى يرتد طرفه خاسئاً، ومعناه: أنّ سليمان عليه السلام مدّ بصره إلى أقصاه، وهو يديم النظر، فقبل أن ينقلب بصره إليه حسيراً أتي بالعرش.

قال الكلبي: خرّ آصف ساجداً، ودعا باسم الله الأعظم، فغار عرشها تحت الأرض ونبع عند كرسي سليمان، وذلك أنّ الملائكة حملته بأمر الله تعالى.

ولم يكن سليمان عليه السلام وهو نبيُّ العصر يعجز عمّا جاء به آصف، ولكنه أراد إظهار فضيلته، ولكي تتهيأ النفوس للإذعان لزعامته المنتظرة، وهذا ما يستعمله الأنبياء عليهم السلام دائماً.

قوله: ﴿فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربّي﴾ فلما رأى سليمان العرش محمولًا إليه، وموضوعاً بين يديه في مقدار رجع البصر ﴿قال هذا من فضل ربّي﴾ من نعمته عليّ، واحسانه لديّ، لأنّ تيسير ذلك وتسخيره مع صعوبته وتعذّره معجزة له، ودلالة على علوّ قدره، وشرف منزلته عند الله جلّ جلاله.

إنّ هذا تعليم منه عليه السلام لكل فرد من أفراد المجتمع أن يجدد عند كلّ نعمة شكراً، فبالشكر تدوم النعم ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

إنّ موضوع الشكر مهم جداً بالنسبة لكل أفراد المجتمع، لكن الشيطان ينسيهم ذلك، بل هو ينسيهم النعم فضلًا عن شكرها، لهذا ينبغي للإنسان أن يجالس الفقراء لتظهر لديه نعم الله جلّ جلاله حتّى يؤدّي شكرها فيستوجب الزيادة كذلك يُكره للإنسان مجالسة الأغنياء، وأهل الثراء، لأنّه بمجالستهم، وما يرى لديهم من أموال تتضاءل عنده نعم الله جلّ جلاله التي أنعم بها عليه، فيقل شكره. قوله: ﴿ليبلوني ءأشكر أم أكفر﴾ ليختبرني هل أقوم بشكر هذه النعمة أم أكفر بها ﴿ومن شكر فإنّما يشكره لنفسه﴾ لأنّ عائدة شكره ومنفعته ترجعان إليه، وتخصّانه دون غيره، وهذا مثل قوله: ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾. قوله: ﴿ومن كفر فإنّ ربّي غنيّ﴾ عن شكر العباد، غير محتاج إليهم، بل هم المحتاجون إليه، ﴿كريم﴾ متفضّل على عباده، شاكرهم وكافرهم، عاصيهم ومطيعهم، لا يمنعه كفرهم وعصيانهم عن الإفضال عليهم، والإحسان إليهم؛ لهذا يجب أن يعلم ويتيقّن كل فرد من أفراد المجتمع أن الإيمان ودواعيه من العمل الصالح هو لمنفعة العبد نفسه، وأنّ الله جلّ جلاله لا تنفعه عبادة من أطاعه، ولا تضرّه معصية من عصاه.

إنّ العبد هو المنتفع بإيمانه في الدنيا بكثرة محبيه، والمتعاملين معه،

أضف إلى ذلك ما يحصل بالتزامه بأحكام الشريعة من صحة لا يحصل عليها المسرفون، وهو المنتفع به في الآخرة حيث يحصل على جنّات الخلود، ونعيم دائم لا يزول والكافر والفاسق يخسرهما معاً وذلك هو الخسران المبين.

قوله: ﴿**وقال نكّروا لها عرشها**﴾ وصل العرش قبل وصولها بزمن طويل، ورأى عليه السلام أن يغيّر بعض معالمه اختباراً لعقلها وذكائها ﴿**ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون**﴾ أتهتدي إلى معرفة عرشها بفطنتها بعد التغيير أم لا تهتدي إلى ذلك ﴿**فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنّه هو**﴾ فلم تثبته ولم تنكره، ودلّ ذلك على كمال عقلها، حيث لم تقل نعم إذ وجدت فيه ما غيّر وبدّل، ولأنها خلّفته في مملكتها؛ وقالت: ﴿**وأوتينا العلم**﴾ بصحّة نبوّة سليمان ﴿**من قبلها**﴾ من قبل الآية في العرش ﴿**وكنّا مسلمين**﴾ طائعين لأمر سليمان والمراد: إنّي مقتنعة بنبوّة سليمان قبل أن أرى العرش.

قوله: ﴿**وصدّها ما كانت تعبد من دون الله إنّها كانت من قوم كافرين**﴾. إنّ الذي منعها من عبادة الله جلّ جلال. أنّها نشأت في مجتمع يعبد الشمس، فأخذت ذلك عنهم.

والواقع أنّ للمحيط أثره على الإنسان، وأنّه يلاقي مصاعب في الخروج على تقاليد قومه وأهله، وكثير من الذين يتبيّن لهم الحق، ويبصرون طريق النجاة، ولكنّ الشيطان يؤخّرهم عن الانتقال إلى نهج الرشاد والصواب مرّة بعد أخرى حتّى يوافيهم الأجل وهم على ضلال، فيخسرون نعيماً أبدياً وجنّة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين، وأكثر من هذا تحضنه نار سجّرها جبّارها لغضبه، وبعضهم يوفّق لاجتياز السدود والعوائق، وينتقلُ إلى شاطىء السلامة فيسعد سعادة أبديّة.

وينبغي للمسلم أن يحمد الله جلّ جلاله على ولادته من أبوين مسلمين، وفي بيئة مسلمة، ولكنّه مع ذلك مطالب بالدليل، فالله جلّ جلاله يريد من جميع عباده أن يوافوا القيامة بدليل على ما بأيديهم من دينٍ واعتقاد، والمسلم يكفيه القرآن الكريم دليلًا على ذلك ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

قوله: **﴿قيل لها ادخلي الصرح﴾**.

الصرح: هو الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف؛ لما أقبلت بلقيس أمر سليمان عليه السلام الشياطين ببناء الصرح من قوارير، وأجرى تحته الماء، وجمع فيه الحيتان ودواب البحر، ثم وُضع له سرير فجلس عليه، وإنّما أراد عليه السلام بذلك أن يختبر عقلها، وينظر هل تستدل على معرفة الله جلّ جلاله بما ترى من هذه الآية العظيمة، لأنّ هذا العمل لا يقدر عليه إنسان ـ مهما عظمت طاقاته وإمكانياته ـ بل تتجلّى في صنعه القدرة الإلهية التي سخّرت الشياطين وغيرهم في صنعه **﴿وكشفت عن ساقيها﴾** لدخول الماء **﴿قال﴾** لها سليمان **﴿إنّه صرح ممرّد﴾** مملّس **﴿من قوارير﴾** وليس بماء إنّ كل هذا العمل لأجل أن تهتدي الملكة أو بالأحرى المملكة بأجمعها إلى الإسلام، وقد تحقق ذلك **﴿قالت ربّي إنّي ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله ربّ العالمين﴾** والبعض وإن عاش في الكفر دهراً لكنه يُختم له بالحسنى، ويحسن إسلامه، ويموت على الاستقامة، وبعضهم الآخر ـ والعياذ بالله ـ يعيش كافراً، ويموت كافراً، وحتّى لو أسلم فإنّه يميل إلى النفاق والشقاق لتأصل دواعي الكفر في نفسه، شأن المنافقين الذين عاصروا الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، واعتقد أنّ لخبث المولد علاقة بذلك ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨] وإنّ ولد الزنا لا يوفّق لخير، وبلقيس كانت ممن يعبد غير الله تعالى ولكن بمجرد أن وقع نظرها

على سليمان عليه السلام قالت: ﴿**ربّي إنّي ظلمت نفسي**﴾ بالكفر الذي كنت عليه ﴿**وأسلمت مع سليمان لله ربِّ العالمين**﴾ فحسن إسلامها، وزوجها من ملك يقال له (تبّع) وردّها إلى بلادها.





أصحاب الأخدود

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤].

منذ اليوم الأوّل وأهل الإيمان يعانون في سبيل إيمانهم المشاق من الطغاة. فهم يتفنّنون في قتلهم وتعذيبهم، ولم يتركوا وسيلة من العنف والإرهاب إلّا واستعملوها معهم.

وانت إذا علمت أنّ ابني آدم عليه السلام وهما أوّل البشر، وأبناء نبيٍّ مرسل - يقتل الشقيُّ منهم التقي -، لا لشيء إلّا لإيمانه، أدركت ما لاقاه أهل الإيمان من العذاب والنكال طيلة هذه القرون.

إنّك لا تتصوّر لوناً من ألوان التعذيب إلّا وقد استعمله المجرمون مع المؤمنين، فليس منا من لم يبلغه ما يجري اليوم في بعض العواصم الإسلامية على المؤمنين، حتّى أنّ بعض الطغاة، ألقى بعض المجاهدين في (الأسيد) فذوّبه فيه، والله سبحانه وتعالى يعلم كم من عبد صالح مضرّج بدمه، لا يوجد من يحمله ويدفنه، ليس له جريمة إلّا إيمانه بالله وبرسوله والعمل الصالح.

وكان بالإمكان أن يدفع الله جلّ جلاله عن هؤلاء المظلومين شرّ الطغاة والظالمين، ولا يمكنهم منهم، ولكن ذلك بخلاف ما تقتضيه الحكمة، إنّ الله سبحانه وتعالى أعطى عباده العقل، وأرسل إليهم الرسل، فدلّوهم على طريق الخير ووعدهم عليه الجنّة، وحذّروهم طريق الشر، وأوعدوهم عليه النار، أمّا الزامهم بسلوك نهج الاستقامة، وجعلهم أتقياء

شاءوا أم أبوا فهذا يبطل الثواب، ولا يتميّز المحسن من المسيء، ولا المستقيم من المنحرف.

وهناك أمر آخر: إنّ الله سبحانه جعل لعباده المؤمنين من الدرجات الرفيعة، والمنازل السامية ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، بل لم يخطر على قلب بشر، فهذا العطاء الفخم يستوجب بعض العناء والمشاق، وتحمل الشدائد.

يقول خبّاب: أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسّد ببردته في ظل الكعبة ـ وقد لقينا من المشركين شدّة ـ فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا. فقعد وهو محمّر الوجه، فقال: إن كان من قبلكم يمشّط أحدهم بأمشاط الحديد دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنّ الله هذا الأمر حتّى ليسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا الله عزّ وجلّ[1].

فهو جلّ شأنه إن خلّص بعض عباده المؤمنين من كيد الظالمين ابتلاهم بالفقر أو المرض، أو بغير ذلك من البلاء، ليتأهلوا لتلك المنازل الرفيعة، والرتب السامية، ومن هذا ما ورد عن الصادقين صلوات الله عليهم: ما من مؤمن إلّا وله جار يؤذيه.

وربّما يكون المؤمن نفسه هو السبب فيما يصبه من بلاء ومكروه، وذلك بأن يسأل الله سبحانه وتعالى درجة رفيعة لا يستحقها فيتعرض لبلاء ليتأهل لتلك المنزلة.

جاء في الآثار: أنّ صديقاً لنبيّ الله موسى عليه السلام، كان الغاية في الإيمان والتقى، وكان قد اصطحبه يوماً ثم خلّفه في موضع وذهب لمناجاة

---

(١) سفينة البحار: ١/ ٣٧٢.

ربّه، ولما رجع وجد الأسد قد افترسه، فشقّ ذلك عليه، فسأل الله سبحانه وتعالى عن السبب الذي استوجب به هذا البلاء، فأخبره جلّ جلاله: إنّه سألني منزلة رفيعة لا يستحقها، فبليته بما رأيت لأعطيه ما سأل.

نعود للآية الكريمة: إنّ القصة التي تحدّث عنها القرآن الكريم وقعت في عهد ملك جبّار اسمه (ذو نواس الحميري) فقد حفر أخدوداً (شقّاً مستطيلًا) ملأه حطباً، وأوقد فيه النار، ورمى فيه المؤمنين، وجلس هو وبطانته على كراسٍ يتمتّعون بالنظر إليهم.

وقد تقتضي الحكمة الإلهية أن يبتلى أنبياء الله وأولياؤه بالقتل، كما هو الحال في زكريا ويحيى عليهما السلام، والحسين بن علي عليهما السلام وأهل بيته وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

وأحياناً تقتضي العكس، فينجّي الله أولياءه ويهلك الطغاة والجبارين، كما هو الحال في إبراهيم عليه السلام ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصّافّات: ٩٨] فقد ذكر أهل التفسير أنّ النار ارتفعت من الأخدود، وأحرقت الملك وأعوانه، والنص القرآني يساعد على ذلك ﴿**قتل أصحاب الأخدود**﴾ اخبار عن المؤمنين الذين عذّبوا بالنار في الأخدود، ذكرهم الله سبحانه وتعالى وأثنى عليهم بحسن بصيرتهم وصبرهم على دينهم، وتحملهم من أجل ذلك المشاق، وصنوف العذاب ﴿**النار ذات الوقود**﴾ المراد: الإشارة إلى كثرة حطب هذه النار، وتعظيم لأمرها ﴿**إذ هم عليها قعود**﴾ يعني الكفّار إذ هم على أطراف هذه النار جلوس، يعذّبون المؤمنين ﴿**وهم**﴾ الملك وأصحابه الذين خدّوا الأخدود ﴿**على ما يفعلون بالمؤمنين**﴾ من عرضهم على النار، وإرادتهم أن يرجعوا عن دينهم ﴿**شهود**﴾ حضور ﴿**وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله**﴾ ما كرهوا منهم إلّا أنّهم آمنوا، وهذا كقوله: هل

تنقمون منّا إلّا أن آمنا بالله **﴿العزيز﴾** القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، والقاهر الذي لا يقهر **﴿الحميد﴾** المحمود في جميع أفعاله **﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾** له التصرّف في السماوات والأرض، لا اعتراض لأحد عليه **﴿والله على كل شيء شهيد﴾** شاهد عليهم، لم يخف عليه فعلهم بالمؤمنين، فإنّه يجازيهم، وينتصف للمؤمنين منهم **﴿إنّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات﴾** أحرقوهم وعذّبوهم بالنار **﴿ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم﴾** لكفرهم **﴿ولهم عذاب الحريق﴾** في الدنيا.

ثم ذكر سبحانه وتعالى ما أعدّ لهؤلاء المؤمنين، فقال: **﴿إنّ الذين آمنوا﴾** صدّقوا بتوحيد الله **﴿وعملوا الصالحات﴾** واضبوا على أداء الفرائض، وجميع ما أمر الله سبحانه به **﴿لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير﴾** النجاة والنفع الخاص، وإنّما وصفه بالكبير لأنّه نعيم العاملين، كبير بالإضافة إلى نعيم من لا عمل له من داخلين الجنّة، لما في ذلك من الإجلال والإكرام والتبجيل والإعظام.

وأنت تلاحظ أنّ الآيات وإن كانت في نهاية الشدّة والوعيد إلّا أنّها تلمح في الوقت نفسه بالأمل والنجاة، وتشير إلى أنّ باب التوبة وهو من أعظم النعم التي أنعم بها الله سبحانه وتعالى على عباده قد فتحه الله جل جلاله للجميع والتعيس من تخلّف عنه ولم يدخله.

إنّ فرعون الذي نازع الله جلّ جلاله في سلطانه، لو دخله لقبله سبحانه وتعالى، بل هو أرسل إليه رسوليه موسى وهارون عليهما السلام يطلبان منه دخوله، وقد ضمنا له دوام ملكه مع الجنّة، واستجاب لذلك، ولكن وزيره هامان صرفه عن ذلك، وقال له: بينما أنت ربٌّ تعبد، فتكون عبداً كسائر الناس.

ثم قال سبحانه وتعالى متوعّداً الكفّار والعصاة **﴿إنّ بطش ربّك﴾** يا محمد **﴿لشديد﴾** يعني أنّ أخذه الظلمة والجبابرة أليم شديد.



أصحاب الكهف

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩].

هذه قصّة قوم عاشوا قبل ميلاد السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ذكرهم الله جلّ جلاله في القرآن الكريم، وخصّهم بسورة اهتماماً بشأنهم، وتثميناً لإيمانهم، وهو القائل: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وهو جلّ جلاله إذ يذكرهم بهذا الإكبار والإعظام، يريد حث المسلمين على الاقتداء بهم، لأنهم مثل أعلى للاقتداء، ومنار رفيع للهداية.

١ - الطغيان

والبشر من شأنه الطغيان والتجبّر، فالملوك والرؤساء يتجلّى طغيانهم بالبطش وقتل الشعب، وقد يتطوّر فيدعوا الألوهيّة، والتجار يتمثل طغيانهم في الكبرياء، وعدم اخراج حقوق الفقراء التي أوجبها الله جلّ جلاله عليهم، والفقير ـ أيضاً ـ حينما يجد نفسه معافى، وفيه شيء من القوّة، تراه يعتدي على الآخرين، وإذا غضب من أحد تراه يكفر بالله جهرة، ويقول لخصمه: لو جاء ربّك لما خلّصك مني؛ ورحم الله أبا الطيّب المتنبي حيث يقول:

الظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عـفّـة فـلعـلّة لا يـظـلـم

وأراد (دقيانوس) أن يلحق بسلف له من الطغاة والجبّارين، وأنف أن ينزل عنهم درجة، لا سيّما وقد ساواهم في الملك والسلطان، فلماذا يقصر عنهم في ادعاء الأُلوهيَّة فأقدم على ذلك.

٢ - أصحاب الكهف

الكهف: غار كبير يكون في الجبل. وأصحاب الكهف: ستة، كانوا وزراء دقيانوس، يجلسون عن يمينه وشماله، وكان من عاداتهم أن يتناولوا عشاءهم في كل ليلة عند واحد منهم، وكان تمليخا أجلهم وبمثابة رئيس الوزراء.

٣ - منطلق الإيمان

وفي ليلة كانوا فيها عند (تمليخا)، وقدّم لهم العشاء وأبى أن يأكل معهم، تلوح على أساريره الكآبة والحزن، وبعد إلحاح ورجاء عن السبب قال: أنا وإيّاكم في أسوأ درك من النّار، لأنّا الممهدون لأعمال دقيانوس مع ادعائه الألوهية، ولعلّ بعض الناس يؤمن به بسببنا، ويقول في نفسه: لو كان دقيانوس على ضلال لما تعاون معه هؤلاء الفتية.

فقالوا بأجمعهم: يا تمليخا ما في نفسك هو أيضاً يكمن في نفوسنا، وقد تنغّصت علينا حياتنا، فما الذي تراه في الخروج من هذا المنعطف الخطير؟.

قال تمليخا: أرى أن نخرج في هذا الليل هرباً بديننا، تاركين ما نحن فيه من عزّة وسلطان، وحتّى هذه الملابس يجب أن نخلعها ونلبس ثياب الفقراء.

٤ - اللجوء إلى الله جلّ جلاله

فهو المفزع في الملمّات، وإليه الملجأ في المهمّات، وعليه المعوّل في الشدائد، وبه تفرج النكبات، وتحقق الأمنيات، فبعد أن رأى (تمليخا) تصميم رفاقه على السير في طريق الحقّ وقد تهيّأوا جميعاً للهرب على بركة الله جلّ جلاله، خرج بهم وكلّه أمل ووثوق بالله تعالى.

واعلم ـ رعاك الله ـ أنّ هذا الموقف من هؤلاء الفتية يُمثّل منتهى الإيمان، والغاية في اللجوء إلى الله جلّ جلاله، والإعراض عن الدنيا وزخارفها، وأنّه أعظم من أن نحيط بأبعاده، إنّ نفحات الإيمان غمرتهم فلم يبالوا بخطورة الموقف، إنّهم على علم بأن دقيانوس سوف يعلم صباحاً بهربهم، وسيبذل أقصى جهوده في العثور عليهم، وسوف يكون جزاؤهم الموت حتماً إن وجدهم.

إنّ موقفهم هذا يشبه تماماً موقف السحرة مع فرعون؛ إنّ نفحات الهداية الإلهيّة عندما تشع على فرد أو جماعة يهون عندها الموت في سبيل الحقّ.

وفي تاريخنا الإسلامي موقف مشرّف لجماعة من أنصار الحقّ يشبه الموقفين، إنّه في صعيد كربلاء، في السنة الحادية والستين من الهجرة، وفي ليلة عاشوراء، يقول مسلم بن عوسجة الأسدي رضوان الله عليه للحسين عليه السلام، وقد أذن لهم بالانصراف، وأن يتركوه لوحده: أنحن نخلّي عنك، وبم نعتذر إلى الله في أداء حقّك؟! أما والله حتّى أطعن في صدورهم برمحي، وأضربهم بسيفي، ما ثبت قائمه في يدي، والله لو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة؛ والله لا نخلّيك حتّى يعلم الله أنّا قد حفظنا غيبة رسوله فيك، أما والله لو قد علمت أنّي أقتل، ثم أُحيى، ثم

أحرق، ثمّ أذرّى، يُفعل بي ذلك سبعين مرّة ما فارقتك حتّى ألقى حمامي دونك، وكيف لا أفعل ذلك وإنّما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً.

وقام زهير بن القين البجلي وقال: والله لوددت أنّي قتلت، ثم نشرت، ثم قتلت، حتّى أقتل هكذا ألف مرّة، وأنّ الله عزّ وجلّ يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك[١].

٥ - في طريق الكرامة

قضى الفتية ليلتهم سيراً على الأقدام، ولا يعلم أحد ما عانوه من التعب إلّا الله جلّ جلاله، فهم لا عهد لهم بالمشي، بل كانوا يركبون جياد الخيل، تحفُّ بهم العبيد والخدم.

ولم تكن مشكلتهم التعب فحسب، بل إنّ الاحتمال كبير في أن يدركهم الطلب، فهم يعانون أتعاباً نفسيّة أعظم من أتعابهم الجسديّة، أضف إلى ذلك ما حدث لهم من مشكل لم يكن في الحسبان، زاد في خطورة الموقف، وذلك أنّهم مرّوا براع يرعى غنماً، فاستغرب منهم، لأنّه رأى وجوه الملوك وثياب الفقراء، فسألهم عن أمرهم ولم تنفع جميع التوسّلات في أن يدعهم وشأنهم، حتّى اضطروا أن يبوحوا له بسرّهم.

وما أن علم بالأمر قال لهم: ما في أنفسكم من دقيانوس هو في نفسي، أمهلوني حتى أرجع الأغنام لأصحابها لأكون برفقتكم؛ وما أسرع أن ذهب، وأرجع الأغنام إلى أهلها، وعبثاً حاول التخلص من الكلب، فقد تبعه.

---

(١) الارشاد للشيخ المفيد: ٣٢١.

٦ - إلى الكهف

وبعد أن أجهدهم السير، وخوفاً من أن يلحقهم الطلب أووا إلى كهف كان في طريقهم ناموا فيه.

وتتبع البحث عنهم دقيانوس حتى عثر عليهم في الكهف، ورأى أنّ أحسن عقوبة يعاقبهم بها أن يسدّ عليهم باب الكهف ليموتوا فيه اختناقاً.

٧ - نومة الخلود

يأبى الله جلّ جلاله لأوليائه أن تكون تحفته لهم الجنّة فقط، مع أنّها الكرامة التي تقصر عنها كل كرامة، فهو يريد لهم المجد والخلود في الدنيا أيضاً، وأن تُجمع لهم الدنيا والآخرة، فتقتدي بهم عند ذلك الأمة فيتقدّموا ـ ولو قليلًا ـ نحو الله فيسعدوا.

إنّك لو وجدت عطاء الله جلّ جلاله لعباده المؤمنين في الدنيا لوجدته أعظم مما يتصوّر.

وإنّ بعض هذا العطاء هو الذكر الحسن عبر الأجيال والعصور.

انتبه أصحاب الكهف من نومتهم وتساءلوا: **﴿قال قائل منهم كم لبثتم﴾** وأجابوه **﴿لبثنا يوماً﴾** كاملًا، وحينما رأوا الشمس لا تزال فقالوا: **﴿أو بعض يوم﴾** ثم أحالوا العلم إلى الله جلّ جلاله **﴿قالوا ربّكم أعلم بما لبثتم﴾**.

٨ - أوّل العطاء

تركوا الحديث عن عدد الساعات التي قضوها نوماً، وصاروا يفكّرون في الغداء، لقد ذهب الجهد والتعب، وظهر مكانه الجوع **﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾** أرسلوا

أحدهم إلى السوق وأوصوه أن يتحرّى في شراء غذاء طاهر لهم، ويقول علم المفسرين عبدالله بن عباس: أطهر وأحل ذبيحة.

وأوصوا صاحبهم بأن يتلطف في كلامه، ويبذل جهده في التكتم، ولكن الذي حصل هو خلاف ما كانوا يتوقعونه.

ذهب الرجل للسوق وشاهد هندسة المدينة قد تغيّرت، وأعظم من ذلك كله ما شاهده من معالم التوحيد، فهناك كتابات (لا إله إلّا الله عيسى نبيّ الله) أضف إلى ذلك أنه شاهد وجوهاً لا يعرفها، وبناءً لم يعهده.

إنّ المهمة التي جاء من أجلها ـ شراء الطعام ـ أشغلته عن التفكّر في الأمر كثيراً، فقد وقف على أوّل خبّاز في السوق، وأعطاه بعض ما معه من دراهم ليعطيه خبزاً، ولكن الخبّاز أخذ يدقق النظر في الدراهم، ويقلّبها، والرجل ينظر إليه متعجّباً مما يرى منه، وأخيراً قال الخبّاز: إنّك وجدت كنزاً فأعطني منه، وإلّا رفعت أمرك للسلطة.

ولم ينفع التوسّل، فقد أصرّ اصراراً غريباً، ولم يكتف بذلك حتّى قاد الرجل وأخذه لأقرب مركز للشرطة، وأخبرهم بأنّ هذا الرجل قد عثر على كنز، وهذه بعض دراهمه.

وما هي إلّا ساعة أو بعضها وإذا بالرجل الكهفي قد أصعد إلى السلطان الذي ترتسم على محيّاه معالم الإيمان، وأخذ يستجوبه بكل لطف.

وأخيراً أخبر السلطان بالحقيقة، وما أعظم المفاجأة حين استمع إلى السلطان قائلًا له: يا أخي لقد مرّت عليكم ثلاثة قرون، واندثر دقيانوس والكفر وأنّ الله جلّ جلاله قد بعث نبيّاً، اسمه عيسى بن مريم، ومعظم أهل البلد على التوحيد والإيمان، ثم سأله: هل تعرف أحداً بالبلد؟.

فأجابه: نعم، أعرف الكثير من أهلها، وأملك فيها داراً.

سار الملك والحاشية مع الرجل ليدلّهم عليها، فسار عدة شوارع، ثم وقف على دار شاهقة فطرق بابها، فخرج شيخ كبير، محدودب الظهر، وبعد المساءلة قال الشيخ: إنّ هذه الدار لأحد أجدادي القدامى، وكان وزيراً، وفجأة اختفى مع آخرين، ولم يعرف لهم أثر.

ترك الملك الشيخ بعد أن اقتنع اقتناعاً تاماً بالأمر، وأخذ بيد الرجل وطلب منه أن يدلّه على رفقائه وكهفهم ليكرّمهم ويقيم لهم احتفالاً يليق بشأنهم، تثميناً لجهودهم العظيمة في سبيل الإيمان والعقيدة.

سار الموكب الملكي باتجاه الكهف، وفي أثناء الطريق تنبّه الرجل إلى محذور مهم، فقال للملك: إنّ أصحابي لا علم لهم بما حصل، فهم بمجرد سماعهم الجلبة يحسبون أنّ دقيانوس وأعوانه قد توجّهوا إليهم، وفي هذا ما فيه من الخوف والخطر عليهم، والرأي أن أذهب إليهم وأخبرهم.

فقال الملك: صدقت، فاذهب قبلنا وأعلمهم.

جاء الرجل، واستقبله اخوانه حامدين الله جلّ جلاله على سلامته، ولكنهم نظروا إلى يديه فإذا هما فارغتان من الطعام، وكانوا ينتظرون أن يوافيهم بالغذاء، فسألوه عن السبب، فقال والابتسامة مرتسمة على محيّاه: وقبل الطعام فإنّي أحمل إليكم أعظم بشارة، فقد هلك دقيانوس وأعوانه، وقد بعث الله جلّ جلاله نبياً اسمه عيسى بن مريم عليه السلام، ومعظم أهل البلد على التوحيد، وها هوذا الملك والوزراء ووجوه البلد قد جاءوا للتسليم عليكم وتكريمكم، وأن تكونوا في ضيافتهم.

وفي الوقت الذي غمرهم فيه الفرح، وشعروا بالسعادة العظمى، بعد أن حقق الله جلّ جلاله لهم أعظم أمانيهم، ساءهم أن يكون لهم تكريم وحفاوة، واعتبروا ذلك من مظاهر العظمة التي تركوها، لذا ابتهلوا إلى الله

جلّ جلاله أن يعيدهم إلى نومتهم السابقة، واستجاب لهم سبحانه وتعالى، فناموا في الحال، وانسدّ باب الكهف.

انتظر الملك ومن كان معه طويلًا فلم يعد إليهم الرجل، فجاؤوا إلى الكهف فشاهدوا معالم القدرة واضحة، فاستبدلوا التكريم ببناء مسجد على الكهف: **﴿قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذنّ عليهم مسجداً﴾**.

٩ - **﴿ويهيىء لكم من أمركم مرفقا﴾**.

ومعناه: يسهّل عليكم ما تخافون من الملك وظلمه، ويأتيكم باليسر والرفق واللطف.

إنّ هدف القرآن من هذه القصص هو أخذ الدروس منها والعبر.

وهذه القصة مليئة بالتعاليم القيّمة، والدروس النافعة، فأوّل درس نتعلمه منها: هو الوثوق بالله جلّ جلاله في صغير الأمور وكبيرها، وأن لا يرضى العبد بوضع تكون فيه دنياه رغيدة، شرط مخالفة ما أمر الله جلّ جلاله به، ظنّاً منه أنّه إذا تحوّل إلى جهة الإيمان لم تتهيّأ له دنيا رغيدة، وعليه أن يعتبر بأصحاب الكهف فقد كانوا في أعلى مستوى من العيش، فهم وزراء الملك وأقرب الناس إليه، يجلسون على أسرّة الذهب، ويلبسون الديباج والاستبرق، يحمل إليهم طعامهم بأواني الذهب والفضة، لكنّهم تخلّوا عن ذلك كلّه فعوضهم الله جلّ جلاله في الدنيا أضعاف ما فاتهم منها، فمن ذلك خلودهم بالذكر الجميل، يتلوه المسلمون صباحاً ومساءً، ويقول الحكماء: أنفس شيء في الدنيا هو الذكر الحسن، ولا يوجد أحسن من هذا الذكر، فقد أنزل جل جلاله سورة من القرآن الكريم باسمهم، وما أعدّ لهم في الحياة الأخرى من نعيم دائم لا يزول، لا يستطيع البشر أن يحيط بأبعاده، وأنّه لأعظم من أن يوصف، ولا علم بتفصيله إلّا الخلاق العليم.

إنّ هذه القصّة تدعونا إلى الاتكال عليه جلّ جلاله في أمورنا، لا سيّما عند التحوّل من حالة لا يرضاها إلى أخرى يرتضيها، فيجب علينا أن نسارع إليها واثقين بأنّه تعالى يجعل لنا من أمرنا مرفقاً، ويرزقنا من حيث نحتسب ومن حيث لا نحتسب.

١٠ - ﴿وزدناهم هدى﴾.

قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًىۗ﴾ [مريم: ٧٦] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمّد: ١٧] ويقول في أهل الكهف: ﴿وزدناهم هدى﴾.

يستفاد من الآية الكريمة أنّهم رضوان الله عليهم كانوا على جانب من الهدى ـ ولو في حيّز التفكير والنظر ـ وهذا الهدى هو الذي قادهم إلى الحقيقة، ثم جاءهم المد الإلهي ﴿وزدناهم هدى﴾ ويدعم هذا الحديث القدسي: من تقدّم إليّ شبراً تقدّمت إليه ذراعاً، ومن تقدّم إليّ ذراعاً تقدّمت إليه ميلًا، والمعنى: أنّ الله سبحانه وتعالى في عون العبد، يعينه على نفسه وعلى الآخرين، بما فيهم الشيطان، ما دام العبد متجهاً نحو الله تعالى، وإن كان الاتجاه قليلًا؛ وعلى سبيل المثال: إنك مع جماعة، وقد جلسوا على مائدة الخمر، وطلبوا منك المشاركة، فإذا امتنعت من ذلك كنت على جانب من الهدى، وإن الله سبحانه وتعالى سيزيدك هدى، ويكفيك أمرهم، وينجيك من شرورهم، أمّا إذا لبّيت طلبهم خجلًا أو خوفاً، أو لأمر آخر، وفي نفسك تنتظر من الله جلّ جلاله أن ينجيك من هذه الورطة، أو أن يرسل إليك ملكاً ينقلك من بينهم، فهذا لا يكون أبداً، وخصوصاً إذا تلوثت بالجريمة، والله سبحانه وتعالى يريد منّا الخطوة الأولى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] والإجبار على عمل الخير من قِبل الله جلّ جلاله لا يكون، لأنّه يبطل الثواب، ألا تسمع القرآن الكريم يقول:

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

فهو جلّ جلاله قد أوضح لنا السبيل، ودلّنا على الطريق، ومنه سبحانه وتعالى العون، والتسديد، وكل ذلك مشروط بالخطوة الأولى من العبد، ولو قدّر لأصحاب الكهف الاستمرار مع دقيانوس، ولم يهربوا منه، لم يستوجبوا الزيادة منه تعالى، بل لكان مصيرهم الأخروي النار، فالمعرفة بلا عمل تكون أضرّ على صاحبها.

١١ - تفصيل دقيق:

ورث بعض علماء الكتاب عن أنبيائهم العلم بأمور غيبيّة لا يهتدي الآخرون إلى معرفتها، فكانوا يمتحنون بها الحاكمين، وكان علي أمير المؤمنين عليه السلام هو المفزع للإجابة عنها، وهو القائل علّمني رسول الله صلى الله عليه وآله ألف باب عن العلم، يُفتح لي من كلّ باب ألف باب.

لقد ألّفت كتب كثيرة من هذه الأسئلة وأجوبتها، وعن قضايا أخرى في غاية التعقيد والغموض؛ فمن هذه الكتب المطبوعة المتداولة قضاء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام للتستري، وقضاء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام للشُّفائي، وعجائب أحكام أمير المؤمنين عليه السلام للسيّد الأمين، وغيرها كثير، أضف إلى ذلك ما ذكره أهل التاريخ والسير من أجوبته عليه السلام.

وفي هذه الصفحات أسئلة دقيقة عن أصحاب الكهف أجاب عنها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ذكرها أبو اسحاق الثعلبي، المتوفّى سنة ٤٢٧ في كتابه (عرائس المجالس).

قال: لما ولي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الخلافة أتاه قوم من أحبار اليهود، فقالوا: يا عمر أنت ولي الأمر بعد محمد صلى الله عليه وآله وصاحبه وإنّا نريد أن نسألك عن خصال، إنّ أخبرتنا بها علمنا أنّ الإسلام حقٌّ، وأنّ

محمداً كان نبيّاً، وإن لم تخبرنا علمنا أنّ الإسلام باطل، وأنّ محمداً لم يكن نبيّاً.

فقال عمر: سلوا عمّا بدا لكم.

قالوا: أخبرنا عن أقفال السماوات ما هي؟ وعن مفاتيح السماوات ما هي؟ وأخبرنا عن قبر سار بصاحبه، ما هو؟ وأخبرنا عمن أنذر قومه لا هو من الجن ولا هو من الإنس، وأخبرنا عن خمسة أشياء مشوا على وجه الأرض ولم يُخلقوا في الأرحام؟ وأخبرنا ما يقول الدرّاج في صياحه، وما يقول الديك في صراخه، وما يقول الفرس في صهيله، وما يقول الضفدع في نقيقه، وما يقول الحمار في نهيقه، وما يقول القنبر في صفيره؟ قال: فنكّس عمر رأسه في الأرض، ثم قال: لا عيب بعمر إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم.

فقام اليهود وقالوا: نشهد أنّ محمداً لم يكن نبيّاً، وأنّ الإسلام باطل.

فقام سلمان الفارسي وقال لليهود: قفوا قليلًا، ثم توجّه نحو علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه حتّى دخل عليه، فقال: يا أبا الحسن اغث الإسلام، فقال: وما ذاك؟ فأخبره الخبر، فأقبل يرفل في بردة رسول الله ﷺ، فلما نظر إليه عمر وثب قائماً فاعتنقه، وقال: يا أبا الحسن أنت لكلِ معضلة وشدّة تُدعى، فدعا عليٌّ كرّم الله وجهه اليهود فقال: سلوا عمّا بدا لكم، فإنّ النبي ﷺ علّمني ألف باب من العلم، فتشّعب لي من كلّ باب ألف باب؛ فسألوه عنها، فقال عليٌّ كرّم الله وجهه: إنّ لي عليكم شريطة إذا أخبرتكم كما في توراتكم دخلتم في ديننا وآمنتم؟.

فقالوا: نعم.

قالوا: أخبرنا عن أقفال السماوات ما هي؟.

قال: أقفال السماوات الشرك بالله، لأنّ العبد والأمة إذا كانا مشركين لم يرتفع لهما عمل.

قالوا: فأخبرنا عن مفاتيح السماوات ما هي؟

قال: شهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله.

فجعل بعضهم ينظر إلى بعض ويقولون: صدق الفتى.

قالوا: فأخبرنا عن قبر سار بصاحبه؟.

فقال: ذلك الحوت الذي التقم يونس بن متى، سار به في البحار السبع.

فقالوا: أخبرنا عمن أنذر قومه لا هو من الجن ولا من الإنس؟.

قال: هي نملة سليمان بن داود، قالت: **﴿يا أيتها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾**.

قالوا: فأخبرنا عن خمس مشوا في الأرض ولم يخلقوا في الأرحام؟.

قال: ذلكم آدم، وحوّاء، وناقة صالح، وكبش إبراهيم، وعصا موسى.

قالوا: فأخبرنا ما يقول الدرّاج في صياحه؟.

قال: يقول: الرحمن على العرش استوى.

قالوا: فأخبرنا ما يقول الديك في صياحه؟.

قال: يقول: اذكروا الله يا غافلون.

قالوا: أخبرنا ما يقول الفرس في صهيله؟.

قال: يقول إذا مشى المؤمنون إلى الكافرين للجهاد اللهمّ انصر عبادك المؤمنين على الكافرين.

قالوا: فأخبرنا ما يقول الحمار في نهيقه؟.

قال: يقول: لعن الله العشّار، وينهق في أعين الشياطين.

قالوا: فأخبرنا ما يقول الضفدع في نقيقه؟.

قال: يقول: سبحان ربّي المعبود المسبّح في لجج البحار.

قالوا: فأخبرنا ما يقول القنبر في صفيره؟.

قال: يقول: اللهمّ العن مبغض محمد وآل محمد.

وكان اليهود ثلاثة نفر، قال إثنان منهم: نشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً رسول الله، ووثب الحبر الثالث فقال: يا علي لقد وقع في قلوب أصحابي ما وقع من الإيمان والتصديق، وقد بقي خلّة واحدة أسألك عنها.

فقال: سل عما بدا لك.

فقال: أخبرني عن قوم في أوّل الزمان ماتوا ثلاث مئة وتسع سنين، ثم أحياهم الله، فما كان من قصتهم؟.

قال عليٌّ رضي الله عنه: يا يهودي هؤلاء أصحاب الكهف، وقد أنزل الله على نبيّنا قرآناً فيه قصتهم، وإن شئت قرأت عليك قصتهم.

فقال: ما أكثر ما قد سمعنا قراءتكم، إن كنت عالماً فأخبرني بأسمائهم، وأسماء آبائهم، وأسماء مدينتهم، واسم ملكهم، واسم كلبهم، واسم جبلهم، واسم كهفهم، وقصتهم من أوّلها إلى آخرها.

فاحتبى عليٌّ كرم الله وجهه ببردة رسول الله ﷺ ثم قال: يا أخا اليهود حدّثني حبيبي محمد ﷺ أنه كان بأرض رومية مدينة يقال لها: أفسوس، ويقال لها: طرسوس، وكان اسمها في الجاهلية: أنسوس، فلما جاء الإسلام سموها طرسوس، قال: وكان لهم ملك صالح فمات ملكهم، وانتشر أمرهم، فسمع بهم ملك من ملوك فارس يُقال له (دقيانوس)، وكان

جبّاراً كافراً، فأقبل في عساكره حتّى دخل أفسوس، فاتخذها دار ملكه، وبنى فيها قصراً.

فوثب اليهودي وقال: إن كنت عالماً فصف لي ذلك القصر ومجالسه.

فقال: يا أخا اليهود، ابتنى فيها قصراً من الرخام، طوله فرسخ، في عرض فرسخ، واتخذ فيه أربعة آلاف اسطوانة من الذهب، وألف قنديل من الذهب، لها سلاسل من اللجين، تسرج في كل ليلة بالأدهان الطيّبة، واتخذ لشرقيّ المجلس مئة وثمانين كوّة، ولغربيّه كذلك، وكانت الشمس من حين تطلع إلى حين تغيب تدور في المجلس كيفما دارت، واتّخذ فيه سريراً من الذهب طوله ثمانون ذراعاً، في عرض أربعين ذراعاً، مرصّعاً بالجوهر، ونصب على يمين السرير ثمانين كرسيّاً من الذهب، فأجلس عليها بطارقته، واتخذ أيضاً ثمانين كرسيّاً من الذهب، عن يساره، فأجلس عليها هراقلته، ثم جلس هو على السرير، ووضع التاج على رأسه.

فوثب اليهودي وقال: يا عليّ إنّ كنت عالماً فأخبرني مم كان تاجه؟.

فقال: يا أخا اليهود، كان تاجه من الذهب السبيك، له تسعة أركان، على كلّ ركنٍ لؤلؤة تضيء كما يضيء المصباح في الليلة الظلماء؛ واتخذ خمسين غلاماً من أبناء البطارقة، فمنطقهم بمناطق من الديباج الأحمر، وسرولهم بسراويل القز الأخضر، وتوجّهم ودملجهم وخلخلهم، وأعطاهم عمد الذهب، وأقامهم على رأسه؛ واصطنع ستة غلمة من أولاد العلماء وجعلهم وزراءه، فما يقطع أمراً دونهم، وأقام منهم ثلاثة عن يمينه، وثلاثة عن يساره.

فوثب اليهودي وقال: يا عليّ إن كنت صادقاً فأخبرني ما كانت أسماء الستة.

فقال عليٌ كرّم الله وجهه: حدثني حبيبي محمد ﷺ أنّ الذين كانوا عن يمينه أسماؤهم تمليخا، ومكسلمينا، ومحسلمينا، وأما الذين كانوا عن يساره: فمرطلينوس، وكشطوس، وسادنيوس، وكان يستشيرهم في جميع أموره؛ وكان إذا جلس كل يوم في صحن داره، واجتمع الناس عنده، دخل من باب الدار ثلاثة غلمان، في يد أحدهم جام من فضة مملوء من المسك، وفي يد الثاني جامٍ من فضة مملوء من ماء الورد، وعلى يد الثالث طائر، فيصيح به فيطير الطّائر حتّى يقع في جام ماء الورد فيتمرّغ فيه فينشّف ما فيه بريشه وجناحيه، ثم يصيح به الثاني فيطير فيقع في جام المسك، فيتمرّغ فيه فينشّف ما فيه بريشه وجناحيه، ثم يصيح به الثالث فيطير فيقع على تاج الملك فينفض ريشه وجناحيه على رأس الملك بما فيه من المسك وماء الورد؛ فمكث الملك في ملكه ثلاثين سنة، من غير أن يصيبه صداع ولا وجع ولا حمّى ولا لعاب ولا بصاق ولا مخاط، فلما رأى ذلك من نفسه عتا وطغى وتجبّر، واستعصى وادعى الربوبيّة من دون الله تعالى، ودعا إليه وجوه قومه، فكل من أجابه أعطاه وحباه وكساه وخلع عليه، ومن لم يجبه ويتابعه قتله، فأجابوه بأجمعهم، فأقاموا في ملكه زماناً يعبدونه من دون الله تعالى؛ فبينما هو ذات يومٍ جالس في عيد له على سريره، والتاج على رأسه إذ أتى بعض بطارقته فأخبَرَه أن عساكر العرش قد غشيته يريدون قتله، فاغتمّ لذلك غمّاً شديداً حتّى سقط التاج عن رأسه، وسقط هو عن سريره، فنظر أحد فتيته الثلاثة الذين كانوا عن يمينه إلى ذلك، وكان عاقلًا، يُقال له (تمليخا)، فتفكر وتذكر في نفسه وقال: لو كان دقيانوس هذا إلهاً كما يزعم لما حزن، ولما كان ينام، ولما كان يبول ويتغوّط، وليست هذه الأفعال من صفات الإله؛ وكانت الفتية الستة يكونون كلّ يوم عند واحد منهم، وكان ذلك اليوم نوبة تمليخا، فاجتمعوا عنده، فأكلوا وشربوا ولم يأكل تمليخا ولم يشرب، فقالوا: يا تمليخا ما لك لا تأكل ولا تشرب؟.

فقال: يا اخوتي وقع في قلبي شيء منعني عن الطعام والشراب والمنام.

فقالوا: وما هو يا تمليخا؟.

فقال: أطلت فكري في هذه السماء فقلت: من رفعها سقفاً محفوظاً بلا علاقة من فوقها، ولا دعامة من تحتها، ومن أجرى فيها شمسها وقمرها، ومن زيّنها بالنجوم؟ ثم أطلت فكري في هذه الأرض، من سطحها على ظهر اليمّ الزاخر، ومن حبسها وربطها بالجبال الرواسي لئلا تميل؟ ثم أطلت فكري في نفسي، فقلت: من أخرجني جنيناً من بطن أمّي، ومن غذّاني وربّاني، إنّ لهذا صانعاً ومدبّراً سوى دقيانوس الملك.

فانكبَّ الفتية على رجليه يقبلونهما وقالوا: تمليخا، لقد وقع في قلوبنا ما وقع في قلبك، فأشر علينا فقال: يا اخوتي، ما أجد لي ولكم حيلة إلّا الهرب من هذا الجبّار إلى ملك السماوات والأرض.

فقالوا: الرأي ما رأيت؛ فوثب تمليخا فابتاع تمراً بثلاثة دراهم، وصرّها في ردائه، وركبوا خيولهم وخرجوا، فلما ساروا قدر ثلاث أميال من المدينة قال لهم تمليخا: يا اخوتاه قد ذهب عنّا ملك الدنيا، وزال عنّا أمره، فانزلوا عن خيولكم وامشوا على أرجلكم، لعل الله يجعل لكم من أمركم فرجاً ومخرجاً.

فنزلوا عن خيولهم ومشوا على أرجلهم سبع فراسخ حتّى صارت أرجلهم تقطر دماً لأنهم لم يعتادوا المشي على أقدامهم، فاستقبلهم رجل راع، فقالوا: أيّها الراعي أعندك شربة ماء أو لبن؟.

فقال: عندي ما تحبّون، ولكنّي أرى وجوهكم وجوه الملوك، وما أظنكم إلّا هرابا، فأخبروني بقصتكم؟.

فقالوا: يا هذا إنّا دخلنا في دين لا يحل لنا الكذب، أفينجينا الصدق؟.

قال: نعم.

فأخبروه بقصتهم، فانكبّ الراعي على أرجلهم يقبّلها ويقول: قد وقع في قلبي ما وقع في قلوبكم، فقفوا لي هنا حتّى أردّ الأغنام إلى أربابها وأعود إليكم، فوقفوا له فردّها وأقبل يسعى، فتبعه كلب له.

فوثب اليهودي قائماً وقال: يا علي إن كنت عالماً فأخبرني ما كان لون الكلب واسمه؟.

قال: يا أخا اليهود، حدّثني حبيبي محمد ﷺ أنّ الكلب كان أبلق، وكان اسمه قطمير[1].

١٢ - الإعجاز القرآني

لم تكن العرب تعرف عن إعجاز القرآن الكريم سوى الإعجاز البلاغي الذي يبهرهم وأعجزهم جميعاً عن معارضته، أو الإتيان بسورة واحدة من مثله، وكلّما تقدّم الزمن ظهرت جوانب أخرى قد لا تقل أهمية عن الإعجاز البياني، ومن هذا الإعجاز ـ وما أكثره ـ اخباره عن أمور غيبيّة جاءت وفقاً بما أخبر عنها؛ فمن ذلك ما اكتشفته بعثات الآثار في السنوات الأخيرة في بعض ضواحي عمّان، عن موضع يسمى (الرقيم) وفيه الكهف، وفوقه المسجد، والأغرب من ذلك كله أنّ موقع الكهف بالصورة التي ذكرها القرآن الكريم **﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين﴾** تميل وقت طلوعها إلى جهة اليمين **﴿وإذا غربت تقرضهم﴾**

---

(١) عرائس المجالس: ٤٢٣.

تجاوزهم منحرفة عنهم ﴿ذات الشمال﴾ إلى جهة الشمال، شمال الكهف، أي لا تدخل كهفهم، فالشمس تميل عنهم طالعة وغاربة كيلا يؤذيهم حرُّها، أو تغيّر ألوانهم، أو تبلى ثيابهم فموضوع الكهف كما ذكره الله جلّ جلاله ﴿ذلك من آيات الله﴾ التي تلزم البشرية جمعاء الأخذ بدين الإسلام، والعمل بكتابه القرآن، والتوجّه إليه بالعمل الصالح.

١٣ - دلائل القيامة

ومن لطف الله جلّ جلاله بعباده أن أظهر لهم الدلائل الباهرة التي تشد الإنسان لطريق الله والصلاح بعد أن تبيّن لهم معالم النجاة.

إنّ هذه الدلائل حجّة أخرى على الخلائق ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وموضوع أصحاب الكهف من الآيات الكثيرة التي تلزم الجميع الإيمان بيوم القيامة، وحسن الاعتقاد بالقادر الغالب، وأنّ الذي بعث الفتية بعد نومةٍ استغرقت ثلاثة قرون لا يعسر عليه بعث الناسِ جميعاً ليوم الحساب.

ويظهر من الرواية الآتية أنّ ردّة حصلت قبل قيام أصحاب الكهف، وتوجّه الناس إلى غير الطريق الذي أمروا بسلوكه، وكان ذلك في زمن ملك صالح يدعى (تندويس)، ويقول ابن اسحاق: فجعل الملك (تندويس) يرسل إلى من كان يظن فيه خيراً، وأنهم كانوا أئمة الحق، فجعلوا يكذّبون بالساعة حتّى كادوا أن يحوّلوا الناس عن الحق، وملّة الحواريين، فلما رأى الملك الصالح ذلك دخل بيته فأغلقه عليه، ولبس مسحاً، وجعل تحته رماداً، فدأب ليله ونهاره يتضرّع إلى الله ويبكي مما يرى عليه الناس، ويقول: أي رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث إليهم آية، ثم إنّ الرحمن

الرحيم جلّ وعزّ الذي يكره اختلاف العباد أراد أن يظهر لهم الفتية أصحاب الكهف، وبيّن للناس شأنهم فيجعلهم آية وحجّة عليهم، ليعلموا أنّ الساعة آتية لا ريب فيها[(١)].

وأيضاً إنّ هذه الآيات تزيدنا إيماناً بنصر الله جلّ جلاله لأوليائه، وتثمينه لأعمالهم الخيّرة، وأنّه جلّ شأنه لا يضيع عمل عامل من ذكرٍ وأنثى، بل يجزل لهم العطاء في الدنيا والآخرة.

١٤ - الدروس البهيّة

هذه القصة كقصص القرآن الكريم الأخرى مليئة بالمواعظ والعبر، نأخذ منها الدروس النافعة لدنيانا وآخرتنا، فمن ذلك:

١ - قوله تعالى: ﴿**ربّنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا**﴾ قالها الفتية وهم في خوف عظيم على دينهم من أن يعيدهم الملك إلى الكفر، وعلى دنياهم لأنه سوف يقتلهم، وهو المراد بقوله تعالى ﴿**إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملّتهم**﴾ فنجّاهم الله من الأمرين معاً، وآتاهم فوق ما كانوا يأملون.

وأنت حينما تنزل بك نازلة في دين أو دنيا توجّه إلى الله جلّ جلاله فينجيك منها، ويعطيك أضعاف ما كنت تأمل وتريد.

١ - قوله تعالى: ﴿**ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا**﴾ الله جلّ جلاله أدّب نبيّه الكريم أن لا يقول: إنّي أفعل شيئاً في الغد إلّا أن يقيّد ذلك بمشيئة الله تعالى، فيقول: إن شاء الله، والآية الكريمة: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

---

(١) المصدر نفسه.

فكم من أمر أنت تعتقد حصوله، ومتأكد من إنجازه فلا يتم، وكم من أمر تعتقد استحالة تحققه فيحصل على أتم الوجوه، فالأمور تجري بمشيئة الله جلّ جلاله، ونحن علينا السعي، وبيده الخير وهو على كلّ شيء قدير.

٣ - قوله تعالى: **﴿له غيب السّماوات والأرض﴾**.

أي لا يغيب عن الله شيء، بل هو محيط بعباده، يعلم ما غاب في السماوات والأرض عن إدراك العباد **﴿أبصر به واسمع﴾** هذا لفظ التعجّب، ومعناه: ما أبصره وأسمعه؛ لهذا يجب على المسلم أن يتقيّد في تصرّفاته، ويراقب أعماله، ولا يشذ في كلامه، لأنّ كل عمل يقوم به، وكل كلمة يتكلّم بها أو يسمعها من الآخرين وكل حركة يتحرّك بها، يعلمها الله جلّ جلاله، وأيضاً كل ذلك مسجّل.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].



قصص المكذبين

الشيطان

١ - ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وهو رغم ما أوتي من قوّة فهو لا يمكنه إجبار أحدٍ وسوقه إلى المعاصي، وإنّما هو بمنزلة صديق السوء، يحبذ الفسوق ولكنه لا يستطيع أن يجبرك على ذلك.

إنّ هذه الآية تكفي المسلم عوناً على عدوه اللدود، فقد وصفه الله جلّ جلاله بالضعف، وأكّد سبحانه ذلك بـ (إنّ).

١ - ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

والمعنى: أنه ليس له تسلط وقدرة على المؤمن، ولا يتمكن من النّفاذ إليه، بل هو يخشى منه.

وبودي أن أضرب لك مثلًا: عندك عدو يتربص بك الدوائر، مزوّد بالسلاح إلّا أنّه حينما يعلم أنك مُقرّبٌ من رئيس الدولة أو من بعض رجالها الكبار فحينئذٍ يخشى هو منك أكثر مما تخشى منه، ويحذرك فوق ما تتصوّر، بل هو الآن يحافظ على سلامتك خشية أن يصيبك سوء أو مكروه فيتّهم به، وهو حينما يعلم ضعفك، وعدم وجود الناصر والمحامي عنك فحينئذٍ يستأسد عليك، ويصيبك منه كل مكروه؛ وهكذا الشيطان فحينما تكون مع الله جلّ جلاله، ملتزماً بتعاليمه، يهرب منك ويحذرك أشد

الحذر، وحينما يجدك بعيداً عن الله سبحانه، تاركاً تعاليمه ينقض عليك ويحتوشك.

٣ - ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل: ١٠٠].

إنّما تسلطه على الذين يطيعونه، ويستجيبون له، ويتبعون اغواءه، فبعد استجابتهم له مرّة تلو الأخرى صاروا طوع إرادته، يسوقهم حيث شاء.

٤ - ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

الآية الكريمة تشير إلى قصة وقعت في زمن متقدم، يتبين منها طرق الشيطان وسبله المكثفة في الضلال، وكيف يتدرج بالإنسان حتى يوقعه في المعاصي والجرائم العظام، وهو عندما يستجيب له يبقى ملازماً له حتى النفس الأخير.

إن الآية الكريمة تشير إلى عابد من بني اسرائيل كانوا يأتون إليه بالمرضى فيرقيهم ويعوّذهم فيبرؤون، وأُتي له بامرأة قد جنّت، فمكثت عنده فلم يزل الشيطان يزيّنها له حتّى فجر بها، فحملت، فلما استبان حملها طلب منه قتلها خوف الفضيحة، ففعل، فأتى الشيطان إلى أحد ذويها فأخبره بذلك، وعرّفه موضع دفنها، فجاء أهله فنبشوها، ورفعوا أمرهم للملك، فجاء ومعه الناس إلى صومعته، فاستنزلوه فأقرّ لهم بما فعل، فأمر الملك بإعدامه.

فلما رفع على خشبته تمثل له الشيطان فقال له: أنا الذي ألقيتك في هذا، فهل أنت مطيعي في أقوالك فأخلصك مما أنت فيه؟

قال: نعم.

قال: اسجد لي سجدة واحدة.

فقال: كيف أسجد وأنا على هذه الحالة؟.

قال: أكتفي منك بالإيماء.

فأومأ له بالسجود، وفي تلك اللحظة سحبت خشبته وأعدم، بعد أن ختم له بالكفر.

٥ - ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

هذا آخر موقف للشيطان واتباعه، وذلك بعد أن نزلوا الحميم؛ يجتمع عليه أهل النار يلومونه على صنيعه فيجيبهم **﴿إنّ الله وعدكم وعد الحق﴾** من البعث، والنشور، والحساب، والثواب، والعقاب **﴿ووعدتكم﴾** الخلاص من العقاب بارتكاب المعاصي **﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم﴾** ما كان لي عليكم سلطان بالإكراه والإجبار على الكفر والمعاصي، وإنما كان لي سبيل الوسوسة والدعوة **﴿فاستجبتم لي﴾** بسوء اختياركم **﴿فلا تلوموني﴾** على ما نزل بكم من العقاب بسوء اختياركم **﴿ولوموا أنفسكم﴾** على استجابتها لدعوتي **﴿ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي﴾** ما أنا بمغيثكم ولا معينكم ولا أنتم بمعينيَّ. ومعنى **﴿إنّي كفرت بما أشركتموني من قبل﴾** أي كفرت الآن بما كان من اشراككم إيَّاي مع الله في الطاعة، والمعنى جحدت أن أكون شريكاً لله تعالى **﴿إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾** هذا وعيدٌ من الله تعالى لهم.





اليهود

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

من شأن البشر التبديل والتغيير في كلّ شيء، والانتقال من حال إلى حال، سواء كان ذلك في الأمور الماديّة أو الأمور المعنويّة، وحتّى العقائد فقد يطرأ عليها تغيير من قبل المكذبين، فينتقل الشّيطان بهم من عقيدة إلى أخرى؛ ولكن الذي حدث لليهود لم يحدث لأحد قبلهم ولن يحدث لأحد من بعدهم، فهم يعتبرون أنفسهم أهل توحيد ورسالة وكتاب، ومع ذلك فعندما اقتضت مصالحهم أن يحالفوا قريشاً على رسول الله ﷺ فقد سجدوا للأصنام، فبعد وقعة أحد ذهب جمهور منهم إلى مكة بزعامة حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، وسلام بن أبي الحقيق.

قال الشيخ الطبرسي في أسباب نزول الآية الكريمة: إن كعب بن الأشرف خرج في سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشاً على رسول الله ﷺ، وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، فنزل كعب على أبي سفيان فأحسن مثواه، ونزلت اليهود في دور قريش، فقال أهل مكة: إنكم أهل كتاب، ومحمد صاحب كتاب فلا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصّنمين وآمن بهما، ففعل، فذلك قوله: **﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾**، ثم قال كعب: يا أهل مكة ليجيء منكم ثلاثون ومنا ثلاثون،

فنلصق أكبادنا بالكعبة فنعاهد ربّ البيت لنجهدنّ على قتال محمد، ففعلوا ذلك، فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب: إنّك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميّون لا نعلم، فأيّنا أهدى طريقاً وأقرب إلى الحق، نحن أم محمد؟.

قال كعب: اعرضوا عليّ دينكم.

فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء، ونسقيهم الماء، ونقري الضيف، ونفك العاني، ونصل الرحم، ونعمّر بيت ربّنا، ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمد فارق دين آبائه، وقطع الرحم، وفارق الحَرمَ، وديننا القديم، ودين محمد الحديث.

فقال: أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد، فأنزل الله **﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب﴾**[1].



(١) عرائس المجالس: ٢٨٨ بتصرُّف.



أصحاب السبت

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

وهؤلاء أمرهم في غاية العجب، فالله جلّ جلاله أحلّ لهم صيد البر والبحر، ومئات الدّواجن، وجميع ما أنبتت الأرض من حبوب وفواكه وبقول، وحرّم عليهم صيد السمك وأكله في يوم واحد من أيام الأسبوع، اختباراً للطاعة، وتدريباً على التقيّد بتعاليم السماء، ولمصالح لا يعلمها إلّا هو جلّ جلاله، فصعب الأمر عليهم غاية الصعوبة حتى أنّهم كانوا يحفرون الأخاديد والأنهار الصغيرة فيدخلها السمك، ثم يسدّون منافذها فيبقى فيها فيستخرجونه يوم الأحد(١).

لقد كان بغيهم لا مبرر له أبداً، ويستحيل على من له مسحة من الدين والعقل أن يفعل ذلك، لا سيما والأمر الذي نهوا عنه لا يؤثّر عليهم بأي شكل من الأشكال؛ إنّ الإنسان ربما يخالف الشريعة في إعطاء أموال يعتز بها، أو يترك ساحة الجهاد حبّاً للحياة، أو يشتد به الشبق فيتجاوز الاستقامة، أمّا أن يدعوه الهوى واللامبالاة إلى التعرّض لغضب الله جلّ جلاله من أجل أكل السمك في يوم واحد من الأسبوع فهو أمر لا مثيل له أبداً، وينبىء عن تميّع واستهتار إلى أبعد الحدود، لهذا وغيره شدّد الله جلّ

---

(١) مجمع البحرين ٣/ ٢٠٣.

جلاله عليهم العقوبة، فكان أولها المسخ ـ ويكفيهم نكالًا وهواناً ـ ثم إهلاكهم بعد ثلاث، وأعظم من هذا وذاك ما أعدّ لهم من العذاب والخلود في الجحيم.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

أعاد سبحانه ذكرهم في كتابه العزيز، ويستفاد من البيان القرآني أنهم انقسموا إلى ثلاثة أقسام.

يقول حبر الأمة عبد الله بن عباس رحمه الله: افترقوا فرقاً، فرقة أكلت، وفرقة نهت، وفرقة قالت **﴿لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم﴾** فقالت الفرقة التي نهت: إنّا نحذّركم غضب الله وعقابه أن يصيبكم، والله ما نساكنكم في مكان أنتم فيه، وخرجوا من السور، ثم غدوا عليه من الغد فضربوا باب السور فلم يجبهم أحد، فتسوّر إنسان منهم فقال: والله قردةٌ لهم أذناب، تتعاوى، فنزل ففتح الباب، فدخل الناس عليهم، فعرفت القردة أنسابها، فيأتي القرد إلى نسيبه وقريبه فيحتك به، ويلصق إليه، فيقول الإنسي: أنت فلان؟ فيشير برأسه نعم ويبكي(١).

وذكر القطيفي: ورئي ابن عباس بين يديه المصحف وهو يبكي ويقرأ هذه الآية، ثم قال: قد علمت أنّ الله تعالى أهلك الذين أخذوا الحيتان، وأنجى الذين نهوهم، ولا أدري ما صنع بالذين لم ينهوهم، ولم يواقعوا المعصية، وهذه حالنا(٢).

﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ لقد خاب وخسر من تباعد عن نهج

---

(١) قصص القرآن الكريم: ٧٠.

(٢) المصدر نفسه.

السماء، وفاز من آمن بالله ورسله، وعمل بما أمر به، وفي هذه القصة أعظم شاهد على ذلك.

لقد نجا الآمرون بالمعروف من عذاب الدنيا، وتمتّعوا بأعمارهم الطبيعية، وبعد ارتحالهم من الدنيا سكنوا جنّة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين.

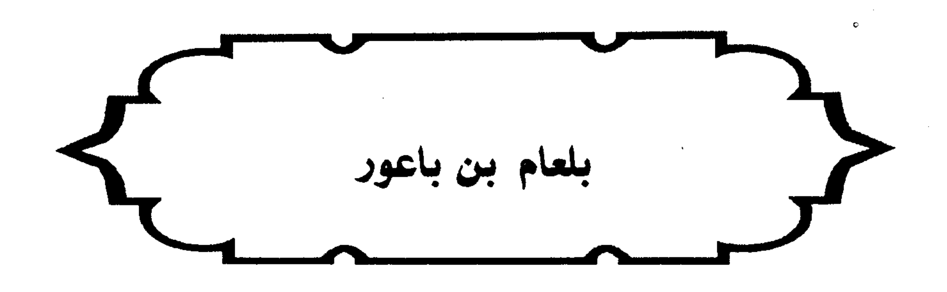
إنّ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر منجاة للعبد من أهوال الآخرة وعذابها، كذلك هما منجاة من مكائد الدنيا وشدائدها، وما بلغنا أنّ آمراً بالمعروف أوناهياً عن المنكر قتل أو أصابه مكروه.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لا يقرّبان من أجل، ولا ينقصان من رزق[1].

ومعنى كلامه عليه السلام: إنّ الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر في حرز من أن يصيبهم قتل أو اعتداء ممن أمروهم، وأيضاً: يصلهم ما قسم لهم من رزق، فلا يستطيع أحد أن يقتطع منه شيئاً.



(١) نهج البلاغة: ٣/٢٢٦.



بلعام بن باعور

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

إنَّ الشيطان يتربّص بالجميع، وله الأمل في ضلالهم، وإن فاتوه اليوم فهو يأمل أن يدخلهم في فخاخه غداً، لهذا يجب على الإنسان ـ مهما أوتي من العلم والدين ـ أن يكون حذراً واعياً خشية أن يضلّه بشكل من الأشكال، وأن يجعل نصب عينيه بلعام بن باعور، وما كان فيه من مرتبة سامية، وإنّ عنده اسم الله الأعظم، وما آل إليه أمره من الانحطاط حتى استوجب من الله جلّ جلاله أعظم الهوان في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة.

البداية المحزنة

أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه موسى بن عمران عليه السلام بقتال بعض الجبّارين، فحاصرهم، واشتدّ عليهم الحصار، وكان بلعام رغم أنه على دين موسى عليه السلام يقيم عندهم، فطلبوا منه أن يدعو عليهم باعتبار أنه مستجاب الدعوة، فتلكأ قليلًا، لكنهم لم يقطعوا التوسّل به والرجاء.

كان المفروض بالرجل أن يستغلّ المناسبة فيسمو وترتفع درجته، كان الواجب عليه أن يعلمهم بأنّ موسى عليه السلام، يستحيل أن يصيبه بدعاء وشبهه، لأن لديه من المعارف والأسرار الإلهية، والأسماء الحسنى، ما لا يحصى كثرة، وأنّ المتعين عليهم متابعته خوفاً من أن يحلّ عليهم العذاب

والنقمة كما حلّ بآل فرعون، وما هم منهم ببعيد، لو حصل هذا منه مع عظيم ثقتهم به، وما كانوا فيه من الضعف لكان أعظم مجال للهداية.

مؤشّرات السخط

صمم بلعام على الدعاء، وتوجّه راكباً على راحلته للمكان الذي اعتاد أن يدعو ويتعبّد فيه، فما سار عليها غير بعيد حتى ربضت به، فنزل عنها وضربها حتى أزلقها فقامت فركبها.

فلم تسر به كثيراً حتّى ربضت به، ففعل بها مثل ذلك، فقامت فركبها، فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به فضربها حتّى أزلقها، أذن الله تعالى لها في الكلام حجّة عليه، فقالت: ويحك يا بلعام أين تذهب؟ ألا ترى أنّ الملائكة أمامي تردّني عن وجهي هذا؟ أتذهب إلى نبيّ الله والمؤمنين تدعو عليهم[1].

ولكنّه رأى نفسه قد تورّط، وعليه أن يكمل الشوط شأن كثير من المجرمين الذين يشاهدون النذر وهم في بداية الخط، ولكنهم يستمرون قدماً في الغي والضلال.

غضب السماء

لم تنفع النذر، بل وحتّى الخوارق التي نهته عن الإقدام على هذا العمل ـ وكان في بعضها الكفاية ـ وأن يرجع ويستغفر ليعود في صفه السابق، ولكنّه تمادى بشكل غريب، ولجّ في العناد، فجاء غضب الله جلّ جلاله فاندلع لسانه، وتشوّهت خلقته، وعلم أنّ المهمة التي جاء من أجلها قد فاتته فهو في حال بعيد عن الإجابة.

---

(١) عرائس المجالس: ٢٣٨.

الفجور

وبعد أن تأكد له ذلك، وتمادياً منه في الإعراض عن الله جلّ جلاله، والكفر بأنبيائه، فقد قال لقادة الضلال: قد ذهبت منّي الدنيا والآخرة، ولم يبق إلّا المكر والخديعة، فأمكر لكم واحتال؛ فجمّلوا النساء وزيّنوهن، وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى المعسكر يبعن فيه ويشترين، وأمروهنّ أن لا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنّهم لو زنى رجل منهم كفيتموهم، ففعلوا ذلك[١].

الكارثة العظمى

وفعلًا نفّذ القادة ذلك، وتوجّهت للجيش بائعات الهوى، فمرّت امرأة من الكنعانيين اسمها «كبشا بنت صوريا» برجل من عظماء بني اسرائيل، يقال له «زمري بن سلوم» من سبط (شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم) فقام إليها وأخذ بيدها حين أعجبه حسنها وجمالها، ثم وقف على موسى وقال: أظنُّك ستقول: إنّ هذه حرام عليك، فقال: أجل، هي حرام عليك لا تقربها.

قال: والله لا أطيعك في هذا، ثم إنَّه دخل بها قبته فواقعها، فأرسل الله الطّاعون على بني اسرائيل في الوقت.. فهلك منهم سبعون ألف نفس في ساعة واحدة[٢].

يقول الرسول الأعظم ﷺ: الزنا يورث الفقر، ويدع الديار بلاقع[٣].

ومعنى (الديار بلاقع): خرابها وإبادة أهلها.

---

(١) عرائس المجالس: ٢٣٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) من لا يحضره الفقيه ٤/ ١٣.

العودة

وبعد التميّع الذي حصل في الجيش، وحلول النكبة الكبرى بهم تراجعوا وندموا، فكان من مصاديق الندم أن أخذ (فنخاص بن عيزار) حربته - وكانت حديداً كلها - ثم دخل عليهما القبّة وهما متضاجعان، فانتضمها في حربته ثم خرج بهما رافعهما بيديه إلى السماء وجعل يقول: اللهمّ هكذا نفعل بمن يعصيك.

فرفُع الطاعون عنهم[١].



(١) عرائس المجالس: ٢٣٨.

قارون

لا تفرح

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦].

المال عصب الحياة وقوامها، وبه يدخل العبد الجنة إذا أخرج الحقوق التي فرضها الله جلّ جلاله عليه، وقد يكون سبباً لدخول النار. إنّ المؤمنين الذين نصحوا قارون بدأوا نصيحتهم بـ (لا تفرح) والمراد النهي عن التعلّق بالأموال، والمرح والتكبّر، والاستطالة على الآخرين بها.

﴿**وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة**﴾ إنهم نصحوه بالجد والسعي في مرضاة الله تعالى، والانفاق في جميع وجوه البرّ، وقولهم: ﴿**ولا تنس نصيبك من الدنيا**﴾ وهو أن تعمل للدُنيا والآخرة.

والآية الكريمة تشير إلى أمر في غاية الأهمية، وهو أن محصول الإنسان من ماله هو ما ينفقه في وجوه البر والطاعة، فيدّخره الله سبحانه له، بل ينميه.

ذكر أهل الآثار أن الرسول الأعظم ﷺ أمر بذبح شاة وتوزيعها على الفقراء، فقال له بعض أهله: لم يبق منها إلّا الرقبة، فقال صلوات الله وسلامه عليه: بل كلها بقيت عدا الرقبة. يريد أنَّ الذي أعطيناه في سبيل الله باقٍ مدَّخر، أما الذي نأكله فيذهب.

وإلى هذا يشير الحديث: ليس لك من مالك إلّا ما أكلت فأفنيت، ولبست فأبليت، وتصدّقت فأبقيت.

وتابع المؤمنون نصحهم لقارون: ﴿**وأحسن كما أحسن الله إليك**﴾ ما أجملها من عبارة، وأحلاها من كلمة، والمراد: ينبغي للعبد الموسر أن يرعى الطبقة الفقيرة ويساعدها ليستوجب المزيد من النعم والعطاء. قولهم: ﴿**ولا تبغ الفساد في الأرض**﴾ تورّع وتجنّب معاصي الله تعالى، فبها تزول النعم، وتُستَوجب النقم.

العناد

كان جواب قارون للناصحين مظهراً من مظاهر الطغيان، فهو لا يرى أن هذا المال من نعم الله تعالى عليه، والتي يلزم شكرها، وأن يعطي بعضه للفقراء والمحتاجين.

إنه يقول للناصحين ﴿**إنّما أوتيته على علم عندي**﴾ فقد جمعته بجهدي وخبرتي.

وجاء توبيخ السماء ﴿**أولم يعلم أنّ الله قد أهلك من القرون**﴾ الكافرة ﴿**من هو أشدّ منه قوّة وأكثر جمعاً**﴾ كقوم عاد وثمود، وقوم لوط، وغيرهم، ثم بيّن سبحانه أنّ اغتراره بماله وعدده من الخطأ البيّن لأنه لا ينتفع به عند نزول العذاب به، كما أنّ من كان أقوى وأغنى منه لم تغن أموالهم وجموعهم عنهم شيئاً عندما نزل بهم العذاب ﴿**ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون**﴾.

إنّ الملائكة تعرفهم بسيماهم، فلا يحتاجون إلى السؤال عنهم، فيأخذونهم بالنواصي والأقدام.

الطغيان

كأنّه أراد أن يظهر للناصحين، أو بالأحرى لنبيّ الله موسى بن عمران عليه السلام بمظهر القوة والعظمة، وأنّه بمكان عظيم من المنعة. إنّ

للطغاة أساليبهم في الهيمنة على البسطاء، ومخادعة المجتمع، انظر إلى فرعون وقد انهزم هزيمة نكراء في العرض الذي جرى بين نبي الله موسى عليه السلام وبين السحرة، فهو بعد الهزيمة يطلب من وزيره هامان ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

لقد خرج قارون في موكب لا يتهيأ لكثير من الملوك فضلًا عن غيرهم، ووصفوا موكبه فقالوا: إنه خرج في أربعة آلاف دابة، عليها أربعة آلاف فارس، عليهم وعلى دوابهم الأرجوان[١].

كل هذا التعظيم والتجميل لقهر نبيّ الله موسى عليه السلام والمؤمنين، والظهور أمام المجتمع العام بمظهر السطوة والغلبة، وفعلًا فقد نجح في تخطيطه، فقد انتقل شعور المجتمع من الزهد والتخلّي عن الدنيا، وطلب منازل الآخرة إلى طلب الدنيا والحرص عليها **﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا﴾** من ضعفاء الإيمان وغيرهم **﴿يا ليت لنا مثل أوتي قارون إنّه لذو حظ عظيم﴾** ذو نصيب وافر من الدنيا.

أبطال الجهاد

فبعد أن كسب قارون الشارع، واتجهت إليه الأنظار، متمنين أن يكون لهم بعض ماله من دنيا ورفاه، أخذ دعاة الاصلاح في علاج الموقف **﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾** مما أوتي قارون، بل هو أفضل من الدنيا بأسرها **﴿ولا يلقاها إلّا الصابرون﴾** ولا

(١) ورد في عرائس المجالس إنّه خرج على بغلة شهباء، عليها سرج الذهب، عليه الأرجوان، ومعه ألف فارس عليهم وعلى دوابهم الأرجوان.

يوفَّق لهذه المنزلة العظيمة إلّا الذين صبروا على الطاعة، وتحمّلوا مرارة العيش.

مزيد من الكفر

بعد أن طالبه موسى عليه السلام بدفع الزكاة توسّعت شقة الخلاف بينهما، وصار يفكّر في طريق يتخلّص به، ليس من الزكاة فقط، بل من موسى عليه السلام، وأخيراً اهتدى إلى أمر: وهو أن يطلب من بغيّ أن تدّعي أمام بني اسرائيل أنّ موسى فجر بها، فعندها ستسقط منزلته، ويتلاشى أمره، ولكن حدث ما لم يكن بالحسبان، فقد اعترفت البغيّ بأنّ قارون أعطاها كذا من المال على أن ترمي موسى عليه السلام بذلك.

وتابع الثعالبي: فخرّ موسى ساجداً لله يبكي ويقول: يا ربّي إن عدوّك هذا قد آذاني، وأراد فضيحتي، وسبّني، اللّهمّ إن كنت رسولك فاغضب لي وسلّطني عليه.

فأوحى تعالى إليه أن أرفع رأسك، وأمر الأرض بما شئت تطعك، فقال موسى: يا بني اسرائيل إن الله تعالى قد بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليلبث مكانه، ومن كان معي فليعتزل عنه؛ فاعتزلوا عن قارون ولم يبق معه إلّا رجلان، ثم قال موسى: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى كعابهم، ثم قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، ثم قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى جنوبهم، ثم قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى أحقابهم، ثم قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى أعناقهم، وقارون وصاحباه في كل ذلك يتضرّعون إلى موسى، ويناشده قارون بالله والرحم، وموسى في جميع ذلك لا يلتفت إليه لشدّة غضبه عليه، ثم قال: يا أرض خذيهم، فانطبقت الأرض عليهم[١].

---

(١) عرائس المجالس: ٢١٧.

لقد فزع المجتمع للنهاية التعيسة التي انتهى إليها الطاغية، وتخلّوا سريعاً عن تمنيهم لنعيم الدنيا الزائل ﴿**وأصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس**﴾ حين خرج عليهم بزينته ﴿**يقولون ويكأن الله يسبط الرزق لمن يشاء ويقدر**﴾.

إنّ كلمة (وي) كلمة تندّم واعتراف، يقول القائل إذا تبيّن له الخطأ: وي، كنت على خطأ.

إنّ معنى الآية الكريمة: إنّهم قالوا: إنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء لا لكرامته كما بسطه لقارون، ويضيّق على من يشاء لا لهوان ولكن بحسب المصلحة ﴿**ويكأنّه لا يفلح الكافرون**﴾ لا يفوز بثواب الله، وينجو من عقابه الجاحدون لنعمه، العابدون معه سواه.





أهل سبأ

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

يتحدّث القرآن الكريم عن أمّة عربيّة كانت في غاية الرخاء، والعيش الهنيء، غمرتهم النعمة إلى حد لا يوصف، حتّى كانت المرأة تضع على رأسها المكتل فيمتلىء بالفواكه من دون أن تحتاج إلى قطف، وأيضاً: لم يكن في بلادهم بعوض ولا ذباب، ولا غيرهما من الحشرات وأيضاً: كانت بلادهم معتدلة المناخ شتاءً وصيفاً، إلى نعم كثيرة ذكرها المفسّرون وأهل التاريخ.

فأعرضوا وكفروا فساءت حالهم إلى حد لا يوصف، وأصبحوا مثلًا يضرب لمن أصيب بشدة بعد رخاء. نتابع الآيات:

١ - ﴿لقد كان لسبإٍ في مسكنهم آية جنتان﴾.

سبأ: أبو عرب اليمن كلها، والآية: هي الحجّة التي تلزمهم وغيرهم بالاعتقاد بالله جلّ جلاله، وأنّه الواحد الأحد، الفرد الصمد، والمنعم الرزاق، والجنتان: هي بساتينهم التي كانت متصلة يميناً وشمالاً.

٢ - ﴿كلوا من رزق ربكم واشكروا له﴾.

الشكر عبادة يتقرّب بها العبد إلى الله جل جلاله ليستوجب المزيد.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وأيضاً هو نوع من الانضباط يجعل العبد لا يسيء التصرّف في استعمال النعم، ولا يبذّرها في العصيان.

والخلاصة: إنّ العبد هو المنتفع بالشكر أوّلاً وآخراً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

٣ - ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم﴾.

المراد بالإعراض: هو الكفر، وعدم الاستجابة للرسل، ونبذ تعاليمهم. وسيل العرم: هو السيل الذي لا يطاق، فخرّب بساتينهم، وهدّم مساكنهم.

وأنت إذا علمت بأن الله سبحانه وتعالى أرسل إليهم ثلاثة عشر نبيّاً فكذبوهم(١) أدركت مدى كفرهم وجحودهم، وأنّهم استوجبوا من الله جلّ جلاله سلب النعم، واستبدالها بالنقم والشدائد.

نعود فنذكر ما حلّ بهم: إنّ الماء كان يأتي أرض سبأ من أودية اليمن، وكان هناك جبلان يجتمع ماء المطر والسيول بينهما، فسدّوا ما بين الجبلين، فإذا احتاجوا إلى الماء نقبوا السدّ بقدر الحاجة، فكانوا يسقون زروعهم وبساتينهم.

فلما كذّبوا رسلهم، وتركوا أمر الله تعالى، بعث الله جرذا نقبت ذلك الردم، وفاض الماء عليهم فأغرقهم.

٤ - ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين﴾ وربما اقتضت حكمة الجليل أن

---

(١) بحار الأنوار ١٤/ ١٤٧.

يسلب عن العبد النعم، ويبدله بالنقم ـ كما حصل لأهل سبإٍ، وربما اقتضت المصلحة أخذهم وأموالهم كما حصل لقوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام.

ومعنى ﴿**وبدلناهم بجنتيهم**﴾ اللتين فيهما أنواع الفواكه والخيرات ﴿**جنتين**﴾ اخراوين، سمّاهما جنتين لازدواج الكلام، كما قال: ﴿**ومكروا ومكر الله**﴾ ﴿**ذواتي أكل خمط واثل**﴾ الخمط: هو كل شجر له شوك. والأثل: الطرفاء ﴿**وشيء من سدر قليل**﴾ هو النبق.

٥ - ﴿**ذلك جزيناهم بما كفروا**﴾ لم يكن سلب النعم عن أهل سبإٍ عبثاً، بل كان نتيجة لكفرهم وإعراضهم، ولأجل أن يرجعوا للاستقامة، وأيضاً: ليتأدّب بذلك غيرهم ممن يسمع أو يشاهد ما نزل بهم.

٦ - ﴿**وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة**﴾ فكان من تمام النعمة عليهم أن جعل سبحانه وتعالى بينهم وبين قرى الشام وهي المراد بقوله تعالى ﴿**باركنا فيها**﴾ قرى متواصلة، تُرى كل قرية من القرية التي قبلها ﴿**وقدّرنا فيها السير**﴾ جعلنا السير من القرية إلى القرية مقداراً واحداً، نصف يوم، وقلنا لهم: ﴿**سيروا فيها**﴾ في تلك القرى ﴿**ليالي وأياماً**﴾ ليلًا شئتم المسير أو نهاراً ﴿**آمنين**﴾ من الجوع والعطش والتعب، ومن السباع، وجميع المخاوف.

٧ - ﴿**فقالوا ربّنا باعد بين أسفارنا**﴾ وهذا من أغرب الإعراض عن النعمة، واستدعاء البلاء، واستبدال الرخاء بالشدّة، والعسر باليسر، ومعنى قولهم: اجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوزة لنركب إليها الرواحل، ونقطع المنازل؛ وهذا كما قالت بنو اسرائيل لمّا ملّوا النعمة ﴿**أخرج لنا مما تنبت الأرض**﴾.

٨ - ﴿وظلموا أنفسهم﴾ بخسران ما كانوا فيه من نعيم ورخاء، وأعظم من هذا ظلموها بما فوّتوا عليها جنان الخلد، ونعيم الأبد، وكل من حذا حذوهم في سلوك طريق العصيان والضلال فقد ظلم نفسه، وفوّت عليها نعيم الدنيا، وسعادة الآخرة.

٩ - ﴿فجعلناهم أحاديث﴾ وناهيك ببلاء ومكروه يبقى مضرباً للأمثال عبر القرون المتطاولة، يتحدّثون بأمرهم وشأنهم، ويضربون بهم المثل، فيقولون: تفرّقوا أيدي سبإٍ، إذا تشتتوا أعظم تشتيت.

١٠ - ﴿إنّ في ذلك لآيات﴾ إنّ ما حلّ بأهل سبإٍ من التفرّق والتشتيت، وذهاب النعم لم يحصل لغيرهم، وإنّه يكفي لمن جاء بعدهم عبرة وعظة، وأن يلتزموا بتعاليم السماء، ويحذروا أن يشذّوا فتسلب منهم النعم.

١١ - ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنّه﴾ وفي الوقت الذي طرد فيه عدو الله من منازل الكرامة، وطلب الإمهال، وأجيب إلى طلبه فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣] علماً أنّه ظنّ في إغوائهم ظنّاً، وقد تحقق الظنّ عند استجابتهم لإغوائه، وتركاضهم في الضلال.

١٢ - ﴿وما كان له عليهم من سلطان﴾ وهذا أمر في غاية الأهميّة، فالشيطان رغم ما يملك من وسائل ضلال ومغريات، فإنّه لا يتمكّن من إجبار أي شخص على المعاصي، وإنّما هو بمنزلة صديق السوء، يحبّذ لك سلوك منعطفات الفجور، من دون أن يكون له قدرة على إجبارك، وكذلك الشيطان فهو يرغّب ويوسوس، أمّا التسلّط التام، وإجبار الخلق على الجرائم، فإنّ ذلك ليس من مقدوره، فقد ورد عن أئمة الهدى صلوات الله عليهم: اطرد الخبيث فإنّه لا يعود.

والمعنى: أنّه حينما يرغّبك في عمل مخالف للشريعة، وامتنعت من القيام به، فإنّه لا يعاودك فيه، بل ينشغل بالذين يستجيبون له سراعاً.

١٣ - **﴿إلّا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شكّ﴾** وأنت أعزّك الله وسددك منذ نعومة أظفارك تتعرّض للامتحان تلو الامتحان، والاختبار تلو الاختبار، فمنذ دخولك الروضة وحتّى آخر شهادة نلتها والامتحانات عليك متتابعة، كل ذلك لتثمين اجتهادك، ومدى قابليتك؛ والله جلّ جلاله مع علمه بك يريد امتحانك واختبارك ليرفع درجتك، ويعطيك فوق ما تستحقه، والشيطان هو موضع الاختبار، فيه يتبيّن المطيع من العاصي، والشقي من السعيد.

قال أمين الإسلام في تفسير الآية: إنّا لم نمكنه من إغوائهم ووسوستهم إلّا لنميّز من يقبل منه ومن يمتنع، ويأبى متابعته، فنعذّب من تابعه، ونثيب من خالفه[1].

﴿وربّك﴾ يا محمد **﴿على كل شيء حفيظ﴾** عالم بهم، لا يفوته علم شيء من أحوالهم وأعمالهم.



(١) مجمع البيان ٦ - ٦٠٩/٧.



أصحاب القرية

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣].

القرآن الكريم يتحدّث عن قصة مليئة بالعبر، وقعت في بلد قريب من الجزيرة العربية، وربما دخلها الكثير منهم في أسفارهم إلى الشام.

١ - ﴿واضرب لهم مثلًا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون﴾.

القرية: هي انطاكية، وهي قريبة من الشام، والله جلّ جلاله ذكر قصتهم وما نزل بهم من البلاء والفناء في كتابه ليأخذ العرب وغيرهم منها العبرة والموعظة، فالسعيد من اتعظ بغيره، والشقي من أتعظ به.

٢ - ﴿إذا أرسلنا إليهم اثنين فكذّبوهما﴾ والله جلّ جلاله لا يؤاخذ عباده لأوّل وهلة، بل يتابع عليهم بالانذار، ويرسل إليهم الرسل، فتلزمهم آنذاك الحجّة ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨] ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

فهذه المدينة أرسل الله سبحانه إليهم رسولين فكذّبوهما.

والواقع أنّ هذا هو مسلك البشرية، ألا تسمع القرآن الكريم يقول: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦] ويقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

٣ - ﴿فعزّزنا بثالث﴾ فقوّيناهما، وشددنا ظهورهما برسول ثالث؛ مأخوذ من العزّة، وهي القوّة والمنعة.

ومن هذا يتبيّن اللطف الإلهي، فجميع ملوك الأرض ورؤسائها قديماً وحديثاً إذا بلغهم خلاف قطر من الأقطار، أو مدينة من المدن التي تحت سيطرتهم يسارعون في إهلاكهم، ولا يتورّعون عن إبادتهم، بينما ترى العزيز القادر الجبّار يعرض عن المكذّبين حلماً بهم، واستصلاحاً لنفوسهم الخبيثة، ولا يعاجلهم بالعقوبة.

٤ - **﴿قالوا ما أنتم إلّا بشر مثلنا﴾** فهم يتصوّرون، أو بالأحرى أنّ الشيطان يصوّر لهم أنّ الرسل يجب أن يكونوا من سنخ خاص لا يشبهون البشر في أحوالهم ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

إنّ الله سبحانه وتعالى جعل رسله من البشر، بل هم دائماً من الأمم التي أرسلوا إليها، ومن البلاد التي بعثوا إليها ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ [هود: ٢٥].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [هود: ٥٠] ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ [هود: ٨٤] ليكونوا أسرع للاستجابة، وأقرب للإيمان بالله ورسله.

كان جواب أهل انطاكية للرسل: **﴿ما أنزل الله من شيء﴾** مما تدعوننا إليه **﴿إن أنتم إلّا تكذبون﴾** في دعواكم الرسالة.

والواقع إنّ هذا لم يكن منهم عن شبهة، بل كان منهم تكذيباً وعناداً، فالمعاجز التي جاء بها أنبياؤهم تكفي في تصديقهم، والإيمان برسالتهم.

٥ - **﴿قالوا ربنا يعلم انا إليكم لمرسلون﴾** من هذا الجواب يتبيّن لك ما كان يتمتّع به المرسلون صلوات الله عليهم أجمعين، من خلق رفيع، وسجايا حميدة، وأخلاق فاضلة.

إنّ الله تعالى أمرهم أن يكلّموا الناس بأحسن ما يقدرون عليه من

الكلام، ألا تسمعه يقول لرسوليه موسى وهارون عليهما السلام ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

والرسل الذين بعثوا إلى أهل انطاكية أجابوا مكذّبيهم بكل لطف وهدوء **﴿ربّنا يعلم انّا إليكم لمرسلون﴾** قالوا لهم ذلك بعدما قامت الحجّة بظهور المعاجز فلم يقبلوها؛ ووجه الاحتجاج بهذا القول الزامهم بالنظر في معاجزهم ليعلموا أنّهم صادقون في دعواهم، وفي ذلك تحذير لهم من التمادي في الغي **﴿وما علينا إلّا البلاغ المبين﴾** وليس علينا إلّا أداء الرسالة والتبليغ.

٦ - **﴿قالوا إنّا تطيّرنا بكم﴾** أي تشاءمنا؛ وهذه لهجة قديمة لأهل الكفر والعناد، ألا تسمع قوم صالح يقولون لنبيّهم: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النّمل: ٤٧].

والسر في ذلك: أنّ الله جلّ جلاله يقطع عن المكذّبين المطر، ويُنزل بهم المكاره تأديباً لهم، وأنّ ذلك وإن عظم عليهم فهو دون الأخذ لهم، فهم بدلًا من أن يعتبروا ويرجعوا للاستقامة تراهم يلقون باللوم على أنبيائهم، وأنّهم السبب فيما نزل بهم.

٧ - **﴿لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسنّكم منّا عذاب أليم﴾** جمعوا إلى الكفر الخشونة في الكلام، لقد هدّدوا الرسل بالرجم بالحجارة، واستعمال وسائل التعذيب الأخرى.

٨ - **﴿قالوا طائركم معكم﴾** إن الشؤم الذي نزل بكم هو نتيجة اقامتكم على الكفر، فإنكم لو آمنتم بالله جلّ جلاله لرأيتم الخير واليُمن ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح: ١٢].

٩ - **﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى﴾** في كل مجتمع كافر

مؤمنون، بهم تقام الحجّة على الآخرين، وهم جمعوا مع الإيمان الدعوة إلى الله جلّ جلاله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وحتّى في عصرنا هذا وبين الفترة والأخرى نقرأ كتاباً جديداً لعلم من أعلام أوروبا، آمن بالله جلّ جلاله، وصدّق بنبيّه محمد ﷺ، وكتب كتابه يدعو فيه قومه إلى الإسلام.

نذكر من ذلك على سبيل المثال (ليبول فايس)(١) و (روجيه غارودي)(٢)، وغيرهم كثير لا يسعنا احصاؤهم(٣).

إنّ أهل انطاكية تطابقوا جميعاً على تكذيب الرسل وتهديدهم، عدا واحد منهم فقد آمن بالله والمرسلين، واسمه (حبيب النجار) وكان يقيم في طرف المدينة، وقد بلغه تكذيب قومه للرسل فجاء يعدو مسرعاً نحوهم ويقول: **﴿يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾**.

اتبعوا من لا يطلبون منكم مالًا على تبليغ الرسالة، وهم مع ذلك أدلاء على طريق الخير والنجاة، وهذا نظير قول هود عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١].

وبعد انتقال الرسول الأعظم ﷺ إلى المدينة، وانتشار الإسلام تذاكر وجوه الأوس والخزرج في تقديم بعض أموالهم لرسول الله ﷺ لقيامه بالرسالة، فنزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣].

---

(١) وكتابه «الإسلام على مفترق الطرق».

(٢) وكتابه «الإسلام في الغرب».

(٣) انظر كتاب «محمد عند علماء الغرب».

١١ - ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون﴾ ونصيب المصلحين دائماً الأذى، وكأنّ الله جلّ جلاله أراد لهم سمو المنزلة، وارتفاع الدرجة لما يصيبهم من الطغاة والعتاة، فحبيب وهو أحد الصديقين الثلاثة[١] بعد أن أخذ يدعو قومه إلى الله جلّ جلاله، واتباع رسله، مسكوه وأخذوه إلى الملك، فسأله الملك: أفأنت تتبعهم؟ فقال: ﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني﴾ وأي شيء لي إذا لم أعبد خالقي الذي أنشأني، وأنعم عليّ وهداني ﴿وإليه ترجعون﴾ تردّون إلى حكمه، فيجزيكم بكفركم.

ثم أنكر عليهم عبادتهم الأصنام مبرهناً على أنها لا تضر ولا تنفع ﴿أأتخذ من دون آلهة﴾ أأعبد من دون الله أصناماً ﴿إن يردن الرحمن بضرّ﴾ إن أراد إهلاكي والإضرار بي ﴿لا تغني عني شفاعتهم شيئاً﴾ لا تدفع ولا تمنع شفاعتهم عنّي شيئاً، والمراد: لا شفاعة لهم فتغني ﴿ولا ينقذون﴾ ولا يخلّصوني من ذلك الهلاك أو الضرر والمكروه ﴿إنّي إذاً لفي ضلال مبين﴾ إنّي إن فعلت ذلك فإنّي في عدول عن الحق واضح.

والمراد من الحوار: انّ العبادة لا يستحقّها إلّا الله سبحانه وتعالى، المنعم بأصول النعم، وبما لا توازيه نعمة منعم.

ثم تحدّاهم جميعاً ﴿إنّي آمنت بربّكم﴾ الذي خلقكم وأوجدكم ﴿فاسمعون﴾ فاسمعوا قولي واقبلوه.

١٢ - ﴿قيل ادخل الجنّة﴾ والبشر كلهم لو اجتمعوا على شخص يريدون قتله، والله سبحانه وتعالى يريد له النجاة فهم لا يستطيعون الوصول إليه بسوء، والدليل على ذلك ما حصل لإبراهيم عليه السلام، فقد نجّاه الله جلّ جلاله من نار أحرقت حتّى الطيور التي في السماء، ونجاة عيسى عليه السلام من

---

(١) عن النبي (ص) قال: سبّاق الأمم ثلاثة، لم يكفروا بالله طرفة عين، علي بن أبي طالب عليه السلام، وصاحب ياسين، ومؤمن آل فرعون وعلي أفضلهم.

اليهود وقد أجمعوا على قتله، ونجاة نبيّنا محمد ﷺ من قريش وقد وقف على بابه أربعون رجلًا من شجعانهم، بأيديهم سيوفهم، ليهجموا عليه هجمة واحدة، ويقطّعوه بأسيافهم إرباً إرباً، فأخرجه الله سبحانه وتعالى من بينهم سالماً لم يمسّه أي سوء حتى وصل المدينة المنورة سالماً.

وكذلك حصل لحبيب النجار، فقد اجتمعوا حكومة وشعباً على قتله، فرفعه الله جلّ جلاله إلى الجنّة، فهو يتنعّم فيها، ولا يموت إلا بفناء الدنيا.

١٣ - **﴿قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربّي﴾** لقد تمنّى سلام الله عليه وهو في رياض الجنّة أن يعلم قومه بمصيره السعيد ليستجيبوا لنداء السماء، ويفوزوا بالسعادة الأبدية، ويأمنوا من العذاب العاجل والآجل **﴿وجعلني من المكرمين﴾** من الداخلين الجنة.

والإكرام: هو إعطاء المنزلة الرفيعة على وجه التبجيل والإعظام.

١٤ - **﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء﴾** والله سبحانه وتعالى له **﴿جنود السموات والأرض﴾** **﴿ولا يعلم جنود ربّك إلّا هو﴾** وأيضاً **﴿إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون﴾** ومع هذا كله فإنّه لم ينزل لإهلاكهم جنوداً من السماء، وإنّما أهلكهم بصيحة واحدة صاح بها عبد من عبيده فهلكوا بأسرهم.

والمراد: أنّ هلاك الطغاة والظالمين يسير على الله جلّ جلاله، لا يحتاج إلى انزال جند من الملائكة، فينبغي للعتاة الحذر من هذا العظيم الجبّار.

١٥ - **﴿إن كانت إلّا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾** فالله سبحانه وتعالى يمهل الظالمين ولا يهملهم، وقد جعل لكل ظالم وباغ وقتاً لأخذه لا يتجاوزه، فهو جلّ جلاله ربّما عاجلهم، وربّما أخرهم لمصالح لا يعلمها إلّا هو.

فأهل انطاكية لما قتلوا الرسل، أرسل الله سبحانه وتعالى عليهم جبرائيل عليه السلام ، فصاح بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم، لا يسمع لهم حسّ، كالنّار إذا أطفئت.

١٦ - ﴿**يا حسرة على العباد**﴾ يا ندامة على العباد في الآخرة باستهزائهم بالرسل في الدنيا، والمعنى أنّهم حلّوا محل من يتحسّر عليه؛ والحسرة: أن يركب الإنسان من شدّة الندم ما لا نهاية بعده حتّى يبقى حسيرا.

١٧ - ﴿**ما يأتيهم من رسول إلّا كانوا به يستهزئون**﴾ إنّ هذا هو سبب عذابهم وأخذهم في الدنيا، وهو سبب عذابهم في الآخرة، وهو سبب حسرتهم وندامتهم في وقت لم ينفعهم الندم، ولم يمكنهم أن يستدركوا ما فاتهم، بل ان ذلك زيادة في آلامهم وشجونهم.



أصحاب الفيل

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١ - ٥].

الطغيان

وهذا البشر الضعيف، والذي يصفه أمير المؤمنين عليه السلام: مسكين ابن آدم، مكتوم الأجل، مكنون العلل، محفوظ العمل، تؤلمه البقة، وتقتله الشرقة، وتنتنه العرقة(١).

ويقول عليه السلام: ما لابن آدم والفخر، أوّله نطفة، وآخره جيفة، ولا يرزق نفسه، ولا يدفع حتفه(٢).

رغم هذا كله كانّ من ملزمات هذه المخلوق الضعيف الطغيان، ولا يختلف الطغيان بين الملوك والرعايا، فطغيان الملوك اضطهاد العباد، وقد يصعّد فيكون ادعاءً للربوبية، وطغيان الرعايا اعتداء بعضهم على بعض، وما القتل والضرب الذي نراه ونسمعه في المجتمعات إلّا مظهر من مظاهر الطغيان.

لقد تجلّى الطغيان في (أبرهة الحبشي) وهو جندي بسيط كان في

---

(١) نهج البلاغة حكمة رقم ٤١٩.

(٢) نهج البلاغة حكمة رقم ٤٥٤.

الحملة التي أرسلها ملك الحبشة لاحتلال اليمن، تحت قيادة (روزبة) ونجحت الحملة، ولكن (أبرهة) احتال على (روزبة) فقتله، ونصّب نفسه مكانه أميراً على اليمن؛ واستاء ملك الحبشة من تصرّف جنديه، فأقسم أن يطأ بلاده، ويسحق رأسه برجله، وخاف أبرهة فأرسل إليه: إنّ روزبة عبد من عبيدك، وأنا عبد من عبيدك وفي طاعتك، وقد أرسلت لك بشعري، فتوطاه بقدمك، وأرسلت لك بتراب بلادي فتوطاه أيضاً لتبرّ قسمك؛ وسكن غضب الملك عنه واعتبره بعض عماله.

وبعد أن تركّز في اليمن كانت باكورة أعماله أن يبني بيتاً للعبادة، وأمر الناس بحجّه، واعتبر وجود الكعبة المعظّمة حجر عثرة في طريقه، فخرج في جيش جرار لهدمها.

سار يقطع الفيافي والقفار، يتقدّم جيشه فيل عظيم، وعند بعض المؤرخين مجموعة من الفيلة، وذكر الشيخ المجلسي عليه الرحمة: أنّ عدد الجيش مائة ألف، وعدد الفيلة أربعمائة فيل[١].

عبد المطلب

إذا ذكرت قصة أصحاب الفيل يتبادر الذهن إلى عبد المطلب عليه السلام، فهو صاحب الكرامة العظمى، وهو الذي استجاب الله دعاءه في هلاك الطاغية وجيشه.

وعبد المطلب جد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وكافلة لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم ولد بعد وفاة والده، فكفله جده، وكان يحبّه حبّاً عظيماً، ويقدّمه على أولاده، معرفةً منه بنبوته.

---

(١) بحار الأنوار: ١٥/ ٦٥.

وعبد المطلب زعيم قريش بلا منازع، وساقي الحجيج من زمزم، فقد ألهمه الله سبحانه وتعالى البحث عنها واستخراجها، بعدما عفيت ودرست آثارها، فظهرت ثانية على يديه، ونازعته عليها قريش، فأظهر الله جل جلاله له كرامة أخرى، فقد نافروه إلى كاهنة بني سعد، فخرجوا إليها جميعاً.

ورواية المؤرخ اليعقوبي: إنّ ماء عبد المطلب نفد في الطريق، ومياه القوم، فخافوا الهلكة، فقال عبد المطلب: ليحفر كل منا لنفسه حفيراً ثم يقعد فيه حتّى يأتيه الموت، ففعلوا، ثم قال: إنّ القاءنا بأيدينا لعجز، فلو ركبنا وطلبنا الماء، فلما استوى على راحلته انفجرت تحت صدرها عين ماء، فقال: ردّوا الماء.

فقالوا: لقد قضى الله علينا ولا حاجة في أن نناديك، فانصرفوا[1].
إنّك لا تستطيع الإحاطة بأبعاد هذه الشخصية العظيمة، وأنّى لك ذلك، لقد أقرّ الإسلام بعض تشريعاته، وأمضى بعض سننه، مما يدل على أنه كان على الحنيفيّة السمحاء، شريعة جدّه إبراهيم.

روى الشيخ الصدوق عليه الرحمة عن رسول الله ﷺ أَنه قال لأمير المؤمنين عليه السلام: يا علي إنّ عبد المطلب سنّ في الجاهلية خمس سنن أجراها الله في الإسلام، حرّم نساء الآباء على الأبناء، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿**ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء**﴾ ووجد كنزاً فأخرج منه الخمس وتصدّق به، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿**واعلموا أنما غنمتم من شيء فانّ لله خمسه**﴾ ولما حفر زمزم سمّاها سقاية الحاج، فأنزل الله ﴿**أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر**﴾ وسنّ في

---

(١) تاريخ اليعقوبي ١/ ٢١٨.

القتل مائة من الإبل، فأجرى الله عزّ وجلّ ذلك في الإسلام، ولم يكن للطواف عدد عند قريش، فسنّ فيهم عبد المطلب سبعة أشواط، فأجرى الله ذلك في الإسلام؛ يا علي إنّ عبد المطلب كان لا يستقسم بالأزلام، ولا يعبد الأصنام، ولا يأكل كل ما ذبح على النصب، ويقول: أنا على دين أبي إبراهيم عليه السلام[١].

وبلغ من المجد والسؤدد حتى كانت قريش تسميه إبراهيم الثاني.

ولقد أحسن الجاحظ في وصفه لعبد المطلب إذ قال: لم يكن لعبد المطلب في قريش نظير، كما أنّه ليس في العرب لقريش نظير، وكما أنّه ليس في الناس للعرب نظير[٢].

وحسبه شرفاً أن يكون جدّاً للنبيّ والوصيّ عليهما السلام.

استجابة دعائه

لو واكبنا عبد المطلب في قصّة أصحاب الفيل لوجدناه على غرار الأنبياء عليهم السلام في تيقنهم في هلاك الطغاة، فهو لا يخرج كما خرج الناس، بل يمكث داعياً ومنتظراً للفرج، وستسمع كلامه مع الطاغية وهو كلام متيقّن بهلاك الظالمين، واستمع إلى رجزه قبل حلول النقمة:

يا رب لا أرجو لهم سواكا   يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدوّ البيت من عاداكا   إنّهم لم يقهروا قواكا[٣]

وقال أيضاً:

لا همّ إنّ المرء يمنع رحله   فامنع رحالك

---

(١) الخصال: ٣١٣.
(٢) كتاب الحيوان: ٢/ ٨٩.
(٣) مجمع البيان ٩ - ١٠/ ٥٤١

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك
جرّوا جموع بلادهم والفيل كي يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم جهلًا وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وكعبتنا فأمر ما بدالك[١]

نهاية الطاغية

روى الشيخ الطبرسي في تفسيره حديث (أبرهة) ومجيئه لهدم البيت، فقال: ودعا بالفيل، وأذن قومه بالخروج ومن تبعه من أهل اليمن، وكان أكثر من تبعه علكّ والأشعرون وخثعم، ثم خرج يسير حتّى إذا كان ببعض طريقه بعث رجلًا من بني سليم ليدعو الناس إلى حجّ بيته الذي بناه، فتلقاه أيضاً رجل من الحمس، من بني كتانة فقتله، فازداد بذلك حنقاً، وحثّ السير والانطلاق، وطلب من أهل الطائف دليلًا، فبعثوا معه رجلًا من هذيل، يقال له (نفيل) فخرج بهم يهديهم، حتى إذا كان بالمغمّس نزلوه وهو من مكة على ستة أميال، فبعثوا مقدماتهم إلى مكة، فخرجت قريش عباديد في رؤوس الجبال، وقالوا: لا طاقة لنا بقتال هؤلاء، ولم يبق بمكة غير عبد المطلب بن هاشم، أقام على سقايته، وغير شيبة بن عثمان بن عبد الدار أقام على حجابة البيت؛ ثم انّ مقدمات (أبرهة) أصابت نعماً لقريش، فأصابت فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، فلما بلغه ذلك خرج حتّى أتى القوم، وكان حاجب (أبرهة) رجلًا من الأشعريين، له بـ (عبد المطلب) معرفة، فاستأذن له على الملك وقال له: أيّها الملك جاءك سيد قريش، الذي يُطعم أنسها في الحي، ووحشها في الجبل.

---

(١) عرائس المجالس: ٤٤٢.

فقال: ائذن له.

وكان عبد المطلب رجلًا جسيماً جميلًا، فلما رآه أبو يكسوم[١] أعظمه أن يجلسه تحته، وكره أن يجلسه على سريره، فنزل من سريره فجلس على الأرض، وأجلس عبد المطلب معه، ثم قال: ما حاجتك؟ فقال: حاجتي مائتا بعير لي أصابتها مقدّمتك.

فقال أبو يكسوم: والله لقد رأيتك فأعجبتني، ثم تكلمت فزهدت فيك.

فقال: ولِمَ أيُّها الملك؟.

قال: لأنّي جئت إلى بيت عزّكم ومنعتكم من العرب، وفضلكم في الناس، وتشرفكم عليهم، ودينكم الذي تعبدون، فجئت لأكسره، وأصيبت لك مائتا بعير. فسألتك عن حاجتك فكلَّمَتني في إبلك، ولم تطلب إليّ في بيتكم!!.

فقال له عبد المطلب: أيّها الملك أنا أكلمك في مالي ولهذا البيت ربّ يمنعه، لست أنا منه في شيء.

فراع ذلك أبا يكسوم، وأمر بردّ إبل عبد المطلب عليه، ثم رجع، وأمست ليلتهم تلك الليلة كالحة نجومها كأنها تكلمهم كلاماً لاقترابها منهم، فأحسّت نفوسهم بالعذاب، وخرج دليلهم حتّى دخل الحرم وتركهم، وقام الأشعريون وخثعم فكسروا رماحهم وسيوفهم، وبرؤوا إلى الله أن يعينوا على هدم البيت، فباتوا بذلك أخبث ليلة، ثم أدلجوا بسحر فبعثوا فيلهم يريدون أن يصبحوا بمكة، فوجّهوه إلى مكة فربض، فضربوه

---

(١) كنية الطاغية

فتمرّغ، فلم يزالوا كذلك حتى كادوا أن يصبحوا، ثم أنّهم أقبلوا على الفيل فقالوا: لك الله أنه لا نوجّهك إلى مكة، فانبعث، فوجّهوه إلى اليمن راجعاً فتوجّه يهرول، فعطفوه حين رأوه منطلقاً حتّى إذا ردّوه إلى مكانه الأول ربض، فلما رأوا ذلك عادوا إلى القسم، فلم يزالوا كذلك يعالجونه حتى إذا كان مع مطلع الشمس طلعت عليهم الطير معها الحجارة[١].

فجعلت ترميهم، وكل طائر في منقاره حجر، وفي رجليه حجر، وإذا رمت بذلك مضت وطلعت أخرى، فلا يقع حجر من حجارتهم تلك على بطن إلّا خرقه، ولا عظم إلّا أوهاه وثقبه؛ وثاب أبو يكسوم راجعاً وقد أصابته بعض الحجارة، فجعل كلما تقدّم أرضاً انقطع له فيها أرب، حتى إذا انتهى إلى اليمن لم يبق شيء إلّا باده، فلما قدمها تصدّع صدره، وانشق بطنه فهلك، ولم يصب من الأشعريين وخثعم أحد[٢].

ابتهاج عبد المطلب

فلما هلك القوم جاء عبد المطلب إلى البيت فتعلّق بأستاره وقال

يا حابس الفيل بذي المغمّس حبسته كأنه مكركس
في محبس تزهق فيه الأنفس

---

(١) روى أنّ عبد المطلب قال لبعض مواليه: أُعل الجبل فانظر ترى شيئاً؟
فقال: أرى سواداً من قبل البحر.
فقال: يصيبه بصرك أجمع؟.
فقال: لا، ولأوشك أن يصيب، فلما أن قرب قال: هو طير كثير ولا أعرفه، يحمل كل طير في منقاره حصاة مثل حصاة الخذف أو دون حصاة الخذف. قال: ورب عبد المطلب ما تريد إلاّ القوم. أصول الكافي ١/ ٤٤٨.

(٢) مجمع البيان ٩ -١٠/ ٥٤١.

فانصرف وهو يقول في فرار قريش وجزعهم من الحبشة:

طارت قريش إذ رأت خميسا فظلت فرداً لا أرى أنيسا
ولا أحس منهم حسيساً إلّا أخالي ماجداً نفيسا
مسوّدا في أهله رئيسا[1]



(١) أمالي الشيخ الطوسي: ٥٠.



المعجز الأكبر

من لطف الله سبحانه وتعالى بعباده الانتقام من الظالمين، تخليصاً للبشرية منهم، وردعاً للآخرين أن ينهجوا نهجهم.

إنّ قصص القرآن الكريم التي تحدّثت عن العتاة الظالمين هي في الوقت نفسه تحذير لمجرمي البشر وإنذار لهم، فمدمّر فرعون ذي الأوتاد ومن كان قبله، ومن جاء بعده من الجبّارين حيّ قيّوم، يمكنه في كل لحظة أن يدمّر الطغاة الكافرين.

وزعم بعض الناس أنّ ما دمّر به الله جلّ جلاله الأمم الكافرة كان سببه عوامل طبيعيّة، لا أثر للقدرة فيها، كانت براكين فتفجرت، أو إعصا، قوي، أو فيضان اكتسح، أو رياح عاتية فدمّرت.

ومهما اختلق الملاحدة وغيرهم من الطبيعيين أسباباً للتدمير السماوي للظالمين فهم لا يستطيعون أن يقولوا شيئاً عن أصحاب الفيل، فأيّ تحليل طبيعي يمكن أن يُقال عن طيور صغيرة، تحمل بمناقيرها وأرجلها حجارة دون الحمّصة، ترميها على جماعة معيّنة فتقتلهم، ولا تشتبه فتصيب غيرهم، كما أنهم لم يستطيعوا تكذيب الحادثة، فقريش كانت تتوسّل بكل شيء لتكذيب النبي ﷺ، رغم ذلك كله لم يستطع أحد منهم جحد الحادثة، وكيف تجحدها وجلّهم شهدها.

قال الشيخ الطبرسي عليه الرحمة: وفيه حجّة لائحة قاصمة لظهور الفلاسفة والملحدين المنكرين للآيات الخارقة للعادات، فإنّه لا يمكن نسبة

شيء ممّا ذكره الله تعالى من أمر أصحاب الفيل إلى طبع وغيره، كما نسبوا الصيحة والريح العقيم والخسف وغيرها مما أهلك الله تعالى به الأمم الخالية إلى ذلك، إذ لا يمكنهم أن يروا في أسرار الطبيعة إرسال جماعات من الطير معها أحجار معدّة مهيأة لهلاك أقوام معيّنين، قاصدات إيّاهم دون من سواهم، فترميهم بها حتى تهلكهم، وتدمّر عليهم، حتّى لا يتعدّى ذلك إلى غيرهم، ولا يشك من له مسكة عقل ولبّ أنّ هذا لا يكون إلّا من فعل الله تعالى مسبب الأسباب، ومذلل الصعاب، وليس لأحد أن ينكر هذا لأنّ نبيّنا ﷺ لما قرأ هذه السورة على أهل مكة لم ينكروا ذلك، بل أقرّوا به وصدّقوه مع شدّة حرصهم على تكذيبه، واعتنائهم بالردّ عليه، وكانوا قريبي العهد بأصحاب الفيل، فلو لم يكن لذلك عندهم حقيقة وأصل لأنكروه وجحدوه، وكيف وأنهم قد أرّخوا بذلك كما أرّخو ببناء الكعبة، وموت قصي بن كعب، وغير ذلك، وقد أكثر الشعراء ذكر الفيل ونظموه، ونقلته الرواة عنهم، فمن ذلك ما قاله أميّة بن أبي الصلت:

إنّ آيات ربّنا بيّنات ... ما يماري فيهن إلّا الكفورُ
حبس الفيل بالمغمّس حتّى ... ظلّ يحبو كأنّه معقور

وقال عبدالله بن عمرو بن مخزوم:

أنت الجليل ربّنا لم تدنّس ... أنت حبست القيل بالمغمّس
من بعدما همّ بشيء مبلس ... حبسته في هيئة المكركس

وقال ابن الرقيات في قصيدة:

واستهلّت عليهم الطير بالـ ... جندل حتّى كأنّه مرجوم[1]

---

(١) مجمع البيان ٩ - ١٠/ ٥٤٣



أهل مكة

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

القرآن الكريم يتحدّث عن قرية كانت تعيش بأمان وغنى، ولكنها كفرت، فحوّل الله جلّ جلاله أمنها إلى خوف، وغناها إلى فقر، لأجل أن يتذكّروا فيرجعوا إلى نهج الحق والاستقامة، ولأنّ ذلك وإن اشتدّ عليهم فهو أهون بكثير من النار التي تكون مصير الكافرين والفاسقين.

والغرض من هذه الآية الكريمة وما شابهها ليس هو القصة، وإنّما أخذ الموعظة، وليعلم الجميع أنّ ما حلّ بأولئك على كفرهم يمكن أن يحلّ بأي بلد يكفر بالمنعم الجبّار.

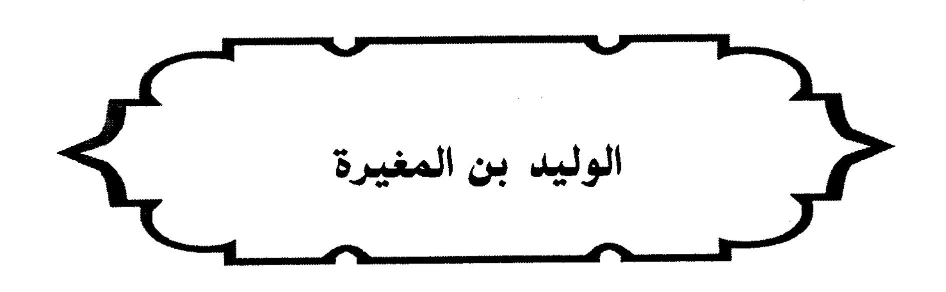
نعود للآية الكريمة: **﴿وضرب الله مثلًا قرية كانت آمنة﴾** ذات أمن، يعيش أهلها بأمان لا تتعرّض للغارات التي كانت تتعرّض لها جميع البلاد العربية.

﴿مطمئنة﴾ قارّة، ساكنة بأهلها، لا يحتاجون إلى الانتقال عنها بخوف أو ضيق **﴿يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان﴾** يحمل إليها الرزق الواسع من كل موضع ومن كل بلد **﴿فكفرت بأنعم الله﴾** فكفر أهل تلك القرية بأنعم الله، ولم يؤدّوا شكرها **﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾** فأخذهم الله بالجوع والخوف بصنيعهم، وسوء فعالهم،

والآية وصفت ما نزل بهم كاللباس، لأنّه شملهم ذلك كما يشمل اللباس البدن.

ويقول ابن عباس وجمهور المفسّرين: إنّ هذه القرية مكّة، عذّبهم الله بالجوع سبع سنين حتّى أكلوا القدّ والعلهز ـ وهو الوبر يخلط بدم والقراد ثم يؤكل ـ وهم مع ذلك خائفون وجلون من النبيّ ﷺ، وذلك بعد أن دعا النبي ﷺ فقال: اللهمّ أشدد وطأتك على مضر، واجعل عليهم سنين كسني يوسف.





الوليد بن المغيرة

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ [المدّثر: ١١، ١٢].

هذه الآيات في ذم الوليد بن المغيرة المخزومي، أحد زعماء قريش المعدودين، وممن لهم معرفة بالشعر، وقدم راسخة في الأدب؛ ومن الغريب ما آل إليه أمره من الكفر والعناد، بعد أن لزمته الحجّة القاطعة على صدق الدعوى المحمديّة، فهو لمعرفته بكلام العرب، وبصره بفنون الأدب، أدرك سمو القرآن الكريم، وأنّه كلام ربّ العالمين.

يقول عكرمة: جاء وليد بن المغيرة إلى رسول الله ﷺ، فقال اقرأ عليّ، فقال: ﴿**إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان**﴾ الآية.

فقال: أعد، فأعاد.

فقال: والله إنّ له الحلاوة والطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وما هو بقول بشر(١).

وأكثر من هذا، فقد جاءه جمع من قريش فقالوا: يا أبا عبد شمس ما هذ الذي يقول محمد؟ أسحر، أم كهانة، أم خطب؟.

فقال: دعوني أسمع كلامه، فدنا من رسول الله ﷺ وهو جالس في الحجر، فقال: يا محمد أنشدني شعرك

---

(١) سفينة البحار ٢/ ٦٩٠

فقال: ما هو بشعر، ولكنّه كلام الله الذي بعثت به أنبياؤه ورسله

فقال: اتل.

فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم.

فلما سمع الرحمن استهزأ منه، وقال: يدعو إلى رجل باليمامة يسمّى الرحمن.

فقال: لا، ولكنّي أدعو إلى الله، وهو الرحمن الرحيم، ثم افتتح حم السجدة، فلما بلغ إلى قوله: ﴿**فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود**﴾ وسمعه، اقشعر جلده، وقامت كل شعرة في بدنه وقام، ومشى إلى بيته، ولم يرجع إلى قريش، فقالوا: صبا أبو عبد شمس إلى دين محمد، فاغتمّت قريش، وغدا عليه أبو جهل فقال: فضحتنا يا عم.

قال: يابن أخي ما ذاك، وإنّي على دين قومي، ولكنّي سمعت كلاماً صعباً تقشعر منه الجلود.

قال: أفشعر هو؟.

قال: ما هو بشعر.

قال: فخطب؟.

قال: لا، إنّ الخطب كلام متصل، وهذا كلام منثور، لا يشبه بعضه بعضاً.

قال: فكهانة هو؟.

قال: لا.

قال: فما هو؟.

قال: دعني أفكّر فيه.

فلما كان من الغد قالوا: يا أبا عبد شمس ما تقول؟.

قال: قولوا: هو سحر، فأنّه آخذ بقلوب الناس.

فأنزل الله تعالى فيه **﴿ذرني من خلقت وحيدا﴾** إلى قوله: **﴿عليها تسعة عشر﴾**[1].

إن إعراض الوليد عن الإسلام يفسّر بأسباب أهمها: تهالك المخزوميين على زعامة قريش، لا سيّما وهشام بن المغيرة ـ أخو الوليد ـ كان رئيساً كريماً، له في قريش منزلة رفيعة، وقد ورث منه تلك المنزلة، وكلمة أبي جهل تفصح عن ذلك، قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتّى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به ولا نصدّقه.

الأمر الثاني: وجود أبي جهل، وهو ابن أخيه، وعداوته للنبي ﷺ معلومة، فكان من أسباب قعوده عن السعادة العظمى.

وأيضاً: للأمر علاقة بطهارة المولد، فهناك أقوال تخدش في نسبه؛ جاء في تفسير علي بن إبراهيم: الوحيد: ولد الزنا؛ كانت الدعارة متفشّية في الملإ المكي، لا سيما الرؤساء وأهل المنزلة، حتى كانوا لا يأنفون من أن يقعوا على بغيٍّ ويتبنّوا ابنها، كما هو الحال في عمرو بن العاص.

نعود للآيات: فبعد اجتماع القرشيين بالوليد، وسؤالهم إياه عن القرآن الكريم، وما أجابهم من أنّه سحر، مع تيقّنه أنّه كلام الله جلّ جلاله، نزلت هذه الآيات في ذمّه **﴿ذرني ومن خلقت وحيدا﴾** دعني ومن خلقته متوحّداً بخلقه، لا شريك لي في خلقه، والمراد: دعني وإيّاه فإنّي كاف له

---

(١) سفينة البحار ٢/ ٦٩٠.

في عقابه ﴿**وجعلت له مالًا ممدودا**﴾ ما بين مكة إلى الطائف، من الإبل والخيل والمستغلّات ﴿**وبنين شهودا**﴾ حضوراً معه بمكة، لا يغيبون عنه، لغناهم عن ركوب السفر للتجارة ﴿**ومهّدت له تمهيدا**﴾ بسطت له في العيش بسطا حتى صار مكفي المؤونة من كلِّ وجه ﴿**ثم يطمع أن أزيد**﴾ لم يشكرني على هذه النعم، بل كفر نعمائي، وهو مع ذلك يطمع أن أزيد في إنعامه. ثم قال على وجه الردع (**كلاّ**) لا يكون كما ظنّ، ولا أزيده مع كفره.

قالوا: ما زال الوليد بعد هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتّى هلك؛ ثم بيّن سبحانه كفره ﴿**إنه كان لآياتنا عنيدا**﴾ إنّه كان بحججنا وأدلتنا معانداً، ينكرها مع معرفته بها ﴿**سأرهقه صعودا**﴾ سأكلّفه مشقّة من العذاب لا راحة فيها، وهو صعود جبل في جهنّم من نار، يؤخذ بارتقائه، فإذا وضع يده عليه ذابت فإذا رفعها عادت، وكذلك رجله ﴿**إنّه فكّر**﴾ ودبّر ماذا يقول في القرآن ﴿**وقدّر**﴾ القول في نفسه، فقال: إن قلنا شاعر كذّبتنا العرب باعتبار ما أتى به، وإن قلنا: كاهن لم يصدّقونا، لأن كلامه لا يشبه كلام الكهّان، فنقول: ساحر، يؤثر ما أتى به السحر ﴿**فقُتل**﴾ لعن وعذّب ﴿**كيف قدّر**﴾ لعن على أي حال قدّر ما قدّر من الكلام ﴿**ثم قتل كيف قدّر**﴾ هذا تكرير للتأكيد ﴿**ثم نظر**﴾ في طلب ما يدفع به القرآن ويردّه ﴿**ثم عبس وبسر**﴾ كلح وكره وجهه، ونظر بكراهة شديدة كالمهتم المتفكّر في الشيء ﴿**ثم أدبر**﴾ عن الإيمان ﴿**واستكبر**﴾ تكبّر ﴿**فقال إن هذا إلا سحر يؤثر**﴾ سحر تؤثره النفوس وتختاره لحلاوته فيها ﴿**إن هذا إلّا قول البشر**﴾ ما هذا إلّا كلام الإنس، وليس من عند الله ﴿**سأصليه سقر**﴾ سأدخله جهنم وألزمه إياها. وسقر: دركة من دركات جهنم ﴿**وما أدراك**﴾ أيها السامع ﴿**ما سقر**﴾ في شدّتها وهولها وضيقها. ثم جاء ببعض صفاتها ﴿**لا تبقي ولا تذر**﴾ لا تبقي شيئاً إلّا أحرقته ﴿**لوّاحة للبشر**﴾ لافحة للجلود حتّى تدعها أشد سواداً

من الليل **﴿عليها تسعة عشر﴾** من الملائكة، وهم خزنتها، مالك ومعه ثمانية عشر، أعينهم كالبرق الخاطف وأنيابهم كالصياص، يخرج لهب النار من أفواههم، ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة، تسع كف أحدهم مثل ربيعة ومضر، نُزعت منهم الرحمة، يرفع أحدهم سبعين ألفاً فيرميهم حيث أراد من جهنم **﴿وما جعلنا أصحاب النار إلّا ملائكة﴾** وما جعلنا الموكّلين بالنار، المتولّين تدبيرها إلّا ملائكة، ولم نجعلهم من بني آدم فتطيقونهم **﴿وما جعلنا عدّتهم إلّا فتنة للذين كفروا﴾** لم نجعلهم على هذا العدد إلّا محنة وتشديداً في التكليف للذين كفروا أنعم الله، وجحدوا وحدانيته، حتّى يتفكّروا فيعلموا أنّ الله سبحانه حكيم، لا يفعل إلّا ما هو حكمة، ويعلموا أنّه قادر على أن يزيد في قواهم ما يقدرون به على تعذيب الخلائق؛ ولو راجع الكفّار عقولهم لعلموا أنّ من سلّط ملكاً واحداً على كافة بني آدم لقبض أرواحهم فلا يغلبونه، قادر على سوق بعضهم إلى النار، وجعلهم فيها بتسعة عشر من الملائكة **﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب﴾** من اليهود والنصارى أنّه حقّ، وأن محمد ﷺ صادق، من حيث أخبر بما في كتبهم من غير قراءة لها، ولا تعلّم منهم **﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾** يقيناً بهذا العدد، وبصحة نبوّة محمد ﷺ، إذا أخبرهم أهل الكتاب أنّه مثل ما في كتبهم **﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾** ولئلا يشك هؤلاء في عدد الخزنة، والمعنى: وليستيقن من لم يؤمن بمحمد ﷺ ومن آمن به صحة نبوته إذا تدبّروا وتفكّروا **﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلًا﴾** وهم المنافقون والكافرون **﴿كذلك يضل الله من يشاء﴾** مثل ما جعلنا خزنة أصحاب النار ملائكة، ذوي عدد، محنة واختباراً، ليظهر الضلال والهدى **﴿وما يعلم جنود ربّك إلّا هو﴾** وما يعلم جنود ربّك من كثرتها أحد إلّا هو. ثم عاد إلى ذكر النار **﴿وما هي إلّا ذكرى للبشر﴾** تذكرة وموعظة للعالم، ليتذكّروا فيتجنّبوا ما يستوجبون به ذلك.

من قصص القرآن الكريم

الملائكة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

الملائكة مخلوقات عظيمة تسكن السماوات، دائبون في العبادة، ولبعضهم مهمات في الأرض، فمنهم الذين وكّلوا بتبليغ الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام (كما ذكرته الآية الكريمة) ومنهم الحفظة لأعمال العباد **﴿ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد﴾** ومنهم الموكّلون بقبض الأرواح **﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾** ويظهر أنّ عدداً كبيراً منهم موكّلون بأمور لها علاقة تامة بالناس، والآية في الوقت الذي تذكر عدد أجنحتهم **﴿مثنى وثلاث ورباع﴾** تشير إلى ضخامة أجسادهم، فقد ورد أن بعض الملائكة رجلاه في الأرض السفلى ورأسه في السماء السابعة.

وعن ابن عباس: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبرائيل عليه السلام وله ستمائة جناح.

وليس هذا بكثير على الله جلّ جلاله؛ فاتساع العوالم العلوية لا يعلّمها إلّا هو، ونظرة في علم الفلك وما وصل إليه العلماء من اتساع الكواكب والفضاء غير المتناهي تدعم هذه الأحاديث، فالشمس أكبر من الأرض مليون ومائتين وخمسين ألف مرّة، وهناك ملايين الكواكب أكبر من الشمس ولكن بعدها عنّا يجعلنا لا نراها إلّا بهذه الصورة المصغّرة، لأن البعد الذي بيننا وبينها ثلاثمائة ألف سنة ضوئية، والسنة الضوئية...

وهذا وغيره مما يدعو الإنسان للاستقامة، والخوف من جبّار السماوات والأرض العزيز المتعال.

۞

١ - قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١].

هذه السورة المباركة افتتحت أيضاً بذكر الملائكة، وهم أجسام لطيفة نورانية، كاملة في العلم والقدرة على الأفعال الشاقة، مسكنهم السماوات، وشأنهم الطاعات، يسبّحون الليل والنهار لا يفترون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ويصفهم أمير المؤمنين عليه السلام: فهم سجود لا يركعون، وركوع لا ينتصبون، وصافون لا يتزايلون، ومسبّحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، ولا غفلة النسيان. ومنهم أمناء الله على وحيه، والسِنَة إلى رسله، ومختلفون بقضائه وأمره؛ ومنهم الحفظة لأعمال عباده، والسدانة لأبواب جنانه، ومنهم الثابتة في الأرض السفلى أقدامهم، والمارقة في السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم، ناكسة دونه أبصارهم، متلفّعون تحته بأجنحتهم، مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزّة، وأستار القدرة؛ لا يتوهّمون ربّهم بالتصوير، ولا يجرون عليه صفات المصنوعين، ولا يحدّون بالأماكن، ولا يشيرون عليه بالنظائر(١).

ووصفهم عليه السلام في خطبة أخرى فقال: ثم خلق سبحانه لإسكان سماواته، وعمارة الصفيح الأعلى من ملكوته خلقاً بديعاً من ملائكته، ملأ بهم فروج فجاجها وحشابهم فتوق أجوائها، وبين فجوات تلك الفروج زجل المسبِّحين منهم في حظائر القدس، وسترات الحجب، وسرادقات

---

(١) نهج البلاغة ـ الخطبة الأولى.

المجد، ووراء ذلك الرجيج الذي تستك منه الأسماع سبحات نور تردع الأبصار عن بلوغها، فتقف خاسئة على حدودها. أنشأهم على صور مختلفات، وأقدار متفاوتات، أولي أجنحة تسبّح جلال عزّته، لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعته، ولا يدّعون أنهم يخلقون شيئاً مما انفرد به، بل عباد مكرمون ﴿**لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون**﴾ جعلهم فيما هنالك أهل الأمانة على وحيه، وحمّلهم إلى المرسلين ودائع أمره ونهيه، وعصمهم من ريب الشبهات، فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته، وأمدّهم بفوائد المعونة، وأشعر قلوبهم تواضع اخبات السكينة، وفتح لهم مناراً واضحة على أعلام توحيده؛ لم تثقلهم موصرات الآثام، ولم ترتحلهم عقبُ الليالي والأيّام، ولا ترم الشكوك بنوازعها عزيمة إيمانهم، ولم تعترك الظنون على معاقد يقينهم، ولا قدحت قادحة الاحن فيما بينهم، ولا سلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم، وما سكن من عظمته وهيبة جلالته في أثناء صدورهم، ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع برينها على فكرهم؛ منهم من هو في خلق الغمام الدُّلّح، وفي عظم الجبال الشمّخ، وفي قترة الظلام الأبهم، ومنهم خرقت أقدامهم تخوم الأرض السفلى، فهي كرايات بيض قد نفذت في مخارق الهواء، وتحتها ريح هفافة تحبسها على حيث انتهت من الحدود المتناهية؛ قد استفرغتم أشغال عبادته، ووصلت حقائق الإيمان بينهم وبين معرفته، وقطعهم الإتقان به إلى الوله إليه، ولم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره؛ قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الرويّة من محبته، وتمكّنت من سويداء قلوبهم وشيجة خيفته، فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم، ولم ينفذ طول الرغبة إليه مادة تضرّعهم ولا أطلق عنهم عظيم الزلفة رق خشوعهم، ولا يتولّهم الاعجاب فيستكثروا ما سلف منهم، ولا تركت لهم استكانة الاجلال نصيبنا في تعظيم حسناتهم، ولم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم، ولم تغض رغباتهم

فيخالفوا عن رجاء ملكتهم الأشغال فتنقطع بهمس الجؤار إليه أصواتهم، ولم تختلف في مقاوم الطاعة مناكبهم...[1].

نعود للآية الكريمة: ﴿**والصافات صفّا**﴾ إنها الملائكة، تصف أنفسها صفوفاً في السماء كصفوف المؤمنين في الصلاة ﴿**فالزاجات زجرا**﴾ إنها الملائكة تزجر الخلق عن المعاصي زجرا.

يقول أمين الإسلام الطبرسي: يوصل الله مفهومه إلى قلوب العباد كما يوصل مفهوم اغواء الشيطان ليصحّ التكليف.

والدليل على الأثر الملائكي في صرف العباد أنك ترى الكثير من الناس يهم بالمعصية، أو يكاد يقع فيها، ثم يصرفه الله جلّ جلاله عنها بلطفه.

قوله: ﴿**فالتاليات ذكرا**﴾.

الملائكة تقرأ كتب الله سبحانه وتعالى المنزلة على الأنبياء عليهم السلام وفي ختام هذه السورة جاء ذكر الملائكة ﴿**وما منّا إلّا له مقام معلوم**﴾ وهذا قول جبرائيل عليه السلام للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، والمعنى: وما منّا معشر الملائكة ملك إلّا له مقام معلوم في السماوات يعبد الله فيه ﴿**وإنّا لنحن الصافون**﴾ القائمون صفوفاً في الصلاة.

٣ - قوله ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا﴾ [النازعات: ١، ٣].

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وأعطاه العقل، وركّب فيه الشهوة، وجعل العقل حاكماً عليها، متولياً على تصرفاتها، وخلق الحيوان منزوعاً من العقل، لكنّه أعطاه غريزة يعرف بها تدبير أمره، فيتصرّف بما

---

(١) نهج البلاغة: خطبة رقم ٨٨.

ينفعه، فهو يحسن تدبير فراخه، وإعداد قوته، والهرب من عدوّه، وحتّى أنّ بعض الحيوانات تحسن تطبيب نفسها عند المرض، وتستعمل الحمية فيما يؤذيها من الغذاء، وفي كتاب (الحيوان) للجاحظ، وكتاب (حياة الحيوان الكبرى) للدميري، وما اكتشفه العلم الحديث من روائع حياة بعض الحيوانات وتصرّفاتها، يتجلّى الخالق المبدع، الذي أعطى كلّ نفس هداها، وألهمها لتحصيل منافعها، ودفع مضارها.

وخلق سبحانه وتعالى الملائكة، ووهبهم العقل، وجرّدهم من الشهوة، فهم مضافاً لانشغالهم بعبادته جلّ جلاله لهم واجبات أخرى يختص بعضها بالخلائق، وهذه السورة الكريمة تتعرّض لبعض ذلك.

قوله تعالى: ﴿**والنازعات غرقاً**﴾ يعني الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفّار عن أبدانهم بالشدّة، كما يفرق النازع في القوس فيبلغ به غاية المدى ﴿**والناشطات نشطا**﴾ إنها الملائكة، تنشط أرواح الكفار بين الجلد والأظفار حتّى تخرجها من أجوافهم بالكرب والغم ﴿**والسابحات سبحا**﴾ إنّها الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسلّونها سلّا رفيقا ثم يدعونها حتّى تستريح كالسابح بالشيء في الماء يرمي به ﴿**فالسابقات سبقا**﴾ إنّها الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنّة ﴿**فالمدبّرات أمرا**﴾ إنّها الملائكة تدبّر أمر العباد من السنة إلى السنة.

والتفسير الذي ذكرته أورده أمين الإسلام الطبرسي رضوان الله عليه عن أمير المؤمنين عليه السلام الذي يقول: لو ثنيت لي الوسادة لذكرت في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم حمل بعير[1].

وهو القائل: لو كسرت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة

---

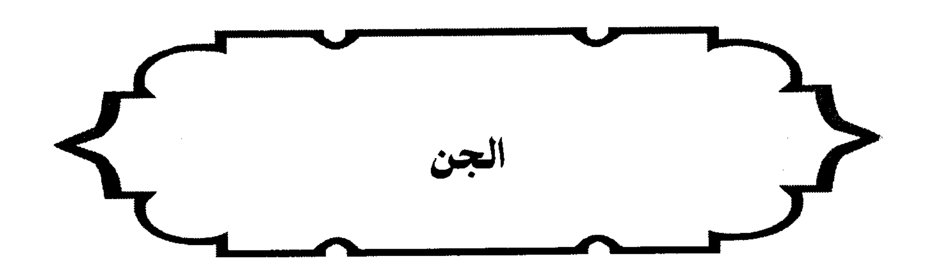
(١) تذكرة الخواص: ٣.

بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم. وما من آية نزلت في كتاب الله أنزلت في سهل أو جبل إلّا وأنا أعلم متى نزلت، وفيمن أنزلت.

بقي أمر يجب فهمه عن العلّة التي أقسم الله سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها.

يقول الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام: إنّ الله يقسم بما شاء من خلقه، وليس لخلقه أن يقسموا إلّا به. والوجه في ذلك: إنّ الله سبحانه يقسم بخلقه للتنبيه على موضع العبرة فيه، لأنّ القسم يدل على عظمة شأن المقسم به، فكأنّه سبحانه أقسم فقال: ورب هذه الأشياء لتبعثن ولتحاسبن.





الجن

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[1] [الأحقاف: ٢٩].

هذه الآيات تفيد أنّ نبيّنا محمداً ﷺ كان مبعوثاً إلى الانس والجن، فهو رسول الله إلى الخلق جميعاً، وخاتم النبيين، وشريعته الباقية إلى قيام يوم الدين، وأنّ الله جلّ جلاله لا يقبل عملًا من أحد على غير دين الإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والجن منهم المؤمنون ومنهم الكافرون ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤].

ذكر المفسّرون وأهل السير أنّ الرسول الأعظم ﷺ كان في بعض أسفاره يصلّي الفجر بموضع يُسمى (بطن نخلة) فاستمع إليه نفر من الجن فآمنوا به، وصاروا دعاة للإسلام.

نعود للآيات: **﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن﴾** الله جلّ جلاله يذكّر نبيّه الكريم ألطافه وعونه له وتسديده، فمن ذلك أن وجّه إليه نفراً من الجن فآمنوا به، وصاروا مبشّرين في صفوف قومهم.

---

(١) قال الطريحي: الجن هم الذين خلاف الإنس، الواحد منهم جنّي، سميّت بذلك لأنها لا تُرى.

قوله: ﴿فلما حضروه قالوا انصتوا﴾ يصف الله جلّ جلاله هذا اللقاء، فهم بعد أن سمعوا كلاماً في غاية السمو والجلال والرفعة، طلب بعضهم من بعض الإنصات والإصغاء كي لا يفوتهم منه شيء، ولأجل أن تتضح لهم معانيه ﴿فلما قُضي ولّوا إلى قومهم منذرين﴾ لقد استجابوا للحق عند اللحظة الأولى، وأكثر من هذا فقد ذهبوا سراعاً إلى مجتمعهم، دعاة إلى الدين الجديد.

قوله: ﴿قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى﴾ أخبروا قومهم بالكتاب والرسول، وأنّ هذا الكتاب منزل من قبل الله جلّ جلاله، وهو مصدّق لكتاب موسى عليه السلام وبحكم نزوله بعده صار ناسخاً لأحكامه.

ثم وصفوا الكتاب ﴿يهدي إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم﴾ إنّ هذا القرآن يدعو إلى الدين الحقّ. ويوصل متّبعيه، والعاملين بأحكامه إلى جنات النعيم.

قوله: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ فأنتم بعد إيمانكم به تحصلون على مغفرة لذنوبكم، وأيضاً ﴿ويجركم من عذاب أليم﴾ ويخلّصكم من عذاب مؤلم ينتظركم إذا أقمتم على كفركم

قوله: ﴿ومن لم يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ المراد بالداعي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومعنى الآية الكريمة: إنّ الذين يُعرضون عن نداء الحقّ، ولا يستجيبون لداعي الرشاد، فإنّهم لا يفوتون الله جلّ جلاله، وما ينتظرهم في الآخرة من العذاب والهوان أعظم بكثير مما يعاجلهم به في الدنيا ﴿أولئك في ضلال مبين﴾ عدول عن الحقّ ظاهر.

واليوم ـ ونحن في عصر العلم ـ والقرآن الكريم يسمعه أهل المشرق والمغرب، وهو يتحدّى الناس على أن يأتوا بسورة من مثله، مع كثرة بلغاء الدنيا وفصحائها، وعجزهم جميعاً عن ذلك حجّة تلزم الناس جميعاً على

الإيمان به، والاستجابة للداعي، وهم عند تخلّفهم وتباطئهم يعرّضون أنفسهم لعذاب دائم لا يزول.

١ - قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

إنّ العوالم التي أبدعها وخلقها الخلاق العليم لا تحصى، من سماوات سبع، وأرضين سبع، وعوالم كثيرة نعرف بعضها ونجهل بعضها الآخر، وكلها مملوءة بمخلوقاته من إنس وجنّ وملائكة وحيوان، ومما لا نحيط به علماً.

والجن: جيل رقاق الأجسام، خفيفة، على صور مخصوصة، بخلاف صور الإنسان والملائكة؛ إنّ الملك مخلوق من النور، والإنسان من الطين، والجن من النار، وسمّوا بالجن لاستتارهم عن العيون، وهم مكلّفون كالإنس بالعقائد والعبادات وهم كما مرّ علينا آنفاً فيهم المطيعون والعاصون، وهذه السورة الكريمة تحمل اسمهم، نستفيد بها بعض أحوالهم.

وجاء دور العلم

إنَّ جميع ما ورد في القرآن الكريم، أو على لسان الرسول الأعظم ﷺ، صدّقه العلم الحديث، وأعلن تأييده له ١٠٠٪، ومن ذلك موضوع الجن.

قال الأستاذ نوفل: إنّ من أهم ما اكتشفه العلم، وتوصّل إليه العلماء في ميادين البحوث العلمية التي تختص بالذرة وطاقاتها ومكوّناتها، وجود عالم غير مرئي تشير إليه الأجهزة العلمية، وتؤكّده القياسات المعمليّة، ولكن لا يعرف العلم عنه شيئاً إلّا القدر اليسير الذي يزيده غموضاً، ويزيد

من جهل الناس به، إذ كل ما وصل إليه العالم أنّ هذا العلم تسكنه مخلوقات غير مرئيّة، تتكوّن من مادة غير المادة التي نعرفها، والتي يتكوّن منها عالمنا المرئي، وأنّ هذه المادة التي يتكوّن منها سكان العالم غير المرئي علاوة على طبيعتها الخاصة التي تجعلها غير مرئية لنا فإنّها ذات حرارة رهيبة لم يمكن بعد معرفة درجتها، وأنّه أمكن في ظروف معيّنة التأكد من اشعاعات وأضواء تعتبر أحد صور الطاقة الحرارية المنبعثة من أجسام هذه المخلوقات.

وقال أيضاً: وهكذا يقرر العلم في السنوات الأخيرة من القرن العشرين، وبعد أن اتسعت دائرة العلوم، وتقدّمت وسائل البحث أنّه يوجد في الكون عالم آخر تسكنه مخلوقات من مادة ذات درجة حرارة مرتفعة، وبذلك فهي مخلوقات من نار، فهل هو عالم الجن الذي ذكره القرآن الكريم.

فمنذ أربعة عشر قرناً من الزمان أورد القرآن الكريم النص الصريح يعلن وجود هذه الكائنات التي خلقت من نار، بل أنّ الآيات الشريفة قد أوردت في لفظ مختصر، وآية قصيرة كلَّ الحقائق العلمية الخاصة بمادة هذه الكائنات، وأوضحت تكوينها وذلك في النص الكريم: **﴿وخلق الجان من مارج من نار﴾**.

والمارج: هو الشعلة الزرقاء التي تنبعث من المادة المشتعلة، وتتميّز بأنها على أعلى درجة من الحرارة، وهي كذلك نار خالية من الدخان، فهي بذلك واضحة، وهذا أدق وصف علمي، وأصدق تعبير عملي يمكن أن يطلق على مادة هذه الكائنات التي يقرر العلم وجودها من مادة ذات درجة حرارة عالية.

وتقول آيات القرآن الكريم عن مادة خلق الجان أيضاً: **﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾**.

ونار السموم: هي الحر الشديد الذي ينتج من الحرارة المرتفعة، وله خاصة النفاذ في كلّ المسام.

وأمّا أنّ هذا العالم بمخلوقاته غير مرئي لنا بطبيعة تكوينه، واختلاف مادته عن المادة التي تستجيب لها حواسنا لنراها كما يقول العلم عنه، فإنّ القرآن الكريم قد قرر هذه الحقيقة وذلك في النص الشريف: **(يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنَّة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم)**.



أصحاب الجنّة

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧].

هذه قصة مهمة من قصص القرآن الكريم، تتجلّى فيها المواعظ والعبر، ومنها نستوحي الدروس الكثيرة لحياتنا العملية.

ذكر المفسّرون أنّ رجلًا صالحاً كان في اليمن، عنده بستان كبير، وكان يساعد الفقراء، ويقدّم لهم من محاصيله الزراعية، وكانت النعم تفيض عليه، وهو يزداد عطاءً وجوداً، وصار جمهور من الفقراء يعتمدون في معاشهم السنوي أو بعضه على معونة هذا المحسن، فهم يحضرون عند أوان القطف، ويأخذون حاجتهم.

مضى الزمن والرجل يعيش في نعمة ورفاه، ويزداد سعادة وسروراً حينما ينظر إلى الذين يتنعمون بنعمته، ويعيشون من ثمار بستانه، وهذه سعادة لا يعرفها إلّا من جرّبها، وأنّها لتفوق كل سعادة ونعيم، فما أعظم السرور الذي يصيب الغني وهو ينظر إلى الفقير يأكل من نعمته، ويتمتع بما ناوله.

قوله تعالى: **﴿إذ أقسموا ليصرمنّها مصبحين﴾** فالأبناء أحياناً لا يرغبون أن يكون آباؤهم من المحسنين إلى الفقراء، المبادرين للباقيات الصالحات، من تأسيس مساجد ومستشفيات وغير ذلك مما ينتفع به الناس، وكأنّ تصوّرهم أنّ ذلك يقلل من حصصهم من ميراث آبائهم، وينسون أنّ لله سبحانه خزائن السماوات والأرض.

ومن أعجب ما ذكره المؤرخون أنّ هشام بن عبد الملك ترك الملايين من الدراهم والدنانير، ولكن أولاده انتهى بهم المطاف إلى الفقر المدقع حتى صاروا يستجدون، بينما عمر بن عبد العزيز لم يخلّف لأولاده شيئاً وعاش أولاده في رفاه معزّزين في عهد الدولة العباسيّة، فالملايين التي جمعها هشام لأولاده من الفقراء وأرزاقهم كانت كالعقارب تنهش فيهم حتّى مزقتهم، وكان السلوك المعتدل لعمر بن عبد العزيز غنى لأبنائه، وحصانة لهم من جور العباسيين.

إنّ أولاد صاحب الجنّة التي نحن في صدد الحديث عنها كانوا يتضايقون من مساعدة أبيهم للفقراء، ولكن لم يكن لهم سبيل إلى منعه، وبعد وفاته رحمه الله صمموا على حرمانهم.

قوله تعالى: ﴿**فطاف عليها طائف من ربِّك وهم نائمون**﴾ للنوايا الحسنة مدخل كبير في زيادة الرزق والسعادة، كذلك للنوايا السيئة أثرها السيء في الفقر والبؤس؛ فهم بعد أن أجمعوا على حرمان الفقراء جاء أمر السماء بإحراق البستان من جذورها ﴿**فأصبحت كالصريم**﴾ كالليل المظلم.

قوله: ﴿**فتنادوا مصبحين**﴾ نادى بعضهم بعضاً وقت الصبح ﴿**أن اغدوا على حرثكم**﴾ بكّروا لصرم بستانكم ﴿**إن كنتم صارمين**﴾ قاطعين ثمار النخل قوله: ﴿**فانطلقوا وهم يتخافتون**﴾ انطلقوا متكتمين في أمرهم حذراً من أن يراهم الفقراء.

إنّ الآية الكريمة تصف ذهابهم للبستان، وكيف كانوا يتكلمون بإخفات حياطة منهم، كان كلامهم وهمسهم ﴿**أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين**﴾.

كان بعضهم يوصي بعضهم الآخر بتنفيذ التصميم على حرمان الفقراء، بل وحتّى منعهم من دخول البستان.

قوله: ﴿**وغدوا على حرد**﴾ على قصد منع الفقراء ﴿**قادرين**﴾ عند أنفسهم، وفي اعتقادهم.

هذا درس للأمة، وأن يتيقّن كل فرد أنّه مهما كان متمتعاً بقوّة ومنعة أنّ فوقه قوّة كبرى يجب عليه أن يخضع لها، ويمتثل أوامرها، وأن يخشى سطوتها وبطشها.

وقوله: ﴿**فلما رأوها قالوا انا لضالون**﴾ لقد فوجئوا بأمر عظيم لم يمر بمخيلتهم، ولشدة دهشتهم اعتقدوا أنهم قد ضلّوا الطريق الموصل إلى جنتهم، لقد تركوها يوم أمس مزدهرة بثمارها المدلية، وقطوفها الدانية، ومياهها الجارية، وهي الآن سوداء مظلمة، وما أسرع ما انتبهوا إلى معالمها، وتبيّن لهم أنّها بستانهم، فصرخوا حينئذٍ ﴿**بل نحن محرومون**﴾ إنّها بستاننا ولكنّا حرمنا خيرها لمنعنا حقوق الفقراء.

قوله: ﴿**قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبّحون**﴾ المراد بالأوسط الأفضل والأعقل، إنّه ذكّرهم بما طلب منهم حينما أجمعوا على أن يصرموها غداً، بأن يذكروا الله تعالى، وما أولاهم من نعمه، وما يلزمهم من شكرها.

قوله: ﴿**قالوا سبحان ربّنا إنا كنّا ظالمين**﴾ والإنسان معرَّض للخطأ، وترك خط الاستقامة، واتباع خطوات الشيطان، هذه حقيقة لا تقبل الجدل، ولكن المطلوب منه أن يرعوي سريعاً، ويعود لنهج الله تعالى، ويترك الإصرار على ركوب الضلال وهذا ما نجده في سيرة هؤلاء الشباب، فهم بعد أن شاهدوا ما حلّ ببستانهم اعترفوا بذنبهم ﴿**قالوا سبحان ربّنا إنّا كنّا ظالمين**﴾ في عزمهم على حرمان المساكين من حصتهم عند القطاف، فحرموا الثمرة كلها، والمعنى: أنّ الله سبحانه منزّه عن الظلم، وإنّما نحن ظلمنا أنفسنا.

قوله: ﴿**فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون**﴾ صار كلٌ منهم يلوم الآخر، وينسب له هذا التدبير الذي رجع عليهم بالخيبة والحرمان، وكأنّ هذا اللائم يقول لاخوانه: إنّ هذا البستان تنعّم به أبونا دهراً طويلاً وفي كل سنة يزداد عطاءً وثماراً لأنّ أبانا كان يناول منه الفقراء و المعوزين، فلما صممنا على التخلي عن نهجه نزل بنا ما قد ترون ويجيبون أخاهم: ﴿**قالوا يا ولينا إنّا كنا ظالمين**﴾ قد تجاوزنا طريق الحق، وتركنا نهج السماء.

قوله: ﴿**عسى ربّنا أن يبدلنا خيراً منها**﴾.

لقد اعترفوا بخطئهم، فكلامهم ينبىء عن توبتهم ورجوعهم إلى طريق الهدى والصواب، وأيضاً تراهم وكلهم أمل بالرؤوف الرحيم، وأن يبدّل ضرّاءهم بالسراء، وشدتهم بالفرج، وشقاءهم بالسعادة ﴿**إنّا إلى ربّنا راغبون**﴾ تائبون عاملون بنهجه، مسرعون إلى طاعته، مجتنبون ما يسخطه.
قوله: ﴿**كذلك العذاب**﴾ ومن لطف الله سبحانه على العباد أن جعل لهم في الدنيا شبهاً لما في الآخرة ـ وإن كان التفاوت بينهما عظيماً ـ فنعيم الآخرة لا يوصف بنعيم الدنيا وإن عظم، ونار الآخرة لا يمكن مقارنتها بنيران الدنيا أبداً، ولكن هذا الشبه النسبي يدعو إلى التعقّل والتفكّر في العواقب، ويدفع الإنسان إلى الاستقامة.

فالله جلّ جلاله بعد أن حكى قصة أهل الجنة ختمها بقوله ﴿**كذلك العذاب**﴾ في الدنيا، والتنكيل بالعصاة، ثم جاء التهديد ﴿**ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعقلون**﴾ فينبغي للبشر أن يأخذوا العبر والدروس من هذه القصة، ويحذروا قدرة الله عز وجل وعقابه في الآخرة.

عطاء الله جل جلاله

قال رسول الله ﷺ: إنّ الله تعالى أفرح بتوبة العبد منه لنفسه، وقد قال الله: ﴿**إنّ الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين**﴾.

ومن حبّه سبحانه وتعالى للتائبين أن يعود عليهم بنعمه وافضاله، وقد حصل لهؤلاء الشباب ما لم يكن بحسبانهم لما أضمروا التوبة، والرجوع إلى سيرة والدهم في اخراج حقوق الفقراء ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١] أتدري ما حصل لهم؟.

لقد أثمرت جنتهم الجديدة بشكلٍ مدهش للغاية، ووصفوا ثمرها: فيها عنب يحمل البغل منها عنقوداً، وقال أبو خالد: رأيت تلك الجنّة، ورأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم[1] وليس هذا على الله سبحانه بكثير.



(١) مجمع البيان: ٩ - ٣٣٧/١٠.



قصة البقرة

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةًۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

اعلم ـ رعاك الله ـ أنّ أطول سورة في القرآن الكريم هي سورة البقرة، عدد آياتها ٢٨٦، وهي أكثر من جزئين منه، والسورة الكريمة ليست بأجمعها في القصة، وإنّما بعضها، وقد يسمّى الكل باسم الجزء.

والقصة كما ذكرها أهل التفسير والسير: كان شاب في بني اسرائيل يملك لؤلؤتين، وقد أودعهما عند أبيه، والأب وضعهما في صندوق يحتفظ دائماً بمفتاحه عنده، وجاء تجار اللؤلؤ، وكان من عادتهم أن يأتوا في كل عام مرّة، وقد اشتروا اللؤلؤ الموجود في البلد، ووصف لهم الشاب اللؤلؤتين، واتفق معهم على مبلغ معيّن، وذهب إلى البيت ليأتي بهما فوجد أباه نائماً، فوقف يخيّر نفسه في إيقاظه ليأخذ اللؤلؤتين أو يتركه نائماً وإن فاتته الصفقة ففضل راحة والده، فخرج من البيت إلى التجار وأخبرهم حقيقة الأمر، وعجب التجار بالشاب وأدبه، فضاعفوا له الثمن على أن يذهب ويأتيهم سريعاً باللؤلؤتين؛ ذهب الشاب ولكنّه وجد أباه لا يزال نائماً، وترجّح عنده إبقاءه على نومه وإن خسر المشتري، وعاد وأخبرهم، فزاد اعجاب التجار به، فضاعفوا الثمن مرّة أخرى، فرجع فوجد أباه لم يستيقظ بعد، فرجع إليهم وقد حان وقت سفرهم فذهبوا، وعاد إلى البيت

فوجد أباه قد استيقظ، وابتدأه أبوه سائلًا: بني تأخر في هذه السنة تجار اللؤلؤ؟.

فحكى له ما حصل له، فقال له: بني إنّك صنعت معروفاً، وأسأل الله تعالى أن يثيبك على ذلك، وأنا أملك من الدنيا بقرة أقدّمها لك، وأسأل الله تعالى أن يبارك لك فيها.

ومضت أيّام وإذا بأحد أثرياء البلد يصبح مقتولًا، ملقى على باب أحد أسباط[1] بني اسرائيل، وأصبحت المشكلة مشكلتين؛ قتل رجل وجيه من أرباب الأموال، واتهام السبط بقتله، وفزع الناس إلى نبيِّ الله موسى بن عمران عليه السلام، فالبشرية من عادتهم عندما تلم بهم ملمّة، أو تنزل بهم نائبة يفزعون إلى الله ورسله.

أمرهم موسى عليه السلام بذبح بقرة وإلقاء القتيل عليها، وأنّ الله جلّ جلاله سوف يُحييه فيخبرهم بمن قتله ﴿**إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرةً**﴾.

ولكن الطغيان والكبرياء واللامبالاة دفعهم بأن يجابهوه: ﴿**أتتخذنا هزواً**﴾ هذه الجنازة لا تزال مسجّاة، ونسألك عن القاتل، فتقول: اذبحوا بقرة وألقوه عليها!!.

وأجابهم عليه السلام: ﴿**أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين**﴾ ما أمرتكم إلّا بما أمرني به ربّي.

قالوا وهم في كبريائهم وعتوّهم: ﴿**ادع ربّك يبيّن لنا ما هي**﴾ وأجابهم: ﴿**إنه يقول إنّها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون**﴾ إنّها ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة. وطلبوا منه مرّة ثالثة: ﴿**ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما لونها**﴾.

---

(١) السبط هو ابن بنت النبي، ولذا قيل للحسن والحسين عليهما السلام: سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأجابهم: **﴿انه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين﴾** إنها شديدة الصفرة.

ثم عادوا بالسؤال: **﴿قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما هي إنّ البقر تشابه علينا وإنّا إن شاء الله لمهتدون﴾**.

وأجابهم: **﴿إنّه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لاشية فيها﴾** إنّها غير مذللة بعمل الحراثة ولا مستعملة في سقي الزرع، وسالمة لا عوار فيها، ولا لون فيها غير لونها.

وفتّشوا عن بقرة بهذه الصفات فلم يجدوا غير بقرة الشاب، وسألوهُ أن يبيعها، فقال: حتّى أشاور أبي وعيّن أبوه الثمن وأمره أن لا ينقص منه درهماً واحداً، قال: اطلب منهم أن يذبحوها ويملأوا جلدها ذهباً.

رجع الشاب فأخبرهم، فترددوا أوّل الأمر، لأنّ بقرة قيمتها دراهم قليلة يطلب بها الملايين، ولكنهم أخيراً اشتروها بالثمن المطلوب، ملأوا جلدها ذهباً ودفعوه للشاب، وطرحوا قتيلهم عليها، فأحياه الله جلّ جلاله فأخبرهم أن ابن أخيه هو الذي قتله وألقاه بهذا المكان، والسبب: أنّه خطب منه ابنته فأبى أن يزوّجها منه، فصبر منتظراً موته ليتزوّج بها، ولكن حدث ما ليس بالحسبان، فقد تقدّم للبنت رجل مؤمن ووافق الأب على تزويجها منه، فاعتمل الغيظ بالرجل حتى قتل عمه، وجاء مطالباً بدمه.

دروس وعبر

في كلّ قصة من قصص القرآن الكريم نجد الدروس النافعة لحياتنا العملية، والعظات التي نبلغ بها سعادة الدنيا والآخرة.

إنّ أوّل ما نستفيده من هذه القصة أهمية طاعة الوالدين، وأنّها توصل المطيع إلى سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

جاء في أحاديث الصادقين صلوات الله عليهم:

١ - قال الإمام الصادق عليه السلام: بينما موسى بن عمران عليه السلام يناجي ربّه تعالى إذ رأى رجلًا تحت ظل عرش الله، فقال: يا رب من هذا الذي قد أظلّه عرشك؟.

فقال: هذا كان بارّاً بوالديه، ولم يمش بالنميمة(١).

١ - جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله إنّي راغب في الجهاد.

قال: فجاهد في سبيل الله، فإنّك إن تقتل كنت حيّاً عند الله ترزق، وإن متّ فقد وقع أجرك على الله، وإن رجعت رجعت من الذنوب كما ولدت. قال: يا رسول الله إنّ لي والدين كبيرين يزعمان أنّهما يأنسان بي، ويكرهان خروجي.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أقم مع والديك، فوالذي نفسي بيده لأنسهما بك يوماً وليلة خير من جهاد سنة(٢).

٣ - قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما من رجل ينظر إلى والديه نظر رحمة إلّا كتب الله له بكل نظرة حجة مبرورة.

قيل: يا رسول الله وإن نظر إليهما في اليوم مائة نظرة؟.

قال: وإن نظر إليهما في اليوم مائة ألف مرّة(٣).

٤ - قال الإمام الصادق عليه السلام: بر الوالدين من حسن معرفة العبد بالله، إذ لا عبادة أسرع بلوغاً لصاحبها إلى رضا الله من بر الوالدين المؤمنين لوجه الله(٤).

---

(١) روضة الواعظين: ٢/ ٤٠٢.
(٢) روضة الواعظين: ٢/ ٣٦٨.
(٣) حقوق الوالدين: ٧.
(٤) أصول الكافي: ٣٩٠

قال رسول الله ﷺ: من برّ والديه زاد الله في عمره[1].

وجاء في عقوق الوالدين:

١ - لا تقطع ودّ أبيك فيطفأ نورك[2].

١ - قال الإمام الصادق عليه السلام: إذا كان يوم القيامة كشف غطاء من أغطية الجنّة فوجد ريحها من كانت له روح من مسيرة خمسمائة عام، إلّا صنف واحد.

قيل: من هم؟.

قال: العاق لوالديه[3].

ونستفيد من هذه القصّة كذلك: إنّ الابتعاد عن نهج السماء، ومخالفة أوامر الله جلّ جلاله تجعل العبد يخسر الدنيا والآخرة؛ إن القاتل خسر الدنيا لأنه قتل، وخسر الجنّة وناهيك بها خسارة لا تعوّض.

وهذا شأن جميع المجرمين.



(١) حقوق الوالدين: ٦.
(٢) النوادر: ١٠.
(٣) أصول الكافي: ٣٦٩.

محتويات الكتاب


بسم الله الرحمن الرحيم